بنية الخطاب في القرآن الكريم
التكوين والأسلوب

دكتور دسوقي إبراهيم

الأستاذ المساعد بكلية العلوم الإسلامية

جامعة أتاتورك وجامعة بايبورت

تركيا – سابقًا

الجزء الأول

﴿خطاب الله سبحانه وتعالى عن نفسه﴾

الكتاب الثاني

الخطاب بدالي (رب -إله)

2024

بنية الخطاب في القرآن الكريم

التكوين والأسلوب

الجزء الثاني

د. دسوقي إبراهيم

KINZY PUBLISHING AGENCY

Kinzypa.com

info@kinzypa.com

201122811065+
201122811064+

بنية الخطاب في القرآن الكريم

التكوين والأسلوب

د. دسوقي إبراهيم

تصميم الغلاف
فريق

Kinzy Publishing Agency

- الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرـــورة عن توجه الدار، بل تعبر عن رأي المؤلف في المقام الأول.
- حقوق الطبع والنشرــ لهذا المصـــنف محفوظة للمؤلف، ولا يجوز بأي صورة إعادة النشرـ الكلي أو الجزئي، أو نسخه، أو تصويره، أو ترجمته أو الاقتباس منه، أو تحويله رقمياً، أو إتاحته عبر شـــبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف.

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

(البقرة: 23)

الإِهْدَاءُ

إِلَى رُوحِ مَنْ لَمْ تَرَهُ عَيْنِي

إِلَى سَبَبِ وجُودِي فِي الحَيَاةِ

إِلَى رُوحِ وَالِدِي الغَالِي

تقديم

بعد أن انتهينا من الكتاب الأول بفضل (الله) عز وجل {خطاب (الله) سبحانه وتعالى عن نفسه باسم الجلالة (الله)، كان لزامًا علينا أن نشرع في الكتاب الثاني {خطاب (الله) سبحانه وتعالى عن نفسه بدالي (رب – إله) }، داعين (الله) سبحانه وتعالى التوفيق والقبول.

فإن قيل: ما فائدة ذلك؛ إذا الإعجاز القرآني يتعلق بالسياقات التي تستدعي أن يرد اسم الجلالة (الله)، أو أن يرد دال (رب) أو (إله)؟ قلتُ: صحيح أن الإعجاز يتعلق بذلك، وصحيح كذلك أن إعجاز القرآن ثابت من جميع الجوانب، وصحيح أيضًا أن كل من أوتي فطرة سليمة، لا يداخله الشك في الإعجاز القرآني، سواء أكان من المتخصصين أم من غيرهم. لكن: هل يعني التسليم بهذه الحقيقة–الإعجاز القرآني– أن ننصرف عن بيان هذا الإعجاز أو إظهار قسماته، أو الكشف عنه، ونكتفي بالعموم؟

لو اكتفى علماؤنا الأفاضل الإجلاء بمعرفة هذه الحقيقة، ما ورَّثونا شيئًا من ذلك النبع الصافي. ألم يكن ابن المثنى– وهو أول من شرع في التأليف في الإعجاز القرآني – يعلم حقيقة هذا، كما أنه يعلم أن كل من شهد بعث الحبيب محمد ﷺ ونزول القرآن الكريم، يؤمن بإعجاز القرآن، بدليل التحدي الذي ورد فيه. واقرأ معي قول (الله) سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة: 23)، وقول (الله) سبحانه وتعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (يونس: 38)، وقوله تباركت أسماؤه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (هود: 13)؟ بلى كان يعلم كل هذا.

لكن يكمن الاختلاف في أن علم العرب – مسلمهم وكافرهم - بهذا كان عن يقين ومعرفة ودراية؛ إذ هم أهل اللغة، وأرباب الفصاحة، وفرسان البيان. فلما تباعد الزمان، وانتشر الإسلام هنا وهناك، ودخل الناس في دين (الله) أفواجًا، عرب وغير عرب، غدت هذه الحقيقة، وهذا التسليم من قبيل اعتقاد المؤمن، هذا الاعتقاد المؤسَّس على أن القرآن الكريم هو كتاب(الله) عز وجل، وأنه معجز.

وهنا انبرى علماؤنا الأفاضل في الكشف عن مناط الإعجاز، ليخرج من حيز الاعتقاد الثابت فحسب إلى حيز المعرفة اليقينية، بمثول قسمات هذا الإعجاز أمام أعين الجميع. ومن هذه اللحظة، انهال علينا تراث لا يمكن لأمة من الأمم أن تُورِّثَ أبناءها مثله أبدًا على مر التاريخ البشري. وما زال – وسيزال - العطاء مستمرًا. ومن ثم كانت مشروعية هذه الدراسة.

أسوق لك مثالًا للتوضيح: إن البترول كامن في الأرض، وكذلك المعادن وبعض العناصر المهمة. هذه حقيقة معروفة. لكن هل تكفي معرفتها دون إخراج هذه النعم من باطن الأرض والانتفاع بها؟ طبعًا لا. ألم تحتل كلية هندسة البترول أعلى مكانة في جميع كليات الهندسة في التخصصات المختلفة، رغم أن مهندس البترول لم يُوجِد البترول في باطن الأرض!!!!.

إذا تأملت في تخصصات الهندسة المتعددة، ربما تجد أن بعض التخصصات غير البترول، تكون من الصعوبة بمكان، فهندسة المعمار(المدني) وهندسة الكهرباء مثلًا، ربما يبذل فيها المهندس جهودًا مضنية في عمله بها، فضلًا عن خطورة الإخطاء الناجمة عنها، إن لم يتقنها المتخصص. ومع كل هذا تجد أن هندسة البترول هي الأولى في كليات الهندسة. فإن قيل: لماذا؟ قلنا لأهمية البترول في حياة الشعوب والدول.

فكما لم يُوجِد مهندس البترول البترولَ في باطن الأرض، وإنما تكمن مهمته في الكشف عن هذا البترول واستخراجه، كذلك لم يُوجِد البلاغي الإعجاز داخل القرآن الكريم، وإنما تتمثل مهمته في الكشف عن قسمات هذا الإعجاز، وإيضاح

جوانبه، وتجليه، وإخراجه على السطح؛ لإدراكه، وتأمل قدرة (الله) عز وجل في هذا الإعجاز الباهر المبهر.

فإن قيل: ألم يكن في الإمكان أن تضع دالي (رب – إله) في الكتاب الأول بجوار اسم الجلالة (الله)؟ قلتُ: منعني من ذلك أمور ثلاثة: **الأول** رغبتي في أن ينفرد اسم الجلالة (الله) بكتاب مستقل؛ اتساقًا مع تفرده في كل شيء. **الثاني** أنه لما كان هذا التفرد من الغنى والثراء اللغوي بمكان في عملية الدراسة والتحليل، حاز الكتاب الأول على خمسمائة وإحدى عشرة صحيفة. ومن ثم لم أُرِدْ أن أثقل على القارئ بضم دالي (رب- إله) في كتاب واحد. **الأخير** خوفي من الاقتضاب والاختصار لكون دراسة خطاب(الله)سبحانه وتعالى عن نفسه بثلاث دوال ترد في كتاب واحد. فأردت أن أعطي الدراسة حقها من الإيضاح والإتقان؛ فكان التقسيم إلى كتابين.

وكما ورد الكتاب الأول معتمدًا على القالب النحوي، ورد هذا الكتاب كذلك، فجاء دالا (رب–إله) في المناطق النحوية المتعددة، حسبما وردا في القرآن الكريم. ومن هنا فقد تتوافق هذه المناطق والرتب النحوية مع ما ورد في الكتاب الأول أو قد تختلف؛ لذا أُسِّسَ هذا الكتاب على الفصلين نفسيهما، إضافة إلى التمهيد.

وقبل مغادرة هذا التقديم، أحب أن أشير إلى نقطة مهمة، تتمثل في أنه أحيانًا أعيد القاعدة النحوية للتأصيل النحوي؛ كي لا أحوج القارئ المتلقي للعودة إلى الجزء الأول؛ لسهولة الإلمام بالجانب الإعجازي محل الدراسة.

وفي نهاية هذا التقديم أدعو(الله) سبحانه أن يمدني في هذا الكتاب بمدده العظيم، ويوفقني في أن يخرج على الوجه الذي يرضى به عني، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

د. دسوقي إبراهيم

التمهيد

أولًا: (رب – إله) المفهوم: المعجمي – الدلالي

ثانيًا: (رب – إله) المفهوم السيميولوجي

أولا: (رب – إله) المفهوم: المعجمي - الدلالي

كدأبنا في كل الدراسات التي نقدمها، لابد من الوقوف - أولًا - على الدلالة المعجمية للعلامة اللغوية التي نتصدى لدراستها. ومن هنا أردنا أن نقف – أولًا – على المعنى المعجمي لكلا الدالين (رب – إله)؛ لكون هذا الوقوف يمثل الأساس الذي ستبنى عليه عملية التحليل، والوقوف على النواحي الإعجازية داخل هذه الدراسة.

وإذا بدأنا بدال (رب) وجدنا أن من معاني (الربّ): المصلح للشيء، والله جل ثناؤه الرب؛ لأنه مصلح أحوال خلقه ([1]).

ومن معانيه كذلك: (مالك الشيء وصاحبه)، وقيل في قوله تعالى: ﴿يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾ (الفجر: 27، 28) إن معنى (ربك) يعني صاحبك ([2]).

ومن هذه المعاني كذلك: (السيد أو المولى)، وهو ما قال به الزجاج في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (يوسف: 23) في معنى (ربي) ([3]).

ولا تطلق كلمة (رب) غير المضافة إلا على (الله) سبحانه وتعالى، فإذا أُطْلِقَتْ على غيره أُضِيفَتْ، فنقول رب المنزل، أو رب الأسرة. كما أن لفظ (رب) المعرف ب(ال) (الرب)، لا يُطلق إلا على(الله) سبحانه. ولا يقال: الربُّ في غير الله إلا بالإضافة ([4]).

وفي الجاهلية أُطلق دال(رب)المعرف ب(أل)على المِلك. يقول الحارث بن حلزة:([5])

([1]) انظر: أحمد بن فارس (395هـ) ، معجم مقاييس اللغة ، تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1393هـ–1979م ، الجزء الثاني ، مادة (ربب): 382 .

([2]) انظر: ابن منظور ، لسان العرب: مادة (ربب) .

([3]) انظر: السابق : المادة نفسها .

([4]) لكن يأتي دال (رب) مضافًا ، ويراد به (الله) سبحانه وتعالى: رب العالمين ، رب الناس ، رب موسى وهارون..إلخ.

([5]) انظر: ديوان الحارث بن حلزة ، جمع وتحقيق وشرح الدكتور إميل بديع يعقوب ، دار الكتاب العربي ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى 1411هـ – 1991م: 29 .

وَهُو الرَّبُ والشَّهيدُ عَلَى يَوْ مِ الحِيارَيْنِ والبَلَاءُ بَلَاءُ

ويطلق(الرَّبُّ) في اللغة على المالِكِ، والسَّيِّدِ، والمدبِّرِ، والمربِّي، والقَيِّمِ والمنْعِمِ ([1]). والرب في الأصل: التربية، وهو إنشاء الشيء حالًا فحالًا إلى حد التمام، يقال: رَبَّهُ، وَرَبَّاهُ وَرَبَّبَهُ. وقيل (لأن يُرَبِّنِي رَجُلٌ من قريش أحبُّ إليَّ من أن يُرَبِّنِي رَجُلٌ من هوازن). فالربُّ مصدر مستعار للفاعل ([2]).

ويقول المودودي:"مادة كلمة(الرب): الراء والباء المضعفة، ومعناها الأصلي الأساسي: التربية، ثم تتشعب عنه معاني التصرف والتعهد والاستصلاح والإتمام والتكميل، ومن ذلك كله تنشأ في الكلمة معاني العلو والرئاسة والتملك والسيادة " ([3]).

وإذا عدنا للشعر الجاهلي ألفينا أن دال (رب) يرد وصفًا (لله) سبحانه وتعالى. وهنا يقول الدكتور عودة خليل:"ومعنى كلمة رب هذا الذي تَحَدَّدَ في خيال الناس وذاكرتهم بصورة عامة، استعمل في الشعر الجاهلي على الجهة التي كانوا يتصورون أنها هي المالكة والمتصرفة في شؤون الناس، وهي الخالقة والمنشئة لكل شيء، وهو (الله) عز وجل. فصارت كلمة رب إذن تُطْلَقَ وصفًا (لله) عز وجل. يقول مهلهل بن ربيعة: ([4])

قَتَلُوا كُليبًا ثُمَّ قالوا أَرْبِعُوا كَذَبُوا وربِّ الحلِّ والإِحْرَامِ

وليس ذلك فحسب، بل وردت كلمة (رب) في الشعر الجاهلي بمعنى (الله) سبحانه وتعالى. وهنا يقول شحنة بن خلف الجرهمي - وكان يتمسك بدين الحنيفية - مخاطبًا عمرو بن لحي أمير مكة عندما أكثر عمرو من إقامة الأوثان عند الكعبة:

([1]) انظر: ابن منظور ، لسان العرب ، مادة ربب .

([2]) انظر: الأصفهاني ، مفردات ألفاظ القرآن: 336 .

([3])انظر: المصطلحات الأربعة في القرآن: 34 .وانظر:خليل أبو عودة ، التطور الدلالي:121– 127 .

([4]) انظر: ديوان مهلهل بن ربيعة ، شرح وتقديم طلال حرب ، الدار العالمية ، بدون تاريخ: 78.

يا عمرو أنك قد أحدثت آلهة شتى بمكة حـول البيت أنصابا
وكـان للبيت رب واحـد أبـدًا فقد جعلت لـه في الناس أربابا
لتعرفــن بـأن الله فـــي مهل سيصطفي دونكم للبيت حجابا([1])

ويجمل الدكتور عودة تناوله لدال (رب) في قوله: " نتبين من العرض السابق لمعاني كلمة (الرب) في الجاهلية وفي القرآن الكريم أن أيّا من مظاهر التطور لم يصب هذه الكلمة. فمعانيها في القرآن هي معانيها في الاستعمال الجاهلي. وأعتقد أن هذه المعاني نفسها هي التي لا تزال شائعة في الناس" ([2]).

وجدير بالذكر أن دال (رب) إذا ورد بصيغة الجمع يرد وصفًا لغير (الله) سبحانه وتعالى، بل للمعبودات الأخرى. يقول مولانا عز وجل:﴿ يَاصَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (يوسف: 39).

أما دال **(إله)** فهو من (أَلِه) والهمزة واللام والهاء أصل واحد، وهو التعبُّد. فالإله (الله) تعالى، وسُمِّيَ بذلك؛ لأنه معبود. ويقال: تألّه الرجل، إذا تعبّد ([3]).

ويقول ابن منظور:" الإله: (الله) عز وجل، وكل ما اتُّخِذَ مِنْ دونه معبودًا إله عند مُتَّخِذِهِ. والجمع آلهة "([4]).

وفي المعنى العقائدي لدال (إله) يقول ابن تيمية: " وليس المراد ب(الإله) هو القادر على الاختراع كما ظنه من ظنه من أئمة المتكلمين، حيث ظن أن الإلهية هي القدرة على الاختراع، وأن من أقر بأن (الله) هو القادر على الاختراع دون غيره فقد شهد أنه لا إله إلا هو، فإن المشركين كانوا يقرون بهذا وهم مشركون، بل (الإله) الحق هو الذي يستحق أن يُعْبَدَ فهو إله بمعنى مألوه " ([5]).

([1]) انظر: عودة خليل أبو عودة ، التطور الدلالي: 125 .
([2]) انظر: عودة خليل ، التطور الدلالي: 127 .
([3]) انظر: ابن فارس ، مقاييس اللغة ، الجزء الأول: 127 .
([4]) انظر: لسان العرب ، مادة (أله) .
([5]) انظر: التدمرية: 185 ، 186 .

وفي دال (إله) يقول الكفوي:"والحاصل أن الإله اسم لمفهوم كلي هو المعبود بحق، والله علم لذات معين هو المعبود بحق. وبهذا الاعتبار كان قولنا (لا إله إلا الله كلمة توحيد)؛ أي: لا معبود بحق إلا ذلك الواحد الحق " ([1]).

أما المعاني التي تندرج تحت دال (إله) بوصفه المعبود، فمنها: قضاء الحاجة، والإجارة، والتهدئة، والتعالي، والهيمنة، وتملك القوى التي يُرْجَى بها أن يكون المعبود قاضيًا للحاجات، مُجيرًا في النوازل، وأن يكون متواريًا عن الأنظار، يكاد يكون سرًا من الأسرار لا يدركه الناس، وأن يفزع إليه الإنسان وأن يولع به"([2]).

ويمكن أن نفهم من هذا العرض السابق لمفهوم دال (إله) أنه يعني في المجمل المعبود سواء أكان ذلك في إطلاقه على (الله) سبحانه وتعالى بوصفه وصفًا له، أم على غيره من المعبودات الأخرى. بيد أنه عندما يرد مع (الله) سبحانه وتعالى يعني لا معبود بحق إلا (الله) جل في علاه.

ومن هذا المنطلق، فإن ثمة خلافًا بين دال (إله) واسم الجلالة (الله)؛ ففضلًا عن مجيء دال (إله) وصفًا (لله) عز وجل، يرد في القرآن مثنى وجمعًا. يقول (الله) تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ **إِلَهَيْنِ** مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ (المائدة: 116). وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا **إِلَهَيْنِ** اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ (النحل:51).

وفي الجمع يرد قول مولانا عز وجل: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ﴾ (الأنبياء:21). وقد وردت الصيغة الجمع هذه تسع عشرة مرة في القرآن الكريم.

ومن هذا الاختلاف كذلك، ورود دال (إله) واسم الجلالة (الله) في الشعر الجاهلي. أي في مرحلة شعرية واحدة. يقول النابغة الذبياني مادحًا النعمان: ([3])

([1]) انظر: الكليات ، مادة (أله): 172 .

([2]) انظر: أبي الأعلى المودودي ، المصطلحات الأربعة في القرآن الكريم: 15 .

([3]) انظر: ديوان النابغة الذبياني: 7. وأعتقد أن دال (الإله) هنا يعني المعبود .

فتلك تُبْلغني النعمـانَ، إنَّ لهُ فَضْلًا عَلَى النَّاسِ فِي الأَدْنَى، وفي البَعَدِ
ولا أَرَى فَاعِلًا فِي النَّاسِ يُشْبِهَهُ ولا أُحَاشِـي مِـنَ الأَقْـوَامِ مِـنْ أَحَدِ
إلا سليمانَ إِذْ قَـالَ **الإلـهُ** لَـهُ قُمْ فـِي البَرِيَّةِ فَـاحدُدها عَـنِ الفَنَدِ

ويقول عامر بن الطفيل مخاطبًا فرسه في إحدى المعارك: ([1])

أَلَسْتَ تَرَى أَرْمَاحَهُمْ فِيَّ شُرَّعا وَأَنْتَ حِصَانٌ مَاجِدُ العِرْقِ فَاصْبِرِ
أَرَدْتُ لِكَيْمَا يَعْلَمَ **اللهُ** أَنَّـنِي صَبَرْتُ وَأَخْشَى مِثْلَ يَـوْمِ المشَقَّرِ

ثانيًا: (رب –إله) المفهوم السيميولوجي

وبعد هذا العرض المعجمي الدلالي لدالي (رب- إله)، نحاول عرضهما من خلال الجانب السيميولجي. إن أخطر ما يواجهنا في هذا الجانب السيميولوجي هو العلاقة بين العلامة اللغوية والمشار إليه، كما ورد عند الفيلسوف الأميركي تشارلز بيرس، وكل من أوجدن وريتشاردز. وهذا العنصر ذاته غير موجود في تعريف فردينان دي سوسور للعلامة اللغوية.

ولما كان من سمة دالي (رب – إله) انتماؤهما إلى عالم الغيب، عند إطلاقهما على (الله) جل في علاه، ووصفهما بالاستتار وتواريهما عن الأنظار، لا يدركهما الناس – كما ورد عند المودودي - كان المشار إليه لا يتمثل في الذات الموصوفة بهما وهو (الله) جل في علاه، وإنما في آثار تجلي صفات الذات على العباد.

هذا الطرح دفع القاضي عبد الجبار للقول:"وقال شيخنا أبو هاشم:إذا ثبت أنه يحسن من العاقل أن يشير إلى ما عَلِمَهُ لِيُعْرَفَ بِهِ حَالُه، لم يمتنع أن يُعَبَّرَ عنه ببعض الأسماء لِيَعْرِفَ غَيْرُهُ حَالَه. قال: ويدل على ذلك أن هذه الأسماء إنما احتيج إليها ليقع بها التعريف ويصح بها الإخبار عند غيبة المسميات؛لأن الإشارة تتعذر إليه/ والحال هذه، فأقيم الاسم عند ذلك مقام الإشارة عند الحضور. فكما تحسن

([1])انظر:الديوان:62.والمشقر:هي مدينة هجر، ويوم مشقر اليوم الذي فتك فيه كسرى بأهل المدينة.

الإشارة إذا حضر المشار إليه لوقوع الفائدة به للمشير والمشار إليه، فكذلك يحسن الاسم لهذا الغرض عند غيبة المسمى، أو لكون المسمى مما لا يظهر للحواس؛لأن ذلك في أن الإشارة لا تصح إليه على كل وجه بمنزلة المشاهد إذا غاب"([1]).

ووفق هذا، يمكن أن نفهم هذه الآية: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (لقمان: 11)، وكذلك قوله تعالى: ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (الروم:50). في هذا الإطار: آثار تجليات الذات العليا سبحانه وتعالى.

ولما كانت هذه الآثار من المحسوسات، وفق المنهج الذي يتراءى لأصحاب الماديات، ورد التعجب من عدم الاتعاظ والتدبر والتأمل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (يوسف:109). ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (الحج: 46). ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ (غافر: 82 – 85).

ومن هنا يمكن القول: إن المشار إليه في العلامة اللغوية لدالي (رب – إله) في حالة إطلاقهما على (الله) سبحانه وتعالى يتمثل في سمات الربوبية التي يحيا في آثارها العبد من رزق، ورحمة، ومغفرة للذنوب، وقبول التوبة...إلخ. كما تتجلى في سمات

([1]) انظر: المغني ، الجزء الخامس : 174 ، 175 .

الألوهية على العابد من المعبود الحق في تحريره من عبودية غير (الله)، والفوز بنعيمي الدنيا والآخرة.

أما في حالة إطلاق هذين الدالين (رب – إله) على غير (الله) سبحانه وتعالى، فإن علاقة المشار إليه تتمثل في الواقع من خلال الأرباب أو الإلهة التي تُعبدُ من دون (الله) جل وعلا. وربما دفعت هذه الإشارة المادية في علاقة العلامة اللغوية بالواقع – المشار إليه – السامري أن يصنع عجلًا ليعبده اليهود: ﴿ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ * فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ * أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ (طه: 87 – 89).

وفيما يخص دال (رب)، ينبغي التعرف على توحيد الربوبية. وتوحيد الربوبية: هو إفراد (الله) تعالى بأفعاله؛ بأن يُعْتَقَدَ أنه وحده الخالق لجميع المخلوقات، وأنه الرازق لجميع الدواب والآدميين، وغيرهم، وأنه مالك الملك، والمدبر لشئون العالم كله؛ يُولي ويعزل، يُعز ويُذل، القادر على كل شيء؛ يصرف الليل والنهار، يحي ويميت (1).

وقد فطر (الله) جميع الخلق على الإقرار بربوبيته؛ حتى إن المشركين الذين جعلوا لله شريكًا في العبادة يقرون بتفرده بالربوبية (2).

وكل هذه المعاني المعجمية والدلالية والسيميولوجية، ومفهوم توحيد الربوبية، سنتعرف عليها من خلال الدراسة التطبيقية التي يشملها فصلا هذا الكتاب من خلال مباحثة المتعددة، وما يتناوله من تحليل للآيات القرآنية التي يرد فيها الدالان (رب – إله).

---

(1) انظر: صالح بن فوزان الفوزان ، عقيدة التوحيد: 22 .

(2) انظر: السابق: 23 . واقرأ في الآيات الدالة على ذلك: سورة (المؤمنون: 86 – 89) . وعلى كل حال فإن توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية من المسائل العقَدَيَّة التي دار حولها نقاش كثير منذ زمن مبكر عند الفرق الإسلامية من أهل السنة والجماعة والأشاعرة والجهمية والمعتزلة ...إلخ . مما لا يسعنا الحديث عنه الآن .

وبعد هذا العرض، الذي تناوله هذا التمهيد، يتسنى لنا الدخول إلى المباحث المتعددة المكونة لفصلي هذه الدراسة؛محاولين الكشف عن مناط الإعجاز في خطاب(الله) سبحانه وتعالى عن نفسه، وإخباره عن ذاته من خلال دالي (رب– إله)([1])

الفصل الأول: (رب - إله) في التركيب الاسمي

([1]) بطبيعة الحال ، لا نتعرض لدراسة هذين الدالين في صيغة المثنى ولا الجمع (أرباب، إلهين، آلهة) ؛ لعدم دلالتهم على (الله) سبحانه وتعالى . أو المفرد غير الدال على الله سبحانه وتعالى (طه: 88 ، 97) (الجاثية:23).وإذا ورد شيء من هذا في ثنايا التحليل ، فسيكون من قبيل إيضاح الإعجاز فحسب ، أو من قبيل نفي شركة العبودية لغير (الله) . وذلك مثل وجود دال (إله) في كلمة التوحيد مثلًا ، أو في تركيب : (وما من إله إلا الله) ، أو (وما كان معه من إله) ، أو (من إله غير الله) ...إلخ .

المبحث الأول: (رب - إله) في موقع المبتدأ

وفي المبتدأ وعلاقته بالخبر يقول سيبويه:" هذا باب المسند والمسند إليه، وهما ما لا يغنى واحد منهما عن الآخر، ولا يجد المتكلم منه بدًا. فمن ذلك الاسم المبتدأ والمبني عليه. وهو قولك عبد الله أخوك: وهذا أخوك " ([1]).

ويقول ابن السراج:" المبتدأ ما جردته من عوامل الأسماء ومن الأفعال والحروف، وكان القصد فيه أن تجعله أولًا لثانٍ، مبتدأ به دون الفعل، يكون ثانيه خبره، ولا يستغنى واحد منهما عن صاحبه، وهما مرفوعان أبدًا، فالمبتدأ رفع بالابتداء، والخبر رفع بهما " ([2]).

ويقول ابن يعيش:"اعلم أن المبتدأ: كل اسم ابتدأته، وجردته من العوامل اللفظية؛ للإخبار عنه. والعوامل اللفظية هي أفعال وحروف، تختص بالمبتدأ والخبر. فأما الأفعال فنحو (كان) وأخواتها، والحروف نحو (إنَّ) وأخواتها، وما الحجازية"([3]).

ويقول ابن الحاجب:" فالمبتدأ هو الاسم المجرد عن العوامل اللفظية مسندًا إليه، أو الصفة الواقعة بعد حرف النفي وألف الاستفهام رافعة لظاهر، مثل زيد قائم، وما قائم الزيدان وأقام الزيدان " ([4]).

1-(رب-إله) مبتدأ والخبر (اسم)

جدير بالذكر أن دال (رب) لم يأت في منطقة المبتدأ دون إضافة. ولا تكون الإضافة إلى اسم، بل تأتي دائمًا إلى ضمير. وقد يكون الضمير للمتكلم المفرد (ربي)،

([1])انظر: الكتاب ، الجزء الأول: 23 . و المبرد: المقتضب ، الجزء الرابع: 126 .

([2]) انظر: الأصول في النحو ، الجزء الأول: 58 .

([3]) انظر: شرح المفصل ، الجزء الأول: 221 .

([4]) انظر: شرح الرضي على الكافية ، ج1: 223.وانظر في تحليل هذا التعريف للرضي:223–226.

أو الجمع (ربنا)، أو المخاطب المفرد (ربك)، أو الجمع (ربكم)، أو جمع الغائب (ربهم) ([1]).

فإن قلتَ: إذا كان دال (رب) لا يأتي في منطقة المبتدأ إلا مضافًا إلى أحد الضمائر، ومن تلك الضمائر ضمير المتكلم المفرد المتصل (ي) في (ربي)، أو الجمع (نا) في (ربُّنَا)، معنى ذلك أن المخاطِب سيكون هو مَنْ وَرَدَ على لسانه هذا الخطاب، وأنتَ تُعَنْوِنُ الكتاب بخطاب (الله) سبحانه تعالى عن نفسه بدال (رب - إله)، فكيف يكون (الله) هو المخاطِب في مثل تلك الخطابات؟ قلتُ: مع أن دال (رب) لا يأتي في منطقة المبتدأ إلا مضافًا إلى أحد الضمائر– ومنها المتكلم- إلا أن (الله) سبحانه وتعالى هو المخاطِب؛ لسببين: **الأول** أن القرآن الكريم كله خطاب من (الله)؛ إذ هو كلام (الله) عز وجل. **الآخر**: أن من حكمته سبحانه وتعالى أن أجرى بعض آيات الكتاب العزيز على ألسنة بعض البشر، سواء أكان هذا فيما يخص الإخبار عنه سبحانه وتعالى، أم غير ذلك من مضامين الخطابات الأخرى.

وفي وقوع دال (ربي) في منطقة المبتدأ يرد قول (الله) عز وجل: ﴿ **قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ** بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (الشعراء: 188) ([2]). وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ **رَبِّيَ اللَّهُ** وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ (غافر: 28).

وفي الإضافة إلى ضمير (نا) يرد قول (الله) سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا **رَبُّنَا اللَّهُ** ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ

([1]) أما في غير منطقة المبتدأ ، يرد دال (رب) مضافًا إلى الضمائر وغيرها ، مثل(رب العالمين ، رب الناس) ، (رب السموات والأرض) . كما يضاف إلى ضمائر أخرى غير المذكورة ، مثل خطاب المثني ، (ربكما) ، والمفرد الغائب(ربه)، أو المثني الغائب (ربهما) . وكل سيدرس في موقعه .

([2]) وانظر كذلك: سورة (القصص: 37، 85) ، وسورة (الكهف: 22) . وقد وردت كل هذه المواضع حسب ترتيب النزول . انظر: الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، الجزء الأول: 193 .

تُوعَدُونَ﴾ (فصلت: 30) ([1]). وكذلك قــول (الله) تبــارك وتعـالى: ﴿ فَقَالُوا **رَبُّنَا رَبُّ** السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (الكهف: 14). وأخيــرًا قـول (الله) عـز مـن قائـل: ﴿ قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِـالْحَقِّ **وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ** عَلَى مَـا تَصِفُونَ﴾ (الأنبياء: 112).

وفي إضافة دال (رب) إلى كاف الخطاب المفرد، يقول مولانا: ﴿**وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ** ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ (الأنعام: 133) ([2]). وقول (الله) سبحانه وتعالى: ﴿اقْرَأْ **وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ**﴾ (العلق: 3) ([3]). وقوله عز من قائل: ﴿**وَرَبُّكَ** عَلَى كُلِّ شَيْءٍ **حَفِيظٌ**﴾ (سبأ: 21).

وفي الإضافة إلى ضمير الجمع المخاطب (كم) يرد قوله سبحانه: ﴿**رَبُّكُمْ أَعْلَمُ** بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ (الإسراء: 25) ([4]). وقوله تباركت أسماؤه: ﴿ قَالَ بَلْ **رَبُّكُمْ رَبُّ** السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (الأنبياء: 56).

وفي الإضافة إلى ضمير الجمع الغائب (هم) يرد قوله عز وجل: ﴿وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا **رَبُّهُمْ أَعْلَمُ** بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾ (الكهف:21).

وكما تعددت منطقة الإضافة في حقل الضمائر، تعددت كذلك منطقة الخبر من حيث الدوال التي شغلتها. وباستقراء الآيات السابقة، يُلحظ أن منطقة الخبر قد شُغِلَتْ بأربعة دوال لغوية: إما اسم الجلالة (الله)، أو دال (رب)، أو صيغة أفعل

([1]) وانظر: (الأحقاف: 13)، وسورة (الحج: 40) . وقد وردت تلك المواضع كذلك على حسب ترتيب النزول. انظر: الزركشي ، السابق ، الجزء نفسه: 193 ، 194 .

([2]) وانظر: سورة (الكهف: 58) .

([3]) وانظر: سورة (الأسراء: 55) ، وسورة(يونس: 40) .

([4]) وانظر: سورة (الأسراء : 54) .

التفضيل (أعلم / أكرم)، أو أحد أسماء (الله) الحسنى (الرحمن – الغني – حفيظ) ([1]).

وفي النموذج التحليلي الأول (ربي / ياء المتكلم – الله / خبر) يرد قول (الله) سبحانه وتعالى: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ **رَبِّيَ اللَّهُ** وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ (غافر: 28) ([2]).

وبالتأمل الإعرابي لتركيب (**رَبِّيَ اللَّهُ**) نجد أن (ربي) مبتدأ ومضاف إليه، واسم الجلالة (الله) خبر . ومعنى هذا أن كلًا من المبتدأ والخبر معرفتان. وهذا ما جعل محيي الدين الدرويش يرى أنه يجوز إعراب اسم الجلالة (الله) مبتدأ ودال(ربي) خبر، إذ يقول: " وربي: مبتدأ، والله خبره، أو: بالعكس " ([3]).

وهنا يطرح سؤال: إذا كان النحو التقعيدي يجيز ذلك، فهل يمكن أن تتفق الدلالة، ويفاد المعنى القرآني المعجز المراد من التركيب في الحالين؟ وللإجابة عن هذا التساؤل نجد أنفسنا مشدودين إلى علامة العربية عبد القاهر الجرجاني في حديثه عن المبتدأ والخبر المعرفتين، إذ يقول: " إن المبتدأ لم يكن مبتدأً لأنه منطوق به أولًا،

([1]) ولكثرة النماذج ، نجد أنفسنا مضطرين إلى تحليل نموذج واحد فقط ، تاركين للقارئ الكريم تأمل بقية النماذج الأخرى ، بناء على ما سنقدمه ، أو ما يراه هو من طاقات اللغة وإسهاماتها في إنتاج الدلالة القرآنية .

([2]) من الواضح أن طرفي التخاطب هنا (بشري– بشري)؛ إذ تم بين الرجل المؤمن من آل فرعون وفرعون وقومه. وعند دراسة الخطاب (البشري–البشري) إما أن نذكره بتوسع، أو نكتفي بتحليله هنا، ونشير إلى ذلك في موضعه.

([3]) انظر: إعراب القرآن الكريم وبيانه ، المجلد السادس: 565 . أما بهجت عبد الواحد صالح ، فقد اكتفى بالوجه الأول . انظر: الإعراب المفصل ، المجلد العاشر: 255 . وقد تابعه في ذلك محمود سليمان ياقوت. انظر: إعراب القرآن الكريم ، المجلد الثامن: 4100 . وما جعل الدرويش يقول هذا هو أن الخبر يكون هو المبتدأ في المعنى عندما يكون معرفة . انظر: ابن السراج ، الأصول ، الجزء الأول: 62 .

ولا كان الخبر خبرًا لأنه مذكور بعد المبتدأ، بل كان المبتدأ مبتدأً لأنه مسند إليه ومثبت له المعنى، والخبر خبرًا لأنه مسند ومثبت به المعنى".

ثم يستكمل قائلًا:" ولو كان المبتدأ مبتدأً لأنه في اللفظ مقدم مبدوء به، لكان ينبغي أن يخرج عن كونه مبتدأً بأن يقال: (منطلق زيد)، ولوجب أن يكون قولهم:(إن الخبر مقدم في اللفظ والنية به التأخير)محالًا. وإذا كان هذا كذلك ثم جئت بمعرفتين فجعلتهما مبتدأً وخبرًا، فقد وجب وجوبًا أن تكون مُثْبِتًا بالثاني معنىً للأول" ([1]).

ثم يضرب علامة العربية مثالًا توضيحيًا لذلك فيقول: " فإذا قلت: (زيد أخوك)، كنت قد أثبت بأخوك معنىً لزيد، وإذا قدَّمتَ وأخرَّتَ فقلتَ: (أخوك زيد)، وجب أن تكون مُثْبِتًا بزيد معنىً لأخوك، وإلا كان تسميتُك له الآن مبتدأ وإذ ذاك خبرًا، تغييرًا للاسم عليه من غير معنى، ولأدى إلى أن لا يكون لقولهم (المبتدأ والخبر) فائدة غير أن يتقدم اسم في اللفظ على اسم، من غير أن ينفرد كل واحد منهما بحكم لا يكون لصاحبه. وذلك مما لا يشك في سقوطه " ([2]).

وكما هو واضح، فإن ما طرحه عبد القاهر يدل على اختلاف المعنى بين التركيبين (ربي الله، الله ربي)؛ لأن التركيب الأول – وهو الوارد في الآية الكريمة – يعني أن دال (رب) المبتدأ، يراد أن يثبت له معنى الألوهية (الله)، واسم الجلالة (الله) الخبر يراد أن يثبت به معنى الربوبية (رب). أما التركيب الثاني فالمسألة معكوسة. ومن هنا لا يمكن للدلالة أن تتفق في حال التركيبين، ومن ثم فإن ما طرحه الدرويش – وإن يكن صحيحًا من الوجهة التقعيدية للنحو – في حاجة إلى مراجعة من الوجهة الدلالية.

والآن نعود إلى الآية الكريمة؛ لنتأمل ما المراد منها، وما الذي تريد أن تثبته، بمجيء التركيب على هذا النحو (ربي الله)؟.

([1]) انظر في الموضعين: دلائل الإعجاز: 189.

([2]) انظر: دلائل الإعجاز: 189 ، 190 .

إن التأمل في الآية الكريمة على المستوى التحتي العميق، يطلعنا على بلاغة هذا التركيب وإعجازه في مجيئه على هذا النحو / دال (رب) في منطقة المبتدأ، اسم الجلالة (الله) في منطقة الخبر.

ولأن السياق هو غذاء التأمل وروح التأويل، كان لابد من العودة إليه. وهنا نجد أنفسنا أمام ضربين من السياق ينبثق أحدهما عن الآخر. الأول هو السياق الثقافي، والآخر هو السياق اللغوي المنبثق عن الثقافي.

وبالعودة إلى السياق الثقافي الذي أدى إلى انبناء التركيب على جعل دال(رب) مبتدأ، نجد – **أولًا** - أد دال (رب) كان قد مثَّل معنىً مهمًا في ثقافة القوم، أي قوم فرعون في مرحلة ما قبل سيدنا موسى عليه السلام؛ لذا كان من الدوال الأكثر دورانًا على ألسنتهم، حتى قال فرعون: ﴿فَقَالَ أَنَا **رَبُّكُمُ** الْأَعْلَى﴾ (النازعات: 24).

فإن قيل: إذا كان فرعون قد أدعى الربوبية في الآية السابقة، فقد أدعى الألوهية في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ **إِلَهٍ** غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (القصص: 38)، مما يجعل الأمر متساويًا بين دال (رب) ودال (إله) الذي يعني المعبود (الله). قلتُ: لا؛ فالأمر يختلف من وجهين:

الأول: أن دال (رب) جاء في بداية دعوة سيدنا موسى عليه السلام. في قوله تبارك وتعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ نَادَاهُ **رَبُّهُ** بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى * وَأَهْدِيَكَ إِلَى **رَبِّكَ** فَتَخْشَى * فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى * فَكَذَّبَ وَعَصَى * ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى * فَحَشَرَ فَنَادَى * فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ (النازعات: 15 -24).

أما دال (إله) الذي يعني مفهوم الألوهية (الله)، فقد ادَّعاه فرعون لنفسه بعد إثبات الألوهية إلى الرب جل في علاه، بعدما ساق سيدنا موسى دلائله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ * وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ * وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ **إِلَهٍ** غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا

هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (القصص: 36 - 38).

وحتى الآية موضع الشاهد، لم يقترن فيها مفهوم الألوهية بالربوبية إلا بعد سوق البينات: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾. وحتى عندما جاء بالبينات جاء من (الرب). ومن هنا احتل دال (رب) مركز الصدارة لانشغال الذاكرة به، وجريانه على ألسنة القوم.

الآخر: أن قول فرعون (أنا ربكم الأعلى) جاء على الإطلاق، أما قوله (ما علمت لكم من إله غيري) جاء مقيدًا بعلمه هو، وهو يعلم –اعترف بهذا أم لم يعترف – أنه بشر محدود العلم. ومن هنا يمكن أن يكون ثم إله آخر لم يعرفه هو، ولم يحط به علمه ومن ثم فالتعبير الأول أقوى؛ بسبب انشغال الذهن به؛ لذا كان تقديم دال (رب).

ثانيًا: أن خطاب الحق سبحانه وتعالى لسيدنا موسى عليه السلام عند عملية الوحي والتكليف بدأ بالربوبية، ثم ثُني بالألوهية. ولنقرأ قوله تعالى:﴿**إِنِّي أَنَا رَبُّكَ** فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى * **إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ** لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ (طه:12 - 14). إضافة إلى الآية السابقة في سورة النازعات.

ثالثًا: أن القوم سواء أكان قوم فرعون أم قوم سيدنا موسى عليه السلام ذوو طبيعة مادية، تتطلع دائمًا إلى الحصول على النعم، وبخاصة المادية منها. ولما كان دال (رب) يحمل في طياته عطاء النعم، كان هو الأقرب إلى الإذهان. ومن ثم إلى الدوران على الألسنة والرسوخ في الثقافة.

رابعًا: أن توحيد الربوبية لا ينكره أحد، ولم يذهب إلى نقيضه طائفة معروفة من بني آدم؛ بل القلوب مفطورة على الأقرار به؛ أعظم من كونها مفطورة على الإقرار بغيره من الموجودات ([1]).

ومن هنا، يمكن أن نفهم أن الاختلاف لم يكن حول توحيد الربوبية، ولكن حول كون هذا الرب هو (الله) الذي ينبغي أن يُعبد، وعبادته لا تعني مجرد الإقرار بالعبودية على المستوى النظري، بل على المستوى العملي التطبيقي في شئون الحياة كلها، بأن تخلص العبادة (لله)، دون غيره.

ومن ثم كان تصدر دال (رب) منطقة المبتدأ تناسقًا مع توحيد القوم وإيمانهم بمفهوم الربوبية، وانشغال منطقة الخبر باسم الجلالة (الله) جل في علاه، تهدف إلى ربط توحيد الربوبية بتوحيد الألوهية، ومن ثم عبادة (الله) سبحانه وتعالى؛ لتكتمل دائرة الإيمان الصحيح.

خامسًا: أننا إذا خصصنا الحديث عن بني إسرائيل، فسنجد أنه ما من أمة حازت بنعم الربوبية كما حازت هذه الأمة ([2]). ومن هنا – كذلك – كان تقدم دال (رب) لإشغال منطقة المبتدأ.

أما السياق اللغوي، فقد ورد بوصفه صدىً للسياق الثقافي. وللتأكد من ذلك أننا إذا لملمنا أطراف قصة سيدنا موسى عليه السلام، وتأملناها في آيات الذكر الحكيم، وجدنا أن دال (رب) قد سيطر تمامًا على الخطابات المكونة لهذه القصة. وقد تم هذا من خلال ضربين من المخاطِبين: فرعون وقومه، وبني إسرائيل.

([1]) انظر: صالح بن فوزان الفوزان ، عقيدة التوحيد: 23 .

([2]) على القارئ الكريم مراجعة تلك المواضع التي تتناول مظاهر النعم على هؤلاء القوم من خلال آيات القرآن الكريم ، وبخاصة سورة (البقرة) وغيرها ؛ فثم: المن والسلوى ، والنجاة من فرعون ، ورفع الجبل كأنه ظلة ، وقبول التوبة والعفو مرة تلو الأخرى ...إلخ . وعلى كل حال ، سندرس بنية هذا الخطاب في قسم الخطاب (الإلهي – النبوي) بالتفصيل في مكانه .

في المحاورة التي دارت بين فرعون وسيدنا موسى عليه السلام يقول (الله) تعالى على لسان فرعون: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (الشعراء:23). وفي جانب بني إسرائيل يقول تعالى: ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ (البقرة:61).

أما اسم الجلالة (الله)، فلم يرد إلا على سبيل التكبر والنكران والجحود والعصيان مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾ (البقرة: 55)، أو ما ورد على لسان سيدنا موسى عليه السلام - وليس هم - في قوله تعالى: ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (البقرة:60)، أو ما يرد في إطار غضب الحق سبحانه وتعالى عليهم، كما في قوله تعالى: ﴿ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ (البقرة:61) ([1]).

وإذا تأملنا مبررات رغبة القوم في قتل سيدنا موسى (أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا)، وجدناها متمثلة في علة واحدة، وهي خروج سيدنا موسى عن النسق المتعارف عليه من إسناد القوم مفهوم الألوهية، الذي يعني العبادة إلى ربوبية فرعون المستقرة في ذهنه وقومه على أقل تقدير، إلى ربط مفهوم الألوهية (لله) جل في علاه بمفهوم الربوبية (ربي الله)، وكذلك ربط المفهومين بمعبود واحد هو (الله).

وإذا ولجنا إلى النسيج اللغوي للآية الكريمة، وبخاصة في المستوى التوزيعي لدوالها المحورية (رب – الله)، نجد الإعجاز على هذا النحو (ربي – الله – ربكم). ويمكن توضيح ذلك على هذا النحو:

ربي (بدون بينات) ⟵ الله ⟵ (جاءكم بالبينات) ربكم

([1]) هذا قليل من كثير ، وعلى القارئ الكريم تأمل بقية المواضع القرآنية ؛ منعا للإطالة . أليس هذا الترابط بين السياقين: الثقافي واللغوي هو ما تغنت بها مناهج ما بعد الحداثة من خلال المنهج الثقافي؟!!!. وهنا تبدو قمة الإعجاز في مراعاة القرآن الكريم لثقافة المجتمعات في مخاطبتها لغويًا ، بما تفهمه ، وما تنشغل به ذاكرتها الذهنية ، واصلًا إلى الدلالة من أقرب طريق تفهمه أقوام تلك المجتمعات . وهذا ما لحظناه جليًا في كثير من مخاطبات الحق سبحانه وتعالى لعرب الجاهلية إبان بعث سيدنا النبي محمد ﷺ في الكتاب الأول (خطاب الحق سبحانه وتعالى عن نفسه باسم الجلالة (الله) . انظر: الكتاب الأول: 27 ، 28 .

وبالتأمل تدرك اللطائف الآتية: **أولًا** أن دال (رب) شغل منطقة المبتدأ بدون بينات من (الله) سبحانه وتعالى لسيدنا موسى؛ إذ هو نبي وأحد أولي العزم من الرسل، ومصطفى من المولى عز وجل، ومن ثم يكفيه الوحي. وهذا المعنى هو المفهوم من قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ (طه: 12)؛ لذا حل دال (رب) في موقع الابتداء.

ثانيًا: أن ثمة لطيفتين في إضافة دال (رب) إلى ضمير المتكلم (ي) العائد إلى سيدنا موسى عليه السلام: **الأولى** أنه لما كان لا يحتاج إلى بينات للإيمان بأن الرب هو (الله) سبحانه وتعالى، قال (ربي)، ولم يقل: (ربكم)؛ أي لم يلزمهم بالإيمان ب(الله) سبحانه وتعالى وأن الرب هو (الله). ولكنه لما جاء بالبينات (وقد جاءكم بالبينات)، قال من (ربكم)، مضيفًا دال (رب) إلى المخاطبين على افتراض التصديق بعد ظهور البينات والآيات المعجزات.

الأخرى: أن إضافة دال (رب) إلى ياء المتكلم لهي أكبر دليل على صدق سيدنا موسى عليه السلام في دعوته للقوم بأن (الرب) هو (الله)؛ إذ كيف يدعوهم إلى باطلٍ هو عليه قبلهم؟!!!. يمكن فهم هذا من خلال قوله تعالى على لسان الرجل المؤمن: ﴿وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾، أي أنه – سيدنا موسى عليه السلام – هو المسئول، وهو المتحمل لنتيجة دعوته لكم. ومن هنا كانت بلاغة (الياء) وحجتها في صدق الدعوة [*].

ثالثًا: أن توسط اسم الجلالة (الله) بين دالي (ربي – ربكم) يلملم ويلخص مرمى الآية وهدفها الأساسي في أن ربي وربكم هو (الله) سبحانه وتعالى، سواء قبل البينات الخاصة (بي)، أو بعد سوقها لكم.

---

[*] وقريب من هذا ما ورد في أمر الحق سبحانه وتعالى لرسوله سيدنا محمد ﷺ في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ (سبأ: 50) . وللإنسان أن يتعجب كل العجب ممن يكفرون بالأنبياء ؛ إذ لو كان الأنبياء يخدعون أقوامهم ، فكيف لهم أن يخدعوا أنفسهم؟!!!! .

رابعًا: أن ورود اسم الجلالة (الله) في قوله (يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ) مرتديًا المجاز في دال (بعض) الفاعل المجازي؛ لأن المصيب هو (الله) و(بعض) هو المصاب به وإنما كان إظهار (بعض) وانبناء التركيب على المجاز زيادة في التهديد والوعيد، وورود اسم الجلالة (الله) كذلك في خاتمة الآية مرتديًا أسلوب التأكيد بـ(إن) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾، مع ما ارتبط به من مضمون نفي الهداية عن المسرف الكذاب؛ لهو أدعى إلى إخافتهم. كأنه قيل: إذا كنتم لا تؤمنون بأن (الرب) هو (الله)، فإن (الله) الذي تنكرون عبادته وتدَّعون غيره هو من يُصبكم بما وُعدتُم به من نبيه، وعدم هدايتكم إذا ظللتم وأصررتم على ما أنتم عليه من إسراف وكذب ([1]).

أخيرًا: أننا إذا تأملنا – على الجانب الإحصائي – تردد دال (رب) واسم الجلالة (الله)، ألفينا ان دال (رب) تكرر مرتين (ربي، ربكم)، أما اسم الجلالة (الله)، فقد ورد ثلاث مرات بلفظه الصريح مرتين، وبتأمله في التركيب المجازي مرة. ومن ثم فإن تفوق نسبة تردد اسم الجلالة (الله) على دال (رب) يؤكد ما أرادت الآية الكريمة أن

([1]) هناك كلام كثير لدى المفسرين في مُعاد الإسراف والكذب ، أإلى سيدنا موسى ، أم مؤمن آل فرعون أم فرعون نفسه . فممن ذهب إلى أن المعاد إلى سيدنا موسى الزمخشري .انظر: الكشاف ، الجزء الرابع: 159 ، وممن ذهب إلى أن المعاد إلى سيدنا موسى أو مؤمن آل فرعون ابن عاشور ، انظر: التحرير والتنوير ، الجزء الرابع والعشرين: 130 ، 131. وممن ذهب إلى أن المعاد إلى سيدنا موسى وفرعون ، أبو السعود ، انظر: إرشاد العقل السليم ، الجزء السابع: 274 ، 275 . وكذلك ، الألوسي روح المعاني ، الجزء الرابع والعشرين: 65 . أما الإمام الطبري ، فقد ذهب إلى أن المعاد إلى فرعون ، انظر: جامع البيان ، المجلد السادس: 423 . وأنا أرجح ما ذهب إليه الإمام الطبري في أن المعاد إلى فرعون وقومه ، وذلك لأسباب: **أولًا** أن نعت الأنبياء بالكذب –حتى ولو كان على سبيل الافتراض لتليين القوم وإمالتهم إلى جانب الحق–لا يجوز . **ثانيًا:** لماذا يكون المعاد مؤمن آل فرعون وهو مجرد ناصح ، ويبقى الأمر وشأن الدعوة بين سيدنا موسى وفرعون وقومه؟ **أخيرًا** أن الآية تمثل دعوة القوم إلى عبادة (الله) ، ومن ثم كان تهديدهم بأن (الله) لن يهديهم إذا استمروا على إسرافهم على أنفسهم في مخالفتهم للدعوة وتكذيبهم لنبي (الله) من البلاغة بمكان .

تؤكده من ارتباط مفهوم الألوهية بالربوبية، وهو أن الــرب هــو (الله) تعالى، وليس فرعون ولا غيره.

ولما كان من شأن هذا أن ينفي المفهومين عن أرباب القوم: فرعون وغيره، كان السعي في القتل. وكأن الدلالة القرآنية تقول: إن الرب الذي تنشدونه في فرعون المدعي، أو حتى الأرباب الأخرى، المتجلي عليكم بنعم مادية تحيون فيها، ولا تستطيعون نكرانها...إلخ، هو (الله) المستحق للعبادة، وليس غيره.

ومن هنا، فإن الدلالة القرآنية التي انبثقت من هذا التركيب على هذا النحو المعجز بإثبات مفهوم الألوهية لمفهوم الربوبية (ربي الله)، بادئة بمفهوم الربوبية (رب) المسيطر على السياقين: الثقافي واللغوي في منطقة المبتدأ، لا يمكن لها أن تنبثق على هذا النحو من الصورة الأخرى للتركيب (الله ربي) [1]، إلا إذا استدعى ذلك السياق نفسه [2].

وأما وقوع دال **(إله)** في منطقة المبتدأ مع شغل منطقة الخبر بالطبيعة الاسمية، فيمثله قول (الله) سبحانه وتعالى: ﴿**إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ** الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ (طه: 98)، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ **أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ**

---

[1] وهذا هو الفارق بين النحو التقعيدي ، وما يمكن عليه أن نطلق عليه النحو التأويلي ، أو ما يسمى في الأوساط النقدية بفلسفة النحو .

[2] ويتضح هذا الفرق جليًا عند راسة دال (رب) في منطقة الخبر، على أن يشغل اسم الجلالة (الله) منطقة المبتدأ، كما في قوله تعالى: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ **اللَّهُ رَبُّنَا** وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ (الشورى: 15) . أو يكون دال (رب) خبرًا للناسخ (إن) واسم الجلالة (الله) اسمه ، كما في قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ رَبِّي** وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (آل عمران: 51).﴿**وَإِنَّ اللَّهَ** رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيم﴾ (مريم: 36) . وسننظر في حينه فاعلية السياق في اختيار الدوال في منطقة المبتدأ ، هذه العملية التي يُطلق عليها المحور الاستبدالي، أو الزمني أو الآني أو السياقي أو الاختياري ...إلخ ، كما يحلو تسميتها لدى كل منهج من مناهج النقد الحداثي . ويكفي تحليل هذا النموذج ؛ منعًا للإطالة ، وعلى القارئ الكريم تأمل بقية المواضع .

وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ (فصلت:6). وقوله جل شأنه: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا **إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ** فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (الكهف: 110)، وقوله تباركت أسماؤه:﴿**إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ** فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ (النحل:22)، وقوله عظم جاهه: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا **إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ** فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (الأنبياء: 108)، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿**وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ** وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (العنكبوت: 46)، وقوله عظمت قدرته: ﴿**وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ** لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة: 163)، وأخيرًا قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ **فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ** فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴾ (الحج: 34) ([1]).

يتضح من تلك النماذج أمران: **الأول** أن دال (إله) ورد مقترنًا بضميرين: خطاب في صيغة الجمع (كم)، ومتكلم في صيغة الجمع (نا) في موضع سورة العنكبوت. **الآخر**: أن منطقة الخبر قد تنوعت بين دالين لغويين: **الأول** دال (إله)، و**الآخر** دال (واحد)، الذي ورد في سورة (العنكبوت).

وبتأمل تركيب الخطاب القرآني في الآيات السابقة، نجد أن تركيب (إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ) تم تكراره ست مرات؛ منها ثلاثة مواضع اعتمد فيها التركيب على بنية القصر ب(أنما) (أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ)، ومرة في حالة الاستئناف (إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ)، ومرة في حالة الوصل ب(الواو) (وإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ)، وأخرى في حالة الوصل بالفاء (فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ). ثم يأتي تركيب (وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ) مرة واحدة.

وإذا ذهبنا إلى الموضع الأول نجده قد ورد في قول (الله) سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ **أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ** فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ (فصلت:6).

([1]) وردت تلك الشواهد القرآنية ، حسب ترتيب نزول السور التي وردت فيها . انظر: الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، الجزء الأول: 193 ، 194 .

وبمراجعة الآية الكريمة، يدرك أنها ضمت ضربين من ضروب الخطاب: الخطاب الإلهي النبوي في (قل)، ثم الخطاب النبوي البشري في بقية الآية الكريمة. ويمكن توضيح أطراف الخطاب على هذا النحو:

(الله) المخاطِب الأول

(قل)

(المتلقي الأول) النبي ﷺ (المخاطِب الثاني)←(إنما أنا...) (المشركين /المتلقي الثاني)

وهذا من شأنه توضيح أمور عدة: **الأول** أن النبيﷺ ما هو إلا نذير، كما ورد هذا المعنى كثيرًا في القرآن الكريم، وكما تم تأكيده أيضًا في هذا الخطاب نفسه المبني على أسلوب القصر في قوله (إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ). **الثاني**: أن اختلاف النبيﷺ عن بني البشر يتجلى في عملية الاصطفاء، أي اصطفاء الحق سبحانه وتعالى له بتبليغ آخر رسالاته السماوية. ومن هنا كان التركيب الزمني (يُوحَى إِلَيَّ) هو حجر الزاوية الذي دار حوله لغط كثير من الكفار: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (الزخرف: 31).

الأخير: تقريع هذا التركيب أسماع المخاطَب/ المشركين بأن ما يبلغهم به النبي ﷺ - وهو واحد من بينهم – ليس من عنده، وإنما من (الله) جل في علاه. وإلا لِمَ تأخر النبي ﷺ إلى عمر الأربعين حتى يبلغهم؟ ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (يونس: 15، 16). ومن ثم، فإن مضمون الخطاب (أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ) داخل في إطار هذا الوحي، ومن ثم كذلك تمثَّل دور النبي ﷺ في التبليغ والنصح (فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ)، وبيان عاقبة المخالفين (وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ).

وإذا ولجنا إلى أسلوب التركيب (أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ) الممثل لمضمون الخطاب/ الرسالة ألفينا الآتي: **أولًا** أن الخطاب للمشركين كما ذهبنا. **ثانيًا**:أن الخطاب ورد في بداية صورة (فصلت)؛ فناسب بذلك بلاغة عظمى وإعجاز غير منتهٍ؛ إذ إن توحيد

الألوهية الذي يعني عبادة الرب العلي، لهو من أولويات ذلك التفصيل، بل يأتي على رأسه وفي مقدمته؛ إذ هو الأساس الذي تؤسس عليه عملية التفصيل في كل ما تحويه من تشريعات فيما بعد. **ثالثًا** أن بنية الخطاب صُدِّرت بالأداة (أنما) المفيدة للقصر ([1]).

وفي علاقة (إنما) بالمخاطَب يقول عبد القاهر: " اعلم أن موضوع (إنما) على أن تجيء لخبر لا يجهله المخاطَب ولا يدفع صحته، أو لما ينزل هذه المنزلة. تفسير ذلك أنك تقول للرجل: (إنما هو أخوك) و(إنما هو صاحبك القديم): لا تقول لمن يجهل ذلك ويدفع صحته، ولكن لمن يعلمه ويَقِرُّ به، إلا أنك تريد أن تنبهه للذي يجب عليه من حق الأخ وحرمة الصاحب " ([2]).

وفي تصدر (إنما) للتركيب الاسمي يقول عبد القاهر الجرجاني:" واعلم أن الأمر في المبتدأ والخبر، إن كان بعد (إنما) على العِبْرة التي ذكرت لك في الفاعل والمفعول، إذا أنت قدمتَ أحدهما على الآخر. معنى ذلك: أنك إن تركتَ الخبر في موضعه فلم تقدمه على المبتدأ، كان الاختصاص فيه، وإن قدمته على المبتدأ، صار الاختصاص الذي كان فيه في المبتدأ. تفسير هذا، أنك تقول: (إنما هذا لك)، فيكون الاختصاص في (لك) بدلالة أنك تقول: (إنما هذا لك لا لغيرك). وتقول: (إنما لك هذا) فيكون الاختصاص في (هذا)، بدلالة أنك تقول: (إنما لك هذا لا ذاك)، والاختصاص يكون أبدًا في الذي إذا جئت (بلا) العاطفة كان العطف عليه. وإن أردت أن يزداد ذلك عندك وضوحًا، فانظر إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ (الرعد:40) وقوله جل وعلا: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ﴾ (التوبة: 93)، فإنك ترى الأمر ظاهرًا أن الاختصاص في الآية الأولى في المبتدأ الذي

([1]) الفرق بين (إنما) و(أنما) هو فتح الهمزة وكسرها ، مثل (إن) و(أن) ؛ لذا فهي تعني القصر هنا .

([2]) انظر: دلائل الإعجاز: 330 . وقد تكرر هذا المعنى عند الزركشي، انطر: البرهان في علوم القرآن ، الجزء الرابع: 231 .

هو (البلاغ) و(الحساب)، دون الخبر الذي هو (عليك) و(علينا)، وأنه في الآية الثانية في الخبر الذي هو (على الذين) دون المبتدأ الذي هو (السبيل)"[1].

ويفهم من كلام عبد القاهر، أن الاختصاص يقع في الجزء الثاني من الجملة الاسمية؛ سواء حوى هذا الجزء خبر الجملة، أو مبتدأها المؤخر. ومن ثم فقد قصرت الآية الكريمة مفهـــوم الألوهية (أنما إلهكم) على الخبر الموصوف (إله واحد)، أي أنـما معبـــودكم معبـود واحد، والمعبـــود الواحـد إنما هـــو (الله) سبحـــانه وتعالى.

فإن قال قائل: دال (إله) الواقع في منطقة الخبر قد يعني (الله) أو غيره، فكيف نفهم هذا؟ قلتُ: إن وصف دال(إله) بالواحد دل على أنه (الله) سبحانه وتعالى؛ إذ ليس في شريعة القوم مفهوم الوحدانية فيما يعبدونه من آلهة؛ لذا تعجبوا في قولهم: ﴿**أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا** إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ (ص: 5). ولما سبقت سورة (ص) سورة فصلت في النزول [2]، فقد عُلِمَ عندهم أن الآلهُ الواحدُ لا يعني إلا (الله) جل وعلا.

رابعًا: أنه كان من مناسبة توحيد الألوهية هنا، أن يرد الأمر في (فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ) في إطار أفعال العباد وإخلاصها (لله) سبحانه وتعالى، وكذلك (وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ) لإشراكهم مع (الله) آلهة أخرى في العبادة.

خامسًا: أن الآية وردت في سياق خطاب المشركين الذي بدأ بالحروف المقطعة (حم) بيانًا للقدرة، وإظاهرًا للإعجاز، وإمعانًا في التحدي والتعجيز، وإظاهر

---

(1) انظر: دلائل الإعجاز: 345 . وانظر كذلك: السكاكي ، مفتاح العلوم: 300 ، والقزويني ، الإيضاح في علوم البلاغة ، المجلد الأول ، الجزء الثالث: 26 .

(2) انظر: الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، الجزء الأول: 193 .

صدهم عن القرآن الكريم. فكان التنويه بشأن العبادة، وإفراد (الله) سبحانه وتعالى بها من المناسبة بمكان ([1]).

أما بنية الخطاب في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ **وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ** وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (العنكبوت: 46)، فقد ورد دال (إله) مضافًا إلى (نا) الجمع المتكلم في منطقة المبتدأ على لسان المخاطِب، و(كاف) الخطاب الجمع كذلك في منطقة العطف ثم حل دال (واحد) في منطقة الخبر. وقبل ذلك اعتماد التركيب على بنية الوصل ب(الواو).

فإذا بدأنا بالعنصر الأخير–الاعتماد على بنية الوصل–ألفينا أن هذا الخطاب متعلق بالخطابات التي ضمتها الآية الكريمة، وداخل في إطارها. ولنقرأ معًا قول (الله) سبحانه وتعالى:﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

وبتأمل الموقع النحوي، يدرك أن هذا الخطاب معطوف على مقول القول في جملة (آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ)، وكذلك جملة (وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ). ومن ثم كان مسوغ العطف.

([1]) أعتقد أنه يكفي هذا الموضع بوصفه نموذجًا تحليلًا للخطاب المصدر بأداة القصر (أنما) ، وعلى القارئ الكريم تأمل الموضعين الآخرين: (الكهف: 110) ، و (الأنبياء: 108) . أما المواضع الأخرى: الاستئناف: ﴿**إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ** فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴾ (النحل:22) ، والوصل ب(الواو) ﴿**وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ** لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة: 163) ، والوصل ب(الفاء): ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ **فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ** فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ (الحج: 34)، فمرجع كل هذا إلى السياق . وهذا هو دأبنا في هذه الدراسة ؛ الاستعانة بسياقي الآية الكريمة: العام والخاص في الكشف عن مناط الإعجاز ، وجماليات الخطاب . ومن ثم فعلى القارئ الكريم مراجعة تلك المواضع الخطابية في سياقيها للتعرف على جمالياتها .

أما بدء التركيب بدال (إله) في صيغة جمع المتكلم، فمرجع هذا إلى السياق. ويمكن لهذا المخطط توضيح المخاطِبين والمتلقين في هذه الآية الكريمة:

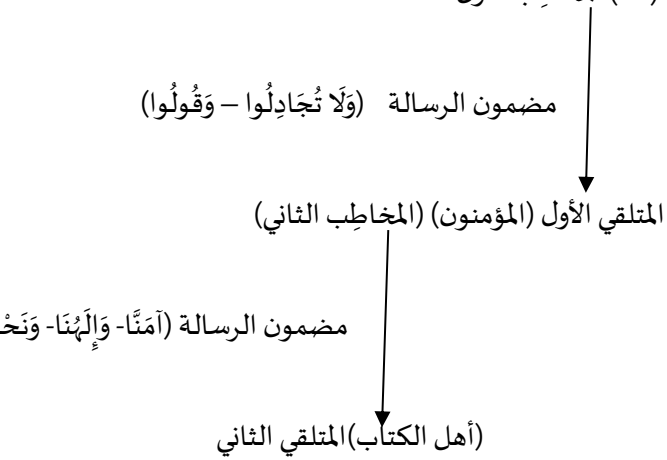

وإذا تأملنا نوع المتلقي في الخطاب الثاني ألفيناه هم أهل الكتاب؛ لذا تصدر خطاب الآية نهي المؤمنين عن جدال أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن. ولما كان من تمام الحسن أن يقيم المخاطِب الثاني / المؤمنون على أنفسهم الحجة قبل إقامتها على المتلقي الثاني / أهل الكتاب، كان البدء بدال (إله) مضافًا إلى ضمير المتكلم الجمع (نا)، فشغل دال (إلهنا) منطقة المبتدأ آمنًا في محله، مبنيًا على بلاغة عظمى، وبيان ناصع. وهذا المعنى هو ما حدا بالدرويش إلى أن يقول بعد عملية الإعراب: " وفي هذا القول منتهى المناصحة والنصفة والإقناع " ([1]).

حتى إذا جئنا إلى بنية **العطف**، ألفيناها من البلاغة والمناسبة بمكان لا يخفى على حاذق؛ إذ المخاطَب هم أهل الكتاب، أي أن الذي أَرْسَل إلى أنبيائكم هو هو من أَرْسَل إلى نبينا محمد ﷺ؛ فإذا كان هو إلهنا، فهو إلهكم كذلك؛ ولما كان إلهًا واحدًا، شُرِّفتْ منطقة الخبر بالوحدانية، فَشُغِلَتْ بدال (واحد).

([1]) انظر: إعراب القرآن الكريم وبيانه ، المجلد السابع: 6 .

وكما قلنا من قبل، لم يبدأ التركيب بدال (إلهكم) كما بدأ في تراكيب أخرى، فيكون مثلًا (إلهكم وإلهنا واحد) - مع أن هذا هو ما يوافق الترتيب الزمني، حيث أهل الكتاب أولًا، ثم المؤمنون بالنبي محمد ﷺ ثانيًا - لإقامة الحجة على المتلقي/ المخاطب الثاني. وكأنه قيل: ما دمتم أهل كتاب وتؤمنون بما ورد في كتبكم – وعلى رأس ذلك وعماده أن الله هو معبودكم – فإن معبودنا ومعبودكم واحد. فلا خلاف بيننا إذن.

وأعتقد أن ثَمَّ في وحدانية المعبود تعريضًا بما ورد عند أهل الكتاب من تحريف في صلب العقيدة وهو تعدد المعبود، سواء لدى اليهود أو النصارى، أو كونه له ولد...إلى آخر ما ادعوا من تحريفات.

فإن قيل: ألم يكن من الممكن أن يرد التركيب مبنيًا على خبرين على هذا النحو: وإلهنا واحد وإلهكم واحد؟ قلتُ: لا؛ لأن الاسم المعرفة إذا تكرر كان عين المعنى، ومن ثم فإن (إلهنا) هو (إلهكم). وإذا تكرر الاسم النكرة وقعت فيه مغايرة المعنى، مثل قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (الشرح: 5، 6)[1].

ووفق هذه القاعدة، فإن دال (واحد) الخبر في الجملة الأولى سيكون مغايرًا للخبر في الجملة الثانية، وهذا من شأنه أن يغاير بين المبتدأ في الجملتين، مثلما تم التغاير بين دال (العسر) في الآيتين السابقتين – حسبما ذهبت بعض الآراء، وهذا مما لا

---

[1] دار كلام كثير حول هذه القاعدة (تكرار النكرة مع تغاير المعنى) . انظر في تفسير هذه الآية وما دار حولها من خلافات كلًا من: الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، طبعة دار هجر ، الجزء الرابع والعشرين: 495 – 497 . والزمخشري ، الكشاف ، الجزء الرابع: 760 ، 761 . وكذا كل التفسيرات اللاحقة . وانظر كذلك في مصادر النحو: ابن هشام ، مغني اللبيب: 731 – 735 . وفي كتب الإعراب: محيي الدين االدرويش ، إعراب القرآن الكريم وبيانه ، المجلد الثامن: 350 – 354 . وغير ذلك من المصادر والمراجع الأخرى .

يخفى فساده؛ إذ يعضد انحراف أهل الكتاب، وبخاصة اليهود منهم الذين فسدت عقيدتهم؛ بابتعادهم عن عبادة الإله الحق، وهو (الله) سبحانه وتعالى.

ووفق ما سبق، فإن عطف المعرفتين – المتوحدي المعنى - وتعيين خبر واحد لهما متمثلًا في دال (واحد)، كان زيادة في تأكيد وحدانية (الله) سبحانه تعالى، وأنه المعبود الواحد لأهل الكتاب والمسلمين. ومن ثم درء توهم التغاير في عملية العبادة.

ويذكرنا هذا النهج في المحاورة بقول ربنا عز وجل ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (سبأ: 24، 25) ([1]).

وإذا تأملنا - بلاغيًا - الآية موضع الشاهد، ألفيناها تعتمد على بنية بلاغية تنتمي إلى علم البديع، وهي بنية (الجمع). ومعنى الجمع: هو أن يجمع المتكلم بين متعدد تحت حكم واحد ([2]). ولنقرأ الآية الكريمة مرة أخرى: ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

ويكتنف الآية ثلاثة جموع: الأول (آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ) فقد جُمِع بين (ما أنزل إلينا وأنزل إليكم) بحكم الإيمان بهما معًا في قوله (آمنا). والثاني تم الجمع بين (وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ) بمنطقة الخبر (واحد). أما الأخير، فقد تم ذكر شقه الأول (وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ)، وترك الشق الثاني لتأمل القارئ المتلقي، ومحاولة اكتشافه بالاعتماد على ما سبق، وهو المتمثل في وجوب إيمان أهل الكتاب ب(الله) سبحانه وتعالى. ويمكن توضيح ذلك من هذا المخطط:

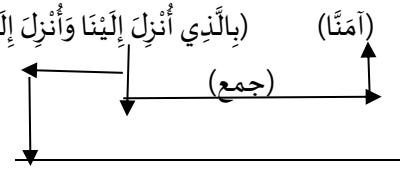

([1])ينبغي تأمل:(وإنا أو إياكم)، و(عما أجرمنا وعما تعملون)؛ليتبين له مدى حسن الخلق، وتمام الحجة ، ونصاعة البرهان في أسلوب المحاورة .وقد اعتمدت الآية على البنية البديعية:اللف والنشر.

([2]) انظر: السيد أحمد الهاشمي ، جواهر البلاغة: 301 .

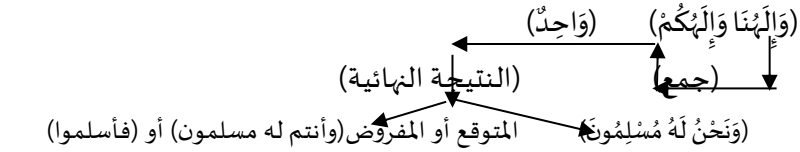

وعليك أن تتأمل أخلاقيات الحوار الذي أُسِّسَ عليها الدين الإسلامي؛ فلم تذكر الآية الشق الثاني: خبرًا أو إنشاء، وإنما ذكرت ما يخص المخاطِب (ونحن له مسلمون)؛ وذلك لسببين: **الأول** إقامة الحجة على المخاطِب نفسه أولًا؛ إذ كيف ندعوكم / أي المخاطَب / أهل الكتاب إلى عبادة غير صحيحة، ونحن نعتقدها؟!! **الآخر**: لفت انتباه المخاطَب وتحريك ذهنه – وبخاصة أنهم أهل العربية– إلى الوصول إلى الإيمان ب(الله) جل في علاه من خلال جماليات اللغة، وفهم المسكوت عنه، دون إجبار أو إكراه، تناسبًا مع قوله تعالى ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (البقرة: 256).

ويمكن وضع الآية الكريمة في سلم حجاجي على هذا النحو: [1]

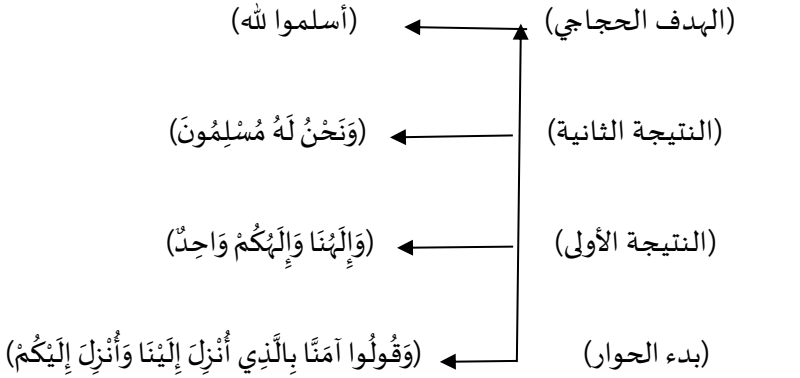

---

[1] هل ابتعدنا عن اللغة ، والطرح المنطقي في تأمل الآية؟!!! أعتقد: لا . ولو أراد عملاقة العرب الذين وردت دراساتهم في تمهيد الكتاب الأول ، وتوفرت لديهم النية في تقديم دراسة لغوية للقرآن الكريم ، لفعلوا هذا ، ولربما أكثر منه . لكنهم لحقدهم على الإسلام وكتابه المقدس ، فعلوا ما فعلوا مع علمهم المسبق بنتيجة فشلهم .

وإذا أردت أن تتأكد من صحة الوصول إلى هذه النتيجة، فعليك باستقراء مضمون هذه النتيجة (وجوب إيمان المخاطب بالله سبحانه) في آيات أخرى مشابهة، والتي تقع في بعض النماذج السابقة. يقول تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (الأنبياء: 108)، وقوله تعالى: ﴿فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴾ (الحج: 34).

ففي الموضع الأول، خُتمت الآية الكريمة بأسلوب الاستفهام الذي يحمل صيغة الأمر (فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)، أي فأسلموا، أو أنه يحمل معنى العرض والحض على الإسلام ([1]). وفي النموذج الثاني، ورد الأمر بالإسلام مباشرة في قوله تعالى (فَلَهُ أَسْلِمُوا).

ولم يبق لنا في تحليل الخطاب في هذه الآية الكريمة، إلا اعتمادها على ضمير الجمع، وبخاصة من قِبَلِ المخاطِب، فإن: قيل لماذا؟ قلتُ: لأن الخطاب – وإن كان المتلقي الأول له هو النبي ﷺ - فإن الحق سبحانه وتعالى يخاطب به كل المسلمين، الذي يتسنى لهم الحوار مع أهل الكتاب، في زمن النبيﷺ، وفيما سيأتي بعده من أزمنة ([2]).

وأحيانًا يرد دال (إله) مبتدأ معتمدًا على أداة الاستفهام، وذلك مثل قول (الله) سبحانه وتعالى: ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ (النمل: 60) ([3]).

وأحيانًا يرد دال (إله) في منطقة المبتدأ المجرور لفظًا المرفوع محلًا، ويكون اسم الجلالة (الله) سبحانه وتعالى خبرًا له في أحد أوجهه الإعرابية، وذلك مثل

([1]) انظر: الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، الجزء الثاني: 339 ، 342 .

([2]) وبعد الكشف عن كل الجماليات اللغوية التي بني عليها خطاب الآية الكريمة ، نسمع نعيق من يقول: إن الإعجاز القرآني لا ينبع من داخل النص القرآني ، كما رأينا في الكتاب الأول . انظر في هذا ما قدمه علامة عصره نصر حامد أبو زيد ، الكتاب الأول: 55 – 60 .

([3]) وانظر: سورة (النمل: 61 – 64) . وستدرس هذه البنية بالتفصيل في العنصر الخامس: دال (رب - إله)مبتدأ والخبر شبه جملة .

قوله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (آل عمران: 62) ([1]).

والمتأمل في هذه الآية الكريمة، يجد أن (الواو) استئنافية، و(ما) نافية، و(من) حرف جر زائد، و (إله) مبتدأ مجرور لفظًا. ويجوز أن يكون الخبر محذوفًا تقديره (لنا). وإلا أداة حصر، واسم الجلالة (الله) بدل من محل (إله)، وهو الرفع. ويجوز أن يكون اسم الجلالة (الله) خبرًا لدال (إله) ([2]).

فإن قيل: ما فائدة حرف الجر الزائد (من) * وكان من الممكن أن يرد التركيب على هذا النحو (ما إله إلا الله)، ويكون دال (إله) مبتدأ واسم الجلالة (الله) خبره؛ لكون الاستثناء مفرغ، وأن اسم الجلالة (الله) جاء بعد (إلا) لحصر العبودية عليه واختصاصه بها؟

قلتُ: إن كان النحاة يرون أن حرف الجر (من) زائد من الناحية النحوية، فهو من الناحية البلاغية يفيد التأكيد. وقد أعجبني رأي الدكتور محمود سليمان ياقوت عندما قال بهذا ([3]).

وإذا رجعنا إلى سياق الآية الكريمة نجد أن الخطاب الإلهي هنا في هذا التركيب يحتاج إلى عملية التأكيد. لقد وردت الآية الكريمة في سياق عام يتناول قصة آل عمران، ثم تخصص السياق ليتناول موقف أهل الكتاب من سيدنا عيسى عليه السلام، وادعائهم ألوهيته.

([1]) وانظر كذلك : سورة (المائدة: 73) ، وسورة (ص: 65) .

([2]) انظر: محيي الدين الدرويش ، إعراب القرآن الكريم وبيانه ، المجلد الأول: 453 . وبهجت عبد الواحد صالح، الإعراب المفصل ، المجلد الثاني: 73 . ومحمود سليمان ياقوت . انظر: إعراب القرآن الكريم، المجلد الأول: 630 . غير أن (الواو) عنده عاطفة .

* زيادة هذا الحرف زيادة نحوية ، لا بلاغية . وعلى كل حال فأنا لا أرتاح أبدًا إلى هذا التعبير (حرف زائد) في القرآن الكريم .

([3]) انظر: إعراب القرآن الكريم ، المجلد الأول ، هامش: 630 .

يبدأ السياق الخاص للآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (آل عمران: 59)، وينتهي بقول (الله) سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران: 64).

وما بين البدء والختام، يتناول الخطاب القرآني نفي الألوهية عن غير (الله). وتأكيدًا لهذا النفي، جاء الجر(من) لينفي الألوهية عن سيدنا عيسى وعن غيره من البشر وغير البشر (ما من إله)، ليظل هذا التأكيد قائمًا، وليكون حجة على من يخالف هذا إلى يوم أن يرث (الله) الأرض ومن عليها.

وعلى المستوى العميق، يعضد حرف الجر (من) اتساع الدلالة المفهوم من حذف الخبر (لنا، موجود، قائم، كائن) - على قول الدرويش – ليؤكد شمولية النفي لوجود هذا (الإله) على أي وضع من الأوضاع، أو بأي شكل من الأشكال، سواء أكان من البشر أم من غير البشر. وهذه الشمولية هي المفهومة من كلام الزمخشري والبيضاوي عن أن (من) تفيد الاستغراق في النفي [1].

وإذا تأملنا علة البدء بدال (إله)، أي شغله لمنطقة المبتدأ، ألفينا أن السياق هو الذي فرض هذا؛ إذ يتناول السياق مسألة الألوهية، ومن ثم العبودية التي ادعاها أهل الكتاب لسيدنا عيسى عليه السلام. ولما كان ذلك كذلك استُهل التركيب بنفي العبودية (ما من إله)، ثم قصرها وحصرها في اسم الجلالة (الله).

---

[1] انظر: الكشاف ، الجز ءالأول: 363 . وقد تابعه في ذلك البيضاوي . انظر: شيخ زاده ، الحاشية على تفسير البيضاوي ، الجزء الثالث: 85 ، وأبو السعود . انظر: إرشاد العقل السليم ، الجزء الثاني: 47 . أما ابن عاشور ، فيرى أن دخول(من)الزائدة بعد حرف النفي تنصيص على نفي قصد الجنس؛ لتدل الجملة على التوحيد .انظر: التحرير والتنوير ، الجزء الثالث: 267.وانظر في معاني (مِنْ) وشروط زيادتها: ابن هشام ، مغني اللبيب: 358 .

2- دال (رب - إله) مبتدأ والخبر (الذي)

في بنية هذا الضرب من الخطاب يرد قول (الله) تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ **رَبِّيَ الَّذِي** يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (البقرة: 285). وقوله جل شأنه: ﴿**رَبُّكُمُ الَّذِي** يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ (الإسراء: 66). وقوله تعالى: ﴿قَالَ **رَبُّنَا الَّذِي** أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ (طه: 50).

إذا تأملنا دال (رب) في تلك الآيات القرآنية الكريمة، وجدناه قد أضيف إلى ضمائر مختلفة (ياء المتكلم – نا المتكلم – كاف الخطاب). لكن المهم أن منطقة الخبر شُغِلت في الآيات كلها بالموصول (الذي). ومن ثم يكفي تحليل نموذج واحد؛ للكشف عن جماليات اللغة في التكوين الأسلوبي للخطاب القرآني في خطاب الله سبحانه وتعالى عن نفسه بدال (رب).

إذا أخذنا قوله تعالى: ﴿**رَبُّكُمُ الَّذِي** يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ (الإسراء: 66) نموذجًا [1]، ألفينا أن دال (ربكم) مبتدأ ومضاف إليه، والاسم الموصول (الذي) خبر[2]. وبجانب الطبيعة الإخبارية للموصول (الذي)، أحيانًا يتلبس بالطبيعة الوصفية؛ أي يعرب صفة [3].

---

[1] تركنا الموضعين الأولين ؛ لدراستهما في قسم الخطاب (النبوي - البشري) ؛ إذ الموضع الأول يتناول محاجة بين سيدنا إبراهيم خليل الرحمن والنمرود ، ويمثل الثاني حوارًا بين سيدنا موسى كليم الله وفرعون .

[2] انظر: العكبري ، التبيان في إعراب القرآن ، القسم الثاني: 827 ، ومحيي الدين الدرويش ، إعراب القرآن الكريم وبيانه ، المجلد الرابع: 388 . وبهجت عبد الواحد صالح ، الإعراب المفصل ، المجلد السادس: 300 ، ومحمود سليمان ياقوت ، إعراب القرآن الكريم ، المجلد السادس: 2645 .

[3] انظر في الفرق بين خبرية الموصول ووصفها، عبد القاهر الجرجاني:دلائل الإعجاز: 200 ، 201 .

والمفهوم من كلام عبد القاهر في هذا الصدد، أن المتلقي – في حالة خبرية الموصول– يكون على علم بجملة الصلة، لكنه ليس على علم بتحديد صاحبها. أما في حال أن يكون الاسم الموصول (الذي) صفة، فإن المتلقي يعلم جملة الصلة ويعلم صاحبها.

وفي رأيي أن المخاطَب والسياق هما اللذان يحددان إعراب الموصول (الذي) إذا كان خبرًا أو صفة. ومن ثم عندما يجيز النحو التقعيدي أكثر من وجه إعرابي للدال الواحد، يكون هذا من باب التقعيد النحوي فحسب. أما في حالة التأويل، لا يمكن أن تتساوى دلالة هذه الأوجه، أي لا يمكن أن يكون الناتج الدلالي واحدًا.

ومن العجيب أنك تجد النحو التقعيدي يعرب الاسم الموصول (الذي) خبرًا أو صفة، في حالة كون المبتدأ اسم الجلالة (الله) ([1]). ويكتفي بإعراب الموصول (الذي) هنا خبرًا، مع أن المبتدأ هو دال (رب) العائد إلى اسم الجلالة (الله) سبحانه وتعالى أيضًا. ولكن كما قلتُ: إن الحكم والمرجع في كل هذا هو المخاطَب والسياق والآن نعود إلى الآية الكريمة؛ لمعرفة ما إذا كان الاسم الموصول (الذي) يقع في منطقة الخبرية أو الصفة.

ودراستنا لهذه الآية الكريمة تتمثل في العناصر الآتية: **أولًا** نوع المخاطَب. **ثانيًا**: مضمون الخطاب. **ثالثًا**: علة التعبير بدال (رب). **أخيرًا**: علاقة المخاطَب بجملة الصلة، ومن ثم التعرف على علة إعراب الاسم الموصول (الذي) خبرًا.

([1]) في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ **الَّذِي** رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ (الرعد: 2) أعرب محيي الدين الدرويش (الذي) خبرًا وأجاز أن يكون صفة . انظر: إعراب القرآن الكريم وبيانه ، المجلد الرابع: 64.في حين اكتفى الدكتور محمود سليمان ياقوت بإعرابه خبرًا . انظر:إعراب القرآن الكريم، المجلد الخامس: 2330 . والغريب أن محيي الدرويش لم يقدم وجه الصفة للاسم الموصول (الذي) إلا في هذا الموضع . لأن هذا التركيب (الله الذي) قد ورد اثنتي عشرة مرة ، مَثُلَ فيه الموصول(الذي) في منطقة الخبر لاسم الجلالة (الله) .

وفيما يخص العنصر **الأول**، فإن التأمل في الآية الكريمة، يهدينا إلى أن المخاطَب هم جماعة المشركين ([1]). ومخاطبتهم جاءت التفاتًا بعد انتهاء خطاب الحق سبحانه وتعالى مع إبليس الذي بدأ بقوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ (الإسراء: 61)، إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾(الإسراء: 65).

فكان من براعة هذا الالتفات التحذير من حبائل إبليس وحيله لمن يتبعونه في المقطع القرآني السابق. ولما كان من طبيعة الحال أنه لابد أن يخالف بعض ذرية آدم إبليس في وعده بالغواية والهلاك، وهم الذين أطلق (الله) سبحانه وتعالى عليهم(عبادي): (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ)، جاء الخطاب موجهًا للآخرين، وهم جماعة المشركين؛ للتحذير مما وعد به إبليس. وقد انتظم هذا الخطاب من الآية موضع الشاهد إلى قوله تعالى:﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾ (الإسراء:69).

وفي سياق هذا التحذير الإلهي لجماعة المشركين، كان التذكير بالنعم – وهو العنصر **الثاني** / مضمون الخطاب - من البلاغة بمكان؛ إن إجراء السفن / أي تسييرها وجريها في البحر بما فيه من الفوائد والنعم، ثم رحمته بهم من خلال إسداء هذه النعم، لهي ادعى إلى مخالفتهم لإبليس، وإخلاص العبادة (لله) جل في علاه. وتستمر النعم في الآية اللاحقة؛ من قبول لدعائهم وإنجائهم (وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ). ومع ذلك لم يصدر عنهم إلا الإعراض والكفر (فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا).

ولما لم يكن منهم إلا الإعراض والكفر، كان تقريعهم وزجرهم وإخافتهم: ﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا

([1]) انظر: الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، المجلد الخامس: 49 .

* أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾.

وإذا تتطرقنا إلى العنصر **الثالث** – التعبير بدال (رب) – ألفينا بلاغته من نواح ثلاثة: **الأولى** مرتبطة بالسياق الخاص للآية الكريمة. ولما كان هذا السياق يتناول نعم الخالق (يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ على الخلق / المخاطَب / المشركين، كان ذكر الربوبية أولى وأدعى؛ إذ من سمات الربوبية الاتصاف بالنعم على العباد: مؤمنهم وكافرهم.

الثانية: أن السياق العام للآية الكريمة، وهو سياق سورة الإسراء، بدأ بنعم الربوبية، المتمثل أعلاها في معجزة الإسراء نفسها ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى﴾، وما انبثق عن هذه النعمة من نعم لا تعد ولا تحصى.

الأخيرة: وهي ناتجة من الثانية، سيطرت دال (رب) على سورة الإسراء كلها. ومبعث هذا كما قلنا، تناول السورة للنعم المنبثقة عن النعمة الكبرى، المتمثلة في معجزة الإسراء. وفي الجانب الإحصائي، تم ذكر دال (رب) تسعًا وعشرين مرة، سواء أكان غير مضاف (رب)، أم مضافًا إلى الضمائر المتعددة (ربي، ربنا، ربك، ربكم، ربه، ربهم)، في حين بلغ تردد اسم الجلالة (الله) في السورة نفسها تسع مرات* . علمنا (الله) وإياكم، وغفر لنا ولكم.

أما العنصر **الأخير**، فيتمثل في علاقة المخاطَب بجملة الصلة (يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا). قلنا من قبل: إن المخاطَب هم المشركون، كما قال الإمام الطبري.

---

* بطبيعة الحال أن هذا الجانب الإحصـــائي لا ينبغي أن يرد إلا في إطار خدمة الجانب الدلالي ؛ لأنه لا يعمل لصالح نفسه . وهذا ما أبرزناه هنا . وعلى كل حال تحتاج هذه العملية الإحصائية في السورة الكريمة ما بين نسبة تكرار اسم الجلالة (الله) ، وتكرار دال (رب) إلى دراسة مستفيضة ، لا يتسع لها المجال هنا .

فإن قيل: لماذا أضاف دال (رب) إلى الضمير المخاطب الجمع (كم) وهو العائد إلى المشركين؟ قلت لسببين: **الأول** أنهم يقرون بنعم الربوبية، لكنهم يجحدون بالألوهية، واستحقاق (الله) للعبادة، فيشركون معه أصنامهم. فلما كانوا يعرفونه ربًا؛ إذ جميع الخلق مفطورون على الإقرار بالربوبية [1]، جاءت الإضافة. **الآخر**: لتأليف قلوبهم ولفت انتباههم واهتمامهم بالخبر الذي لا يعرفونه.

ولما كان المخاطَب من هذا الضرب، بما يوحي بعدم معرفته أن الرب العَلي هو من يجري له السفن بكل ما ينتج من ذلك من نعم، أُعْرِبَ الاسم الموصول (الذي) خبرًا؛ لأن المخاطَب يعرف مضمون جملة الصلة (يزجي لكم...)؛ فهو يعيشها في ترحاله، لكنه لا يعرف من المتفضل عليه بذلك [*]. وهو ما ذهب إليه عبد القاهر، كما قلنا في الصفحات السابقة.

فإذا قيل: إذا كان المخاطَب يعرف مضمون جملة الصلة، ولا يعرف صاحبها في حال إعراب الموصول خبرًا، ويعرفه في حال إعراب الموصول صفة، كما طرح عبد القاهر، وقد بَيَّنْتَ الضرب الأول – خبرية (الذي) - في التحليل الأخير، إذا ذلك كذلك، فهلا ضربتَ مثالًا للنوع الثاني، المتمثل في إعراب الموصول صفة؟.

قلتُ: نعم، لكن نعيد أولًا ما ساقه عبد القاهر في الموصول (الذي) حالة كونه صفة. يقول شيخ العربية: " والقول البيِّنُ في ذلك أنْ يُقَال: إنه إنما اجْتُلِبَ حتى

---

(1) انظر: صالح بن فوزان الفوزان ، عقيدة التوحيد: 22 ، 23 .

[*] في بعض الفلسفات الواقعية ، مثل الوجودية والظاهراتية والدهرية والطبيعية ...إلخ ، يُطرح هذا الفكر ، وهو أن أصحاب هذه الفلسفات يعزون كل المشاهد والتغيرات الكونية إلى الطبيعة والدهر، حتى الموت . وإن شئت اقرأ قوله:﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾(الجاثية:24).أي أنهم ينعمون بنعم (الله)، ولا ينسبونها إليه، ولا يشكرونه عليها؛جحودًا ونكرانًا، فأُنْزِلوا منزلة الجاهل بالشيء.لذا كان(الذي)خبرًا .

إذا كان قد عُرِفَ رجلٌ بقصة وأمر جَرَى له، فتَخَصَّصَ بتلك القصة، وبذلك الأمر عند السامع، ثم أُرِيدَ القصد إليه، ذُكِرَ (الذي) "([1]).

والآن، إذا تأملنا قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ **رَبِّيَ الَّذِي** يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ (البقرة: 258) [*].

وجدنا أن الموصول (الذي) يُعرب خبرًا في النحو التقعيدي ([2]).

وإذا دققنا النظر في علاقة جملة الصلة وهي قوله تعالى: (يُحْيِي وَيُمِيتُ) بالمخبَر عنه (ربي)، الذي شغل منطقة المبتدأ، ألفيناها صفة أصيلة من صفات المولى عز وجل؛ لذا كان من أسمائه الحسنى: المحيي والمميت. ولا ينازعه في ذلك أحد أبدًا.

فإن قيل: إذا كان ذلك كذلك، فلماذا أُعْرِبَ الموصول خبرًا في النحو التقعيدي، ولم يُعْرب صفة؟ قلتُ – والله بالحقيقة عليم -: إعراب الموصول خبرًا جاء من جهة المخاطَب وهو النمرود بن كنعان؛ إذ لا يعرف من يحي ويميت، سواء أكان ذلك جهلًا منه، أو نكرانًا وجحودًا، فَنُزِّلَ منزلة الجاهل. لذا كان هدف الخطاب متمثلًا في إخباره بحقيقة مَنْ يحي ويميت.

([1]) انظر: دلائل الإعجاز: 200 .

[*] ذكرتُ من قبل: أنني سأترك هذه الآية الكريمة لدراستها في الخطاب (النبوي – البشري) ، لكن التركيز هنا سينصب على الاسم الموصول (الذي) فحسب دون الدخول في تفاصيل دراسة الخطاب .

([2]) انظر: محيي الدين الدرويش ، إعراب القرآن الكريم وبيانه ، المجلد الأول: 339 ، وكذلك محمود سليمان ياقوت ، إعراب القرآن الكريم ، المجلد الأول: 465 ، ومحمد حسن عثمان ، إعراب القرآن وبيان معانيه ، المجلد الأول: 651 . أما بهجت عبد الواحد صالح فقد أعرب (الذي) خبر لمبتدأ محذوف تقديره (هو) ، والجملة (هو الذي) في محل رفع خبر (ربي) . انظر: الإعراب المفصل ، المجلد الأول: 358 . ولا أدري لماذا قَدَّر المبتدأ !!! .

أما من ناحية المخاطِب – سيدنا إبراهيم عليه السلام – فإنه يعرف مضمون جملة الصلة، ويؤمن بنسبتها إلى صاحبها (ربي)، ويؤمن كذلك بأن الإحياء والإماتة صفتان من صفات المولى عز وجل.

فإذا تأملنا الموصول - وفق هذا الطرح، ووفق ما ذهب إليه عبد القاهر – وجدنا أنه صفة، لكنه من جهة المخاطِب، وليس المخاطَب [*].

ولما كان النحو التقعيدي لا يتدخل كثيرًا، أو ربما نهائيًا في عملية السياق والدلالة، فإن طرحه للمسألة الإعرابية يرد وفق القواعد المنصوص عليها في كتب النحو المتعددة [*].

لكن ينبغي أن يُعلم ان التعبير بدال(رب) الذي يضم في طياته نعم الربوبية، لا يساق لمجرد اطلاع المخاطَب أو إخباره بهذا فحسب، إنما يساق لحث المخاطَب

---

[*] فإن قيل: إذا كان ذلك كذلك –أي إيمان سيدنا إبراهيم بأن (الله) هو المحيي المميت – فما القول في قوله:﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾(البقرة:260)؟ قلت: السؤال هنا عن الكيفية وليس عن عملية الإحياء ذاتها.يعضد هذا تفاصيل الكيفية في تجميع الطير وتقطيعها، ثم إحيائها من قِبَلِ (الله) في مشهد عيني ، بعدما سبقه مشهد آخر:﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ مع نبي (الله) العزير .ففي هذه الأمثلة وغيرها، الحديث فيها عن الكيفية ، أما الإيمان بأن (الله) هو المحيي المميت ، فهو ثابت . ولِمَ لا وهم الأنبياء؟!!! .

[*] سبق أن عرضت مثل هذا الطرح في اختلاف الدلالة بين المبتدأ والخبر في قوله (ربي الله) ، عندما أجاز النحو التقعيدي أن يعرب اسم الجلالة (الله) خبرًا أو مبتدأ مؤخرًا . وقلتُ في حينها: إن السياق يقتضي البدء بدال (رب) انظر هذا بالتفصيل ، هذه الدراسة: 19 – 26 . فهل يمكن القول: إننا في حاجة إلى تقديم إعراب جديد للقرآن الكريم ، مبنيًا على فاعلية السياق ، ومؤسَّسًا على التأمل ، ومتكئًا على عملية التأويل في إنتاج الدلالة القرآنية؟!!! . ربما . وهل يُعد ما طرحناه هنا من إمكانية إعراب الاسم الموصول صفة من جهة المخاطِب ، فضلًا عن كونه خبرًا من جهة المخاطَب / السامع – كما قال عبد القاهر – إضافة حقيقة لما قدمه عبد القاهر ؛ إذ لم يذكر عبد القاهر دور المخاطِب أو أثره في علة إعراب الموصول خبرًا أو صفة؟ وبخاصة أن عبد القاهر لم يذكر لنا مثالًا من القرآن لإعراب الموصول صفة؟!!! .

ولفت انتباهه إلى الدخول في منطقة توحيد الألوهية، الذي يعني عبادة (الله)، وتفرده بها، وإخلاصها له، وبخاصة إذا كان المخاطَب من ضرب الكفار، أو من المشركين، أو من أهل الكتاب.

وفي هذه الآية الكريمة، كأنه قيل: إذا كان ربكم هو الذي يسير لكم الفلك ويسخر لكم البحر؛ رحمة بكم، ويجيب دعاءكم دون ما تدعون من غيره...إلخ، فلِمَ تعرضون عنه، وتعبدون غيره؟ ويؤكد هذا الطرح، خطاب التهديد الذي شمل هاتين الآيتين: ﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا * أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾.

وكأنه قيل – كذلك–: إذا كنتم تؤمنون بنعم الربوبية فحسب؛ لانتفاعكم بها، ولا تعبدون هذا الرب، بوصفه الإله الأحد، فإن إيمانكم بنعم الربوبية لا ينفعكم في الآخرة. وإذا كنتم لا تؤمنون بوجود الآخرة ولا تعتقدون بيوم الحساب، فهل أَمِنْتُمْ على أنفسكم في الدنيا التي تحيون فيها أن يفعل (الله) بكم كذا وكذا؟!!!.

وهذا ما نؤمن به، ونذهب إليه، بل ونؤكد عليه كثيرًا، وهو أن المجيء بدال (رب) أو (إله) بما يضمانه من دلالات فيما يردان من خطابات القرآن الكريم، دائمًا وأبدًا يهدفان إلى وجوب تحقيق إفراد (الله) بالعبادة، ولا يأتيان لمجرد الإخبار؛ إذ العبادة هي هدف خلق الإنسان نفسه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات: 56). لذا كانت الدعوة إلى عبادة (الله) سبحانه وتعالى، وإفراده، والإقرار بوحدانيته، والإخلاص له هي سبب بعث الأنبياء والرسل ([1]).

وكما ذهبنا في موضعه في الكتاب الأول، أحيانًا يحذف دال (رب) ويرد الاسم الموصول (الذي) صفة له متخذًا رتبته النحوية. وذلك مثل قول (الله) تبارك تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ (الزخرف: 13)، وقوله سبحانه

([1]) جدير بالذكر أن لفظ (إله) لم يرد في منطقة المبتدأ مُخْبَرًا عنه بالاسم الموصول (الذي) .

وتعالى: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾ (الكهف: 37). وقوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (فصلت: 9) ([1]).

3 – دال (رب – إله) مبتدأ والخبر جملة فعلية *

وكما قلنا من قبل: إن دال (رب) ورد في منطقة المبتدأ مضافًا إلى الضمائر المتصلة المتنوعة؛ لذا نختار بعضها هنا. وفي البنية التكوينية للخطاب في هذا الضرب، حالة إضافة إضافة دال (رب) إلى الضمير المفرد المتكلم (ي) يرد قول (الله) تعالى: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (الأنبياء: 4). وفي ضمير (نا) يرد قوله سبحانه وتعالى: ﴿قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾ (يسن: 16). وفي

([1]) لعدم الإطالة ، ينبغي الرجوع إلى الكتاب الأول: ص: 123 - 131. وفيما يخص ورود دال (رب – إله) مبتدأ والخبر (جملة اسمية) ، لم يرد مثل هذا التركيب في القرآن الكريم .

* شـرط الخبر الجملة ، سـواء أكانت الجملة اسـمية أم فعلية أن تحتوي على ضـمير يربطها بالمبتدأ . انظر: ابن السراج ، الأصول في النحو ، الجزء الأول: 64 ، وابن يعيش ، شرح المفصل ، الجزء الأول: 233 . وقد ذكر ابن عقيل شروطًا أخرى منها: أن يكون هذا الرابط اسم إشارة مثل قوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ (الأعراف: 26) في قراءة من رفع (اللباس) ، أو تكرار المبتدأ بلفظه . وأكثر ما يكون في مواضع التفخيم مثل قوله تعالى: ﴿الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ﴾ (الحاقة: 1 ، 2) و قوله: ﴿الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ﴾ (القارعة: 1 ، 2) ، أو عمومٌ يدخل تحته المبتدأ نحو: (زيد نعم الرجل) . انظر: شرح ابن عقيل ، المجلد الأول ، الجزء الأول: 203 ، 204 .

أما الشيخ محيي الدين عبد الحميد ، فقد أضاف شروطًا أخرى منها: ألا تكون جملة الخبر ندائية ، وألا تكون مصدرة بأحد الحروف: (لكن ، بل ، حتى) . وقد زاد ثعلب شرطًا آخر هو ألا تكون جملة الخبر قَسَمِيَّة ، كما زاد ابن الأنباري شرطًا آخر: هو ألا تكون جملة الخبر إنشائية . انظر: ابن عقيل ، شرح ابن عقيل ، المجلد الأول ، الجزء الأول : هامش: 203 .

أما إذا كان الخبر هو المبتدأ في المعنى فلا حاجة للرابط ، مثل (نطقي حسبي الله) ، أو (قولي لا إلا إلا الله) . انظر: ابن السراج ، الأصول في النحو ، الجزء الأول: 62 ، وكذلك ابن عقيل : شرح ابن عقيل ، المجلد الأول ، الجزء الأول: 204 .

ضمير (الكاف) يرد قوله تعالى: ﴿**وَرَبُّكَ يَخْلُقُ** مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (القصص: 68) ([1]).

أما الموضع الأول، فسنقف فيه على النقاط الآتية: **أولًا** التعبير بدال (رب) بدلًا من اسم الجلالة (الله). **ثانيًا**: علة التعبير بصيغة المضارع (يعلم). **أخيرًا**: فائدة ذكر السموات والأرض، ثم تذييل الآية بخاتمة (وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ).

وقبل الدخول في عملية التحليل، ننظر السياق الذي وردت فيه الآية الكريمة. لقد وردت الآية الكريمة في صدر سورة الأنبياء الذي بدأ بقوله سبحانه وتعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ * مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ (الأنبياء: 1-3).

والمفهوم من مضمون الآيات أنها وردت في سياق إعراض الكفار عن اتباع الحق والصد عنه، رغم اقتراب الساعة ودنو الحساب. وكان من أهم عناصر الإعراض عن الحق اعتراضهم على بشرية الرسول، ونعتهم القرآن بأنه سحر.

لكن اللافت للنظر أن الكفار عندما يمارسون عملية الاعتراض هذه كثيرًا ما يتخذون الإسرار لحافًا لهم. وإن شئت اقرأ قول الله تعالى: ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى * قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى*فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى﴾ (طه:62 - 64)، وقوله تعالى: ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (الملك: 13، 14).

في هذا السياق وردت الآية الكريمة محكية عن قول النبي ﷺ لهؤلاء المعرضين عن اتباع الحق (قال ربي) [*].

([1]) وانظر كذلك: سورة (القصص: 69) .

[*] هناك قرآتان للفعل (قال): إحداهما بصيغة الأمر (قل) ، والأخرى بصيغة الماضي (قال) . انظر: الداني ، التيسير في القراءات السبع: 436 .

وإذا جئنا إلى النقطة **الأولى**، ألفينا أن التعبير بدال (رب) له وجاهته البلاغية من نواح عدة: **أولها** أن اصطفاء (الله) جل في علاه لبشر من جنس الناس ليبلغهم مراده من الخلق يعد رحمة ببني البشر؛ إذ لو كان الاصطفاء لملَكٍ لقالوا: كيف نفهم منه. ومع ذلك اعترضوا على بشرية الأنبياء [*]. ولما كانت الرحمة من سمات الربوبية، كان ذكر (رب) أبلغ.

ثانيها: أن إنزال الكتب لإخبار الله عن نفسه (مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ)، وهدايتهم إلى عبادته، يرد كذلك في إطار الرحمة التي تندرج–كما قلنا–تحت سمات الربوبية.

ثالثها: أن النبيﷺ خاطبهم بالربوبية التي يعرفونها؛ إذ إنهم يعرفون الرب، ويكمن الاعتراض في عبادته بوصفه إلهًا. ومن الثابت أن الإيمان بالربوبية إن لم يمثل مدخلًا إلى الإيمان بالألوهية لم يؤت ثماره المرجوة منه.

آخرها: تَقَدُّم ذكر دال (رب) في قوله تعالى: (مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ). فإن قيل: لماذا أضاف (رب) إلى ضمير الغائب الجمع (هم)، العائد على المعرضين عن الحق، في حين أضافه إلى الضمير المتكلم المفرد (ي) العائد إلى النبي ﷺ في موضع الشاهد (قال ربي)؟ قلتُ: هذا سؤال وجيه.

وتكمن الإجابة – والله بالحقيقة عليم – في أن إضافة الرب إلى (هم)، تؤكد انفطار الخلق على الإيمان بالربوبية، كما مر بنا في غير موضع؛ إذ إنهم يحيون في نعمها شاؤوا أم أبوا. والحق سبحانه وتعالى عندما ينزل إليهم الذكر، ينزله بسمات ربوبيته لهم.

أما في جانب النبيﷺ فقد وردت الإضافة إلى (الياء) لإيمان النبي بألوهية الرب، وأن علم الرب سبحانه بقول هؤلاء يعلمه النبي ﷺ دونهم. كأنه قيل: إذا

---

[*] انظر: سورة (الأنعام: 91) ، وسورة (هود: 27) ، وسورة (إبراهيم: 10) ، وسورة (النحل: 103) ، و (الإسراء: 94)، و(المؤمنون: 24، 33، 34 ، 47) ، و(الشعراء: 154 ، 186) ، و(يسن: 15) ، و(القمر: 24) ، و(المدثر: 25) .

كنتم تؤمنون بنعم الربوبية فحسب دون الإيمان بالألوهية، وهو ما جعلكم تظنون أن الرب لا يعلم قولكم؛ لذلك تسرون النجوى، فأنا أؤمن به ربًا وإلهًا. ولما كان ثم اختلاف في مفهوم الربوبية، حدث تغاير في الضمير المضاف، ولم يقل: (قال ربكم)، بل قال: (قال ربي). علمنا الله وإياكم، وغفر لي إن أخطات التأويل.

أما التعبير بصيغة المضارع (يعلم) – **النقطة الثانية** - فله وجاهته كذلك من ناحيتين: **الأولى** أن السياق اللغوي للآيات الكريمة يدور في إطار المضارع، سواء أكان ذلك على مستوى الأفعال أم الأسماء؛ ففي الأفعال ثَمَّ (يَأْتِيهِمْ، يَلْعَبُونَ، أَفَتَأْتُونَ، تُبْصِرُونَ). وعلى مستوى الأسماء، ثم اسم الفاعل (مُعْرِضُونَ، لَاهِيَةً).

الأخرى: أن صيغة المضارع (يعلم) تنسحب على كل الأزمنة، مما يدرأ الشك ويدفع الظن بأن (الله) يعلم في أوقات محددة، ولا يعلم في أخرى. واستخدم (يعلم) دون غيره من حقل المعرفة؛ لتسلط دلالة العلم على الدواخل فضلًا عن الخوارج من الكلام.

أما النقطة **الأخيرة**، فإن استدعاء (السماء والأرض) ودخولهما في علم (الله)من شأنه أن يزرع الخوف في قلوب المسرين للنجوى؛ إذ كيف بمن يعلم القول في السماء والأرض ألَّا يعلم ما يقول هؤلاء؟!!. ثم تأتي الخاتمة(وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) لتتسلط دلالة السمع على قول هؤلاء، ودلالة العلم على ما يخفون في نفوسهم.

وبتأمل خاتمة الآية (وهو السميع العليم)، نجد أن فاصلتها شُغلت باسم (الله) (العليم). والمتأمل في دال الفاصلة (عليم) يدرك أنها من ضرب التصدير[1].

([1]) انظر في ضرب التصدير في فواصل الآيات القرآنية: الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، الجزء الأول: 78 ، والسيوطي:الإتقان في علوم القرآن: 621 . وانظر: كتابنا (خواتم الآيات): 85 – 90.

والتصدير من شأنه تأكيد الدلالة. والجمع بين(السميع) و(العليم)، يجعل المخاطَب يتأكد من كشف ستره، وافتضاح أمره، وإخفاقه في إخفاء ما يريد[*].

4- دال (رب- إله) مبتدأ مؤخر

هنا يرد قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ **مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ** غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (الأعراف: 59) ([1]). وبالتأمل الإعرابي لموضع الشاهد يدرك أن (ما) نافية، و(لكم) جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم، و(من) حرف جر زائد، و(إله) مبتدأ مؤخر مرفوع لفظًا مجرور محلًا، و(غير) صفة ل(إله) ([2]).

وإذا كنا قد عالجنا دخول حرف الجر (مِنْ) الزائد نحويًا على المبتدأ سابقًا، فستنصب القراءة هنا على عناصر ثلاثة: **الأول** مجيء دال (إله) وليس دال (رب). **الثاني:** بنية التقديم والتأخير، أي تقديم المتعلق بالخبر (لكم) على المبتدأ (إله). **الأخير**: أثر التركيب في إنتاج الدلالة القرآنية على أبهى ما يراد لها من بلاغة وإعجاز.

وفيما يخص العنصر الأول، فإنه لما كان سياق الآية الكريمة يتناول دعوة سيدنا نوح - عليه السلام - قومه لعبادة (الله) سبحانه وتعالى (يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ)، كان مجيء دال (إله) / أي المعبود أوقع وأنسب؛ لكون الحديث حديث عبادة؛ أي ما لكم من معبود غيره.

---

[*] في الآية ومضات بلاغية أخرى ؛ مثل التعبير ب(القول) بدلًا من (السر)، وتعريف (القول) ، ومقارنة دال (القول) بدال (السر) في (الفرقان: 6)..إلخ. يرجى العودة إلى التفاسير . ولعدم الإطالة ، نكتفي بتحليل هذا النموذج .

([1]) وانظر: السورة نفسها: 65 ، 73 ، 85 . وكذلك(هود: 50 ، 61 ، 84)، و(المؤمنون: 23 ، 32) . أما في موضع (الطور) ، فقد جاء ضمير الغيبة (هم) بدلًا من المخاطب(كم) لدواعي السياق . وهذا الموضع هو المتمثل في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (الطور: 43) .

([2]) انظر: محيي الدين الدرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه ، المجلد الثاني: 569 . وبهجت عبد الواحد صالح، الإعراب المفصل ، المجلد الثالث: 445 ، وكذلك الدكتور محمود سليمان ياقوت ، إعراب القرآن الكريم ، المجلد الرابع: 1609 ، 1610 .

أما بنية التقديم، فلها مبرران: **الأول** أنها جاءت متسقة مع خصائص اللغة العربية في بناء أسلوبها. ولما ورد ذكر القوم أولًا (يَا قَوْمِ)، ورد ما يعود إليهم في الخطاب المنفي (ما لكم)، ولما ثنَّى التركيب الأول بالأمر بالعبادة (اعْبُدُوا اللَّهَ)، ورد المعبود في منطقة المبتدأ المؤخر (من إله غيره).

الآخر: أن عملية نفي وجود معبود غير (الله) من المسلمات التي ينبغي التأكيد عليها في كل زمان ومكان. ولما كان كل نبي حريصًا على قومه من أن يتخذوا غير (الله) معبودًا لهم، ورد ذكرهم أولًا (لكم) * . وكان من نتيجة هذا الحرص أن الحق سبحانه وتعالى خاطب النبي ﷺ بقوله: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ (الكهف: 6)، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء: 3)، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (القصص: 56). وغير ذلك كثير.

فإن قيل- **وهو العنصر الأخير** -: ما فائدة هذا التركيب (مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ) إذا كان الأمر بعبادة (الله) جل في علاه (يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ)، مع حرص سيدنا نوح عليه السلام (إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) تستقيم به الآية، ومن ثم يعد هذا التركيب من قبيل الجملة الاعتراضية؟

قلتُ – و(الله) سبحانه وتعالى أعلم بمراده -: إذا وردت الآية على هذا النحو (يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)، فقد يُفهم منها جواز عبادة غير (الله) ولكون (الله) هو الذي يحاسب في الآخرة (يَوْمٍ عَظِيمٍ)، وليس الشركاء، جاء الأمر بعبادته مع الشركاء، حرصا من سيدنا نوح على قومه من أن ينالهم عذاب (الله) يوم الحساب.

ولما كان الأمر خلاف ذلك، بأن (الله) سبحانه وتعالى فضلًا عن امتلاكه لليوم العظيم في الآخرة، وأحقيته للعبادة، ليس له شريك يُعْبَدُ في الدنيا، كان التركيب (مَا

(*) وهو ما نلحظة في هذا التركيب المكرر في القرآن الكريم في تسعة مواضع .

لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)؛ أي ما لكم من إله غيره يُعبدُ في الدنيا، وما لكم من إله غيره يحاسبكم في الآخرة، لذا كان خوف سيدنا نوح على قومه.

ومن هنا أثبت هذا التركيب إفراد (الله) سبحانه وتعالى بالعبادة – وليس مجرد أحقيته في العبادة فحسب؛ لأن هذه الأحقية مفهومة من الأمر في (اعْبُدُوا اللَّهَ) – دون غيره.

وحتى في مجيء الصفة (غيره) نكتة بلاغية؛ متمثلة في أنه لو لم ترد هذه الصفة، وورد التركيب هكذا (ما لكم من إله) لنفى وجود المعبود: (الله) وغيره، ولغدا هذا التركيب مقابلًا للأول (اعْبُدُوا اللَّهَ)، وإنما دلت الصفة على إثبات العبودية (لله)، ونفيها عن غيره.

5- دال (رب – إله) مبتدأ والخبر شبه جملة

وفي بنية هذا الضرب من الخطاب القرآني يقول (الله) تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ (النمل: 60) ([1]).

والمتأمل في بنية الخطاب (**أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ**) يجد في إعراب دال (إله) أن الهمزة للاستفهام الإنكاري المتضمن معنى النفي، و(إله) مبتدأ، وساغ الابتداء به لإفادته بسبب الاستفهام. و(مع الله) ظرف متعلق بمحذوف خبر ([2]).

([1]) وانظر: السورة نفسها: (61 – 64) .

([2]) انظر: محيي الدين الدرويش ، إعراب القرآن الكريم وبيانه ، المجلد الخامس: 539 . وبهجت عبد الواحد صالح ، الإعراب المفصل ، المجلد الثامن : 326 ، ومحمود سليمان ياقوت ، إعراب القرآن الكريم ، المجلد السابع: 3430 . ويحسن الرجوع في مسوغات الابتداء بالنكرة إلى كل من: ابن السراج ، الأصول في النحو ، الجزء الأول: 59 ، 60 ، وابن يعيش ، شرح المفصل ، الجزء الأول: 225 ، 226 ، والرضي ، شرح الرضي على الكافية ، الجزء الأول: 230 – 236 ، وابن عقيل ، شرح ابن عقيل ، المجلد الأول ، الجزء الأول: 189 - 199. وفي قراءة أخرى (أإلهًا) بمعنى: أتدعون ، أو (أتشركون) . انظر: الزمخشري ، الكشاف ، الجزء الثالث: 364 . ومحيي الدين شيخ زاده:

وقد رد الإمام الطبري قوله (أإله) على تأويل: أمع الله إله؟ [1]. ويقول الإمام القرطبي:" وقيل: (إله) مرفوع ب(مع) تقديره: أمع الله – ويلكم – إله؟ [2].

أما الإمام البقاعي فقد قدر خبرًا محذوفًا، أي (أإله كائن)[3]. وأضاف الإمام الألوسي على البقاعي صفة ل(إله) فقال:" أي أإله آخر كائن مع الله " [4].

نحن الآن إزاء آراء عدة من جهتين: جهة لغوية - تفسيرية، وجهة قرائية. أما الجهة اللغوية – التفسيرية، فقد تمثلت في كون دال (إله) مبتدأ، سواء أكان في موضعه – كما قال الدرويش–أو في حالة تأخير– كما فُهِمَ من طرح الإمامين: الطبري والقرطبي. ومن الطبيعي أن كل هذه المنطلقات النحوية، تُتبع بجوانب تفسيرية تستنطق الدلالة القرآنية من خلال الرتب النحوية لدوال التراكيب.

وإذا كان (مع الله) ظرفًا ومضافًا إليه متعلقًا بخبر – كما طرح الدرويش – فقد قدر الإمام البقاعي هذا الخبر في دال (كائن)، وأضاف إليه الإمام الألوسي صفة لدال (إله) مقدرة بدال (آخر). كما أضاف الإمام القرطبي خبرًا آخر في موضع الآية (62) مقدرًا بالزمن (يفعل)، كما هو مبين في هامش الصفحة السابقة.

أما الجهة القرائية، فقد تمثلت في قراءة دال (إله) بالنصب(أإلهًا) على تقدير (أتدعون–أتشركون) كما ورد عند الزمخشري، وتابعه في ذلك كل من الإمام البيضاوي، وشيخ الإسلام أبو السعود.

الحاشية على تفسير البيضاوي ، الجزء السادس: 409 . و أبي السعود: إرشاد العقل السليم، الجزء السادس: 294 .

(1) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، المجلد الخامس: 574 .

(2) انظر: الجامع لأحكام القرآن ، الجزء السادس عشر: 192 . وفي موضع الآية 62 يقول في (أإله) – إضافة إلى الوجه الأول الذي قدمه في موضع الشاهد -: " ويجوز أن يكون – أي إله – مرفوعًا بإضمار (أإله مع الله يفعل ذلك فتعبدوه) " . انظر: السابق: 195 .

(3) انظر: نظم الدرر ، الجزء الرابع عشر: 188 .

(4) انظر: روح المعاني ، الجزء العشرين: 5 .

والآن، ألم تمثل كل هذه الاجتهادات اللغوية المتبعة بالجوانب التفسيرية تطبيقًا حرفيًا لجماليات التلقي؟ بلى. إن اجتهاد علماء اللغة وعلماء التفسير على هذا النحو المبدع، ليعد تمثيلًا رائعًا لما تميزت به نظرية التلقي في جانبها الإجرائي المُسَمَّى بملء فراغات النص [1]، المعتمد في أساسه على أفق توقعات القارئ المتلقي[2].

وإذا ذهبنا إلى هذا، وقلنا: إن معظم مناهج النقد الأدبي الحديث، وبخاصة المناهج الحداثية (بنيوية وسيميولوجية وأسلوبية وتلق ونقد ثقافي...إلخ) لها جذور في تراثنا النقدي، نُتَّهم بالرجعية والتحيز إلى التراث العربي !!!!.

والآن، نناقش علة البدأ بدال (إله) في منطقة المبتدأ، وعدم تأخيره، وذلك من خلال طرح هذا السؤال: أَمِنَ البلاغة بمكان أن يقع دال(إله) في رتبته الطبيعية، أي في منطقة الصدارة لكونه مبنيًا على الاستفهام، أم يؤخر، كما طرح الإمامان: الطبري والقرطبي؟.

إن تأمل صدر الآية حتى موضع هذا التركيب يبين أن الخطاب يتناول نعم (الله) على الخلق ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ

---

[1] انظر في ملء فراغات النص:روبرت هولب، نظرية التلقي ، ترجمة الدكتور عز الدين إسماعيل ، النادي الأدبي الثقافي بجدة – المملكة العربية السعودية ، الطبعة الأولى ، 1415هـ – 1994م: 91 ، 92 . وقد أطلق (إيزر) على هذه الفراغات (السلب) أي الجزء المحذوف أو الموارى من النص . انظر: السابق: 223 – 228 . وانظر كذلك في ملء الفراغات: رامان سلدن ، النظرية الأدبية المعاصرة ، ترجمة الدكتور جابر عصفور ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، الطبعة الثانية ، مارس 1996م: 202 ، وكذلك تيري إيجلتون ، مقدمة في نظرية الأدب ، ترجمة أحمد حسان ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، سبتمبر 1991م: 97 ، 98 . ونيوتن ، نظرية الأدب في القرن العشرين، ترجمة عيسى علي العاكوب، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الطبعة الأولى 1988م: 231 .

[2] انظر في أفق توقعات القارئ: روبرت هولب ، نظرية التلقي: 157 ، ورامان سلدن ، النظرية الأدبية المعاصرة: 210 ، 211. وانظر في علاقة الفهم بأفق التوقعات ، تيري إيجلتون: مقدمة في نظرية الأدب: 92. وعلى كل حال يحتاج هذا الموضوع إلى دراسة مستفيضة ، خاصة به ، لا يسعنا أن نقدمها الآن .

حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾؛ فخلق السموات والأرض، وإنزال الماء من السماء، وإنبات الحدائق ذات البهجة، مع إظهار عجز الإنسان عن ذلك، لهي من اختصاص الباري عز وجل. ولما كان هذا من الوضوح بمكان، وانصرف المنصرفون عن عبادة (الله) فاعل كل هذا، كان من البلاغة أن يُطرح السؤال لإنكار وجود من يفعل هذا مع (الله)، المتمثل في المعبودين من دون (الله). فالسؤال هنا لإنكار المعبود من دون (الله)، وليس عن المعية. ومن ثم حاز التركيب على بلاغة لم يحزها لو أُخر المبتدأ (أمع الله إله).

فإن قيل: ألم يكن في الإمكان أن يرد التركيب معتمدًا على دال (غير) لا دال(مع) لينفي أن يكون غير (الله) قادرًا على هذا؟ قلتُ: في عُرف العبادة يكون من العيب أن يكون المعبود في حاجة إلى من يعينه على فعل شيء. ولأنهم يؤمنون بأن (الله) هو فاعل كل هذا (بداية من الآية 60 حتى الآية 64)، كما ذهبنا في مواضع كثيرة من قبل، جاءت (المعية) هنا للتوبيخ والاستهزاء بعقولهم؛ إذ كيف تقرون باختصاص (الله) بهذا وتعبدون معه غيره؟!!!.

وقد تجلى هذا الاستهزاء بأحلام هؤلاء في تنوع مضامين خواتم الآيات التي تضمنت هذا السؤال: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، ﴿قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

وبهذا يكون هذا التركيب، بما بُني عليه من الابتداء بدال (إله)، والاعتماد على بنية الاستفهام أن يثبت المضامين الآتية: **أولًا** إنكار ونفي أن يكون مع (الله) إله يفعل هذا على أي نحو من الأنحاء المفهومة من اتساع الدلالة من خلال الفضاء اللغوي الذي ملأه علماؤنا المفسرون. **ثانيًا:** - وهو نتيجة للأول – إثبات اختصاص (الله) جل في علاه بفعل هذا دون غيره. **ثالثًا:** بيان سفه هؤلاء من خلال دال (مع) – كما بينا في التحليل السابق. **أخيرًا:** إبهات المخاطَب – وهم كفار – وتخزيتهم وتعريتهم أمام أنفسهم من خلال اعتماد التركيب على بينة الاستفهام، مع ترك الجواب لهم.

المبحث الثاني: دال (رب - إله) ضمير في موقع المبتدأ

1- دال (رب - إله) ضمير مبتدأ (أَنَا)

لقد ورد دال (رب) في صورة ضمير المتكلم المفرد (أنا) في موقع المبتدأ في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: 92) ([1]). والمتأمل يجد أن دال (رب) قد شغل في الوقت نفسه منطقة الخبر، مضافًا إلى ضمير الجمع المخاطب (ربكم).

وقد ورد هذا الخطاب في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾. إن التأمل في سياق الآية، يجد أن سياقها العام يبدأ من قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ﴾ (الأنبياء: 48)، ثم تتتابع الآيات الكريمة حتى قوله تعالى: ﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ (الأنبياء: 91).

وفي هذا الخطاب الإلهي، نجد أنفسنا أمام ثلاثة مظاهر لغوية: **الأول** انشغال منطقة الابتداء بضمير المتكلم المفرد (أنا) العائد إلى دال (رب)، الذي شغل منطقة الخبر. **الثاني** اعتماد منطقة الخبر على دال (رب) وليس اسم الجلالة (الله)، ولا دال (إله). **الأخير**: تذييل الآية بالعبادة (فَاعْبُدُونِ).

وفيما يخص المظهر **الأول**، نجد أنه ضم عنصرين لغويين: **الأول** ذكر المبتدأ [*]، **والآخر**: انبناء منطقة المبتدأ على ضمير المتكلم المفرد (أنا).

إن من يقرأ الآية الكريمة عليه أن يتخيل هذا المشهد: الحق سبحانه وتعالى يخاطب الناس (إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً)، ثم بعد أن يفرغ من إخبارهم بتوحد

([1]) وانظر سورة (المؤمنون: 52) . و سورة (طه: 12) . وسنكتفي بدراسة موضع واحد ؛ منعًا للإطالة .

(*) كما أن حذف المسند إليه أو المسند يرد لدواع بلاغية ، فإن ذكرهما لا يخلو من دواع بلاغية كذلك .

ملتهم، يذكر المبتدأ (أنا) لإظهار عظمته، وزيادة الإيضاح والتقرير [1]، ولفت انتباه المخاطَبين إلى عدم التخبط في البحث عن الخالق العلي.

أما العنصر **الآخر** الذي يخص المبتدأ، فقد تم انبناؤه على ضمير المتكلم المفرد (أنا) لدواع بلاغية عدة: منها إظهار العظمة كما قلنا من قبل. ومنها إعلان التفرد والوحدانية (أنا) وليس غيري. ومنها كذلك تحديد الخبر وتخصيصه؛ ف(أنا ربكم) و(ربكم أنا)، لا شيء غير ذلك. وأخيرًا لأن المقام مقام تكلم [2]؛ فالآية خطاب من (الله) إلى الناس.

وقد ضمت منطقة الخبر دال (رب) – وهو المظهر **الثاني** – لأن السياق العام للآية الكريمة، الذي بدأ بالآية الثامنة والأربعين، وانتهى بالآية الحادية والتسعين تضمن الحديث عن الأنبياء، وما أُعطوا من نعم، تختلف من نبي لآخر * والظاهر أن الخطاب للأنبياء؛ لدوران الحديث عنهم. ولما كان الأنبياء يعرفون أن هذه ملتهم ملة واحدة وهي الإسلام، الذين جاؤوا جميعًا من أجل الدعوة إليه، انسحب الخطاب إلى أقوامهم.ولما خُتمت رسالة الإسلام في صورتها الأخيره، وبنائها المتكامل بإرسال سيدنا محمد ﷺ إلى الإنس والجن، انسحب الخطاب إلى الناس كافة [3].

ولما كان الخطاب إلى الناس، كان المجيء بدال (رب) أبلغ وأوقع وأنسب؛ فنعم الربوبية لا ينكرها أحد – كما مر بنا من قبل في مواضع كثيرة – لذا كان البدء

---

(1) انظر:السكاكي ، مفتاح العلوم: 179 . والقزويني ، الإيضاح في علوم البلاغة، المجلد الأول، الجزء الثاني: 10 .

(2) انظر: السكاكي ، السابق: الصفحة نفسها . وانظر كذلك الخطيب القزويني ، السابق ، المجلد نفسه ، الجزء نفسه: الصفحة نفسها .

(*) وللتعرف على ذلك ، يرجى مراجعة هذا المقطع القرآني الطويل .

(3) انظر: الزمخشري ، الكشاف ، الجزء الثالث: 131. لكن الفرق بين ما طرحناه وما قاله الزمخشري ، أننا وصلنا إلى هذه النتيجة بالاستنتاج ، بينما ساقها هو دفعة واحدة .

بصاحب هذه النعم (الرب) جل في علاه من البلاغة بمكان. كما أنه يعد مدخلًا إلى وجوب الإقرار بألوهيته، ومن ثم عبادته. وقد أضيف المسند / الخبر إلى ضمير الجمع (كم) لإفادته عموم المخاطَبين.

وأختلف مع الزمخشري في إبدال دال (رب) بدال (إله)، حيث يقول: ﴿وأنا﴾ إلهكم إله واحد " ([1]). هذا فيما ذهب إلى تأويل (ربكم) ب(إلهكم).

أما الإمام الطبري فلم يذهب إلى القول بأن ربكم يعني إلهكم، وإنما قال: "وأنا ربكم أيها الناس فاعبدونِ دون الآلهة والأوثان، وسائر ما تعبدون من دوني"([2]).

وقد أعجبني رأي ابن عاشور، حين قال في هذه الآية الكريمة: " وأفاد قوله تعالى (أنا ربكم) الحصر، أي أنا لا غيري بقرينة السياق والعطف على(أمة واحدة)، إذ المعنى: وأنا ربكم ربًا واحدًا، ولذلك فرّع عليه الأمر بعبادته، أي فاعبدونِ دون غيري. وهذا الأمر مُراعى فيه ابتداء حال السامعين من أمم الرسل " ([3]).

وقد اعتمد هذا التركيب على بنية الوصل مع الجملة السابقة (إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً)؛ ليدخل في دلالة التأكيد. لذا كانت (الواو) عاطفة.

وإذا جئنا إلى المظهر **الأخير** في قراءة هذه الآية الكريمة، نجد أن خاتمة الآية (فاعبدون)، ضمت في بنيتها التركيبية عناصر عدة: منها تصديرها بالفاء

([1]) انظر: السابق ، الجزء نفسه: 130 ، 131 . ونحا نحو الزمخشري ، البيضاوي ، قال:"﴿وأنا ربكم﴾ لا إله لكم غيري ". شيخ زاده ، الحاشية على تفسير البيضاوي ، ج6: 70 . والقرطبي ، إذ قال:"﴿وأنا ربكم﴾أي: وأنا إلهكم وحدي" .الجامع لأحكام القرآن، الجزء الرابع عشر:283. وأبي السعود، حيث قال:"﴿وأنا ربكم﴾ لا إله لكم غيري" .إرشاد العقل السليم، الجزء السادس: 84 .ولماذا لم يرد دال (إله) بدلًا من دال (رب)، لو كان الأمر هكذا؟.

([2]) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، المجلد الخامس: 279 .

([3]) انظر: التحرير والتنوير ، الجزء السابع عشر: 141 .

الفصيحة [1]. ومنها الاعتماد على صيغة الأمر (اعبدون)؛ لأنه لما كانت هذه هي أمتكم التي أرتضيتها لكم، وأنا ربكم المنعم عليكم بكل كاملات النعم، فحقي عليكم أن تعبدوني [2].

ومن هنا، يمكن القول:إن هذا الخطاب الإلهي الذي تضمنته تلك الآية الكريمة- بما بنيت عليه من التأكيد (إن)، والإشارة الاستحضارية (هذه) التي تدل على رفعة هذه الملة ووحدتها وعدم تجزؤها أو تشتتها وتفرقها، وذكر المبتدأ، مؤسسًا على ضمير المتكلم (أنا) ببلاغته، والتنويه بربوبية الخالق، ومن ثم وجوب عبادته – يعد حجة على المخاطبين.

وربما يذكرنا هذا المشهد المتضمن للحضرة الإلهية بفاعلية ضمير المتكلم (أنا)، ومخاطبة الحق سبحانه وتعالى للناس بإرساء عقيدتهم، ومطالبتهم بعبادته، ربما يذكرنا هذا بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ **أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ** قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (الأعراف: 172، 173) [3].

---

(1) انظر: محيي الدين الدرويش ، إعراب القرآن الكريم وبيانه ، المجلد الخامس: 72 . و(الفاء) عند بهجت عبد الواحد صالح (سببية) . انظر: الإعراب المفصل ، المجلد السابع: 259 ، وعند الدكتور محمود سليمان ياقوت استئنافية . انظر: إعراب القرآن الكريم ، المجلد السادس: 2997. والمنصوب على التعظيم المضمر في الياء المحذوفة (فاعبدوني)، حذف لإيقاع المناسبة في فواصل الآيات. انظر هذا بالتفصيل: كتابنا خواتم الآيات التي تشمل أسماء الله الحسنى . دراسة أسلوبية: 43 – 69 . ومن العجب أنك تجد محيي الدين الدرويش دائمًا ما يقول في عملية حذف الحروف الأخيرة في فواصل الآيات القرآنية أنها جاءت لرسم المصحف . ورسم المصحف ليس من تلقاء نفسه ، بل ثمة مبررات علمية .

(2) وهذا التحليل هو الذي جعل جملة (فاعبدون) تعليلية لقوله (أنا ربكم) .انظر: دكتور محمود سليمان ياقوت، إعراب القرآن الكريم ، المجلد السادس: 2997 .

(3) وسنتعرض للآية بالتفصيل في تركيب (أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ) في عنصر وقوع دال (رب) في منطقة خبر (ليس) .

وإذا دققنا النظر في الترتيب بين الربوبية والألوهية، ألفينا أن الخطاب أتى بالربوبية أولًا (وأنا ربكم)، ثم ثنَّى بالألوهية (فاعبدون). وهذا المسلك اللغوي كثيرًا ما نجده في القرآن الكريم؛ لأن مدار الحديث وأمور التكليف تدور حول توحيد الألوهية الذي يعني إفراد (الله) جل في علاه بالعبادة.

ولما كان توحيد الربوبية مما لا يختلف عليه البشر، مثَّل مدخلًا للوصول إلى توحيد الألوهية. وقد تجلى هذا حتى في مخاطبة الأنبياء، حيث يقول مولانا مخاطبًا سيدنا موسى عليه السلام: ﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ (طه: 12)، ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ (طه: 14).

وفي هذه البنية من الخطاب القرآني قد يقع المبتدأ ضمير المتكلم (أنا) العائد إلى دال(رب) جل وعلا، والخبر جملة فعلية، مثل قوله تعالى: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ (طه:13). وإذا كنا قد تناولنا ضمير المتكلم في الموضع السابق، فإن التناول هنا سينصب على مظهرين لغويين: الأول بنية الوصل ب(الواو)، والأخير هو الخبر الماثل في التركيب الزمني (اخْتَرْتُكَ).

ونحويًا، فإن جملة (أَنَا اخْتَرْتُكَ) معطوفة على جملة (أَنَا رَبُّكَ) ([1]). ولما كان سبب الوصل بالواو هو الرغبة في الإشراك في الحكم بين المعطوف عليه والمعطوف ([2])، فإن جملة (أَنَا اخْتَرْتُكَ) أخذت الحكم الإعرابي نفسه لجملة (أَنَا رَبُّكَ)، وهي في محل رفع خبر للناسخ (إن) في (إني). ويكون التركيب معطوفًا عليه ومعطوفًا هكذا (إني أنا ربك وأنا اخترك).

ويقول الإمام الزركشي عن الواو العاطفة:" الواو العاطفة هي التي تشرك المعطوف والمعطوف عليه في الحكم، وهي لمطلق الجمع على الصحيح، ولا

([1]) انظر: محيي الدين الدرويش ، إعراب القرآن وبيانه ، المجلد الرابع: 662 .

([2]) انظر: عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز: 224 . والسكاكي: مفتاح العلوم: 359 . والقزويني: الإيضاح في علوم البلاغة ، المجلد الأول ، الجزء الثالث: 98 .

تدل على أن الثاني بعد الأول، بـل قـد يكون كذلك، وقد يكون قبله، وقد يكون معه، أي بمعنى مع " [1].

وبالتأمل في المعطوف عليه والمعطوف، يدرك أن المعطوف واجب التأخير؛ لأن الإخبار بالذات ينبغي أن يكون أولًا؛ لكون سيدنا موسى يجهل من يتحدث معه؛ لذا جاءت الجملة الأولى (أَنَا رَبُّكَ). ولأن الإخبار بالاختيار يأتي بعد الإخبار بالذات، ورد في منطقة المعطوف (أَنَا اخْتَرْتُكَ). ومن هنا فإن عملية الوصل بُنيت على ظاهرة العطف في حالة الترتيب المنطقي.

وإذا كان هذا التحليل من الناحية اللغوية – نحوًا وبلاغة – فإن ثمة مستوى دلاليًا آخر، تسبب في علة مجيء الربوبية (أنا ربك) في منطقة المعطوف عليه، ومجيء الاختيار (أنا اخترتك) في موقع المعطوف.

إن التأمل في مفهوم الربوبية بما يحمله من نعم، يفضي إلى أن اختيار (الله) سبحانه وتعالى لسيدنا موسى عليه السلام، كان أحد فيوضات نعم تلك الربوبية وتجلياتها. ومن هنا كان تحريك الدلالة مـن الاتصاف بالربوبية إلى عملية الاختيار تحريكًا منطقيًا.

---

[1] انظر: البرهان في علوم القرآن ، الجزء الرابع: 436 . ويضرب الزركشي أمثلة على كل نوع: فالأول في قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ (الزلزلة: 1، 2) ثم يقول: إن الإخراج متأخر عن الزلزال ، وذلك معلوم من قضية الوجود لا من الواو . ثم يضرب المثل الثاني في قوله تعالى: ﴿ يَامَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ (آل عمران: 43) . ثم يقول: الركوع قبل السجود ، ولم ينقل أن شرعهم كان مخالفًا لشرعنا في ذلك . ثم يضرب مثالًا للنوع الثالث ، في قوله تعالى:﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ (المدثر: 11) . ويقول بفساد العطف للإضرار بالمعنى ، بل (الواو) هنا بمعنى (مع) . وفيما يخص مصادر النحو ، انظر على سبيل المثال: ابن عقيل ، شرح ابن عقيل ، المجلد الثاني ، الجزء الثالث: 225 .

بقي أمر آخر، هو أن بناء جملة الخبر (اخترتك) على زمن الماضي، يدل على قدم كلام (الله)، وأنه ليس بحادث، وأن كل ما يخرج من مظاهر كونية وغيرها، إنما هو ثابت ومستقر في علم (الله)عز وجل، ولا يخرج إلا في الوقت الذي يريده ([1]).

2 – دال (رب - إله) ضمير مبتدأ (نحن)

وفي هذا الضرب من الخطاب، لا يأتي الضمير (نحن) في موضع دال (إله) في منطقة المبتدأ، وإنما يرد في موضع دال (رب). أما منطقة الخبر، فقد يشغلها اسم، أو تركيب زمني يعتمد على زمن الماضي، أو زمن المضارع.

وفي الضرب الأول يرد قول ربنا عز وجل: ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا **نَحْنُ مُهْلِكُوهَا** قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ (الإسراء: 58)([2]).

وفي اعتماد منطقة الخبر على زمن الماضي يقول رب العزة: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ **نَحْنُ قَسَمْنَا** بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (الزخرف: 32) ([3]).

ويرد الضرب الأخير المعتمد في منطقة الخبر على زمن المضارع في قول (الله) عز وجل: ﴿**نَحْنُ نَقُصُّ** عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ (الكهف: 13) ([4]).

فإن قيل: ما الدليل على أن عود ضمير المتكلم الجمع (نحن) إلى دال (رب)، وليس إلى اسم الجلالة (الله)؟ قلتُ – ومن (الله) السداد -: إن الموضع الأول ورد في سورة

([1]) وهذه القضية لهي من أخطر القضايا الفكرية ، وفيها كلام كثير بين الفرق الإسلامية . انظر: كتابنا ، خواتم الآيات: 19 – 24 .

([2]) وانظر كذلك: سورة (الإسراء: 47) ، وسورة (مريم: 70) ، وسورة (طه: 104) ، وسورة (المؤمنون: 96)، وسورة (العنكبوت: 32) ، وسورة (ق: 16 ، 45) ، و(الواقعة: 59 ، 64 ، 69 ، 72 ، 85) .

([3]) وانظر كذلك: سورة (الحجر: 9) ، وسورة (الواقعة: 57 ، 60) ، وسورة (الإنسان: 23) .

([4]) وانظر كذلك: سورة (الأنعام: 151) ، سورة (يوسف: 2) ، وسورة (الحجر: 23) ، وسورة (الإسراء: 31) ، وسورة (مريم: 40) ، وسورة (طه: 132) ، وسورة (يسن: 12) ، وسورة (ق: 43) ، وسورة (الواقعة: 73) .

الإسراء. وبتأمل ورود دال (رب) في تلك السورة الكريمة، يدرك أنه تكرر اثنتين وثلاثين مرة، في حين تكرر اسم الجلالة (الله) عشر مرات. هذه **واحدة. الأخرى**: أن إهلاك القرى ارتبط بدال (رب) في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ (الأنعام: 131)، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى﴾ (طه: 134)، وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ (القصص: 59) [*].

وفي موضع سورة (الزخرف)، ورد دال (رب) مرتين في دال (ربك)، فضلًا عن أن قسمة المعيشة، واختلاف درجات الناس؛ لتسيير شئون الحياة من سمات الربوبية.

أما الموضع الثالث، فيرد في سورة (الكهف). ومن القرائن اللفظية التي تعضد عود الضمير (نحن) على دال (رب) ورود الدال نفسه في الآية الكريمة (بربهم). كما تتمثل القرينة المعنوية في ارتباط دال (القص) بدال (رب) في مواضع أخرى في القرآن [*].

---

[*] فإن قيل: إذا كان ذلك كذلك ، فماذا تقول في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (الأعراف: 164) ، وقد أسند الإهلاك إلى اسم الجلالة (الله)؟ قلتُ: الإهلاك هنا للقوم وليس للقرية ، وبينهما فرق . ويحتاج هذا الموضوع إلى دراسة مستقلة .

وأريد أن أستغل هذه الفرصة ؛ لأطلع القارئ الكريم على مشكلة كثيرًا ما تواجهني في هذه الدراسة . تتمثل هذه المشكلة في أن كل عنصر أو ملمح أسلوبي ، أو ظاهرة قرآنية ترد في ثنايا الدراسة ، يحتاج إلى دراسة مستقلة . ولانشغالي بالمشروع الأكبر –بنية الخطاب القرآني – لا أستطيع - بل من المستحيل- أن أُفَصِّلَ القول في كل ملمح أو عنصر أو ظاهرة لغوية أتعرض لها، بل أكتفي بمجرد الإشارة . فماذا أفعل؟؟؟؟؟!!!! .

[*] انظر: سورة (النساء: 164)، وسورة (الأعراف: 7 ، 101)، وسورة (هود: 100، 120)، وسورة (يوسف: 3) ، وسورة (طه: 99) ، وسورة (غافر: 78) . وبالتامل يدرك القارئ الكريم أن بعض هذه الآيات يتضح فيها الارتباط بين دال (القص) ودال (رب) ، وبعضها يحتاج إلى تفتيش وتأمل .

فضلًا عن أن هدف القص على النبي ﷺ يكمن في التثبيت، والتصبر على الأذى، وأخذ العبرة...إلخ، مما يندرج كذلك تحت سمات الربوبية.

والآن نعود إلى بلاغة الخطاب في اعتماد بنيته على ضمير المتكلم الجمع (نحن) العائد إلى دال (رب) في تلك المواضع القرآنية الكريمة. وكما قلتُ من قبل، تبدأ هذه المواضع بسورة الإسراء في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ (الإسراء: 58).

وإذا عدنا للآية الأولى، نجد أن جملة (نَحْنُ مُهْلِكُوهَا) جملة اسمية، انبنت على المبتدأ، ضمير المتكلم (نحن)، والخبر والمضاف إليه (مهلكوها). وضمير المتكلم (نحن) يُعبَّرُ به عن المثنى والجمع في لغة العرب. وعندما يأتي هذا الضمير في خطاب الحق سبحانه وتعالى مخبرًا عن نفسه، فهو يعني العظمة والتفرد، أي نحن لا غيرنا، إضافة إلى الإحاطة، والتأكيد، والاختصاص.

وعن صيغة الجمع العائدة إلى (الله) عز وجل في القرآن الكريم، يقول ابن تيمية:" هذه الصيغة في كلام العرب للواحد العظيم؛ الذي له أعوان يطيعونه، فإذا فعل أعوانه فعلاً بأمره قال: نحن فعلنا. كما يقول الملك: نحن فتحنا هذا البلد. وهو منا هذا الجيش، ونحو ذلك " ([1]).

وفي اعتقادي – والله بالحقيقة عليم – أن ضمير المتكلم (نحن) عندما يأتي مع (الله) عز وجل، يعني – إضافة إلى ما سبق من مدلولات – الهيبة والرهبة. كما أنه يرد – غالبًا - متعلقًا بأفعال (الله) عز وجل ؛ ففي الإنزال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: 9)، وقوله جل وعلا: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾ (الإنسان: 23). وقس على هذا، في الرزق والعلم والخلق... إلخ.

([1]) انظر: مجموع الفتاوى ، المجلد الخامس: 128 . وانظر كذلك: الرازي ، مفاتيح الغيب ، الجزء التاسع عشر: 164 ، وذلك في معرض حديثه عن قول (الله) عز وجل:﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: 9) .

وإذا عدنا لمدلول صيغة الجمع في القرآن الكريم عند ابن تيمية، وربطها بالأعوان الذين ينفذون أمر الآمر، فقد يكون هذا الطرح مناسبًا لبعض المواضع في القرآن الكريم، وليس لكلها. ومن ضمن التناسب هذا الموضع؛ إذ الإهلاك لا يتم إلا بأمر من (الله) للملائكة. وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ (الإسراء: 16)، إذ مر الإهلاك بمراحل: أمر الأغنياء بالفسق، فاستحقاقهم للهلاك، ومن ثم جاء التدمير. ولما كان فعل الإهلاك يأتي بأمر من (الله)، وتنفيذ من الملائكة، صح معه هذا الطرح.

بينما لا ينسحب هذا المفهوم على كثير من الآيات التي تحمل صيغة الجمع مع المولى عز وجل، مثل قوله تعالى:﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ* أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴾ (الواقعة: 58، 59)؛ إذ لا دخل للملائكة في عملية الخلق. ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ (الإنسان: 28). وكل ما يخص عملية الخلق، لا يندرج تحت هذا الطرح، بل يرد في سياق العظمة والتفرد، بدون وساطة.

أما الموضع الثاني، وهو قوله تعالى: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ **نَحْنُ قَسَمْنَا** بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (الزخرف: 32)، فمن الملحوظ أن الفعل الذي وقع في منطقة الخبر لضمير المتكلم (نحن) تناول معاني القسمة وتوزيع الأرزاق على الخلق، والتفاوت بينهم في ذلك. ولما كان لا يقدر على هذا إلا عظيم، محيط بأحوال الخلق، عالم بحكمته في القسمة بينهم: زمانًا ومكانًا، ورد ضمير المتكلم (نحن) في منطقة المبتدأ، دالًا على كل تلك المعاني، التي لا يتصف بها إلا الباري عز وجل.

وفي تناول الزركشي لإطلاق الجمع وإرادة الواحد في القرآن الكريم، يقول في هذه الآية:" وهذا مما لا شريك فيه، والحكمة في التعبير بصيغة الجمع، أنه لما كانت

تصارف أقضيته سبحانه وتعالى تجري على أيدي خلقه، نزلت أفعالهم منزلة قبول القول بمورد الجمع " ([1]).

والذي يفهم من كلام الزركشي، أنه لما جعل(الله) عباده سببًا في رزق بعضهم بعضًا، سيق بضمير المتكلم الجمع (نحن). أي من ناحية الأسباب التي تتعدد، والمشارب التي تختلف في حصول العباد على أرزاقهم.

ويذكرنا هذا بالحديث عن صيغة المبالغة في أسماء (الله) الحسنى، بأنه لا مبالغة فيها، وإنما تحدث المبالغة من حيث علاقة الاسم بالعباد، مثل التواب أو الرحيم. فالمبالغة تحدث في التوبة من قِبَل تكرار قبول التوبة من النادمين الراجعين إليه، عز وجل، أو كثرة التائبين إليه، وكذلك الرحمة ([2]).

ومن هذه الوجهة، قد يتفق هذا الطرح مع ما ذهب إليه الإمام ابن تيمية، في الصفحات السابقة. لكن - كما قلت – لا يمكن تعميم هذا الطرح، وإنما المتحكم في هذا هو السياق التي ترد فيه الآية، وإمكانية تأويل ذلك. ثم إن هذا التأويل لا يتناسب مع معان أخرى مثل الخلق والتقدير والتبديل، التي وردت في المواضع الأخرى، كما مر في الصفحة السابقة.

ويرد الضرب الأخير المعتمد في منطقة الخبر على زمن المضارع في قول (الله) سبحانه وتعالى: ﴿**نَحْنُ نَقُصُّ** عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ (الكهف: 13).

وفي دلالة (القص): (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ)، و(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ)، يمكن أن تتفق دلالة الضمير(نحن)مع ما طرحه ابن تيمية؛ إذ القص لا يكون إلا بوحي، ولا يكون الوحي إلا بالملائكة، إضافة إلى ما يفيده(نحن) من دلالة التعظيم.

([1]) انظر: البرهان في علوم القرآن ، الجزء الثالث: 7 .

([2]) انظر: كتابنا: خواتم الآيات ، 59 ، 60 .

إن صيغة المضارع – التي تعني الحال والاستقبال، كما مر – التي شغلت منطقة الخبر، لا تتوقف عند عصر معين، أو مكان محدد. فإن قيل: إذا كان هذا مقبولًا في دلالة بعض المعاني مثل: (الرزق والعلم والإحياء)، فكيف به في دلالة (القص)؛ إذ عملية القص نفسها قد انتهت باكتمال القرآن، وبوفاة النبي محمد ﷺ؟

قلتُ: إذا كانت عملية (القص) قد انتهت بانقطاع أمين الوحي(جبريل عليه السلام) عن الأرض، ووفاة المتلقي الأول (سيدنا رسول الله ﷺ)، واكتمال الرسالة/ القرآن الكريم، فإن المتلقي الأخير (الناس في جميع العصور) لا ينتهي إلا بانتهاء الحياة الدنيا نفسها، ومن ثم ف(القص) مستمر باستمرار القراءة والتأمل، وأخذ العبرة والعظة.

ومعنى هذا، أن الحالة الاستمرارية لفاعلية القرآن، وصلاحيته لكل زمان ومكان، مستمدة من ناحيتين: أفعال (الله) سبحانه، غير المنقطعة عبر الأزمان؛ إذ يتصف بصفات الكمال، واستمرار التلقي فيما انتهى واكتمل في القرآن. ومن ثم التأثر به.

وهذا ما يجعل كل ذي لب سليم، أن يرفض ما قاله نصر حامد أبو زيد، وغيره ممن هم على شاكلته، من أن القرآن الكريم منتج ثقافي، مرتبط –اتساقًا مع التاريخانية، والفلسفة الماركسية– بتاريخ وبيئة وثقافة محددة. وإلا كيف نفهم صيغة المضارع هنا وفي كل موضع داخل القرآن الكريم؟!. *

3-دال (رب - إله) ضمير مبتدأ (أنتَ)

لقد ورد دال (رب) في صورة ضمير المفرد المخاطب (أنت) في قوله تعالى: ﴿أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة: 286)، وكذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ (الأعراف: 155) .

---

* جدير بالذكر ، أن دال (إله) لا يرد في منطقة المبتدأ في صورة الضمائر ، وإنما يختص دال (رب) – فضلًا عن اسم الجلالة (الله) - بهذه العملية اللغوية .

وبالتأمل في الموضع الأول، يُدرك أن المناجاة ودعاء الخالق جل وعلا بدأ من قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا﴾. وإذا تتبعتَ الضمائر التي شملها هذا الدعاء بداية من هذا الموضع، ألفيتها كلها ترد في صيغة المخاطَب المفرد وهو (الله) جل في علاه. في حين ترد في جانب المخاطِب بصيغة الجمع (ربنا)؛ للمناسبة بين خطاب المؤمنين (لله) عامة، وله سبحانه وتعالى بفرديته ووحدانيته. وقد انتهى الدعاء بنهاية الآية الكريمة، بل بنهاية سورة البقرة نفسها، أطول سور القرآن الكريم.

وكما قلنا في ضمير المفرد المتكلم (أنا)، فقد ذُكر المبتدأ هنا / المسند إليه للتنويه بجلاله وعظمته، كما أنه ورد ضميرًا مفردًا لبيان وحدانيته، وأنه هو وحده لا غيره المنوط به الدعاء، المجيب لمن دعاه، مما يدحض التوسل بغيره، أو اللجوء لسواه.

ولنا في الخبر (مولانا) وقفة. تتمثل هذه الوقفة في أن دلالة هذا الخبر، بما تنطوي عليه من رعاية الحق سبحانه وتعالى لأمر المؤمنين المخلصين له الدين، قد جمعت حولها لونين من الدعاء أو الرجاء: فردي، وجماعي. تمثل الفردي فيما قبلها (لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا - وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا - وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا) والجماعي فيما بعدها: (فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ).

فإن قيل: لقد ورد الضمير بصيغة الجمع (نا) قبل دال (مولانا) وبعده، فأين الفردي والجماعي؟ قلتُ: الضمير وإن كان قد ورد قبل دال (مولانا) بصيغة الجمع، فهو يخص الفرد أكثر من الجماعة؛ إذ دعاء المؤمنين ربهم منفردين أكثر من دعائهم مجتمعين، وإنما جيء بالضمير جماعة على اعتبار جماعة المؤمنين.

وقد تجلى هذا الملمح الأسلوبي بداية من سورة الفاتحة في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (5) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (الفاتحة:6). مع أن الفاتحة تُقرأ من قِبَلِ الأفراد، وليس الجماعات.

أما فيما بعد دال (مولانا) فقد ورد ضمير الجمع خالصًا لجماعة الداعين؛ لأن النصر على القوم الكافرين لا يخص فردًا، وإنما يخص جماعة وأمة.

أما قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ (الأعراف: 155)، فقد ورد في خطاب سيدنا موسى ربه جل في علاه، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ (الأعراف: 155).

وبتأمل هذه الآية الكريمة، نجد أن ضمير المخاطب المفرد (أنتَ) العائد إلى مولانا جل في علاه قد ورد في منطقة المبتدأ في موضعين (أَنْتَ وَلِيُّنَا - وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ).

ولتضمين منطقة المبتدأ بهذا الضمير مبرران: سياق لغوي، وهدف دلالي. أما السياق اللغوي، فيبدو في التمهيد الذي سبق هذين الموضعين. إن النظر في النسيج اللغوي للآية الكريمة - وبخاصة حقل الضمائر – يطلعنا على تكرار هذا الضمير بمظاهر شتى.

يتمثل المظهر الأول في حالة الاتصال / أي كونه ضميرًا متصلًا، كما في (شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ)، حيث مثَّل الضمير (أنت) فاعلًا لهذين الفعلين. ويتمثل المظهر الثاني في حالة الاستتار، كما في (أَتُهْلِكُنَا، تُضِلُّ، تَشَاءُ مرتين، تَهْدِي)، إذ مثَّل الضمير (أنت) فاعلَ هذه الأفعال كذلك. ثم يرد المظهر الثالث في ضمير المخاطب المفرد المتصل بالاسم في (فِتْنَتُكَ).

وقد ورد بين موضعي الشاهد في حالة الاستتار كذلك في(فَاغْفِرْ لَنَا–وَارْحَمْنَا)؛ إذ مثَّل فاعلًا لهذين الفعلين كذلك. ومن هنا أدى هذا السياق اللغوي إلى مجيء الضمير من هذا الضرب، اتساقًا من النسق اللغوي لجماليات اللغة في القرآن الكريم.

أما المرامي الدلالية، فتتمثل في ذكر المبتدأ الذي يدل على العظمة والاختصاص والحصر. كـما تـدل صيغة المفــرد (أنت) على الوحدانية والتفرد في الدعاء وطلب الرجاء.

فإن قيل: إذا كان ذلك كذلك، فهـل ثمة نكتة بلاغية في بنية التكرار في الموضعين؟ قلتُ: نعم. ثمة نكتة بلاغية، متمثلة في التلذذ والاستمتاع بمخاطبة رسول من أُولي العزم من الرسل الحق سبحانه وتعالى، وإطالة الحديث معه.

ولمَ لا، وهو القائل جوابًا عن سؤال مولانا عز وجل – وهو أعلم -: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ (طه: 17) ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾ (طه: 18) ([1]). فهنيئًا لهذا النبي الكريم، والرسول الكليم بهذا الأنس وذاك القرب، وتلك المناجاة، بل وهذا الفضل !!!.

4- دال (رب - إله) مبتدأ ضمير (هو)

أ-دال (رب - إله) مبتدأ ضمير (هو) والخبر (اسم)

لقد ورد دال (رب) في صورة ضمير الغائب المفرد (هو) في قوله تعالى: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي** خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ **وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ** ﴾ (الأنعام: 73)، وقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ **وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴾ (الانعام: 115)، وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ **وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾ (الأنعام: 117)، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ **وَهُوَ وَلِيُّهُمْ** بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (الأنعام: 127)، وقوله تعالت قدرته، وعظمت حكمته: ﴿**وَهُوَ الْغَفُورُ** الْوَدُودُ ﴾ (البروج: 14). وغير هذه المواضع كثير ([2]).

([1]) انظر: ابن عاشور ، التحرير والتنوير ، الجزء السادس عشر: 206 ، والشيخ الشعراوي ، خواطر الشعراوي: 9248 ، 9249 .

([2]) (انظر: سورة (النحل: 125) ، وسورة (الأنبياء: 4) ، وسورة (المؤمنون: 72) ، وسورة (النمل: 78) وسورة (سبأ: 23 ، 26 ، 39) ، وسورة (النجم: 30) ، وسورة (القلم: 7). سبق أن بينا بلاغة هذا

ب- دال (رب - إله) مبتدأ ضمير (هو) والخبر (الذي)

وفي بنية هذا الضرب من الخطاب القرآني يقول (الله) عز وجل: ﴿**وَهُوَ الَّذِي فِي** السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ (الزخرف: 84).

وسياق الموضع الأول يبدأ بخطاب مولانا عز وجل لنبيه ومصطفاه سيدنا محمد ﷺ بقوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ * سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ * فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ (الزخرف: 81 - 83). ولما ذُكر مولانا جل وعلا بصفة الرحمة (لِلرَّحْمَنِ) في الآية الأولى، وبصفة الربوبية في الآية الثانية (رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ)، وكانت صفة الألوهية من متممات الصفات، بل هي أولها، سيقت صفة الألوهية في الآية (وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)، مسبوقة بضمير الغيبة (هو) في موقع الإضمار، استنادًا على الإظهار الذي تم في الآيتين السابقتين.

والمتتبع للآيات الكريمة، يجد أن ضمير الغيبة (هو) قد سيطر – سواء أكان منفصلًا أم متصلًا – على بقية السياق المتضمن لخطاب (الله) سبحانه وتعالى مع نبيه ﷺ، حتى بدأ في خطاب جديد. من ذلك ورود ضمير الغيبة المنفصل (هو) في منطقة المبتدأ في خاتمة الآية الكريمة (وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ). ثم وروده في حالة الاتصال في بقية السياق على هذا النحو ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي **لَهُ** مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا **وَعِنْدَهُ** عِلْمُ السَّاعَةِ **وَإِلَيْهِ** تُرْجَعُونَ * وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ **دُونِهِ** الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (الزخرف: 85، 86). وكل هذا، اتساقًا مع بلاغة الإظهار والإضمار.

وفي بدء الآية الكريمة بالابتداء يقول ابن عاشور:" إن إيراد المبتدأ في الآية لإفادة قصر صفة الألوهية في السماء وفي الأرض على (الله) تعالى، لا يشاركه في ذلك غيره؛ لأن إيراد المسند إليه معرفة والمسند معرفة طريق من طرق القصر " ([1]).

الضرب من الخطاب القرآني. انظر كتابنا: خـــواتم الآيات التي تشمل أسماء الله الحسنى في القرآن الكريم . دراسة أسلوبية: 222 ، 223 .

([1]) انظر: التحرير والتنوير ، الجزء الخامس والعشرين: 267 .

وفي اعتماد الآية على بلاغة العطف، يقول ابن عاشور أيضًا: " عَطْفٌ على جملة (قل إن كان للرحمان ولد) والجملتان اللتان بينهما اعتراضان، قُصِدَ من العطف نفي الشريك في الألوهية مطلقًا بعد نفي الشريك فيها بالبنوة، وقُصِدَ بذكر السماء والأرض الإحاطة بعوالم التدبير والخلق؛ لأن المشركين جعلوا (لله) شركاء في الأرض، وهم أصنامهم المنصوبة، وجعلوا له شركاء في السماء وهم الملائكة، إذ جعلوهم بنات (لله) تعالى، فكان قوله (في السماء إله وفي الأرض إله) إبطالًا للفريقين مما زعمت ألوهيتهم " ([1]).

ولم يعطف ابن عاشور الآية على قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (الزخرف: 82)؛ لأنه قال بجواز أن تكون هذه الآية تكملة لما أُمر الرسول ﷺ بأن يقوله، أي تكملة للآية السابقة عليها ([2]).

ثم عاد وقال بجواز أن تكون هذه الآية (سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ) كلامًا مستأنفًا من جانب (الله) سبحانه وتعالى؛ لإنشاء تنزيهه عما يقولون ([3]).

فإذا كان ثمة جواز بأن تكون هذه الآية كلامًا مستأنفًا، فإنه من الجائز - إضافة إلى ما طرحه ابن عاشور - أن تكون الآية موضع الشاهد معطوفة عليها. والعلة في ذلك أنه لما تقدم تنزيهه في دال (سُبْحَانَ)، وتقدمت ربوبيته للسموات والأرض والعرش، كان من دواعي الاكتمال أن يخبر عن ألوهيته للسماء والأرض؛ ومن هنا كانت هذه هي اللطيفة التي استدعت تكرير السموات والأرض في الآيتين: واحدة للربوبية والأخرى للألوهية. منعًا للتوهم بأن رب السموات والأرض يختلف عن إله السموات والأرض.

وهذا مما يزيد في دلالة التنزيه المتمثلة في دلالة التسبيح، ويكون الناتج الدلالي العام للآيتين هكذا: سبحان من له الربوبية والألوهية على السموات والأرض

([1]) انظر: السابق ، الجزء نفسه : الصفحة نفسها .

([2]) انظر: التحرير والتنوير ، الجزء الخامس والعشرين : 265 .

([3]) انظر: السابق ، الجزء نفسه: 266 .

والعرش . ومن ثم تبرز الضرورة القصوى والأهمية البالغة لضمير الغيبة (هو) في الجمع بين السمتين: الربوبية والألوهية.

فإن قيل: لماذا جاء بالـربوبية قبـل الألـوهية؟ قلتُ: لأن الخـطاب للمشـركين، ونِعَمُ الـربوبية أقـرب للمشركين مـن نِعَمِ الألوهية؛ فهم يعيشون فيها ويحيون بها، ويتأففون مـن شكـر المنعِم بالهـروب مـن عملية التكليف بالعبادة، لذا يجحدون الألوهية ([1]).

وفي تفسير الشعراوي رأي آخر، غير ما ذهب إليه الألوسي من طرح في تكرار النكرة (إله)؛ إذ تكرار النكرة يعني المغايرة. وإذا كان الألوسي حاول تأويل المغايرة، فقد ورد في تفسير الشعراوي أن كون النكرتين ترتبطان بموصول واحد هو(الذي)، فإنهما يحملان الدلالة نفسها، ومن ثم فلا تغاير بينهما.فإله السماء هو هو إله الأرض([2]).

ج- دال (رب - إله) مبتدأ (هو) والخبر جملة فعلية

لقد ورد هذا الضرب من الخطاب في قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي **فَهُوَ يَهْدِينِ** * وَالَّذِي **هُوَ يُطْعِمُنِي** وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ **فَهُوَ يَشْفِينِ**﴾ (الشعراء: 78 - 80).

([1])وفي صلة الموصول - (فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ) من تعلق الجر والمجرور (في السماء ، وفي الأرض) بإله ، ودلالة لفظ (إله) ، وإعرابه خبر لمبتدأ محذوف (هو) ، وعدم إعرابه مبتدأ مؤخر ، وتكراره في بنية العطف - كلام كثير ، مما ينم عن بلاغة واضحة ، وإعجاز ظاهر . انظر في ذلك: الألوسي ، روح المعاني ، حقق هذا الجزء غياث الحاج أحمد ، وساهم في التحقيق أحمد الحمدي ، مراجعة محمد معتز كريم الدين ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى 1431هـ – 2010م ، المجلد الرابع والعشرين : 83 – 85 . لكن الطبعة التي اعتمدناها في الكتاب كله هي طبعة دار إحياء التراث العربي ، بيروت – لبنان ، بدون تاريخ . ولكن يبدو أن هذا الجزء ليس موجودًا في تلك الطبعة .

[2] انظر: تفسير الشعراوي : 13961 ، 13962 .

والمتأمل في الجانب الإعرابي يدرك أن الضمير (هو) في التراكيب الثلاثة مبتدأ، وأن الخبر هو التركيب الزمني (يهدين، يطعمني، يسقين) ([1]). هذه واحدة.

الأخرى أن الضمير (هو) يعود على دال (رب) في الآية السابقة في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (الشعراء: 77). وهذا الضرب يكتنفه نكات عدة: **أولها** أن إضمار دال (رب) والإتيان بضمير الغائب (هو) جاء اتساقًا مع قواعد العربية؛ لأنه لما ذكر دال (رب) بلفظه في الآية السابقة، وتم ذكر صفته في الموصول (الذي) ثم ذكره في منطقة الفاعل المستتر من الفعل (خلقني)، كان من الطبيعي أن يرد مضمرًا في منطقة المبتدأ (هو) في قوله (فَهُوَ يَهْدِينِ)، ثم في الموضعين الآخرين.

ثانيها: أن دلالة منطقة الخبر (يهدين، يطعمني، يشفين) مما تختص بها سمات الربوبية؛ لذا ورد دال (رب) في قول سيدنا إبراهيم. وورد الضمير (هو) عائدًا إليه.

ثالثها:أن حروف العطف التي تنوعت بين (الواو) و(الفاء)و(ثم) في الآية اللاحقة:﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾، جاءت متسقة مع البلاغة القرآنية عالية الشأن([2]).

رابعها: أن منطقة الخبر قد بُنيت على زمن المضارع – وهو يعني الحال والاستقبال–لديمومة تلك النعم على بني البشر، حتى غير المؤمنين ب(الله)تعالى.

---

[1] انظر: العكبري ، التبيان في إعراب القرآن ، القسم الثاني: 997 ، ومحيي الدين الدرويش ، إعراب القرآن الكريم وبيانه، المجلد الخامس: 416 . وبهجت عبد الواحد صالح ، الإعراب المفصل ، المجلد الثامن: 205 ، 206، ومحمود سليمان ياقوت ، إعراب القرآن الكريم ، المجلد السابع: 3333 ، 3334 .

[2] انظر في هذا الشأن: محيي الدرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه ، المجلد الخامس: 418، 419 .

آخرها: فإن قيل: لِمَ ذُكِرَ الضمير (هو) في تلك المواضع الثلاث، ولَمْ يذكر في قوله (وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ)؟ قلتُ: لأن الهداية والإطعام والشفاء من الأفعال التي يجعل (الله) تعالى بعض خلقه سببًا لبعض في الوصول إليها والاتصاف بها.

ففي جانب الهداية، يجعل (الله) رسله سببًا في هداية الخلق، وفي الإطعام يجري (الله) الرزق لخلقه على يد آخرين، كما يسوق (الله) جل في علاه الطبيب سببًا للشفاء، وهكذا.

ولما كانت هذه الوساطات أسبابًا، وليست هي الفاعل الحقيقي، ورد الضمير (هو) العائد إلى (رب العزة) سبحانه وتعالى على لسان سيدنا إبراهيم، درءًا للتوهم بأن الأسباب هي التي تفعل، وبيان أن الفاعل هو الرب جل في علاه.

بينما لم يذكر الضمير (هو) في عملية الإماتة والإحياء؛ لأن هاتين العمليتين لم يدعهما أحد من البشر، وإنما هما ثابتتان لرب البشر جل في علاه؛ لذا لا يحتاجان إلى تأكيد، أو بيان وتوضيح أنهما من اختصاص رب العزة سبحانه.

وفي ذكر (هو) يقول الإمام القرطبي: " ودخول "هو" تنبيه على أن غيره لا يطعم ولايسقي، كما تقول: زيد هو الذي فعل كذا، أي: لم يفعله غيره"[1].

وفي تقديم الضمير (هو) في قوله تعالى: (فهو يهدين) يقول ابن عاشور: " وتقديم المسند إليه (هو) / المبتدأ على الخبر الفعلي (يهدين) في قوله: (فهو يهدين) دون أن يقول: فيهدين؛ لتخصيصه بأنه متولي الهداية دون غيره؛ لأن المقام لإبطال اعتقادهم تصرف أصنامهم بالقصر الإضافي. وهو قصر قلب. وليس الضمير ضمير فصل؛ لأن الفصل لا يقع بعد العطف " [2].

---

[1] انظر: الجامع لأحكام القرآن ، الجزء السادس عشر : 38 .

[2] انظر: التحرير والتنوير ، المجلد التاسع عشر: 142 . وهذا التخصيص هو الذي قاله الإمام البقاعي بقوله: (لا غيره) . انظر: نظم الدرر ، الجزء الرابع عشر: 52 .

وفي حذف الضمير من قوله تعالى: (وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ) يقول البقاعي:" ولم يأت هنا بما يدل على الحصر؛ لأنه لا مدعي للإحياء والإماتة إلا ما ذكره سبحانه عن نمرود في سورة البقرة " [1].

وإلى هذا المعنى ذهب ابن عاشور، حيث يقول: " فأما قوله: (وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ) فلم يأت فيه بما يقتضي الحصر؛ لأنهم لم يكونوا يزعمون أن الأصنام تميت، بل عمل الأصنام قاصر على الإعانة أو الإعاقة في أعمال الناس في حياتهم. فأما الموت فهو من فعل الدهر والطبيعة إن كانوا دهريين. وإن كانوا يعلمون أن الخلق والإحياء والإماتة ليست من شؤون الأصنام، وأنها من فعل (الله) تعالى كما يعتقد المشركون من العرب فظاهر" [2].

وإضافة إلى ما سبق، فإن الآية تخص سيدنا إبراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم من حيث الإماتة والإحياء؛ لوجون (الياء) العائدة إليه عليه السلام في (يُمِيتُنِي - يُحْيِينِ). ولما كان سيدنا إبراهيم يُقِرُّ بحقيقة تخصه هو من قِبَلِ الحق سبحانه وتعالى، فإنه ليس في حاجة إلى حصر الإماتة والإحياء على الرب العلي سبحانه وتعالى.

د- دال (رب - إله) مبتدأ (هو) محذوف

في بنية هذا الضرب من الخطاب يقول (الله) تبارك وتعالى: ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ

---

[1] انظر: نظم الدرر ، الجزء الرابع عشر: 53 .

[2] انظر: التحرير والتنوير ، المجلد التاسع عشر: 143 . وأعتقد أن ما ذهبت إليه من تأويل لا يبتعد عن قول ابن عاشور . وربما تكون هـذه فـرصة في إطلاع القارئ الكريم على نقطة فنية أتعرض لها ليس في هذه الدراسة فحسب ، بل في كل ما أقدمه من دراسات في القرآن الكريم ، تتمثل هذه النقطة في أنني أجتهد برأيي أولًا فيما أنا بصدده من الدراسة ، قبل أن أنظر في التفاسير . وفي أحيان كثيرة يتطابق ما أذهب إليه مع ما ورد في التفاسير ، فأثبت الاثنين ، و(الله) بما أقول عليم . وأرجو من (الله) سبحانه وتعالى ألا أتهم بالسرقة، أو التكرار، أو غير ذلك.

شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (الشورى: 11). كما يقول عز من قائل: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴾ (الجن26).

وإذا تأملنا الجانب الإعرابي في الموضع الأول – سورة الشورى - ألفينا أن دال (فاطر) خبر لمبتدأ محذوف تقديره (هو) ([1]).

وفي الموضع الآخر – سورة الجن – نجد أن دال (عالم) خبر لمبتدأ محذوف تقديره (هو) ([2]).

وإذا أخذنا موضع سورة (الجن) نموذجًا للدراسة؛ لكونها أسبق في النزول من سورة الشورى ([3]). وجدنا أن المبتدأ ضمير تقديره (هو) عائد إلى دال (رب) في الآية السابقة في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا﴾ (الجن: 25).

وإذا عدنا إلى تراثنا البلاغي، نجده يذخر بتقديم المبررات والعلل والدواعي في تحليل الظواهر البلاغية للخطاب اللغوي، وبخاصة القرآني منه. ومن هذه الظواهر ظاهرة الحذف. وهنا يقول عبد القاهر الجرجاني في حذف المبتدأ / المسند إليه: " وإذا عرفت هذه الجملة من حال الحذف في المبتدأ، فاعلم أن ذلك سبيله في كل شيء. فما من اسم أو فعل تجده قد حذف، ثم أصيب به موضعه، وحذف في

---

[1] انظر: النحاس ، إعراب القرآن: 924 ، والعكبري : التبيان في إعراب القرآن ، القسم الثاني: 1131 ، ومحيي الدين الدرويش: إعراب القرآن الكريم وبيانه ، المجلد السابع: 19 ، وبهجت عبد الواحد صالح: الإعراب المفصل لكتاب الله المرتل ، المجلد العاشر: 375 ، ومحمود سليمان ياقوت: إعراب القرآن الكريم ، المجلد التاسع: 4203.وكل هؤلاء قدموا أكثر من وجه إعرابي لدال (فاطر) ، لمعرفة تلك الأوجه الإعرابية ، يُرجى الرجوع إلى تلك الصفحات في مصادرها .

[2] انظر: محيي الدين الدرويش: إعراب القرآن الكريم وبيانه ، المجلد الثامن: 103 . وأجاز وجه البدلية من (ربي)، وبهجت عبد الواحد صالح: الإعراب المفصل ، المجلد الثاني عشر: 215 . وقد أجاز وجه الصفة ل(ربي) ، ومحمود سليمان ياقوت: إعراب القرآن الكريم ، المجلد العاشر: 4855 ، ولم يقل ياقوت إلا بهذا الوجه فقط / أي وجه الخبر للمبتدأ المحذوف . بينما لم يقل النحاس إلا بوجه (الصفة) ، وهو الوجه الثاني عند بهجت صالح . انظر: إعراب القرآن: 1212 .

[3] انظر: الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، الجزء الأول: 193 .

الحال ينبغي أن يحذف فيها، إلا وأنت تجد حذفه هناك أحسن من ذكره، وترى إضماره في النفس أولى وآنس من النطق به " [1].

وقد تم حذف المبتدأ هنا لعلتين: **الأولى** خاصة بالصياغة والنسج القرآني المحكم، و**الأخرى**: خاصة بالقارئ المتلقي للقرآن الكريم. أما فيما يخص الصياغة؛ فلأن الحق سبحانه وتعالى قد ذُكر قبل موضع الحذف بدال(رب) في الآية السابقة كان طبيعيًا - اتساقًا مع جماليات اللغة العربية التي نزل بها الذكر الحكيم - أن يكون هذا الذكر مسوغًا للحذف . ومن ثم، فإن بنية الذكر والحذف تسهم على نحو فعال مع بقية البنى الأخرى، مثل التقديم والتأخير، والتعريف والتنكير، والتماثل والتقابل...إلخ في خروج الصياغة القرآنية على أبهى ما يراد لها وأجمله.

أما العلة الأخرى، المتعلقة بالمتلقي، فتتجلى في مظهرين: **الأول** يتمثل في استحضار القارئ المتلقي المبتدأ –دال (رب) المتمثل في ضمير الغيبة المحذوف- في ذهنه، ولا سيما أنه قريب الصلة، بذكره قُبَيْلَ مواضع الحذف مباشرة.

ويتمثل المظهر **الآخر** في أن الخبر في هذا الموضع لا يصلح إلا لل(رب) العلي سبحانه وتعالى حقيقة؛ فدال (عالم) والمضاف إليه دال (الغيب) لا ينصرف إلا لل(رب) العلي عز وجل؛ إذ مَنْ يعلم الغيب غيره؟!. ومن ثم لا يحتاج المتلقي إلى ذكر المبتدأ؛ إذ هو معروف لديه سلفًا، وأنه وحده لا غيره المختص بالخبر.

ودلالة هذه الآية الكريمة تتسق مع قول (الله) سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ (النمل: 65) [*].

---

[1] انظر: دلائل الإعجاز: 152 ، 153. وقد قدم السكاكي عللًا كثيرة لحذف المبتدأ /المسند إليه من ناحية المتلقي. انظر: مفتاح العلوم: 265 ، 266. وانظر في فاعلية دور القارئ في حذف المسند إليه: د. محمد عبد المطلب ، البلاغة العربية. قراءة أخرى، لونجمان للنشر والتوزيع ، القاهرة ، الطبعة الثانية 007 2م ، 217 ، 218.

[*] وقد فصلنا القول في هذه الآية الكريمة في الكتاب الأول . انظر الكتاب الأول: 370 – 374 .

المبحث الثالث: دال (رب - إله) اسم للناسخ

1- دال (رب - إله) اسم (إنَّ) و(أَنَّ)

لقد بني الخطاب الإلهي في هذا الجزء من الدراسة على ورود دال (رب) اسمًا للناسخ (إنَّ) مضافًا إلى الضمائر المتصلة المختلفة: المتكلم، والمخاطب، والغائب، سواء أكان ذلك في حالة الإفراد أم الجمع. وما ما سنحاول أن نوضحه من خلال الاستشهاد بالنماذج القرآنية.

في ضمير المتكلم المفرد المتصل (الياء) يقول مولانا سبحانه: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (هود:41) ([1]). وفي ضمير المتكلم الجمع المتصل يقول مولانا جل في علاه: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ (فاطر: 34)

وفي ضمير المخاطب المفرد المتصل (الكاف) يقول مولانا عز وجل: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (الأنعام: 83). وهذا الموضع في القرآن الكريم من الكثرة بمكان.

وفي ضمير المخاطب الجمع المتصل (كم) يقول (الله) سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأعراف: 54) ([2]).

وفي ضمير الغائب المفرد المتصل يقول مولانا جل في علاه:﴿إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾ (الانشقاق: 15). وفي ضمير الغائب الجمع المتصل يقول رب العزة سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ﴾ (العاديات: 11) [*].

---

[1] انظر كذلك:سورة (هود: 56 ، 57 ، 61 ، 90 ، 92)، وسورة (يوسف:50 ، 53 ، 100) ، وسورة (إبراهيم: 39)، وسورة (النمل: 40) ، وسورة (سبأ: 36، 39 ، 48) .

[2] انظر كذلك: سورة (الأعراف: 196)، وسورة (يونس: 3) ، وسورة (النحل: 7 ، 47) ، وسورة (طه:90) .

[*] لكثرة تلك النماذج ، سنقتصر على تحليل بعضها دون الآخر ؛ منعًا للإطالة .

وإذا نظرنا في الموضع الأول وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (هود:41)، وجدنا أن بنية الخطاب تتألف من: الناسخ المؤكِّد (إنَّ)، ودال (رب) الذي يشغل اسمها، ومنطقة الخبر المشغولة باسمين من أسماء الله الحسنى (غفور، رحيم) أُكِّدَ الأول منهما (لغفور) باللام المزحلقة.

فإن قيل: لماذ صُدِّرتْ بنية الخطاب القرآني هنا بالناسخ المؤكد (إنَّ)؟ قلتُ: لطبيعة المخاطَب. يتضح لنا ذلك بالرجوع إلى سياقِ الآية الكريمة: العام والخاص.

يُسْتَهَلُّ السياق العام للآية الكريم بقول (الله) عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (هود: 25)، وانتهى السياق العام للآية بقول ربنا سبحانه وتعالى مُصَبِّرًا حبيبه ومصطفاه سيدنا محمد ﷺ: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (هود: 49).

ويتضح من السياق العام أن المخاطِب سيدنا نوح عليه السلام، والمخاطَب هم قومه الذين كفروا به، رغم دعوتهم ألف سنة إلا خمسين عامًا.

أما السياق الخاص للآية الكريمة، فهو يرد في إطار صنع السفينة، ثم يبلغ خصوصيته في الآية ذاتها: ﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

ومن حيث المعني بالخطاب بتركيب: (إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) نحن أمام احتمالين: إما أن يكون هذا التركيب ملحقًا بمقول القول: (اركبوا)، فيكون للمؤمنين معه، أو غير ذلك، فيكون خطابًا عامًا لهم، ولمن كفر من قومه.

وفيما يخص الاحتمال الأول، فإن انبناء التركيب على مؤكدين: الناسخ واللام المزحلقة يرد في إطار تطمين المؤمنين بأنهم فازوا ونجوا؛ لأن الرب الذين آمنوا به قد غفر لهم ورحمهم في الدنيا والآخرة، مما يشير إلى سعادة هؤلاء ويوضح رشدهم.

وإن كان الاحتمال الآخر، فإن هذا الخطاب بمؤكديه يُعد بمثابة تحفيز وتشجيع لمن يسمعه ولم يلتحق بالإيمان بعد، بأن من يدعو سيدنا نوح لعبادته هو غفور رحيم، لربما لحق بالإيمان من لحق، وبخاصة أن مشهد ركوب السفينة كان على

مسمع ومرأى من القوم، بدليل نداء سيدنا نوح لابنه، في قول (الله) سبحانه وتعالى ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ (هود: 42). أي يمكن القول: إن انبناء بنية الخطاب على التأكيد أفاد ضربي المخاطَب .

ويقصر بعض مفسري القرآن الكريم هذا الخطاب (إن ربي لغفور رحيم) على قوم سيدنا نوح فحسب. يقول الزمخشري مثلًا:" ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لولا مغفرته لذنوبكم ورحمته إياكم لما نجاكم " [1].

ويقول ابن عاشور: " وأكد ب(إنَّ) ولام الابتداء تحقيقًا لأتباعه –أي أتباع سيدنا نوح - بأن الله رحمهم بالإنجاء من الغرق " [2].

ومن جانب المخاطِب، فقد أظهر هذا التأكيد بأداتيه، مع إضافة دال (رب) إلى ضمير ياء المتكلم (ي) العائد إلى سيدنا نوح عليه السلام، ثقة سيدنا نوح عليه السلام في ربه، وثقته في أنه على الطريق الصحيح؛ إذ كيف يدعو قومًا ألف سنة إلا خمسين عامًا، وهو يشك فيمن يدعو إلى عبادته؛ لذا قال بلغة الواثق من نفسه، الواثق من صحة ما هو عليه: (إن ربي لغفور رحيم).

أما ورود دال (رب) في منطقة اسم الناسخ (إن)، دون اسم الجلالة (الله) أو دال (إله)؛ فلأن القوم – وهذا عام مع كل الأقوام – عندما يُخاطَبون بالربوبية يكون

---

[1] انظر: الكشاف ، الجزء الثاني: 381 .

[2] انظر: التحرير والتنوير ، الجزء الثاني عشر: 74 . وإلى ذلك ذهب القرطبي . انظر: الجامع لأحكام القرآن، الجزء الحادي عشر: 121 . وكذلك أبو السعود ، انظر: إرشاد العقل السليم ، الجزء الرابع: 209 . ولم أجد ما يعضد رأيي إلا قول الإمام الطبري: " وقوله: (إن ربي لغفور رحيم) ، يقول: إن ربي لساتر ذنوب من تاب وأناب إليه ، رحيم بهم أن يعذبهم بعدَ التوبة " . انظر: جامع البيان عن تأويل أي القرآن ، المجلد الرابع: 279 . ويتضح من رأي الإمام الطبري عمومية الخطاب، وهو ما ذهبنا إليه . بل ويمكن القول: إن الخطاب يعم قوم سيدنا نوح وغيرهم، ممن يندم ويرجع إلى (الله) سبحانه وتعالى . ويمكن فهم المغفرة والرحمة هنا في إطار إطلاق الخاص ، والمراد به العام . وانظر في هذا بالتفصيل: الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، الجزء الثاني: 217 – 225 .

الغرض من ذلك هو تحريك مشاعرهم إلى صاحب النعم المادية – على الأقل- التي يعيشون فيها، فإذا فهموا ووعوا انتقلوا من مرحلة توحيد الربوبية إلى توحيد الألوهية وهو الهدف الأساسي لبعث الأنبياء والرسل.

يؤكد ذلك شيوع دال(رب) في خطاب سيدنا نوح عليه السلام في الآيات اللاحقة، عندما نادى ابنه ﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾(هود: 45)، وعندما خاطب ربه قائلا: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (هود: 47).

أما منطقة خبر الناسخ، فقد شُغِلَتْ باسمين من أسماء الله الحسنى (غفور، رحيم) وقد وردا هذان الاسمان لمناسبة لمضمون الآية الكريمة *

وإذا أخذنا موضع سورة الأعراف (إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ) بوصفه نموذجًا آخر لدال (رب)، فإن الرجوع إلى سياق الآية يطلعنا على أن المخاطَب هم أصحاب النار في الآخرة.

ويبدأ السياق من قول (الله) عز وجل:﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (الأعراف: 50).

ولما كان مضمون الخطاب لهؤلاء يدور في إطار صفات الربوبية التي تجلت في رحمة الله بهؤلاء في إرسال كتابه لهم ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأعراف: 52)، وأعطاهم ما أعطاهم من النعم، وهو ما جعل بعضهم يقول – في إطار نعم الربوبية - عند الحسرة: ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ (الأعراف: 53). جاء التركيب الاسمي (إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ) ليلفت انتباههم إلى أن الرب الذي تعرفونه بكل نعمه عليكم هو هو (الله)الذي ينبغي أن تفردوه وحده بالعبادة، ولا تشركوا معه شيئًا.

---

* ولعدم الإطالة يحسن الرجوع إلى مناسبة أسماء (الله) الحسنى لما وردت فيها من آيات إلى كتابنا: خواتم الآيات التي تشمل أسماء الله الحسنى . دراسة أسلوبية: 77 - 96 .

ولتثبيت هذا في نفوس المخاطَب، استمر الخطاب في الآية الكريمة موضحًا سمات الألوهية (الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ). ثم ختمت الآيات الكريمة بالتكامل بين صفات الألوهية والربوبية في قوله سبحانه وتعالى: (تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ).

وهنا يقول ابن عاشور:" وقد جعل المخبر عنه الرب، والخبر اسم الجلالة (الله)؛ لأن المعنى أن الرب المعلوم عندكم هو الذي اسمه الدال على ذاته:(الله)، لا غيره ممن ليس له هذا الاسم " ([1]).

وفي جعل اسم الناسخ (إنَّ) مسندًا إليه يقول:" فقوله تعالى: (إن ربكم الله) جعل المسند إليه ربكم؛ لأن الكلام جار مع من ادعوا أربابًا، والمقام للجدال في تعيين ربهم الحق، فكان الأهم عند المتكلم من المعرفتين عند المخاطَبين: هو تعيين ربهم، فجعل ما يدل على ربهم مسندًا إليه، وأخبر عنه بأنه هو الذي يعلمون أنه (الله). وأكد هذا الخبر بحرف التوكيد، وإن كان المشركون يثبتون الربوبية (لله)، والمسلمون لا يمترون في ذلك؛ لتنزيل المشركين من المخاطبين منزلة من يتردد في كون (الله) ربًا لهم؛ لكثرة إعراضهم عنه في عباداتهم وتوجهاتهم " ([2]).

وأحيانًا يتقدم خبر الناسخ على اسمه دال (رب)، وذلك كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ (الشعراء: 62).

والمتأمل في الجهة الإعرابية لبنية الخطاب في تركيب (إِنَّ مَعِيَ رَبِّي)، يدرك أن الظرف (معي) متعلق بمحذوف خبر مقدم، و(رب) اسم (إِنَّ) مؤخر([3]). ويكتنف بنية

---

[1] انظر: التحرير والتنوير ، الجزء الثامن: 159 ، 160 .

[2] انظر: السابق ، الجزء نفسه: 160 .

[3] انظر: محيي الدين الدرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه، المجلد الخامس: 409 ، وبهجت عبد الواحد صالح، الإعراب المفصل ، المجلد الثامن: 197، ومحمود سليمان ياقوت، إعراب القرآن الكريم، المجلد السابع: 3327 . وثم خلاف بين النحويين في الموقع الإعرابي لجملة (سيهدين) ، انظره في مكانه في تلك المراجع .

هذا الخطاب ملمحان: **الأول** تقديم الخبر المتعلق به الظرف والمضاف إليه (معي)، و**الآخر**: علة ورود دال (رب).

أما عملية التقديم، فلها – رغم الطابع التعريفي لاسم (إِنَّ) (ربي) الذي يؤهله إلى المجيء في مكانه (إن ربي معي) – بلاغتها ورونقها. فإن قيل: لماذا؟ قلتُ: إن من يتأمل السياق يدرك أن الحديث هنا ليس عن إيمان بني إسرائيل ب(الرب)؛ إذ هم مؤمنون به لما رأوه من معجزات باهرات سيقت لفرعون وقومه، ولِمَا أنجاهم من بطشه بخروج سيدنا موسى من مصر. وإنما الحديث عن وقوف الرب العلي مع نبيه سيدنا موسى عليه السلام في هذا الموقف العصيب: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ (الشعراء: 61).

وإذا دخلتَ إلى النسيج اللغوي لبنية الخطاب في الآية الكريمة، وجدتَه يُؤَكَّد بأكثر من مؤكد: فثم (إِنَّ)، واللام المزحلقة في خبرها (لمدركون)، وانبناء هذا الخبر على الطابع الاسمي / اسم مفعول (مدركون).

وإذا تحقق ما توقعه أصحاب سيدنا موسى من إدراك فرعون لهم، فهذا لا ينفي وجود (الرب) العلي، ولا ينفي إيمان قوم سيدنا موسى– وبخاصة من حسن إيمانهم- به جل في علاه، وإنما ينفي معية (الرب) – وحاشاه - لنبيه الكليم عليه السلام.

ولما كان ذلك كذلك، من انصباب الحديث عن المعية، قُدِّمَتِ المعية المتعلقة بالخبر المحذوف على دال (رب) الشاغل لاسم الناسخ (إِنَّ).

ولثقة كليم (الله) سيدنا موسى عليه السلام في معية ربه له، استدعي – في محور الاختيار - أداة النفي (كَلَّا) دون غيرها من الأدوات الأخرى: ﴿قَالَ كَلَّا﴾.

و(كلَّا) عند (ثعلب) مركبة من كاف التشبيه ولا النافية، وإنما شددت لامها لتقوية المعنى/أي معنى النفي. كما أنها تفيد الردع والزجر عند الخليل وسيبويه والمبرد والزجاج، ويجوز الوقف عليها والابتداء بما بعدها ([1]).

أما دلالة (كلَّا) على قوة النفي، فهو من الوضوح بمكان. وتنسحب دلالتها على الردع والزجر إلى قوم سيدنا موسى، وكأنه قيل: كيف تظنون ذلك؟!!. ومن ثم فإن تركيب (إِنَّ مَعِيَ رَبِّي) يكون تعليلًا لهذا النفي المؤكد، ولهذا الزجر والردع ([2]).

وإذا قلنا: إنه يجوز الوقوف عليها، والابتداء بما بعدها، فسيكون تركيب (إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ) تركيبًا استئنافيًا، والاستئناف يعني القطع، والقطع البلاغي يشير إلى القطع الدلالي، مما يدل على حتمية معية (الله) سبحانه وتعالى لنبيه والقطع بذلك، وعدم الشك فيه [*].

وفي إضافة الظرف (مع) إلى ياء المتكلم (ي) العائدة إلى سيدنا موسى عليه السلام، وإخراج قومه من المعية، يقول الألوسي: " ولم يشركهم عليه السلام في المعية والهداية إخراجًا للكلام على حسب ما أشاروا إليه في قولهم (إنا لمدركون) من طلب التدبير منه عليه السلام. وقيل: لما كان عليه السلام هو الأصل وغيره تبع له محفوظون منصورون بواسطته وشرفه وكرامته قال: (معي) دون معنا، وكذا قال: (سيهدين) دون سيهدينا وقيل: قال ذلك جزاء لهم على غفلتهم عن قوله تعالى له عليه

---

[1] انظر: ابـن هشام ، مغني اللبيب: 205 . والـزجاجي: حروف المعاني ، القسم الثاني: 11 ، 12 . ومـن مصادر التفاسير ، انظر: الماوردي ، النكت والعيون ، الجزء الرابع: 173 . وأبي حيان الأندلسي البحر المحيط ، الجزء السابع: 19 ، وأبي السعود ، إرشاد العقل السليم ، الجزء السادس: 245 . وابن عاشور ، التحرير والتنوير ، الجزء التاسع عشر: 135 .

[2] انظر: محيي الدين الدرويش ، إعراب القرآن الكريم وبيانه ، المجلد الخامس: 409، ومحمود سليمان ياقوت ، إعراب القرآن الكريم ، المجلد السابع: 3327 .

[*] جدير بالذكر أن هذا الطرح لم يرد في كتب الإعراب ، وإنما توصـلنا إليه من خلال المنطلقات البلاغية .

السلام (أنتما ومن اتبعكما الغالبون)...وكأن تأديبه لهم على ذلك بمجرد عدم إشراكهم فيما ذكر، لا أنه نفاه عنهم كما يتوهم من تقديم الخبر؛ فإن تقديمه لأجل الاهتمام بأمر المعية التي هي مدار النجاة المطلوبة " [1].

وأنا مع الإمام الألوسي في كل ما ذهب، إلا قوله: (لا أنه نفاه عنهم كما يتوهم من تقديم الخبر)؛ لأنه لم يُتَوَهَم ذلك. وإنما ورد التقديم؛ لِمَا قاله هو من الاهتمام بالمعية وهو ما سقناه في الطرح آنفًا.

ويضيف الإمام الألوسي قائلًا:" وزعم بعضهم أن في الكلام حذفًا، والتقدير: إن معي وعد ربي، ولذلك قال: (معي) دون معنا. وفيه ما فيه " [2].

ثم يعقد الألوسي موازنة طيبة بين تقديم المعية هنا وتأخيرها في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ (التوبة: 40) فيقول:"وقيل: قدم المعية هنا وأُخِّرت في قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ لأن المخاطب هنا بنو إسرائيل، وهم أغبياء يعرفون الله عز وجل بعد النظر والسماع من موسى عليه السلام، والمخاطب هناك الصديق رضي الله تعالى عنه، وهو ممن يرى الله تعالى قبل كل شيء؛ ولاختلاف المقام نَظَمَ نبينا ﷺ صاحبه معه في المعية، ولم يقدم له ردعًا ولا زجرًا، وخاطبه على نحو مخاطبة الله تعالى له عليه الصلاة والسلام عند تسليته بما صُورَتُه النهي عن الحزن، وأتى بالاسم الجامع وهو لفظ الله دون اسم مشعر بصفة واحدة مثلًا، ولم يكن كلام موسى عليه السلام ومخاطبته لقومه على هذا الطرز، وسبحان من فضل بعض العالمين على بعض" [3].

أما ابن عاشور فقد قال في إسناد المعية إلى (الرب) جل في علاه: " وإسناد المعية إلى الرب في (إن معي ربي) على معنى مصاحبة لطف الله به وعنايته بتقدير أسباب نجاته من عدوه. وذلك أن موسى واثق بأن الله منجيه لقوله تعالى: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ

---

[1] انظر: روح المعاني ، الجزء التاسع عشر: 85 .

[2] انظر: السابق ، الجزء نفسه: الصفحة نفسها .

[3] انظر: السابق نفسه ، الجزء نفسه: الصفحة نفسها .

مُسْتَمِعُونَ﴾ (الشعراء: 15)، وقوله: ﴿أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾ (الشعراء: 52) كما تقدم آنفًا أنه وعد بضمان النجاة " ([1]).

وفي إضافة الظرف (معي) إلى سيدنا موسى في صورة الضمير المتكلم (ي) يقول ابن عاشور: " واقتصر موسى على نفسه في قوله: (إِنَّ مَعِيَ رَبِّي)؛ لأنهم لم يكونوا عالمين بما ضَمن له الله من معية العناية. فإذا علموا ذلك علموا أن هدايته تنفعهم؛ لأنه قائدهم والمرسل لفائدتهم. ووجه اقتصاره على نفسه أيضًا أن طريق نجاتهم بعد أن أدركهم فرعون وجنده لا يحصل إلا بفعل يقطع دابر العدو، وهذا الفعل خارق للعادة فلا يقع إلا على يد الرسول. وهذا وجه اختلاف المعية بين ما في هذه الآية وبين ما في قوله تعالى في قصة الغار ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾؛ لأن تلك معية حفظهما كليهما بصرف أعين الأعداء عنهما " ([2]).

وفي جملة (سيهدين) يقول ابن عاشور:" وجملة (سيهدين) مستأنفة أو حال من (ربي). ولا يضر وجود حرف الاستقبال؛ لأن الحال مقدرة كما في قوله حكاية عن إبراهيم ﴿قَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ (الصافات: 99). والمعنى: أنه سيبين لي سبيل سلامتنا من فرعون وجنده " ([3]).

وطرح ابن عاشور وجه الاستئناف لجملة (سيهدين)، يتسق مع الوقوف على(كلَّا)، كما طرحنا من قبل، إذ وجهنا وجه الاستئناف وجهة بلاغية، جعلت القطع الناتج عن الاستئناف دليل ثقة نبي (الله) في معيته له، وهو ما اعتمده محيي الدين الدرويش في إعراب (سيهدين).

---

[1] انظر: التحرير والتنوير ، الجزء التاسع عشر: 135 .

[2] انظر: السابق، الجزء نفسه: الصفحة نفسها . ولكل من الوجهين – الألوسي وابن عاشور – وجاهته ونصاعته وحلاوته . رحم (الله) علمنا الأفاضل رحمة واسعة ، ورحمنا معهم تبركًا بعلمهم وعملهم . وإضافة إلى الموازنة التي ساقها العالمان الجليلان لبنية التقديم بين هذا الموضع وموضع الغار ، أنه لما كان قول قوم سيدنا موسى نابعًا من جزعهم ويأسهم ، سُطِّرَ في القرآن . ولم يُسَطَّر قول الصديق ؛ لأنه لم يصدر عن جزع ويأس .

[3] انظر: التحرير والتنوير ، الجزء التاسع عشر: 135 .

أما وجه الحال، فهو الذي رفضه محيي الدين الدرويش عندما قال:" وجملة (سيهدين) استئنافية، وغلط من أعربها حالًا "[1]. ولم نقع – في حدود علمنا - على أحد اللغويين قدم وجه الحال غير ابن عاشور.

على هذا النحو، بدت بنية التكوين اللغوي للخطاب في هذه الآية الكريمة، وبدت أهمية إسهام بنية التقديم - المتمثلة في تقديم خبر الناسخ على اسمه، إضافة إلى الجماليات الأخرى - في إنتاج الدلالة القرآنية على هذا الوجه المعجز.

وفي مجيء دال (إله) في منطقة اسم الناسخ (إِنَّ) يرد قول (الله) سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ (الصافات: 4). والمتأمل في بنية الخطاب التي أسست عليها الآية الكريمة، يجدها تتألف من الناسخ الناصب المؤكد (إِنَّ)، واسمها المضاف إلى ضمير المخاطب الجمع (إِلَهَكُمْ)، ثم خبرها المؤكد كذلك باللام المزحلقة (لَوَاحِدٌ).

وبالعودة إلى سياق الآية الكريمة، يمكن إدراك علة التأكيد المتمثل في الأداتين: (إِنَّ) و(اللام). يطلعنا السياق على أن سورة الصافات مكية [2]. مما يُفهنا أن المخاطَب بهذه الآية هم كفار مكة.ولما كانت طبيعة المخاطَب على هذا النحو من الكفر والنكران، صُدِّرَت الآية الكريمة بالقسم: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا * فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا * فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ (الصافات: 1 -3). ثم ورد التأكيد في جواب القسم.

ومن المعروف أن السورة المكية، جاءت في معظمها لمعالجة العقيدة. ولما كان المعبود يمثل صلب العقيدة للعابد، ورد دال (إله) أي المعبود، ولم يرد اسم الجلالة (الله)، ولا دال (رب)، ثم شُغِلَتْ منطقة خبر الناسخ بدال (واحد) نفيًا لتعدد الآلهة عند هؤلاء.

---

[1] انظر: إعراب القرآن الكريم وبيانه ، المجلد الخامس: 409 . وربما قصد الدرويش ابن عاشور هنا ؛ لأن الدرويش عندما ناقش خصائص جملة الحال ، قال بعدم جواز تصدير جملة الحال بدليل استقبال . وهو ما ناقشه ابن عاشور في طرحه . انظر فيما ساقه الدرويش ، السابق ، المجلد نفسه: 411 .

[2] انظر: الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، الجزء الأول: 193 .

ولما كان من الممكن تحايل المخاطَب على سمة الوحدانية في عبادتهم لغير(الله)، بأن يقولوا مثلًا: حسنًا نعبد إلهًا واحدًا هو هُبَل أو اللات أو مناة *، جاءت الآية اللاحقة في قوله تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ (الصافات: 5).

ونحويًا، لدال (رب) ثلاثة أوجه من الإعراب: إما أن يكون بدلًا من واحد، أو خبرًا ثانيًا للناسخ (إن)، أو خبرًا لمبتدأ محذوف، تقديره (هو) ([1]). ومهما يكن من إعراب فإن دلالة دال (رب) هنا تتسلط مباشرة وتتعلق بدال (إله).

ولدرأ توهم المخاطَب أن(الإله) أو(الرب) المرتبط بالإله نحويًا، يمكن أن ينتمي– حتى لو كان واحدًا - إلى آلهتهم، جاءت الإضافة، ثم العطف في موضعين، في ثلاثة مظاهر يستحيل معها اتصاف معبودهم الأرضي بأحدها، فضلًا عن ثلاثتها (السموات والأرض، وَمَا بَيْنَهُمَا، وَرَبُّ الْمَشَارِقِ). أي أن الحق سبحانه وتعالى ضَمَّنَ محتوى الإضافة والعطف بما لا يمكن لهم أن يدعوه صفات لآلهتهم وأربابهم.

2- دال (رب - إله) ضمير متصل اسم (إِنَّ) و(أَنَّ)

أ- ضمير متصل متكلم (ي)

---

*وهذا مستحيل؛ لأنهم لا يؤمنون بالوحدانية في معبوداتهم ، لكننا نفترض ذلك ؛ لنصل معهم إلى نهاية المطاف .

[1] انظر: النحاس: إعراب القرآن: 831 ، 832 ، والعكبري ، التبيان في إعراب القرآن ، القسم الثاني: 1087 ، لكن العكبري لم يقل بخبر الناسخ (إنَّ) ، ومحيي الدين الدرويش ، إعراب القرآن الكريم وبيانه ، المجلد السادس: 364 . وبهجت عبد الواحد صالح ، الإعراب المفصل ، المجلد العاشر: 6 . ولم يقل (بالبدل) ، ومحمود سليمان ياقوت . انظر: إعراب القرآن الكريم ، المجلد الثامن: 3913 . لكنه لم يقل بوجه خبر الناسخ (إن) . وأما التفاسير، فلم يقل الزمخشري ب(البدلية) مع اعتماد الوجهين الآخرين . انظر: الكشاف ، الجزء الرابع: 33 . أما ابن عاشور فقد قال بالوجه الأخير(خبر لمبتدأ محذوف) فقط .انظر:التحرير والتنوير، المجلد الثالث والعشرين: 86.

باستقراء القرآن الكريم، يدرك أن الضمائر التي ترد في منطقة اسم الناسخ (إنَّ، أَنَّ) تعود كلها إلى دال (رب)، وليس دال (إله). ومن المواضع التي وردت فيها قول (الله) سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ **إِنِّي** جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ **إِنِّي** أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: 30) ([1]).

وإذا تأملنا بنية هذا الموضع وجدناها تضم تركيبين: (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً)، و (إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ). وفي التركيب الأول نناقش أمورًا خمسة: **الأول**، تصدير الخطاب بدال (رب) وليس باسم الجلالة (الله).**الثاني** علة وجود الناسخ (إنَّ).**الثالث**: انشغال اسم الناسخ بضمير المتكلم المفرد المتصل (ي).**الرابع** خبر الناسخ (جاعل)، و**الأخير** دال(خليفة).

فإن قيل في الأمر الأول: لماذا صُدِّرت الآية بخطاب النبي ﷺ بدال (رب) في قوله: (ربك)؟ قلتُ: لما كان الأمر خاصًا بعملية الخلق في إخبار الملائكة، وأن من مقتضى الخالق أن يُنعم على المخلوق بسمات الربوبية، قبل أن يطالبه بالعبادة ([2]) التي تُناط بسمات الألوهية، كان ذكر (رب) أوجب.

لذا، بدا هذا الطرح متوافقًا في قول (الله) عز وجل: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (البقرة: 37)؛ إذ بدأت سمات الربوبية في التجلي من أول توبة يرجوها المخلوق من الخالق جل وعلا. وهو ما استدعى دال (رب) مرة أخرى في هذه الآية. علمنا الله وإياكم.

وليس هذا فحسب، بل كان من جمال التناسق القرآني التئام المعاني. فإذا تأملنا مضمون ما سبق، وجدنا أن الحق سبحانه وتعالى بعد أن قرَّع المشركين في قوله

---

[1] وانظر كذلك في خبر الناسخ المفرد: سورة (البقرة: 33 ، 124) ، وسورة (الحجر: 28) ، وسورة (ص: 71) . وانظر في الخبر الجملة: سورة (الأعراف: 144) ، وسورة (هود: 46) ، و(المؤمنون:111) .

[2] إذا كان هذا الأمر ، لا يتضح كثيرًا بالنسبة للخلق الأول للبشرية ، وهو آدم ، فإنه يتضح جليًا في ذريته .

تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (البقرة: 28) بما يخص مفهوم الألوهية، ذكَّرهم بنعم الربوبية عليهم في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: 29). ومن ثم كان بدء الآية الكريمة بدال (رب) من قبيل البلاغة والتئام النسيج اللغوي لآي الذكر الحكيم.

وفيما يخص الأمر **الثاني**، يمكن طرح هذا السؤال: إذا كان المخاطَب هنا هم الملائكة، فهل تحتاج الملائكة إلى أداة توكيد (إنَّ) في مخاطبتها؟ قلتُ: التوكيد ب(إنَّ) هنا ليس المراد منه تصديق الملائكة؛ فالملائكة مُصدَّقون بلا شك، وإنما ورد التوكيد هنا للقطع بفعل الأمر وتحقيقه، وهو جَعْلُ الخليفة في الأرض، وبأن أحدًا لا يراجع (الله) سبحانه فيما اقتضت مشيئته، حتى ولو كان الملائكة ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾(الأنبياء: 23)، ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾(يسن:82).

ولذا، كان هذا الخطاب إخبارًا من (الله) جل وعلا للملائكة بما اقتضت مشيئته، وليس أخذًا لرأيهم. وإنما ورد هذا الخطاب على هذه الماهية الحوارية؛ ليضع لنا سننًا وقوانين دنيوية تصلح بها شئوننا ([1]).

وفيما يخص الأمر **الثالث**، فإن الإتيان باسم الناسخ بضمير المتكلم المتصل (ي)، يرد في إطار الوحدانية والتفرد؛ لأن مضمون الآية – وربما هذا المقطع القرآني كله – يتناول مسألة الخلق، وأي خلق؟ إنه خلق آدم عليه السلام، الذي يترتب عليه إعمار الأرض. ومن هنا، فمن ذا الذي يشارك (الله) في هذه المسألة؟!!!.

وإذا تأملنا السياق الذي وردت فيه الآية من بداية قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ

---

[1] انظر:ابن عاشور، التحرير والتنوير، الجزء الأول: 400 ، وسيد طنطاوي، أدب الحوار في الإسلام: 126، 127 .

عَلِيمٌ﴾ (البقرة، 28، 29). إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ (البقرة: 30)، وجدناه سياق توحيد؛ فالإماتة والإحياء، وخلق ما في الأرض جميعًا، والرجوع إليه في الآخرة...إلخ، كلها مما تتضمنه دلالة الوحدانية والتفرد.

أما خبر الناسخ (جاعل)–وهو الأمر **الرابع** - فقد بُنِيَ –صرفيًا – على اسم الفاعل، ليفيد الاستقبال؛ إذ وصف الخليفة لم يكن ثابتًا لآدم ساعتئذ ([1]). وعندما يرد اللفظ من الحق سبحانه وتعالى دالًا على الاستقبال، فإن مضمونه يندرج تحت المحقَّق من الأفعال؛ أي أنه قد تم وقوعه بالفعل، ولم يبق إلا عامل الزمن في نظر الإنسان. أما عند (الله) فقد تم تحقيقه.

وأخيرًا يأتي الأمر **الخامس** في دال (خليفة) ([2]). وهنا يقول ابن منظور:" واستخلف فُلانًا مِنْ فُلانٍ: جعله مكانه. وخلف فلانٌ فلانًا إذا كان خليفته. يقال: خلفه في قومه خلافة. وفي التنزيل العزيز: ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾ (الأعراف: 142). وخلفتُه أيضًا إذا جئتُ بعده. ويقال:خَلَّفْتُ فُلانًا أَخْلِفُهُ تخليفًا.واستخلفتُه أي جعلتُه خليفتي، واستخلَفَهُ:جَعَلَهُ خليفة.والخليفة:الذي يُسْتَخْلَفُ مِمَّنْ قَبْلَهُ "([3]).

ويقول ابن سيده: قال الزجاج: جاز أن يقال للأئمة خلفاء (الله) في أرضه بقوله عز وجل: ﴿ يَادَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ (ص:26) " ([4]). وقول الزجاج هذا من الأقوال المشهورة حتى الآن؛ إذ يُقال: الإنسان خليفة (الله) في الأرض.

---

[1] انظر: ابن عاشور ، التحرير والتنوير ، الجزء الأول: 400 .

[2] دار نقاش حول وجود خلق في الأرض قبل آدم.ولكن التحليل هنا ينصب على المعنى اللغوي(خليفة).

[3] انظر: لسان العرب ، مادة (خلف) .

[4] انظر: السابق ، المادة نفسها .

ولعمري إن هذه الجملة لهي من أقبح ما سمعت في حياتي، وما ارتاحت لها نفسي أبدًا في يوم من الأيام، لذا فأنا أرفض رفضًا باتًا بأن يكون الإنسان خليفة (الله) في الأرض، حتى وإن كان هذا على سبيل المجاز. وتتبلور الأسباب في الآتي:

أولًا أنه يتضح من المعاني اللغوية التي ساقها ابن منظور أن المستخلِفَ والمستخلَف لابد أن يكونا من نفس الجنس. وهذا محال مع (الله) تعالى والإنسان.

ثانيًا: أن الخليفة لا يُنَصَّبُ في مكانه إلا إذا مات من قبله، أو طعن سنه فلا يقوى على القيام بالمهام المنوطة به. وهذا محال أيضًا مع (الله) سبحانه وتعالى.

ثالثًا: أن الإمام الطبري يقول في معنى دال (خليفة) في قوله تعالى: ﴿ يَادَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ (ص:26)، الذي أجاز بها الزجاج أن يطلق على الأئمة خلفاء (الله) في الأرض: " يقول تعالى ذكره: وقلنا لداود: يا داود إنا استخلفناك في الأرض من بعد ما كان قبلك من رسلنا حكمًا بين أهلها "([1]).

رابعًا: قال الفراء في قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ (فاطر: 39). قال: جعل أمة محمد خلائف كل الأمم، قال: وقيل: خلائف في الأرض يخلف بعضكم بعضًا " ([2]).

أخيرًا: أنه كما ورد في تفسير الطبري وغيره، بأنه كان هناك خلق قبل آدم، وهم الجن. وإن كان ذلك كذلك، فإن الخلافة هنا ليست عن (الله)، وإنما عما سبق آدم من مخلوقات في الأرض. وربما هذا هو الذي دفع الملائكة إلى أن تقول: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ (البقرة: 30). ولما كان في علم الحق سبحانه وتعالى اختلاف هذا النوع من الخلق عن سابقه، ذيلت الآية بقوله تعالى:﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ([3]).

---

[1] انظر: جامع البيان ، المجلد السادس: 344 ، 345 .

[2] انظر: ابن منظور ، لسان العرب : مادة (خلف) .

[3] وإذا تأملت بقية المواضع الموجودة في القرآن الكريم في هذه المادة في حالة كونها تعنى الخلافة ، تجدها لا تبتعد عن خلافة الإنسان للإنسان . انظر على سبيل المثال (الحديد: 7) .

وفي مجيء الضمير نفسه مع الناسخ (أنَّ) وخبرها اسم مفرد، يقول مولانا سبحانه وتعال: ﴿أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ (الأنفال: 9).

وفي بعض المواضع يرد خبر (أَنَّ) جملة، يقول تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي **لَا أُضِيعُ عَمَلَ** عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾(آل عمران:195).

وأحيانًا أخرى يرد خبر (أَنَّ) شبه جملة، وذلك في قوله تعالى: ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي **مَعَكُمْ** فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ (الأنفال: 12).

وقد فُتحت همزة الناسخ في المواضع الأخرى؛ لعدم استدعاء ما يلزم كسرها. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ (الأنفال: 9). وبتأمل الآية يدرك أن الناسخ ورد هنا في جملة تفسيرية. ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾، فلما كان الإمداد بالملائكة توضيحًا لاستجابة الدعاء فُتحت الهمزة. وكذلك في موضع سورة (آل عمران).

أما قول (الله) سبحانه تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ **أَنِّي مَعَكُمْ** فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ (الأنفال: 12)، فقد فُتحت همزة الناسخ؛ لأن قوله (**أَنِّي مَعَكُمْ**) مؤول بمصدر، وهذا المصدر مفعول يوحي؛ أي يوحي إليهم ثبوت معيته لهم ([1]). فإن قيل: ألم يسبقها الوحي؟ قلتُ: بلى، بيد أن الوحي يختلف عن القول؛ إذ القول معناه المباشرة في الخطاب بين المتخاطبين مقامًا دون واسطة. أما الوحي فغير ذلك.يقول ابن عاشور كذلك:" والوحي إلى الملائكة المرسلين: إما بطريق إلقاء هذا الأمر في

[1] انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير ، الجزء التاسع: 281 .

نفوسهم بتكوين خاص، وإما بإبلاغهم ذلك بواسطة " [1]. ومن هنا كان الاختلاف عن موضع سورة (البقرة: 30) . و(الله) بالحقيقة عليم.

وكما قلتُ: إن الفرق يكمن بين هذه المواضع في فتح همزة الناسخ وكسرها، وذلك حسب طبيعة الخطاب. فمثلًا في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: 30)، نجد أن الناسخ وقع بعد القول؛ لذا كُسِرَتْ همزته. وكذلك في الآية الثانية عشرة من سورة (المائدة: 12).

ب- ضمير (نا) اسم (إنَّ) و(أنَّ)

وما ورد في القرآن الكريم من بنية الخطاب القرآني على هذا الضرب قوله تعالى: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾ (الشعراء: 15)، وقوله عظم جاهه: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ (الدخان: 3)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ (الدخان: 5)، وقوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ (الدخان: 15).

بداية، ترد ضمائر المتكلم (نا – نحن) العائدة إلى (رب) جل في علاه في حالة الجمع للدلالة على العظمة والكمال في الصفات [2]. وللتأكد من هذه الحقيقة، نأخذ مثالًا للتوضيح، وليكن الصورة الأولى الممثلة في قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾ (الشعراء: 15).

إن تأمل السياقين اللذين ورد فيهما هذا التركيب، معتمدًا على ضمير المتكلم الجمع (نا) في موقع اسم (إنَّ)، يطلعنا على نفحة من نفحات الإعجاز القرآني.

وإذا بدأنا بالسياق الخاص، نجد أن الآية وردت في إطار خطاب الحق سبحانه وتعالى لسيدنا موسى عليه السلام، وذلك في قوله عز وجل: ﴿ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ *

---

[1] انظر : ابن عاشور ، السابق ، الجزء نفسه : 280 .

[2] انظر:الزركشي، البرهان في علوم القرآن ، الجزء الثاني: 236، وانظر في إطلاق ضمير الجمع على المخلوقين ، والآراء الواردة فيه ، الصفحة نفسها . والشيخ الشعراوي ، تفسير الشعراوي: 558 .

وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ * وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ * قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ * فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الشعراء: 10 - 16). إلى آخر القصة القرآنية.

فإن قيل: إذا كنا قد فهمنا أن(نا)جاءت للعظمة، فأين دلالتها على كمال الصفات، مع أنه لا توجد إلا صفة واحدة في الآية، وهي صفة السمع، الممثلة في دال(مستمعون)؟

قلتُ: الغوص في العمق، والاعتماد على التأويل، هو الذي يظهر لنا أوجه الإعجاز. لقد بدأت الصفات فاعليتها باصطفاء الحق سبحانه وتعالى لسيدنا موسى عليه السلام (وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى)، بعد أن اصطنعه لنفسه ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ (طه: 41). ثم فاعلية الحكمة من الإرسال إلى هارون (فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ)، ثم جاءت صفة السمع في (مستمعون)، التي تحوي بداخلها صفات أخرى.

إن استماع (الله) عز وجل للحوار الذي سيدور بين سيدنا موسى وسيدنا هارون من جانب وفرعون من جانب آخر، لا يتوقف عند دلالة السمع فحسب، بل يقتضي علم (الله) سبحانه وتعالى بما تكن صدور المتحاورين، وبما سينطقون، ولمن ستكون الغلبة، وما النتيجة. ومن الطبيعي أن الاضطلاع على الدواخل، ومعرفة المآلات، يقتضي فاعلية صفات عدة، مثل الخبرة، والعلم، والبصر، والإحاطة.....إلخ.

والأعجب من هذا، أن هذه الصفات لا تختص بأكمليتها بأحد طرفي المحاورة فحسب، بل بكليهما. ثم تأتي معية (الله) لا لتشمل النَّبِيَّيْنِ فحسب، بل لتشمل كل المؤمنين بهم سواء في بدء الحوار، أو حتى في نهايته، عندما يلحق السحرة بركب الإيمان. ويفهم هذا من دال (معكم).

وإذا تطرقنا للسياق العام، ندرك أن هذه الآية قد وردت في سياق قصة موسى عليه السلام مع فرعون، وهي أطول القصص القرآنية وأكثرها تناولًا في القرآن الكريم.

ويبدأ السياق العام للآية الكريمة من قوله تعالى ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (الشعراء: 10) إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ

مُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء: 67). وبـذا تبلغ الآيات القرآنية الكريمة التي شملها السياق العام ثماني وستين آية ([1]).

ولما كان السياق العام من الأكثرية على هذا النحو من الآيات القرآنية، ثم هو يعالج قضية إيمانية من أخطر القضايا الإيمانية التي وردت في القرآن الكريم؛ إذ أدَّعى أحد طرفيها (فرعون) الألوهية والربوبية، كان من الطبيعي أن تبرز في تلك الآيات عظمة الحق سبحانه وتعالى، وكذلك كمال صفاته.

أما عن العظمة، فبمراجعة الآيات التي شملها هذا المقطع القرآني، يدرك أن الضمائر العائدة إلى دال (رب) وردت في صيغة الجمع (نا)، فمن حيث الأسماء (بِآيَاتِنَا). ومن حيث الأفعال (أَوْحَيْنَا، أَخْرَجْنَا، أَوْرَثْنَا، أَزْلَفْنَا، أَنْجَيْنَا، أَغْرَقْنَا).

وأما عن تكامل الصفات، فلك أن تعدد أفعال (الله) سبحانه وتعالى في هذا المقطع القرآني الذي شمله السياق العام للآية، لتدرك الأكملية في أسماء (الله) سبحانه وصفاته.

ومن هنا يمكن القول: إن ضمير الجمع (نا) قد ورد هنا متسقًا ومنسجمًا ومؤتلفًا مع النسيج اللغوي المعجز الذي يُبنى عليه الذكر القرآني الحكيم .

وإذا كان كل ما سبق من تحليل، يأتي في جانب المخَاطِب (الرب) سبحانه وتعالى، فإن ثمة أوجهًا بلاغية، وأهدافًا أخرى للخطاب تتسلط على المخَاطَب كذلك، فضلًا عن بلاغة الرسالة ذاتها / أي النص القرآني.

إن خطاب الحق سبحانه وتعالى عن نفسه بضمير المتكلم الجمع (نا) مع نبييه عليهما السلام ومن آمن معهم له وجاهته البلاغية من نواح عدة: **أولًا** أن هذا يدل على مقام التشريف لهذين النبيين الكريمين. **ثانيًا:** الدلالة على أن هذا الحوار الذي يعقد حول الكفر والإيمان يدور في إطار الحضرة والمعية الربانية. **ثالثًا:** أن من شأنه إلقاء الطمأنينة، والسكون، والراحة النفسية، والتثبيت، والهدوء في قلب سيدنا

---

[1] من الجدير بالذكر، أن آيات هذا السياق تختم بآية معينة ، مثَّلتْ خاتمة قرآنية لكل مقطع قرآني ترد في نهايته. هذه الآية هي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾. انظر: كتابنا (خواتم الآيات): 115– 118.

موسى وسيدنا هارون مع المؤمنين بهما، مما يجعل أدلتهما أقوى حجة وأبيض نصاعة؛ ليأتي الحوار أكله على أعلى المستويات بإيمان السحرة، وملاقاتهم ما لاقوا على يد فرعون وأعوانه.

وقد تجلى هذا التثبيت وهذه الأريحية في مشهد البحر، عندما قال أصحاب سيدنا موسى﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ (الشعراء: 61)، إذ أجابهم سيدنا موسى بكل ثبات: (كلا)، وعلل ذلك الهدوء، وتلك الثقة، وهذا الثبات بهداية الحق جل وعلا له: ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ (الشعراء: 62). ولمَ لا، وقد اصطنعه لنفسه، واصطفاه، وخاطبه بنون العظمة، وجعل حواره مع فرعون يدور في حضرته ومعيته؟!!!.

وقد ذهب ابن عاشور إلى شيء من هذا، عند تفسيره لقول (الله) عز وجل: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ (البقرة:119)، إذ يقول:" وجيء بالمسند إليه ضمير الجلالة تشريفًا للنبي ﷺ بعز الحضور لمقام التكلم مع الخالق تعالى وتقدس، كأن (الله) يشافهه بهذا الكلام بدون واسطة؛ فلذا لم يقل له: إن (الله) أرسلك " ([1]). مثلما لم يقل (الله) سبحانه وتعالى لسيدنا موسى: إن ملائكتي معكم، بل قال: (إنا معكم).

وفي الآية نفسها يقول الشعراوي:"إن نون العظمة (نا) تأتي لتلفتنا إلى هذه الحقيقة لتبرز للعقل تكامل الصفات في(الله).. لأنك قد تقدر ولا تعلم.. وقد تعلم ولا تقدر، وقد تعلم وتغيب عنك الحكمة. إذن فتكامل الصفات مطلوب "([2]). وهذا لا يكون إلا (لله).

ج- دال (رب - إله) ضمير (ك) متصل اسم (إنَّ)و(أنَّ)

وهذا الضرب من الخطاب القرآني، أحيانًا تؤسس بنيته التكوينية على وقوع ضمير (كَ) المخاطب المفرد في منطقة اسم الناسخ، بدون ضمير فصل مؤكد (أنت)، مثل قول (الله) سبحانه وتعالى: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (إبراهيم: 36).

---

[1] انظر: التحرير والتنوير ، الجزء الأول: 691 .

[2] انظر: تفسير الشعراوي: 559 .

وأحيانًا أخرى يرد الضمير (أنت) الذي يفصل بين اسم الناسخ (ك) وخبرها، وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (البقرة: 127) ([1]).

وكما هو واضح، فإن هذا الضرب من الخطاب يكتنفه عناصر لغوية عدة: **الأول** انبناؤه على الناسخ المؤكد (إنَّ). **الثاني** وقوع ضمير المخاطب (ك) اسمًا للناسخ. **الثالث**: عود ضمير المخاطب على دال (رب)، وليس اسم الجلالة (الله) أو دال (إله). **الأخير**: خلو الموضع الأول (إبراهيم: 36) من ضمير الفصل المؤكد (أنت)، واشتمال الموضع الآخر (البقرة: 127) عليه.

فإن قيل: ما دلالة التأكيد – وفق العنصر الأول – في التركيب الأول ﴿ فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾؟ قلتُ: لقد ورد هذا التركيب في منطقة جواب الشرط لقوله (وَمَنْ عَصَانِي). ويفهم من التركيب أن العصاة هم قوم سيدنا إبراهيم عليه السلام. والمعصية هنا إما أن تكون بمعنى الشرك، وعدم الإذعان لدعوة سيدنا إبراهيم عليه السلام ([2])، أو تكون فيما دون الشرك ([3]).

فإن كان الخطاب موجهًا للضرب الأول من العصاة – المشركين – فللتأكيد ثلاث علل: **الأولى** أن التأكيد يفضي إلى ارتباط خبر الناسخ (إن) المتمثل في (المغفرة والرحمة) بالمدعو – الرب العلي سبحانه وتعالى – وبأن هذا من اختصاصه، وليس اختصاص غيره.

---

[1] وانظر كذلك: سورة (البقرة: 32 ، 128 ، 129) ، وسورة (آل عمران: 8 ، 9 ، 35 ، 38 ، 192 ، 194) ، وسورة (يونس: 88) ، وسورة (إبراهيم: 38) ، وسورة (طه: 35) ، وسورة (ص: 35) ، وسورة (غافر: 8) ، وسورة (الحشر: 10) ، وسورة (الممتحنة: 5) ، وسورة (التحريم: 8) ، وسورة (نوح: 27).

[2] انظر: الإمام الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، المجلد الرابع: 457 .

[3] انظر: الزمخشري ، الكشاف ، الجزء الثاني: 537 . وذهب القرطبي إلى الرأي الأول – أن الخطاب للمشركين- فقال:" قيل: قال هذا – أي سيدنا إبراهيم عليه السلام– قبل أن يُعَرِّفَهُ (اللهُ) أن (اللهَ) لا يَغْفِرُ أنْ يُشْرَكَ به". وأورد الرأي الثاني–المعصية دون الشرك- لمقاتل بن حيان. انظر:الجامع لأحكام القرآن، الجزء الثاني عشر: 146.

الثانية: أنه من جهة العصاة - المشركين - يعد التأكيد تحفيزًا وتشجيعًا لهم على اللحاق بركب الإيمان؛ لأن من يدعوهم إلى عبادته غفور رحيم.

الأخيرة: أن التأكيد قد ورد في إطار التأدب مع (الله) في مقام الدعاء، ونفع للعصاة من الناس بقدر ما يستطيعه –أي سيدنا إبراهيم عليه السلام– والمعنى: ومن عصاني أفوض أمره إلى رحمتك وغفرانك. وهذا من غلبة الحلم على سيدنا إبراهيم عليه السلام، وخشية من استئصال عصاة ذريته ([1]).

وقريب من طرح ابن عاشور قول الإمام البقاعي: " وأكد للإعلام بزيادة رغبته في العفو؛ لأنه لا ينقص شيء من عزته سبحانه ولا حكمته، كما أشار إليه دعاء عيسى عليه السلام في المائدة ([2]).

وإن كان الخطاب موجهًا للضرب الآخر –اتباع سيدنا إبراهيم عليه السلام – إذ تقع المعصية فيما دون الشرك، فيرد التأكيد لطمأنة قلوب المؤمنين بأن ربهم غفور رحيم ومن ثم تحفيزهم وحثهم على سرعة الرجوع إليه بالتوبة، والإقلاع عن المعصية.

وإذا ولجنا إلى العنصر **الثاني**، المتمثل في وقوع ضمير المخاطب(ك) في منطقة اسم الناسخ (إِنَّ)، نجد أن الضمير ورد في موقع الإضمار، اتساقًا مع نواميس لغة القرآن الكريم، إذ صُدِّرت الآية الكريمة بدال (رب) الواقع في منطقة المنادى، ثم عطف على

---

[1] انظر: ابن عاشور ، التحرير والتنوير ، الجزء الثالث عشر: 240 .

[2] انظر: نظم الدرر، الجزء العاشر: 426 .ويقصد بقول عيسى عليه السلام في المائدة قوله عز وجل: ﴿ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (المائدة: 118) . ويذكر أن النبي ﷺ لما تلا قول سيدنا إبراهيم عليه السلام وقول سيدنا عيسى عليه السلام ، رفع يديه وقال: " اللهم أمتي ، اللهم أمتي "، وبكى ، فقال الله تبارك وتعالى: يا جبريل ، اذهب إلى محمد – وربك أعلم – فاسأله ما يبكيه؟ فأتاه جبريل فسأله ، فأخبره رسول الله ﷺ ما قال . قال: فقال الله: يا جبريل ، اذهب إلى محمد فقل له: إنا سنرضيك في امتك ولا نسوءك " . انظر: الإمام الطبري، جامع البيان، الجزء الثالث عشر:689.وانظر نص الحديث:الإمام مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإيمان ، باب دعاء النبي ﷺ لأمته وبكائه شفقة عليهم:رقم 346: ص191.

هذه الجملة الندائية تركيبي: فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي، وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ. ومن هنا كان الإضمار.

أما العنصر **الثالث**، فيتمثل في انبناء الخطاب على دال (رب) الذي صُدرت به الآية الكريمة، وعاد إليه الضمير (ك)، وليس اسم الجلالة (الله) أو دال (إله). وتتمثل العلة في طبيعة النداء؛ إذ نداء المولى عز وجل غالبًا ما يكون بدال (رب)، فإن قيل: لماذا؟ قلتُ: لأن المنادَى – رب العزة سبحانه وتعالى - عندما يجيب المنادِي، تتقطر فيوضات الإجابة من نعم الربوبية، بعد أن يؤمن المنادي بالرب إلهًا *.

وبتأمل العنصرين – الثاني والثالث – نجد أنهما مشتركان بين الموضعين: (إبراهيم والبقرة). فإذا جئنا إلى علة التأكيد – وهو العنصر الأول – في الموضع الثاني في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (البقرة: 127)، نجد أن تركيب: (إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) ورد على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام، تعليلًا لقوله (رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا)، ولا يقصد به تأكيد اتصاف (الله) تعالى بصفتي: السمع والعلم؛ لأن الأمر ليس في حاجة إلى تأكيد.

وإذا كان ذلك كذلك، فإن علة التأكيد تكمن في قوة إيمان سيدنا إبراهيم في اتصاف الباري بالسمع والعلم بما تحويه النوايا وتضمه الضمائر، بل ويقينه في ذلك. هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى تأكيد هذا المعنى لدى كل من سيسمع هذا القول من سيدنا إبراهيم عليه السلام، ومن ثم التنبه وعدم الغفلة في عملية العبادة.

فإن قيل: إذا كان ذلك كذلك، فما العلة – وهو العنصر **الأخير**– في خلو الموضع الأول من ضمير الفصل المؤكد (أنت) في قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (إبراهيم: 36)، واشتمال الموضع الآخر عليه في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (البقرة: 127)، مع أن المخاطَب

---

* سنقارن في مبحث النداء - إن شاء (الله) تعالى - بين انبناء الخطاب في التركيب الندائي على اسم الجلالة (الله) في دال (اللهم) الذي ورد في الكتاب الأول ، وانبنائه على دال (رب) .

/ المنادَى واحد (رب العزة سبحانه وتعالى)، والمخاطِب / المنادِي واحد (سيدنا إبراهيم عليه السلام)؟

قلتُ – والله أعلم بمراده -: إن الموضع الأول ورد في إطار حلم سيدنا إبراهيم عليه السلام بالمعني بالدعاء / العصاة، ورغبته في العفو عنهم – وهو الوارد في العلة الأخيرة من علل التأكيد، كما طرح الإمام البقاعي وابن عاشور – ولما كان عفو الله ومغفرته ورحمته قد تصيب العصاة من قوم سيدنا إبراهيم، أو لا تصيبهم، لم يرد ضمير الفصل المؤكد (أنت).

فإن قيل: إذا كان ثمة ترابط بين قول سيدنا إبراهيم عليه السلام هنا، وقول سيدنا عيسى عليه السلام هناك / أي في سورة (المائدة)، فلماذا خلا موضع سورة (إبراهيم) من ضمير الفصل المؤكد، وورد في سورة (المائدة): ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (المائدة: 118)؟

قلتُ: هذه العلة تعود إلى دلالة الأسماء الحسنى في خاتمة الآيتين الكريمتين. إن المغفرة والرحمة الواردتان في موضع سورة (إبراهيم) قد يكون للإنسان حظ منهما، غير أن اتصاف الإنسان بهما يكون اتصافًا نسبيًا لا مطلقًا ([1]).

فإن قيل: إذا كان من الممكن أن يتصف الإنسان كذلك بالعزة والحكمة اتصافًا نسبيًا، فلماذا ورد التأكيد في قول سيدنا عيسى؟ قلتُ: اتصاف الإنسان بالعزة والحكمة النسبيتين يكون في الدنيا، أما في الآخرة فلا اتصاف للإنسان بشيء نسبيًا أو غير نسبي. ولما كان قول سيدنا عيسى عليه يرد يوم القيامة، فإن (الله) وحده دون غيره هو المتصف بالعزة والحكمة؛ لذا كان ضمير الفصل المؤكد (أنت).

وما أوردناه هنا ينسحب على(السميع العليم) في دعاء سيدنا إبراهيم عليه السلام. ومرة أخرى قد يتصف الإنسان بالسمع والعلم اتصافا نسبيًا، فما الحجة في التأكيد الذي يعني الاختصاص؟ قلتُ: المقام مقام دعاء، والمنادي نبيان أحدهما من أولي العزم، والمنادَى رب العزة، والرجاء قبول العمل، وشرف العمل في رفع قواعد البيت.

---

[1] انظر: كتابنا (خواتم الآيات): 11 وهوامشها ، 30 .

وإذا كان الحق سبحانه وتعالى قد وعد الداعي بالإجابة [*] ، فكيف يكون الحال في هذا المقام !!! هذه **واحدة** خاصة بهذاالموقف.

الأخرى: وحتى في مقام الدعاء: من الممكن أن يلبي الإنسان طلب الداعي أو لا يلبي حسب الأحوال والمقامات. أما مع الرب العلي فلا؛ لأنه قطعًا يجيب الداعي. لذا كان التأكيد.

وقد علل الإمام البقاعي هذا التأكيد بقوله: " ولما تضمن سؤال القبول المشعر بخوف الرد علم الناقد البصير بالتقصير، علله بقوله (إنك)، وأكده بقوله (أنت السميع العليم)، أي فإن كنت سمعت أو علمت منا حسنا، فرده حسنا. وإن كنت سمعت أو علمت غير ذلك من نحو قول ناشئ عن اختلاج في النفس بما سببه كلال أو إعياء، فاغفره " ([1]).

وإضافة إلى ما ذهب إليه الإمام البقاعي، فإن الإتيان بضمير الخطاب (الكاف) وضمير الفصل (أنت) له وجاهته من جانب المخاطِب في الآتي: **أولًا** رسوخ عظمة الحق سبحانه وتعالى في قلب نبييه عليهما السلام. **أخيرًا**: إظهار التوكل على (الله) فيما يفعلونه، ومن ثم إتقان العمل، والبعد عن الملل والكلل.

أما من جانب المتلقي، فإن هذا التأكيد من شأنه إلقاء الطمأنينة في قلب العامل الداعي المتوكل، في أن من يعبده هو من يدعوه، وهو من يجيبه، وهو من يحاسبه...إلخ ([2]).

د- دال (رب - إله) ضمير (هـ) متصل اسم (إِنَّ)و(أَنَّ)

وكسابقه، أحيانًا يرد هذا الضرب من الخطاب بدون ضمير فصل مؤكد (هو)، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ (نوح:10). وأحيانًا

---

[*] انظر على سبيل المثال: سورة (البقرة: 186) ، وسورة (غافر: 60) .

[1] انظر: نظم الدرر ، الجزء الثاني: 158 ، 159 .

[2] انظر: كتابنا خواتم الآيات: 231 .

أخرى يرد معتمدًا على ضمير فصل مؤكد (هو)، وذلك مثل قوله عز وجل: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة: 37) ([1]).

أما البنية في الموضع الأول: (إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا) فإن أول ما يواجهنا في تحليلها، هو الإضمار في ضمير الغائب–نحويًا- (ه) الواقع في منطقة اسم (إِنَّ). وعلة الإضمار كما هو واضح انبثقت من كون الرب العلي قد ذُكِرَ قبل الناسخ مباشرة (ربكم)، فكان من الطبيعي–وفق نواميس اللغة–أن يرد الرب العلي في منطقة اسم الناسخ مضمرًا.

أما استدعاء (إِنَّ) التأكيدية فيتعلق بالمخاطَب، والمخاطَب هم من هم في الكفر والعناد؛ إذ استمرت دعوتهم ألف سنة إلا خمسين عامًا. لذا ورد التأكيد ليفتح لهم باب الأمل في التوبة والرجوع إلى (الله) سبحانه وتعالى، ودرءًا لتوهم عدم قبول التوبة لطول زمن الدعوة، مع شدة جحودهم.

أما انبناء خبر الناسخ (إِنَّ) على الطابع الزمني المتصدر بالناسخ (كان) في (كان غفارًا) فلربما توافق مع طول زمن الدعوة. ولما كان الناسخ (كان) يشير إلى الأزمنة الثلاثة بمجيئه مع الحق جل في علاه، أراد سيدنا نوح أن يطمئن قومه في أن الرب العلي يقبل التوبة في كل الأوقات والأحوال؛ مما يشجعهم إلى الإنابة والعودة.

أما الموضع الآخر (إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)، فتأمل بنيتها يفضي إلى الآتي: **أولًا** أن الخطاب لا يخص مخاطبًا معينًا، بل يهدف كل من يتلقى القرآن الكريم. **ثانيًا**: أن بنية الخطاب اعتمدت على الإضمار في اسم (إِنَّ)؛ لذكر دال (رب) في (ربه)، ثم شغله لمنطقة الفاعل من الفعل (تاب) معتمدًا كذلك على الإضمار. **ثالثًا**: أن تلك البنية لم تكتفِ بأداة تأكيد واحدة (إِنَّ)، وإنما استدعت ضمير الفصل (هو) لزيادة التأكيد. فإن قيل: لماذا؟ قلتُ: لأن هذه هي التوبة الأولى على أبي البشر، ولأن

---

[1] وانظر كذلك: سورة (يوسف: 34 ، 98 ، 100) ، وسورة (القصص: 16) ، وسورة (العنكبوت: 26) ، وسورة (الدخان: 6) ، وسورة (الذاريات: 30) ، وسورة (النجم: 43 ، 44) ، وسورة (البروج: 13) .

المخاطَب عام - كما طرحنا – فقد كان في حاجة إلى رسوخ قبول التوبة من الخالق جل وعلا.

ولكون الخطاب يحمل معنى التوبة الأولى، والمخاطَب عام، اعتمد خبر الناسخ (إنَّ) على الصيغة الاسمية ([1])، التي من شأنها الدوام والاستمرار؛ ليكون المنتج النهائي لدلالة الآية الكريمة: هو أن (الرب العلي) سبحانه وتعالى يقبل التوبة عن عبادة حتى نهاية حياة العبد نفسه.

3- دال (رب - إله) اسم (كان)

وهذا الضرب من الخطاب، إما أن تنبني بنيته على الإثبات، مثل قوله تعالى: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ (الفرقان: 20)، وقوله عز وجل: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ (الفرقان:54). أو على النفي، مثل قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ﴾ (الأنعام: 131)، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ (هود: 117)، وقوله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ (مريم: 64).

وفي هذا الضرب من الخطاب، نجد أنفسنا أمام تحليلين:**الأول** المجيء بدال(رب)، و**الآخر** وقوعه في منطقة الاسمية من الناسخ (كان) في حالتي الإثبات والنفي.

وإذا أخذنا الموضع الأول نموذجًا للتحليل في حالة الإثبات، وهو قوله تعالى: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ (الفرقان: 20)، ألفينا ثمة ثلاثة مظاهر لغوية: **الأول** تصدر

---

[1] خبر الناسخ (إنَّ) إما أن يكون دال (التواب) ، ودال (الرحيم) خبرها الثاني ، إذا كان (هو) ضمير فصل لا محل له من الإعراب . أو (هو) مبتدأ ، و(التواب) خبره الأول، و(الرحيم) خبره الآخر، والجملة خبر (إنَّ) . انظر في ذلك: النحاس: إعراب القرآن: 36 ، والعكبري ، التبيان في إعراب القرآن ، القسم الأول: 54 ، ومحيي الدين الدرويش ، إعراب القرآن الكريم وبيانه ، المجلد الأول: 92 ، وبهجت عبد الواحد صالح ، الإعراب المفصل ، المجلد الأول: 50 ، ومحمود سليمان ياقوت ، إعراب القرآن الكريم المجلد الأول: 74 ، ومحمد حسن عثمان ، إعراب القرآن الكريم وبيان معانيه ، المجلد الأول: 104، غير أن عثمان لم يقل بوجه الابتداء للضمير (هو) ؛ لذا مَثُلَ عند خبر الناسخ (إنَّ) في دالي (التواب ، الرحيم) .

الناسخ (كان) التركيب. **الثاني**: انشغال منطقة الاسمية بدال (رب) مضافًا إلى (كاف) الخطاب العائد إلى سيدنا النبي ﷺ. ثم يتمثل **الأخير** في وقوع دال (بصير) في منطقة الخبر للناسخ (كان).

وإذا بدأنا بالعنصر **الثاني** – إذ هو عماد الدراسة – وجدنا أن الإتيان بدال (رب) له وجاهته من خلال سياقِ الآية: الخاص والعام. يقول الحق سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾.

وقد ورد قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ ردًا على قول المشركين: ﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ (الفرقان: 7).

وبقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ ندخل إلى السياق الخاص للآية الكريمة. إن الرجوع إلى التفاسير المتعددة للقرآن الكريم يطلعنا على أن دلالة هذا التركيب يدور في إطار سمات الربوبية، وبخاصة سمة المنح والمنع. يقول الإمام الطبري مثلًا: " وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾. يقول تعالى ذكره: وامتحنا أيها الناس بعضكم ببعض، جعلنا هذا نبيًا وخصصناه بالرسالة، وهذا ملِكًا، وخصصناه بالدنيا، وهذا فقيرًا وحرمناه الدنيا؛ لنختبر الفقير بصبره على ما حُرِمَ مما أُعْطِيَهُ الغنيُّ، والملك بصبره على ما أُعْطِيَهُ الرسولُ من الكرامة، وكيف رضيَ كل إنسان منهم بما أُعْطِيَ، وقُسِمَ له، وطاعته ربه مع ما حُرِمَ مما أُعْطِيَ غيره. يقول: فمن أجل ذلك لم أُعط محمدًا الدنيا، وجعلته يطلب المعاش في الأسواق، ولأبتليكم أيها الناس، وأختبر طاعتكم ربكم، وإجابتكم رسوله إلى ما دعاكم إليه، بغير عرض من الدنيا ترجونه من محمد أن يعطيكم على اتّباعكم إياه؛ لأني لو أعطيته الدنيا لسارع كثير منكم إلى اتباعه، طمعًا في دنياه أن يَنال منها "[1].

[1] انظر : جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، المجلد الخامس: 465 .

والواضح مما طرحه الإمام الطبري، أن معنى دال (الفتنة) هنا الذي يعني الاختبار قد انبثق من سمتي المنح والمنع. ولما كان المنح والمنع من سمات الربوبية بما تقومان عليه من حكمة في اختبار الناس، كان الإتيان بدال (رب) أوجب وأبلغ.

أما السياق العام للآية الكريمة، فيشمل مضمون سورة الفرقان كلها. إن بدء السورة الكريمة بقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (الفرقان: 1) يطلعنا على أعلى سمات الربوبية، وهي رحمة العالمين بتنزيل الفرقان على سيدنا النبي ﷺ إنذارًا لهم، إذ لو لم تكن الرحمة ما كان الإنذار.

ولقد كان لهذا البدء – الذي دار في إطار نعم الربوبية من خلال (الرحمة)، كما طرحنا آنفًا-أثر واضح في غلبة تردد دال (رب) على اسم الجلالة (الله) في السورة كلها؛ إذ بلغ تردد دال (رب) أربع عشرة مرة، في حين بلغ تردد اسم الجلالة (الله) ثماني مرات.

أما بالنسبة لدال (إله)، فلم يتردد إلا أربع مرات؛ منها مرتان بصيغة الجمع، مما يخرجهما عن إطار الدراسة، ومرتان بصيغة المفرد: الأولى منهم وردت في إطار الشرك في قوله: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ (الفرقان: 43). والأخرى وردت في إطار نفي أن يتخذ المؤمنون إلهًا غير(الله) جل في علاه معبودًا لهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ (الفرقان: 68). لكل ما سبق، كان الخطاب بدال (رب)، ولم يكن باسم الجلالة (الله)، أو دال (إله). زادنا (الله) وإياكم فهمًا وعملًا.

أما المظهر **الأول** – وهو تصدر الناسخ (كان) الخطاب – فيتمثل في أن هذا الفعل عندما يرد مع(الله) سبحانه وتعالى يعني الأزمنة جميعها: ماض وحاضر ومستقبل، أي يفيد معنى الأزلية ([1]). أي أن الرب العلي (ربك) كان بصيرًا بما أرسل من قبلك من المرسلين، وبما حدث بينهم وبين أقوامهم، كما هو بصير بك الآن، وبمن يأتي بعدك إلى يوم أن يرث الأرض ومن عليها.

---

[1] انظر : الراغب الأصفهاني ، مفردات ألفاظ القرآن: 730 .

ويرد المظهر **الأخير** في دال (بصير). وهذا المظهر نفسه يكتنفه عنصران لغويان: **الأول** هو اختيار هذا الاسم دون أسماء (الله) الحسنى. **الآخر** وقوعه في منطقة خبر الناسخ (كان).

أما العنصر **الأول**، فإن أسماء الله الحسنى ترد في خواتم الآيات القرآنية، وفقًا لمضمون آياتها، ولدواع بلاغية تتكاتف في إنتاج الدلالة القرآنية ([1]).

أما وقوع دال (بصير) في منطقة خبر الناسخ (كان)، ففضلًا عما يخبر به عن دال (رب)، ولأن (كان) تحمل معنى الأزلية، فإن خبرها المنصوب المنتهي بالألف الممدودة، يوحي بالأبدية في معنى الصفة، أي استمرارها إلى الأبد، وهو معنى يستحضره الذهن عند مد الألف وانفراج الشفتين عند النطق بها، وتدفق الهواء، ليتدفق معنى الصفة ويُرسَل على نحو لا نهائي ([2]).

وفي وقوع دال **(إله)** في منطقة اسم الناسخ (كان) يرد قوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (المؤمنون:91).

---

[1] انظر : انظر: كتابنا خواتم الآيات التي تشمل أسماء الله الحسنى في القرآن الكريم ، دراسة أسلوبية ، الباب الأول ، الفصل الثاني (المستوى الدلالي لفواصل الخواتم): 77 -96 . ولعدم الإطالة والتكرار ، يمكن الرجوع إلى التعريف المعجمي والدلالي لدال (بصير) ومناسبته لمضمون آياته: انظر: خواتم الآيات ، السابق: 99 – 101 .

[2] انظر: عاطف رجب جمعة القانوع، الإعجاز البياني في نظم خواتم الآيات المشتملة على أسماء الله الحسنى، رسالة ماجستير ، الجامعة الإسلامية – غزة ، كلية الآداب ، 2006: 349 . أما الخطاب المبني على دلالة النفي ، فإن تحليله لا يبتعد عن هذا: تصدر الخطاب بالناسخ (كان) ، ثم علة المجيء بدال (رب) في منطقة الاسم من الناسخ (كان) ، غير أن الاختلاف يكمن في نفي مضمون الخطاب . فعلى المتلقي الكريم تأمل ذلك في النماذج التي ذكرناها .

إذا تأملنا بنية الخطاب في قوله تعالى:(وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ)، نجد أن الطرح الإعرابي يقول في دال (إله): إنه مجرور لفظًا، مرفوع محلًا؛ لأنه اسم (كان) ([1]).

وبالتأمل البنيوي للآية الكريمة، نجد أن هذه البنية معطوفة على ما قبلها المنفية كذلك (مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ). وتتمثل العلة في مضمون النفي في قوله (إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ). ولما كان هذا محالًا مع (الله) جل في علاه ورد تركيب التنزيه والتقديس (سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ).

وبالعودة إلى السياق التي وردت فيه الآية الكريمة، التي أسست على بنية النفي، ندرك علة هذا التأسيس. لقد وردت الآية الكريمة بعد أن ساق الحق سبحانه وتعالى فيضًا من الأسئلة – عن طريق المتلقي الأول النبي ﷺ - وأجرى الجواب على لسان المخاطب / الكفار. لنقرأ معًا: ﴿ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ (المؤمنون: 84 – 89).

وبعد إقرارهم ساق لهم الحقيقة مقرونة بكذبهم، فقال عز وجل: ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (المؤمنون: 90). ووفق فاصلة هذه الآية أسست الآية - موضع الشاهد – على بنية النفي؛ أي كاذبون في ادعائهم أن يتخذ الله ولدًا، أو أن يكون معه إله.

وفي لفتة بلاغية، يرد فعل (اتخذ) في منطقة النفي (ما اتخذ) مع دال (ولد) مُعَرّضًا بادعائهم أن سيدنا عيسى عليه السلام ابن (الله)؛ لوقوع هذا الادعاء في حيز زمني معين. أما نفي أن يكون معه إله، ورد متكئًا على الفعل (كان)، منفيا بالحرف (ما).

---

[1] انظر: محيي الدين الدرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه، المجلد الخامس: 223 . وبهجت عبد الواحد صالح، الإعراب المفصل، المجلد السابع: 421 .ومحمود سليمان ياقوت، إعراب القرآن الكريم ، المجلد السابع: 3145 .

والآن ندخل إلى عالم بنية الخطاب في قوله: (وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ). وكما هو باد، فقد اسْتُهِلَّ الخطاب بأداة النفي (ما). و(ما) حرف نفي لا يعمل شيئًا، أي ليس له تأثير على ما يدخل عليه سواء أكان اسمًا أم فعلًا ([1]).

وأما معناها من حيث نفي الزمن، فهي تدخل على الماضي بمعنى (لم)، وعلى المضارع بمعنى (لا)، أي لنفي الحال ([2]). ويجوز أن تنفي المستقبل، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ﴾ (الدخان: 35)، وقوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ (الأنعام: 29) ([3]).

وقد أعطاها سيبويه معنى التأكيد، وذلك حين قال في باب نفي الفعل:"إذا قال: (فَعَلَ)، فإن نفيه (لَمْ يَفْعَلْ).وإذا قال:(قَدْ فَعَلَ)، فإن نفيه (لَمَّا يَفْعَل).وإذا قال:(لَقَدْ فَعَلَ)، فإن نفيه(مَا فَعَلَ). لأنه كأنه قال: (واللهِ لَقَدْ فَعَلَ)، فقال: (والله مَا فَعَلَ "([4]).

والخلاصة، أن (ما) حرف نفي للماضي والحاضر والمستقبل، كما أنها تتسم بطبيعة تأكيدية، أي أنها تؤكد نفي مضمون ما يليها.

أما الفعل (كان)، فهو يدل على الأزمنة الثلاثة (ماض، حاضر، مستقبل)، أي يعطى معنى الأزلية ([5])، إذا جاء مع (الله) عز وجل. وفي دلالة (كان) على معنى الأزلية

---

[1] انظر: سيبويه ، الكتاب ، الجزء الأول: 57 ، وشرح المفصل ، الجزء الأول: 268 . وانظر كذلك: ابن هشام ، مغني اللبيب: 335 ، وابن عقيل ، شرح بن عقيل ، المجلد الأول ، الجزء الأول: 302 . والأشموني ، حاشية الصبان (شرح الأشموني على ألفية ابن مالك) ، تحقيق طه عبد الرءوف سعد المكتبة التوفيقية ، بدون تاريخ ، الجزء الأول: 388 . وعدم عملها في لغة بني تميم ، أما أهل الحجاز فيجعلونها تعمل عمل (ليس) .

[2] انظر: ابن يعيش ، شرح المفصل ، الجزء الأول: 268 ، والرضي : شرح الرضي على الكافية ، الجز ءالرابع: 199، وابن عقيل ، شرح بن عقيل ، المجلد الأول ، الجزء الأول: 302 ، والزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، الجزء الرابع: 405 .

[3] انظر: الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، الجزء الرابع: 406 .

[4] انظر: سيبويه ، الكتاب ، الجزء الثالث: 117 . وانظر كذلك: الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، الجزء الرابع: 406 ، وفاضل السامرائي ، معاني النحو ، الجزء الأول: 255 .

[5] انظر : الأصفهاني ، المفردات في غريب القرآن: 572 ، والرضي، شرح الرضي على الكافية ، الجزء الرابع: 189.

يقول السيوطي:" تختص (كان) بمرادفة لم يزل كثيرًا، أي أنها تأتي دالة على الدوام، وإن كان الأصل فيها أن يدل على حصول ما دخلت عليه فيما مضى مع انقطاعه عند قوم. وعليه الأكثر...ومن الدالة على الدوام الواردة في صفات (الله) تعالى نحو: وكان الله سميعًا بصيرًا، أي لم يزل متصفًا بذلك " ([1]). ومن معانيها أيضًا أنها تدل على التأكيد ([2]).

وفي علاقة (كان) بخبرها يقول ابن يعيش: " اعلم أن (كان) أُمُّ هذا الباب، وأكثرها تصرفًا، فلها: أربعة مواضع كما ذكر – أي كما ذكر الزمخشري – أحدها: أن تكون ناقصة فتفتقر إلى الخبر، ولا تستغني عنه؛ لأنها لا تدل على حدث، بل تفيد الزمان مجردًا من معنى الحدث، فتدخل على المبتدأ والخبر، لإفادة زمان الخبر، فيصير الخبر عوضًا من الحدث فيها " ([3]).

ويقول الرضي:" فـ(كان) يدل على حصول حدث مطلق تقييده في خبره، وخبره يدل على حدث معين واقع في زمان مطلق تقييده في (كان) " ([4]). ومن الثابت أن خبر (كان) هنا ينحصر في المعيه (معه).

وإذا كان ذلك كذلك، فإن ما تحويه (ما) من نفي الأزمنة الثلاثة، بما تتسم به من الطبيعة التأكيدية في عملية النفي، وما تتضمنه (كان) من معنى الأزلية، إضافة إلى الصبغة التأكيدية، وما تتسلط به من عملية النفي على الخبر (المعية)، يدل ويؤكد على نسف إدعاء القوم وكذبهم بوجود (إله) مع (الله) سبحانه وتعالى في الأزل: قديمه وحاضره، ومستقبله. ناهيك عن دلالة (مِنْ) الزائدة الواقعة في اسم (كان) التي تدل على الجنس؛ أي ما كان معه من إله؛ لا من الملائكة، ولا من الجن، ولا من الإنس،

---

[1] انظر: همع الهوامع ، الجزء الثاني: 99 . وفي دلالة (كان) إذا جاءت مقترنة بصفات (الله) تعالى وأفعاله ، كلام كثير . يرجى الرجوع إلى الزركشي ، البرهان في علوم القرآن، الجزء الرابع: 121 - 127.والسامرائي ، معاني النحو ، الجزء الأول: 209 – 221 .

[2] انظر: الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، الجزء الرابع: 311 .

[3] انظر: شرح المفصل ، الجزء الرابع: 344 ، 345 .

[4] انظر: شرح الرضي على الكافية ، الجزء الرابع: 182 .

ولا من الكواكب، ولا من الأصنام. وبذلك ينفي ادعاء كل المدعين، على اختلاف مشاربهم، وأزمنتهم، وأماكنهم.

4- دال (رب - إله) اسم (ليس)

ورد هذا الضرب من الخطاب بوقوع دال (رب) في منطقة اسم (ليس) في صيغة الضمير المتكلم المفرد (تُ). وفي الوقت نفسه شغل منطقة الخبر دال (رب) بلفظه. وقد تمثل ذلك في قول (الله) تعالى:﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾.وقد ورد هذا السؤال المنفي في قوله سبحانه:﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾(الأعراف:172)*

وقد اختلف النحاة حول طبيعة الناسخ (ليس)، أهي فعل أم حرف ! ([1]). لكن الاتفاق على أنها من أخوات الناسخ (كان)؛ لذا فهي ترفع المبتدأ وتنصب الخبر.

أما من حيث الدلالة، فمعناه / أي ليس، نفي مضمون الجملة في الحال، ولا يُنفى بها في المستقبل ([2]).

ويرى السيوطي أن نفي (ليس) مقتصر على الحال، إذا كانت الجملة غير مقيدة بزمان. وأما المقيدة فتنفيها على حسب القيد ([3]).

---

*لأن خبر الناسخ (ليس)انشغل هنا بدال (رب) فسندرس المنطقتين (اسم الناسخ–ووقوع دال رب في خبر الناسخ)، مما يغنينا عن دراسة انشغال خبر الناسخ ب(رب)في موضع لاحق من الدراسة .

([1])انظر في هذا الخلاف: ابن عقيل ، شرح ابن عقيل ، الجزء الأول: 262 .وانظر كذلك:ابن هشام: مغني اللبيب: 325 .

([2]) انظر: ابن يعيش ، المفصل للزمخشري ، الجزء الرابع: 365 .

([3]) انظر : همع الهوامع ، الجزء الثاني : 74 . وكذلك: ابن هشام ، مغني اللبيب: 325 . وانظر في أحوال (ليس) كذلك: الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، الجزء الرابع: 396 .

والآن نعود إلى الآية الكريمة. وبالعودة يدرك أن هذا الضرب من الخطاب، يتم تناوله في العناصر الآتية: **الأول** اقتران الناسخ (ليس) بهمزة الاستفهام (أ). **الثاني**: دلالة الناسخ (ليس) في الآية الكريمة. **الثالث**: انشغال اسم (ليس) بضمير المتكلم العائد إلى الرب العلي. **الأخير**: انشغال الخبر بدال (رب) مقترنًا بحرف الجر (الباء).

وفي خروج الهمزة عن الاستفهام الحقيقي لأغراض أخرى، يقول ابن هشام في هذا الموضع: "والثاني/ أي الغرض الثاني لخروج الهمزة عن الاستفهام الحقيقي، الإنكار الإبطالي وهذه تقتضي أن ما بعدها غير واقع، وأن مدعيه كاذب "، ثم ضرب لذلك الضرب أمثلة منها قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ (الزمر: 36).

ويسوق ابن هشام غرضًا رابعًا لخروج الهمزة عن الاستفهام الحقيقي:" والرابع: التقرير، ومعناه حملك المخاطب على الإقرار والاعتراف بأمر قد استقر عنده ثبوته أو نفيه.

وفي رأيه عما قاله الزمخشري في قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (البقرة:106) أن السؤال يفيد التقرير قال: قلتُ: قد اعتذر عنه بأن مراده التقرير بما بعد النفي، والأولى أن تحمل الآية على الإنكار التوبيخي أو الإبطال أي ألم تعلم أيها المنكر للنسخ " ([1]).

ويُفهم من هذا، أن الأغراض البلاغية التي تخرج فيها الهمزة عن الاستفهام الحقيقي تتوقف على طرفي الخطاب: المخاطِب والمخاطَب؛ فإذا كان المخاطِب يعلم ما بالمخاطَب من شك وإنكار في شيء، وأراد أن يظهر هذا الشك ويبطل هذا الإنكار، ساق السؤال المنفي قاصدًا مضمون ما بعد الهمزة (النفي والمضمون المنفي). وإذا كان المخاطِب يعلم علم المخاطَب بجواب سؤاله ويكتم هذا كبرًا وظلمًا، وأراد أن يفضحه باستلال هذا الجواب منه سواء أبى ذلك أم شاء، ساق إليه السؤال مثبتًا إقراره بمضمون ما بعد النفي.

([1]) انظر في تلك المواضع: مغني اللبيب : 11، 12 .

وأرى أن الغرض الرابع (التقرير) الذي ساقه ابن هشام أقوى لهذا الموضع من الغرض الثاني (الإنكار الإبطالي)؛ لأن المخاطَب هنا هم ذرية بني آدم الذين أخذهم (الله) من ظهورهم: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾. وذرية بني آدم التي ما زالت في أصلاب أصحابها، لم تنكر ربوبية الخالق جل وعلا حين وقع هذا الخطاب، وإن يكن قد انحرف بعضهم بعد ذلك ولما كانت الربوبية مستقرة عند المخاطَب، غير منكرة، كان غرض الاستفهام (التقرير) ولم يكن الإنكار الإبطالي الذي يعني نفي المخاطَب لما بعد الهمزة.

ولما كان الجواب عن الاستفهام المنفي يكون بالأداة (بلى) في حالة الإثبات، أي إثبات مضمون ما بعد النفي، ويكون بالأداة (نعم) في حالة النفي، أي نفي مضمون ما بعد النفي. ورد جواب الذرية ب(بلى): ﴿قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾.

أما العنصر **الثاني**، المتمثل في دلالة الناسخ (ليس)، فإن النفي هنا لا يقتصر على الحال فحسب، وإنما هو ممتد؛ بمعنى أنه لو أجابت الذرية ب(نعم) (لستَ بربنا) التي تفيد إقرار النفي، لانصب هذا النفي على الحال – وقت الخطاب – وانسحب على المستقبل - في الحياة الدنيا بعد التكليف – ثم إلى الآخرة؛ لأن اختيارهم للكفر من الطبيعي أن لن يقتصر على الحال فحسب.

وإذا كان السيوطي يرى أن نفي (ليس) مقتصر على الحال، إذا كانت الجملة غير مقيدة بزمان. ويرى أن المقيدة تنفيها على حسب القيد، فإن الجملة هنا مقيدة بزمنين: الحال والاستقبال. يتمثل الحال في زمن الخطاب، وهو زمن (الأخذ) (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ) وزمن الإشهاد (وَأَشْهَدَهُمْ). ثم يرد زمن الاستقبال في قوله:(أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ)، مرورًا بالحياة الدنيا: ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾.

ولما كان النفي شاملًا الزمنين: الحال والاستقبال، كان (التقرير) ببلى الذي يعني إيمان الذرية بالتوحيدين: الألوهية والربوبية مستقرًا من وقت الجواب إلى يوم القيامة الذي ورد في الآية.

ومن هنا، فإن هذا التقرير الذي صدر من المخاطَب نفسه، وما استتبعه من تحذير المولى سبحانه وتعالى لهم (أَنْ تَقُولُوا - أَوْ تَقُولُوا) سيمثل حجة على من انحرف من تلك الذرية عن العبادة الحقة.

كما يتمثل العنصر **الثالث** في انشغال اسم (ليس) بضمير المتكلم (تُ) العائد إلى الرب العلي. وسبب ذلك، أن هذا الحوار - كما هو واضح من سياق الآية - قد تم بين الرب العلي سبحانه وتعالى وذرية بني آدم في الحضرة الربانية. ولما كان طرفا الخطاب حاضرَين، فكان من الطبيعي أن يتحدث المخاطِب إلى المخاطَب بضمير المتكلم (تُ).

ومن هنا، يمكن أن نفهم أن هذا السؤال المنفي، الذي أريد به التقرير ورد في منطقة مقول القول؛ وكأنه قيل: قال الرب سبحانه وتعالى لذرية بني آدم: ألستُ بربكم؟ لذا ورد الجواب بقولهم: قالوا بلى.

لكن ما العلة – وهو العنصر **الأخير** - في اعتماد الخطاب على دال (رب) الذي شغل المنطقتين للناسخ (ليس) الاسم والخبر؟ وتكمن الإجابة في العناصر الآتية: **أولًا** أن الخطاب كان في بدء الخليقة، مما يعني شمول المخاطَبين مؤمنهم وكافرهم. **ثانيًا** أن خلق الرب سبحانه للعباد يقتضي إضفاء نعمه عليهم قبل عملية التكليف بالعبادة التي تعني معنى الألوهية، ولما كانت النعم تعني العطاء، والعطاء من سمات الربوبية كان دال (رب). **أخيرًا** أن الإتيان بدال (رب) وإقرار المخاطَبين–مؤمنهم وكافرهم- بذلك يشير إلى اعتراف الجميع بربوبية الخالق، وإنما يقع الجدل في الإيمان بالألوهية، وهو ما حدث حقًا.

وإذا ولجنا جانبًا لغويًا آخر في انبناء الخطاب في الآية الكريمة، ألفيناه يتمثل في اقتران خبر (ليس) بالباء المؤكدة. ويُعْزَى هذا الأمر إلى طبيعة المخاطَب؛ فإذا كان المخاطَب شاكًّا أو منكرًا، أُكدت الجملة.

فإن قيل: ما طبيعة المخاطَب هنا؟. قلتُ: المخاطَب هنا عام؛ إذ هو خطاب لذرية آدم في بدء الخلق. ولما كان الخطاب عامًا، شمل مَنْ سيؤمن منهم ويصدق، وكذلك

مَنْ لن يؤمن ولن يصدق. وعلى هذا يمكن فَهْم أن التأكيد المقترن بخبر (ليس) يخص الجانب الثاني من هذا المخاطَب.

ولتأكيد هذا الطرح، توجه الخطاب إلى الضرب الثاني بقوله سبحانه: (أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ)، ثم قوله في الآية الثانية: ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (الأعراف: 173). أي كيف تقرون بالربوبية، وعندما أدعوكم إلى الألوهية بعبادتي تتنكرون لهذا؟.

ومع ذلك، إذا أردنا أن نئوّل التأكيد حسب الضرب الآخر / الذي سيؤمن من المخاطَبين، فسيكون التأكيد هنا من قبيل التشديد على العهد والميثاق. أي أشبه بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (آل عمران: 81).

أو يمكن القول: إن التأكيد هنا – أي في حالة اختصاصه بالذرية التي ستؤمن – يفيد التأكيد على إيمان هؤلاء. بدليل الإجابة: بلى شهدنا، أي أننا نؤمن – قطعًا - بربوبيتك لنا يا (الله)، وليس لنا غير هذا. في حين أن الطرف الذي شارك المؤمنين في الجواب ببلى، تنكر لهذه الشهادة، وسلك طريقًا آخر [*].

5- دال (رب - إله) اسم (عسى)

في هذا الضرب من الخطاب القرآني يرد قول (الله) سبحانه وتعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا **عَسَى رَبُّكُمْ** أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (التحريم: 8) ([1]).

---

[*] جدير بالذكر أن دال (إله) لم يرد في منطقة الاسم للناسخ (ليس) . فاعرفه .

[1] وانظر كذلك: سورة (الأعراف: 129) ، وسورة (الإسراء: 8) ، وسورة (التحريم: 5) .

وبداية ننظر في معنى(عسى). يقول ابن هشام:"معنى (عسى) الترجي في المحبوب، والإشفاق في المكروه. وقد اجتمعا في قوله تعالى ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: 216) " ([1]).

ويرى الرضي أن الترجي لا يعني دنو حصول الخبر؛ لذا فهو يُخرج (عسى) من أفعال المقاربة. يقول الرضي:" الذي أرى أن (عسى) ليس من أفعال المقاربة، إذ هو طمع في حق غيره تعالى، وإنما يكون الطمع في ما ليس الطامع على وثوق من حصوله، فكيف يحكم بدنو ما لا يوثق بحصوله. ولا يجوز أن يقال: إن معناه رجاء دنو الخبر...أي أن الطامع يطمع في دنو مضمون خبره، كقوله: عسى (الله) أن يشفي مريضي، أي: إني أرجو قرب شفائه، وذلك لأن (عسى)، ليس متعينًا بالوضع للطمع في دنو مضمون خبره، بل لطمع حصول مضمونه مطلقًا، سواء ترجى حصوله عن قريب أو بعيد مدة مديدة، تقول: عسى (الله) أن يدخلني الجنة، وعسى النبي عليه السلام أن يشفع لي، فـإذا قلت: عسى زيد أن يخرج، فهو بمعنى لعله يخرج، ولا دنو في (لعل) اتفاقًا"([2]).

ويقول ابن يعيش: " لـ(عسى) مذهبان: أحدهما أن تكون بمنزلة (قَارَبَ)، فيكون لها مرفوع ومنصوب، إلا أن منصوبها مشروط فيه أن يكون (أَنْ) مع الفعل متأولًا بالمصدر، كقولك: (عسى زيد أن يخرج)، في معنى: (قارب زيد الخروج). قال (الله) تعالى: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾ (المائدة: 52). والثاني أن تكون بمنزلة (قَرُبَ)، فلا يكون لها إلا مرفوع، إلا أن مرفوعها (أَنْ) مع الفعل في تأويل المصدر، لقولك: (عسى أن يخرج زيد)، في معنى:(قَرُبَ خروجه). قال (الله) سبحانه وتعالى ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ﴾ (البقرة: 216) "([3]).

([1]) انظر: مغني اللبيب: 162 .

([2]) انظر: شرح الرضي للكافية: الجزء الرابع : 211 .

([3]) انظر: شرح المفصل للزمخشري ، الجزء الرابع: 372 .

وقبل أن نذهب إلى عملية التحليل، ينبغي أن أشير إلى أن معنى الترجي الذي يحمله (عسى) يختلف صاحبه / المترجّي من موضع لآخر؛ فقد يكون الترجي من جانب المخاطَب مثل قوله تعالى: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا﴾ (النساء: 84). فالترجي هنا يقع من قِبَلِ الرسول ﷺ / والمؤمنين.

وأحيانًا يكون الترجي من قِبَلِ المتكلِّم، وذلك مثل قوله تعالى على لسان سيدنا يعقوب: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (يوسف: 83)، فالترجي هنا من قِبَلِ سيدنا يعقوب عليه السلام.

فإذا جئنا إلى بنية الخطاب في قوله تعالى: ﴿**عَسَى رَبُّكُمْ** أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ ألفينا أن ما تختص به بلاغة (عسى) – حسب الطرح السابق – يتبلور في الآتي:

أولًا: أن المترجي هم المؤمنون / المخاطَب؛ لوقوعه في منطقة المنادَى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا).

ثانيًا: أن المترجَّى يقع في أمر محبوب– وفق طرح ابن هشام– وهو تكفير السيئات، ودخول الجنة.

ثالثًا: أن (عسى) إذا كانت تعني دلالة القُرْب – كما طرح ابن يعيش – فإنها تشير إلى طمع المؤمنين في قُرْب تكفير السيئات بمجرد التوبة إلى (الله) عز وجل - الواردة في مضمون النداء (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا)، وبخاصة أن التوبة وُصِفَت بالنصوح – في الدنيا.

وإذا كان ابن يعيش قد اشترط وجود منصوب (لعسى) مؤلًا ب(أن) والفعل كي تدل على معنى القرب في (قارب)، فقد أعرب محيي الدين الدرويش (أن)

ومـــا في حيـــزها في مـــوضـــع نصب خبـــر (عسى) ([1]). وفي هـــذا مـــا يؤكـــد معنى القرب الذي طرحه ابن يعيش.

وإذا كانت (عسى) تعني الترجي في حصول الخبر مطلقًا – قَرُبَ أو بَعُدَ – كما طرح الرضي، فإن هذا المعنى ينسحب على طمع المؤمنين وترجيهم دخول الجنة في الآخرة (وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ). وبهذا تكون (عسى) قد أوفت في الآية الكريمة بكل ما دار حولها من معان.

أما شَغْلُ دال (رب) – دون اسم الجلالة (الله) أو دال (إله) - لمنطقة اسم (عسى)، فتتمل وجاهته في الآتي:

أولًا: أنه ما دام مضمون الخطاب خاصًا بالترجي والطمع، فإن استدعاء سمات الربوبية أوجب.

ثانيًا: أن مضمون الترجي يتناول تكفير السيئات في الدنيا، ودخول الجنة في الآخرة، مما يعني الرحمة، لذا كان دال (رب).

ثالثًا: وهو في الحقيقة نتيجة لما سبق، ورود دال (رب) في نداء المؤمنين في قول (الله) سبحانه وتعالى: (يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا).

ويمكن وضع جماليات الآية الكريمة بما بنيت عليه من الإعجاز، والانسجام، والتناسق اللغوي بين اسم الجلالة (الله)، ودال (رب) في هذا المخطط:

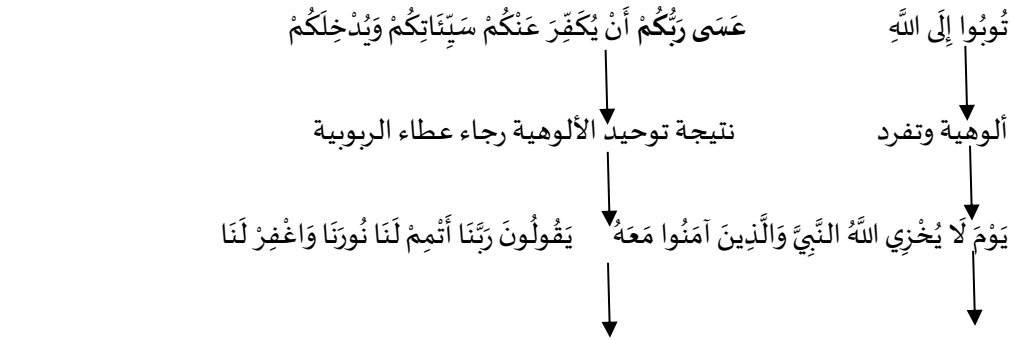

([1]) انظر: إعراب القرآن الكريم وبيانه ، المجلد السابع: 563 . وجدير بالذكر أن دال (إله) لم يرد في موضع اسم (عسى) . فاعرفه .

6- دال (رب - إله) اسم (ما)

لقد ورد دال (رب) اسمًا لأداة النفي (ما) الحجازية ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام: 132) ([1]). ولـ(ما) معانٍ كثيرة، ولكنها هنا حرف نفي بمعنى (ليس) ([2]). وإذا كانت (لا) من المشبهات ب(ليس)، فإن (ما) أوغل في التشبيه بها لاختصاصها بنفي الحال، ولذلك كانت داخلة على المعرفة والنكرة جميعًا ([3]). ويرى الدكتور فاضل السامرائي أن (ما) ليست أقوى في النفي من ليس([4]).

وعلى هذا، فإن (ما) تدخل على الجملة الاسمية، فترفع المبتدأ وتنصب الخبر. وأحيانًا يدخل حرف الجر (الباء) على خبرها لتأكيد النفي ([5]). وأحيانًا يأتي خبرها جملة فعلية [*].

والإعراب النحوي يقول: إن (الواو) استئنافية أو حالية، (ما) نافية حجازية تعمل عمل (ليس)، و(ربك) اسمها ومضاف إليه، والباء حرف جر زائد، و(غافل) مجرور

---

[1] وانظر كذلك: سورة (هود: 123) ، وسورة (النمل: 93) ، وسورة (فصلت: 46) .

([2]) انظر: ابن هشام ، مغني اللبيب: 335 . وهذه هي لغة أهل الحجاز. أما في لغة تميم ، فلا تعمل (ما) عمل (ليس) .

([3]) انظر: ابن يعيش ، شرح المفصل للزمخشري ، الجزء الأول: 267 .

([4]) انظر في المبررات التي قدمها الدكتور السامرائي تأييدًا لرأيه ، معاني النحو ، الجزء الأول: 252 - 257 .

([5]) انظر : ابن يعيش ، شرح المفصل ، الجزء الثاني: 118 .

[*] وردت منطقة الخبر معتمدة على التركيب الزمني في الكتاب الأول . انظر: الكتاب الأول: 238 . هذا ولم تنشغل منطقة الخبر بالتركيب الزمني ، حال اعتماد منطقة الاسم / أي اسم (ما) على دال: (رب) ، كما أنه جدير بالذكر أن دال (إله) لا يشغل منطقة الاسمية من الأداة (ما) الحجازية .

لفظًا منصوب محلًا على أنه خبر (ما)، و(عما) جار ومجرور متعلقان بغافل، وجملة (يعملون) صلة (ما) الموصولية ([1]).

وإذا كنا قد عالجنا في الكتاب الأول هذا التركيب، حال انبناء اسم (ما) على اسم الجلالة (الله) في العناصر اللغوية، كعدم وقوف دلالة النفي عند نفي الخبر، بل تسلطها على مضمون جملة الصلة (تعملون)، ودخول (الباء) الزائد – نحويًا-([2]) المؤكدة لدلالة النفي، واعتماد خبر (ما) – صرفيًا - على اسم الفاعل، وأخيرًا تصدر الجملة المقصودة بدلالة النفي بالموصول (ما)، فإن التركيز هنا سيكون على انشغال اسم (ما) بدال(رب)، دون اسم الجلالة (الله)، ودال (إله).

وبتأمل سياقي الآية الكريمة: الدلالي واللغوي، يدرك بلاغة انشغال اسم (ما) بدال (رب). ففي السياق الدلالي، تُسْتَهَلُّ الآية بقول ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾. ومن الواضح أن التركيب يعد نتيجة للعبادة وإفراد (الله) سبحانه وتعالى بالوحدانية، فإذا كان ذلك كذلك، ترد النتيجة من قبل الرب العلي في المجازاة وإحصاء المراتب والمنازل والدرجات للعابدين؛ فـ(الله) قد عُبِدَ وأُفْرِدَ بالوحدانية والألوهية، وجازى وأعطى بسمات الربوبية.

أما السياق اللغوي، فقد ورد دال (رب) في الآية السابقة على هذا الموضع، وورد كذلك في الآية اللاحقة لها. ففي الآية السابقة يقول مولانا: ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ (الأنعام: 131)، وفي الموضع اللاحق يقول مولانا: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ (الأنعام: 133)، أي أن السياق سياق ربوبية. وهذا

([1]) انظر: محيي الدين الدرويش ، إعراب القرآن الكريم وبيانه ، المجلد الثاني: 456 . رحم الله هذا العملاق . وانظر: بهجت عبد الواحد صالح ، الإعراب المفصل ، المجلد الثالث: 326 ، ومحمود سليمان ياقوت ، إعراب القرآن الكريم ، المجلد الثالث: 1498 . غير أن ياقـوت لم يقل بحالية (الواو) .

([2]) في حقيقة الأمر أنني لا أشعر بارتياح عندما أقول عن أي حرف في القرآن: إنه حرف زائد ؛ لأنه لا يوجد في القرآن ما يمكن أن نطلق عليه زائدًا ؛إذ له أثر في المعنى؛ ولا تتجلى الدلالة بوضوح إلا به؛ لذا أقول:(نحويًا).

الترابط اللغوي في السياق الواحد أحد مظاهر الإعجاز اللغوي – البياني في القرآن الكريم.

وأحيانًا يرد دال (رب) في صيغة ضمير المتكلم (أَنَا) اسمًا لـ(ما)، مثل قوله تعالى ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (ق: 29).

فإن قيل: ما الدليل على عود (أنا) على دال (رب) دون اسم الجلالة (الله) أو دال (إله)؟ قلت: حوار القرين مع رب العزة سبحانه وتعالى في الموضع السابق: ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ (ق: 27)، واستمرار حديث ربنا عز وجل إلى هذا الموضع: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ * مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (ق: 28، 29).

إن ورود اسم (ما) النافية هنا في صيغة ضمير المتكلم المفرد (أنا) له ما يبرره من الناحية اللغوية، وكذلك من الناحية الدلالية.

أما الناحية اللغوية فيمكن التأكد منها إذا عدنا إلى سياق الآية الكريمة. إن سياق هذه الآية يبدأ من قوله تعالى:﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ (ق:19). وإذا تفحصنا الضمائر المفردة المبثوثة في آيات هذا السياق حتى التركيب موضع الدراسة، وجدناها تبلغ خمسة عشر ضميرًا؛ منها ما يعود إلى الرب العلي، ومنها ما يعود إلى الإنسان.

وقبل هذا الموضع مباشرة، وردت ثلاثة ضمائر مفردة عائدة إلى المولى عز وجل، وكأنها كانت إيذانًا وتمهيدًا لشغل اسم (ما) بضمير المتكلم المفرد (أنا). وهذه الضمائر هي: ضمير المتكلم المفرد المتصل في (لدي) في قوله تعالى: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾، و(تاء) الفاعل في قوله: ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ﴾، وأخيرًا ضمير المفرد المتكلم المتصل في (لدي) في قوله تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾، ثم جاء التركيب موضع الدراسة معطوفًا على ما قبله في قوله: ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾.

ومن الناحية الدلالية، فإن هذا المقطع القرآني يصور لنا أحد مشاهد الآخرة، المتمثل في الاختلاف بين الإنسان وشيطانه / قرينه ([1]) في الدنيا . ومن ثم فالحديث يتناول يوم الحساب، والعرض على (الله) عز وجل في الآخرة .

ووسط كل هذا، يرد اسم (ما) النافية ضميرًا مفردًا متكلمًا (أنا) عائدًا إلى الحق جل في علاه، في إطار الوحدانية والتفرد. كأنه قال: (أنا) وليس غيري.

فإن قيل: لِمَ تَلَبَّسَتْ (الباء) هنا بخبر الناسخ (ما)؟ قلتُ: لتأكيد النفي، وبخاصة أن المخاطَب/ المشركين من أهل النار، كي لا يظنوا أو يتوقعوا ظلمًا من (الله) لهم.فإن قيل: إذا كان هذا المشهد من مشاهد الآخرة، فماذا يفيد المخاطَب ساعتئذ؟ قلتُ: ألم يخبرهم به في الدنيا – في كل العصور والأمكنة - مخاطبًا إياهم، قبل بدء المشهد في الآخرة، بقرآن يُتلى إلى يوم أن يرث (الله) الأرض ومن عليها؟. وهذا المعنى والتحذير في الدنيا قبل الآخرة هو المفهوم من قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ﴾. وإلا فما علة إرسال الأنبياء والرسل، وفيم كانت دعوتهم؟!!.

وفي انبناء خبر الناسخ – صرفيًا – على صيغة المبالغة يقول الزمخشري: " فإن قلتَ: كيف قال بِظَلَّامٍ على لفظ المبالغة؟ قلتُ: فيه وجهان، أحدهما: أن يكون من قولك: هو ظالم لعبده، وظلام لعبيده. والثاني: أن يراد لو عذبت من لا يستحق العذاب لكنت ظلامًا مفرط الظلم، فنفى ذلك "([2]) . ويرى ابن عاشور أن المبالغة هنا تفيد تأكيد النفي، يقول: " والمبالغة في وصف ظلام راجعة إلى تأكيد النفي ([3]).

ولما كان دال (العبيد) يشمل كل الناس كافرهم ومسلمهم ([4])، كان نفي الظلم وتأكيده له نتائجه على المخاطَبين، أو المعنيين به على النحو الآتي: **أولًا** أَنَّ مَنْ تمرغ

([1]) ذُكِرَ لفظ (قرين) في هذا المقطع القرآني مرتين: الأولى بمعنى الملك الموكل به ، والثانية بمعنى الشيطان .

([2]) انظر: الكشاف ، الجزء الرابع: 378 ، 379 .

([3]) انظر: التحرير والتنوير ، الجزء السادس والعشرين: 316 .

([4]) انظر: الراغب الأصفهاني ، مفردات ألفاظ القرآن: مادة (عبد): 543 . كما أن هناك فرقًا بين دال (العبيد) ودال (العباد) .

من المسلمين في وحل المعصية –إذ وردت الآيات في سياق الحديث عن جهنم- ومات قبل التوبة، لا يلومن في الآخرة إلا نفسه؛ إذ لا يعامله (الله) إلا بما عمل هو نفسه؛ لأن (الله) ليس بظلام للعبيد.

ثانيًا: أن من شأن هذا الخطاب المنفي والمؤكِّد لعدم ظلم الرب العلي للعبيد، أن يصيب الكافر بالحسرة والندامة، إذ إنه سيخلد في النار بكفره هذا. وهذا المعنى هو الذي صوره المشهد القرآني في قول (الله) سبحانه وتعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا*يَاوَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴾ (الفرقان: 27 -29) ([1]).

ثالثًا: أن المؤمنين الخلص من شأن هذا الخطاب أن يدخل عليهم السرور والطمأنينة؛ لأنهم وجدوا مَنْ أمرهم بالعبادة هو الذي يحاسبهم، ولا يظلمهم. وصدق قول (الله) عز وجل: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ (الزلزلة: 6 - 8). وصدق قوله كذلك: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ (الزخرف: 76) ([2]).

7- دال (إله) اسم لا النافية للجنس

ويتمثل هذا الضرب من الخطاب في قول (الله) سبحانه وتعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ (الصافات: 35) ([3])، وقول (الله) عز وجل: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ (النحل: 2) ([4]). وقول الحق تبارك وتعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ﴾ (الأنبياء: 87)، وأخيرًا قوله سبحانه وتعالى: ﴿لَا إِلَهَ

([1]) نزلت هذه الآيات في عقبة ابن أبي معيط . انظر: النيسابوري ، أسباب النزول:343 ، 344 .

([2]) وانظر: سورة (هود: 101) ، وسورة (النحل: 118) .

([3]) وانظر: سورة (محمد: 19) .

([4]) وانظر: سورة (طه: 14) ، وسورة (الأنبياء: 25) .

إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة: 163) ([1]). والملحوظ أن الاسم الواقع في منطقة الاستثناء متنوع؛ فأحيانًا يرد اسم الجلالة (الله)، وأحيانًا يرد الضمير.

8- دال (رب – إله) ضمير مؤكِّد

إن أول ما يقابلنا من ضمائر التأكيد العائدة إلى دال (رب) هو ضمير المفرد المتكلم (أنا)، وذلك في قوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الحجر: 49).

فإن قيل: علام اعتمدتَ أن الضمير (أنا) هنا يعود إلى دال (رب)، وليس اسم الجلالة (الله) أو دال (إله)؟ قلتُ: المقطع السابق على هذا الموضع الذي ضم الحوار الذي دار بين الرب العلي وإبليس اللعين بدأ بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ (الحجر: 28). وانتهى بقوله تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ (الحجر: 44). وهذا كله من إخبار الرب العلي سبحانه وتعالى، بما في ذلك تناول جزاء من يتبعون إبليس.

ثم تنتقل الآيات إلى الحديث عن المتقين في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ (الحجر:45)، إلى قوله تعالى:﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ (الحجر: 48). ومن الطبيعي أن المخبر واحد، وهو الرب العلي جل في علاه .

ثم يرد موضع الشاهد مبنيًا على بنية الالتفات من الغائب إلى المخاطَب/سيدنا النبي ﷺ في (نَبِّئْ) ، وما زال الحديث موصولًا للرب العلي سبحانه وتعالى.

وإذا كنا قد استنتجنا هذا من خلال المقاطع القرآنية المحيطة بالآية الكريمة، فإن ثم سياقًا داخليًا خاصًا بالتركيب اللغوي الذي تأسست عليه الآية الكريمة، يتضح ذلك من دال (عبادي) الذي يعني توحيد الألوهية، وعبادة (الله) جل في علاه، ثم ورود صفتي المغفرة والرحمة بوصفهما نتيجة للعبادة، وارتباطهما بضمير المتكلم المتصل (ي) الواقع في منطقة اسم الناسخ (أنَّ)، ومن ثم الضمير المؤكد (أنا).

([1]) وهذا التركيب مذكور في ثمانية وعشرين موضعًا في القرآن الكريم ، خلاف موضع الشاهد . ولعدم الإطالة ، فقد عالجنا بنية هذا الخطاب في قسم الاستثناء في الكتاب الأول .

والحاصل أنه لما كانت العبادة حاصلة كانت سمات الربوبية مكافئة، على هذا النحو:

نَبِّئْ عِبَادِي (توحيد الألوهية) ← أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (نعم الربوبية) ([1])

أما عناصر الاتصال اللغوي في الآية الكريمة، فهي كما في هذا المخطط:

المخاطِب الأول: (الله) سبحانه وتعالى

↓

المخاطَب الأول (النبي ﷺ)

المخاطِب الثاني (النبي ﷺ) ← المخاطَب الثاني (عبادي)

وإذا أردنا أن نبين دلالة ضمير المتكلم المفرد (أنا) من حيث أطراف التخاطب، ومضمون الخطاب، فسيكون الأمر على النحو الآتي: **أولًا** من حيث المخاطِب الأول (رب العزة) عز وجل، فهذا إخبار عن نفسه. ومن حيث المخاطَب الأول (المتلقي) / النبي ﷺ فهذه حقيقة وواقع، ومن حيث المخاطَب الثالث فهذا تأكيد.

ومبرر التأكيد هنا، أن المخاطَب الثاني (العباد) منهم التقي ومنهم العاصي، ولما كان الخطاب موجهًا للعاصي منهم؛ إذ لا مغفرة ولا رحمة إلا للعاصي التائب، وبدليل قوله ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾ (الحجر: 50)، إذا لم يتوبوا، لما كان ذلك كذلك، كان هذا الضرب من المخاطَب في حاجة إلى ما تطمئن به قلوبهم إلى مغفرة الله ورحمته، إذا هم عادوا وتابوا إليه.

ثانيًا: أن ضمير المتكلم (أنا) ورد في تركيب تصطبغ كل مفرداته بصبغة تأكيدية. وهنا يقول الرازي:"أنه لما ذكر الرحمة والمغفرة بالغ في التأكيد بألفاظ ثلاثة: قوله (إني) وثانيها: قوله (أنا)وثالثها: إدخال (ال) على قوله (الغفور الرحيم) " ([2]).

([1]) ينبغي ألا يفهم من هذا ان المغفرة والرحمة لا تردان مع اسم الجلالة (الله) ، بل ترد مرتبطة به سبحانه وتعالى في كثير من آيات الذكر الحكيم . ولكن ما أفعله هي محاولة للفهم الذي يقف عنده حدود العقل البشري ، وقبل هذا وبعده: (الله سبحانه وتعالى أعلى وأعلم بمراده) ، غفر الله لي .

[2] انظر: مفاتيح الغيب ، الجزء التاسع عشر: 199.

ثالثًا: أن ضمير المتكلم (أنا) يشير إلى الوحدانية والتفرد. وبمراجعة الآيات الكريمة السابقة على هذه الآية ، نجد أن ضمائرها العائدة إلى الرب العلي قد دارت في إطار هذه الوحدة وذاك التفرد؛ إذ لم ينازع رب العزة أحد في أفعاله، ولم يجد إبليس من يناصره...إلخ.

ولما كان متعلق الأمر في (نبئ) هو المغفرة والرحمة، وكذلك في العذاب الأليم، وفقًا لبنية العطف في الآية التالية، بما يتناسب ويتسق مع الحديث الذي دار مع إبليس، جاء مضمون الآيتين تأكيدًا وإجمالًا لما فُصِّلَ مِنْ قبل، في سحب المغفرة والرحمة على من تاب ورجع عن غي إبليس، والعذاب الأليم لمن ظل معه. ولهذا التعلق استمرت سمة الوحدانية والتفرد، التي تبلورت في الضمير (أنا)، أي وليس غيري([1]).

والحاصل الدلالي من كل هذه الأدوات المؤكدة؛ سواء أكانت في الناسخ (إِنَّ)، أم في ضمير المتكلم المتصل (ي) الذي ورد في منطقة اسم الناسخ، وضمير المتكلم (أنا) الذي يفيد الوحدانية والعظمة والتفرد، وتعريف المغفرة والرحمة، يتمثل الناتج الدلالي لكل هذا في ترغيب الحق سبحانه وتعالى للعصاة في سرعة التوبة، وإشارة إلى الفريق الذي أغواه إبليس في الآيات السابقة إلى فتح باب التوبة والمغفرة، لدرء تسلل القنوط واليأس إلى قلوب هؤلاء.

وأحيانا يرد التأكيد بالضمير **(أنت)**، مثل قوله تعالى: ﴿**إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ**﴾ (البقرة: 32). وقد ورد هذا التركيب – مع اختلاف أسماء الله الحسنى – إحدى عشرة مرة. وقد وردت كلها في خواتم الآيات القرآنية.

وعود الضمير (أنت) على دال (رب) يُفهم من سياق الآية الكريمة التي يتناول حوار الحق سبحانه وتعالى مع الملائكة في مسألة خلق آدم عليه السلام، إذ يبدأ هذا الحوار بقول (الله) عز وجل: ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً**

---

[1] في الآيتين بلاغة عظمى، ونكات ولطائف عديدة .انظر: مفاتيح الغيب، ج19: 199. والألوسي ، روح المعاني ، ج13: 448 – 500 . وانظر في سبب النزول:النيسابوري ، أسباب النزول: 283 .

قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة:30).

وما دام التأكيد هنا سيكون بضمير المخاطَب (أَنْتَ) العائد إلى رب العزة سبحانه وتعالى، فمن الطبيعي أن يكون الرب العلي سبحانه هو المخاطَب، والمخاطِب أحد مخلوقاته. وهذا الضرب من الخطاب من الكثرة بمكان في القرآن الكريم .

وبالعودة إلى الآية الكريمة، نجد أن المخاطِب فيها هم الملائكة. لنقرأ معًا: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (البقرة:31، 32).

فإن قيل: إذا كانت الملائكة تدرك جيدًا علم الرب سبحانه وتعالى وحكمته، فلمن تؤكد هذه المعاني؟. قلتُ: إما أن يكون هذا تقريرًا من الملائكة لواقع وحقيقة؛ بأن (الله) سبحانه وتعالى - وحده وليس غيره - مختص بالعلم والحكمة مطلقين. وإما أن يكون هذا إيعاذًا للبشر ولفت انتباههم إلى الإيمان ب(الله) تبارك وتعالى، وبأسمائه الحسنى وصفاته العلا، أي أن يكون الملائكة قدوة لبني البشر في هذا، وبخاصة أن هذا المشهد وهذا التقرير كان في بدء الخليقة.و(الله) سبحانه وتعالى أعلى وأعلم .

ولم تتطرق التفاسير المتعددة للقرآن الكريم للضمير (أنت)، وإنما رأى ابن عاشور أن الجملة مساقة للتعليل، وساق رأي العلامة عبد القاهر في (إنّ) في قوله (إِنَّكَ) أنها ترد لمجرد الاهتمام، وأنها تُغني غَنَاء الفاء العاطفة ([1]).

ولم يُبن الألوسي علة التأكيد في قوله: " و(أَنْتَ) يحتمل أن يكون فصلًا – أي ضمير فصل–لا محل له على المشهور–أي لا محل له من الإعراب، يفيد تأكيد الحكم"([2]).

---

[1] انظر: التحرير والتنوير ، الجزء الأول: 414 ، 415 .

[2] انظر: روح المعاني ، الجزء الثاني: 105 .

وإذا كان المخاطَب في النموذج السابق هم الملائكة، فلنأخذ نموذجًا آخر يمثل مخاطبة البشر للحق سبحانه وتعالى. يقول الله تعالى: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ (آل عمران: 8) ([1]).

والمخاطِب في هذه الآية هم (الراسخون في العلم)، الذين وُصِفُوا بأولي الألباب، المفهوم من قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ (آل عمران: 7).

وتكمن الفائدة الدلالية لضمير الفصل المؤكد (أنت) - فضلًا عن الحصر، وتعليل الخاتمة لما سبق- في تعلق الراسخين في العلم ورجائهم، بل وطمعهم فيما عند (الله)، بعدم إزاغة القلوب، ووهب الرحمة، بل وكل العطاء الإلهي على وجه العموم.

ولهذا الطرح ما يبرره على النحو الآتي: **أولًا** أسلوب النداء الذي تصدَّر الآية، محذوف الأداة، دلالة على القرب الروحي والمعية الإلهية، ثم إضافة (رب) إلى (نا) لتشريف هذا النوع من العباد من ناحية، وإظهار إقرارهم بنعم الربوبية من ناحية أخرى. ولا يُفْعَلُ هذا إلا مع محبوب ومُرَجًّى ومُعْطٍ.

ثانيًا: الرجاء والدعاء والإلحاح بأداة النهي (لا)، بغية ثبات القلوب وعدم زيغها (لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا). **ثالثًا:** حب (الله) سبحانه وتعالى البادي لهذا النوع من البشر، الخلص من العباد، والمتمثل في هدايتهم (بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا)، الذين آمنوا بالمحكم والمتشابه.

---

[1] الحديث في هذا النموذج والسابق عليه عن دلالة التأكيد بالضمير (أنت) العائد إلى دال (رب) ، أما علة الخطاب بدال (رب) في النموذجين ، فسترد لاحقًا: في قسم الفاعل في النموذج الأول ، وقسم النداء في الثاني .

رابعًا: طلب الرحمة (وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً)، وهي من سمات الربوبية التي اُسْتُهِلَّتْ بها الآية في (ربنا).

خامسًا: كثرة المؤكدات التي شملتها الآية الكريمة؛ فثمة (إِنَّ)، وكاف الخطاب (كَ) الذي يتآزر مع حذف أداة النداء في (ربنا) لتلاشي الوساطة في قرب هؤلاء من الرب العلي عز وجل، وكأنهم في مقام الحضرة الربانية، ثم ضمير الفصل (أَنْتَ)، الذي يعضد هذا القرب، ويبرز تلك الحضرة، ثم اعتماد خبر الناسخ على بنية التعريف (الوهاب) التي تفيد التخصيص، وأخيرًا انبناء هذا الخبر- صرفيًا - على صيغة المبالغة التي تتعلق هنا بكثرة الموهوبين، لا بالزيادة والنقصان في الصفة من قبل (الله)، فحاشاه.

وكأن هذا النوع من المخاطِب يقول لربه عز وجل: إن ما نريده ليس إلا عندك أنت وحدك، فإن لم نُعْطَهُ منك ما أعطاه لنا أحد؛ لأنه لا يوجد عند غيرك، وهو المفهوم من (لَدُنْكَ). ألا ترى معي أن كل هذه المعاني التي تدل على التعلق والرجاء والطمع فيما عند الرب العلي جل في علاه تتبلور وتتكثف –دلاليًا - في الضمير (أنت)؟!!.

ولسان حالهم يقول: لإنك أنت وحدك متصف بكل هذه الصفات – وبخاصة العطاء في هذه الآية – وأنت ربنا، فإننا نطمع ونرجو ونتعلق بما عندك. فإن أعطيتنا كان هذا بفضل منك وإحسان (وهو المفهوم من الوهاب)، لا بالعدل والجزاء.

ها نحن الآن إزاء ثلاثة أضرب من المخاطِبين في التأكيد بالضمير (أنت). وكما قلتُ من قبل: إن المخاطِب في هذه النماذج ليس الرب العلي عز وجل، وإنما هم خلقه. فإن قيل: كيف نفهم هذا، وهذا الكتاب يدرس خطاب (الله) سبحانه وتعالى بما يتضمن إخباره عن نفسه عز وجل بدال (رب)؟ قلتُ: من ضمن الإعجاز القرآني، أن (الله) سبحانه وتعالى أجرى بعض الآيات على لسان خلقه، سواء أكان الملائكة أم الجن أم البشر. وهذا اللون من الخطاب من الكثرة بمكان في القرآن الكريم.

والإخبار عن (الله)، سواء أكان باسمه الأعظم، أم بدال (رب)، أم بدال (إله)، بلسان بعض خلقه فيه لطائف: **الأولى** تكريم مولانا عز وجل لهؤلاء الخلق

وتشريفهم واللطف بهم [1]. **ثانيًا**: أن الإخبار عن (الله) يقع في هذه الحالة موقع التقرير والإقرار بالحقائق، وليس التأكيد على وجودها. **ثالثًا**: أن الإخبار عن (الله) عندما يصدر عن بعض خلقه، ينبغي أن يكون قدوة للآخرين.

وأحيانًا يرد التأكيد بالضمير **(هو)** مثل قوله سبحانه وتعالى ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ (النجم: 43، 44)، ثم في السورة نفسها يقول مولانا جل في علاه: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى * وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى﴾ (النجم: 48، 49) [*].

في هذه الآيات الكريمة يعطينا التقعيد النحوي وجهين لإعراب الضمير (هو): يتمثل **الأول** في أن (هو) مبتدأ وما بعده خبر، والجملة (هُوَ أَضْحَكَ، هُوَ أَمَاتَ، هُوَ أَغْنَى، هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى) خبر للناسخ (أن). والوجه **الآخر** هو أن الضمير (هو) ضمير فصل مؤكد لاسم (أَنَّ)، وهو ضمير الهاء (ه) المتصل بالناسخ [2].

أما كتب التفاسير، فيقول أبو حيان الأندلسي:"جاء بين (أَنَّ) وخبرها لفظ (هو)، وذلك في قوله: (وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى) (وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا) (وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى) (وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى) ففي الثلاثة الأول لما كان قد يدَّعي ذلك بعض الناس، كقول نمروذ (أنا أحيي وأميت) احتيج إلى تأكيد في أن ذلك إنما هو الله لا غيره...وإن ادَّعى

---

[1] بمراجعة النماذج الواردة في هذا النوع من الخطاب ، يُعلم أن المخاطِب إما الملائكة: (البقرة: 32)، (غافر: 8)، أو الأنبياء والرسل: (البقرة: 127 ، 128 ، 129)، (المائدة: 109 ، 116) . أو الصالحين من العباد الخلص:(آل عمران: 8 ، 35) . والأنبياء مع المؤمنين بهم:(الممتحنة: 5) . فإن قيل: ماذا تقول في مخاطبة أهل الشرك والكفر (الله) عز وجل ، من مثل: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (الأنفال: 32)؟ قلت: ليس هذا إخبار عن (الله) ، وإنما إظهار جحود المخاطِب ونكرانه .

[*] عود الضمير هنا على دال (رب)، لقوله: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ (النجم: 42) . وكما قلنا: إن الحديث هنا عن علة التأكيد بالضمير ، وليس علة التعبير بدال (رب) ؛ لأن دال (رب) ستأتي مناقشة بلاغته في قسم المجرورات .

[2] انظر: محيي الدين الدرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه، المجلد السابع: 341 . و بهجت عبد الواحد صالح، الإعراب المفصل ، المجلد الحادي عشر: 291 . أما محمود سليمان ياقوت، فقد قال بالوجه الأول فقط . انظر: إعراب القرآن الكريم ، المجلد التاسع: 4477 .

ذلك أحد فلا حقيقة له، وأما (وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى) فلأنها لما عُبدت من دون الله تعالى، نص على أنه تعالى هو ربها وموجدها " ([1]).

كما يقول الإمام البقاعي في قول (الله) سبحانه تعالى: (وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى): " ولما كانت التأثيرات الإدراكية تحال على أسبابها، أكد الكلام فيها فقال: (هو) أي لا غيره " ([2]).

ويقول ابن عاشور في الضمير (هو): " وأفاد ضمير الفصل قصرًا لصفة خلق أسباب الضحك والبكاء على الله تعالى؛ لإبطال الشريك في التصرف فتبطل الشركة في الإلهية ، وهو قصر إفراد؛ لأن المقصود نفي تصرف غير الله تعالى وإن كان هذا القصر بالنظر إلى نفس الأمر قصرًا حقيقيًا لإبطال اعتقاد أن الدهر متصرف"([3]).

وبهذا، رجحت التفاسير المتعددة لكتاب (الله) عز وجل سمة التأكيد للضمير (هو)، وهو الوجه الإعرابي الأول ، مع عدم انعدام الوجه الإعرابي الآخر، مبينة – بوضوح لا يحتاج إلى شرح وإسهاب – علة هذه السمة التأكيدية، المتمثلة في اختصاص الرب العلي بهذه الأفعال دون غيره، مما يمكن أن يُدَّعَى سواء في عصر نزول القرآن الكريم، أو العصور التالية إلى يوم أن يرث (الله) الأرض ومن عليها.

وليس ذلك فحسب، بل أبانت التفاسير المباركة لكتاب (الله) عز وجل علة عدم ذكر ضمير الفصل (هو) في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾ (النجم:45). المتمثل في عدم مشاركة أحد للرب العلي سبحانه وتعالى في نوعي الإنسان من حيث الخلق([4]).

---

[1] انظر: البحر المحيط ، الجزء الثامن: 165 ، 166 .

[2] انظر: نظم الدرر ، الجزء التاسع عشر: 74 . وقد قال الإمام البقاعي بهذه السمة التأكيدية للضمير (هو) في بقية المواضع الأخرى . انظر: السابق: 76 ، 77 .

[3] انظر: التحرير والتنوير ، الجزء السابع والعشرين: 143 . وقد قال ابن عاشور بهذا في بقية المواضع الأخرى للضمير (هو) . انظر: السابق: 144 ، 150 ، 152

[4] انظر هذا بالتفصيل: البحر المحيط ، الجزء الثامن: 166 ، والإمام البقاعي: نظم الدرر ، الجزء التاسع عشر: 75 ، والألوسي: روح المعاني ، الجزء السابع والعشرين: 68 ، وابن عاشور: التحرير

فإن قيل: إذا كان ذلك كذلك، فكيف التوفيق بين ذكر الضمير (هو) في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ (النجم: 44)، وعدم ذكره في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى﴾ (النجم:50) إلى الآية (54)، وقوله عز وجل على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ (الشعراء: 81)، على الرغم من تشابه مضمون الخطاب المتمثل في الإماتة والإحياء؟

قلتُ – وبالله التوفيق ومنه العون والمدد -: إن ذكر ضمير الفصل (هو) في آية (النجم: 44) له ما يبرره من ناحيتين: **الأولى** أن سورة النجم مكية [1]، وأن من أهم القضايا التي شغلت كفار مكة الموت والحساب؛ ولسوء عملهم وكفرهم وخوفهم من أن يكون الموت - ومن ثم وجود حساب - هو من اختصاص الرب العلي، حاولوا نفي هذه الحقيقة. وقد بدت تلك المحاولة في مظهرين: **الأول** إنكار البعث، وهو الوارد في قول الله عز وجل: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (يسن: 78) الذي نزل في الكافر أبي بن خلف [2].

الأخير: نسب الإماتة والإحياء إلى الدهر، وهو الوارد في قول (الله) سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (الجاثية: 24). وكل هذا مع علمهم بالحقيقة، لكنه فرار المذعور الخائف من سوء حسابه؛ لأنه لا يستطيع أن يلزم نفسه بالإيمان ب(الله) سبحانه وتعالى. ومن هنا كان التأكيد بضمير الفصل (هو).

أما الناحية **الأخرى**، فتتمثل في تعرض السورة لأصنام القوم، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى * أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى * إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ

والتنوير ، الجزء السابع والعشرين: 147. وقد ناقشنا طرفًا من هذا الطرح في عنصر:دال (رب) مبتدأ الضمير (هو) والخبر جملة فعلية . يحسن الرجوع في هذه الدراسة: 72 – 74 .

[1] انظر : الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، الجزء الأول: 193 .

[2] انظر : النيسابوري ، أسباب النزول: 379 . وقيل: نزلت في العاص بن وائل . وقد أورد الإمام السيوطي الرأيين. انظر: أسباب النزول المسمى (لباب النقول في أسباب النزول): 218 ، 219 .

إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾ (النجم:19 - 23).

لما ذكر الحق سبحانه وتعالى ما حدث لنبيه الكريم ﷺ من معجزة الإسراء والمعراج، وما رآه من آيات...إلخ، منوهًا بقدرته عز وجل، كان ذكر الأصنام من باب التعريض بعجزهم وضلال عبادتهم، ومن ثم انتفاء كونهم يحيون ويميتون، فكان التأكيد – كذلك - بضمير الفصل (هو).

أما في علة عدم ذكر الضمير (هو) في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى﴾ (النجم:50) وما استتبعها من آيات، رغم وجود الآيات الكريمة في السورة نفسها، فله سببان: **الأول** أن مضمون الإهلاك هنا خاص بالأمم السابقة، وليس بكفار مكة، مما قد يقلل من انشغالهم بهذا، إذ من دأب الكفار عدم الاتعاظ بمن سبقوهم. **الآخر**: أن إهلاك هذه الأقوام: قوم سيدنا نوح عليه السلام، وعاد، وثمود، والمؤتفكة / قوم سيدنا لوط عليه السلام جاءت بمعجزات خارقة في مظاهر الانتقام، مما يُسْتَبْعَدُ معه تدخل غير (الله) في هذا ؛ لذا غاب ضمير الفصل المؤكد ([1]).

وفي عدم ذكر ضمير الفصل المؤكد في قوله تعالى على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ (الشعراء: 81) [*] ؛ فلأن الإماتة والإحياء هنا خاصتان بسيدنا إبراهيم عليه السلام؛ لوجود ضمير المتكلم المتصل (ي) في منطقة المفعولية من الفعلين:يميت ويحيي، مما لا يحتاج معه إلى تأكيد. ولكن لما كان الأمر عامًا في الإماتة والإحياء، دار الحوار المعروف بين سيدنا إبراهيم والنمرود.

---

[1] منعًا للإطالة ، ينظر في الاطلاع على تلك المعجزات إلى التفاسير المتعددة للقرآن الكريم .

[*] جدير بالذكر أن الآيات التي سبقت هذا الموضع مَثُلَ فيها الضمير (هو) في منطقة المبتدأ على هذا النحو: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ (إبراهيم: 78 - 80) . وقد درسنا هذا في موضعه . انظر هذه الدراسة: 73 - 75 . وإنما أعدناه هنا ؛ للحاجة إليه .

المبحث الرابع: دال (رب - إله) في موقع الخبر

في هذا الجزء من الدراسة نتناول اسم الجلالة (الله) في منطقة الخبر. وفي العلاقة بين المبتدأ والخبر يقول سيبويه: " وهما معًا – أي المبتدأ والخبر – ما لا يغني واحد منهما عن الآخر، ولا يجد المتكلم منه بدًا، فمن ذلك الاسم المبتدأ والمبني عليه / يقصد الخبر" (1).

ويقول ابن السراج:" الاسم الذي هو خبر المبتدأ، هو الذي يستفيده السامع ويصير به المبتدأ كلامًا " (2).

ويقول ابن يعيش:"اعلم أن خبر المبتدأ هو الجزء المستفاد الذي يستفيده السامع، ويصير به المبتدأ كلامًا تامًا "(3).ومن المعروف نحويًا أن للخبر أنواعًا تتمثل في (المفرد، الجملة، شبه الجملة) (4).

المحور الأول: دال (رب - إله) في موقع الخبر المفرد

بعد أن أنهينا مناقشة دال(رب) و دال (إله) في منطقة المبتدأ، سواء أكان ذلك بلفظهما، أم بالضمائر التي تعود إليهما، وكذلك في منطقة اسم النواسخ – حروفًا وأفعالًا – كان علينا أن نناقش بلاغة إخبار الحق سبحانه وتعالى عن نفسه بدالي (رب) و(إله) في منطقة الخبر، بوصفها الطرف الآخر المكون للتركيب الاسمي، وإحدى المناطق النحوية المهمة التي تؤسس عليها الدلالة.

---

(1) انظر: الكتاب ، الجزء الأول: 23 .

(2) انظر: الأصول في النحو ، الجزء الأول: 62 . وانظر: المبرد ، المقتضب ، الجزءالرابع: 126 .

(3) انظر: شرح المفصل ، الجزء الأول: 227 . ابن عقيل ، شرح ابن عقيل ، الجزء الأول: 201 .

(4) انظر: الأصول في النحو ، الجزء الأول: 62 – 65 . وابن يعيش ، شرح المفصل ، الجزء الأول: 227 – 229 . وابن عقيل ، شرح ابن عقيل ، المجلد الأول ، الجزء الأول: 203 ، 204 . وهذا ما قلناه في مقدمة الكتاب الأول ، من أننا سنضطر إلى إعادة بعض القواعد النحوية ؛ بغرض الإفادة .

1-دال (رب – إله) خبروالمبتدأ اسم

لما كانت منطقة المبتدأ قد تختلف من حيث طبيعة الدال الذي يشغلها؛ من كونه اسمًا، أو ضميرًا بأضربه المتعددة، وكون الاسم إما أن يكون اسمًا عاديًا، أو اسم إشارة، أو اسم استفهام ...إلخ، رأينا أن نبدأ بشغل منطقة المبتدأ بالاسم العادي. وكون أن الخطاب هو خطاب الحق سبحانه وتعالى عن نفسه، فكان طبيعيًا ألا يصح أن تُشغل منطقة المبتدأ بغير اسم الجلالة (الله) سبحانه وتعالى، ويأتي دال (رب) أو (إله) في منطقة الخبر.

وأول ما يقابلنا من هذا الضرب من الخطاب الذي يتمثل في انبناء منطقة المبتدأ على اسم الجلالة (الله)، ومنطقة الخبر على دال (رب). يتمثل في قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ **اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ** لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (الشورى: 15).

إن التأمل النحوي في التركيب **(اللَّهُ رَبُّنَا)** يقول: إن اسم الجلالة (الله) مبتدأ، ودال (ربنا) خبر ومضاف إليه ([1]).

فضلًا عن العلاقة الترابطية بين المبتدأ والخبر الذي قال بها سيبويه، فإن المفهوم من طرح ابن السراج وابن يعيش فحواه:أن التركيز الدلالي ينصب على منطقة الخبر، على أساس معرفة المخاطَب وعلمه بالمبتدأ. ومن ثم يرد الخبر ليلفت انتباه المخاطَب إلى صفة أو اختصاص في المبتدأ، لم يكن ليعرفــه قبل انطلاق هذا التركيب.

وبالتأمل يدرك أن المبتدأ والخبر معرفتان. وفي المبتدأ والخبر المعرفتين يقول علامة العربية عبد القاهر الجرجاني:" وهنا نكتة يجب القطع معها بوجوب هذا

---

[1] انظر في هذا: محيي الدين الدرويش ، إعراب القرآن الكريم وبيانه ، المجلد السابع: 26 . وكذلك بهجت عبد الواحد صالح ، الإعراب المفصل ، المجلد العاشر: 382 . ومحمود سليمان ياقوت ، إعراب القرآن الكريم ، المجلد التاسع: 4209 .

الفرق أبدًا، وهي أن المبتدأ لم يكن مبتدأ لأنه منطوق به أولًا، ولا كان الخبر خبرًا، لأنه مذكور بعد المبتدأ، بل كان المبتدا مبتدأ، لأنه مسند إليه ومثبت له المعنى، والخبر خبرًا لأنه مسند ومثبت به المعنى " ([1]).

إذا أضفنا طرح عبد القاهر إلى ما فهمناه من ابن السراج وابن يعيش، توصلنا إلى حقيقة علم المخاطَب بالمبتدأ (الله)، وأن منطقة الخبر (ربنا) وردت لتضيف مفهومًا جديدًا يرتبط بالمبتدأ، لم يعلمه المخاطَب من ذي قبل.

والآن نعود إلى أطراف التواصل في بنية هذا الخطاب لنتأكد من صحة ما طرحناه. إن استقراء الآية يطلعنا على أن الآية الكريمة تضم مخاطِبَيْنِ ومخاطَبَيْنِ: أما المخاطِب الأول، فهو الحق سبحانه وتعالى، والمخاطَب الأول هو سيدنا رسول الله ﷺ وذلك في الأزمنة: (ادع، استقم، لا تتبع، قل).

أما المخاطِب الآخر، فهو النبي ﷺ والمخاطَب الآخر هم قومه، وذلك في ضمير (الكاف) الجمع الذي أضيف إلى الأسماء والحروف في الآية الكريمة (بَيْنَكُمُ، رَبُّكُمْ، لَكُمْ، أَعْمَالُكُمْ).

فإن قيل: إذا كان ذلك كذلك، فما الدليل على علم المخاطَب – اليهود ([2]) – ب(الله) سبحانه وتعالى؟. قلتُ: قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (لقمان: 25). وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (الزمر:38). وقد نزلت السورتان قبل سورة الشورى ([3]).

([1]) انظر: دلائل الإعجاز : 189 .

([2]) انظر: القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، الجزء الثامن عشر: 456 .

([3]) انظر: الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، الجزء الأول: 193 . وقد تم تأكيد هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ (الزخرف: 9) .

فإن قيل: لماذا شغل اسم الجلالة (الله)منطقة المبتدأ، في حين شغل دال (رب) منطقة الخبر، وهل كان من الممكن أن يتقدم دال (رب) على اسم الجلالة **(ربنا الله)**؛ إذ الاسمان معرفة، ومن ثم يجوز البدء بأحدهما، على غرار قوله تعالى على لسان مؤمن بني إسرائيل: ﴿**ربي الله**﴾ (غافر: 28)، وبخاصة أن محيي الدين الدرويش أجاز التبديل بين الاسمين في المنطقتين: الابتدائية والخبرية؟ ([1]).

قلتُ: البدء باسم الجلالة (الله) وشغله لمنطقة المبتدأ له وجاهته؛ لأن الرجوع إلى سياق الآية يطلعنا على علة ذلك. يبدأ سياق الآية الكريمة من قوله سبحانه وتعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ (الزخرف: 13).

إن تأمل مضمون السياق يدلنا على أنه يدور في إطار توحيد الألوهية الذي يعني وجوب عبادة (الله) عز وجل وإفراده بالوحدانية، وهو ما نادت به الشرائع السماوية كلها، وهو المفهوم من قوله (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ)، ثم ذِكْر الأنبياء السابقين (نوح، إبراهيم، موسى، عيسى)، وتفرق أقوام هؤلاء الأنبياء – صلى الله عليهم جميعًا - وتشرذمهم في ذلك، فالحديث هنا على الألوهية؛ لذا كان البدء باسم الجلالة(الله).

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (الزخرف:87) . وكذلك قوله تعالى:﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ (العنكبوت: 61) ، وقوله عز وجل: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (العنكبوت: 63) . وقد نزلت هاتان السورتان بعد سورة الشورى . وبعد كل هذا تأكيدًا ، وزيادة في إقامة الحجة على الكافرين ؛ فلا يستطيعون إنكار هذا يوم القيامة .

([1]) انظر: إعراب القرآن الكريم وبيانه ، المجلد السادس: 565 . والغريب أن الدرويش لم يجز البدء بأحدهما في موضع (الشورى) ، كما أجازه في موضع سورة (غافر) . سبق أن درسنا نموذج سورة (غافر) ، ودللنا في موضعه على بلاغة البدء بالربوبية ، رغم إجازة النحو التقعيدي البدء بأحد الاسمين . انظر هذه الدراسة: 19 – 26 ، والتنويه إلى ذلك في: 44 .

وهو ذات السبب الذي يمنع – دلاليًا مع الإمكان نحويًا – البدء بدال (رب) ووضع اسم الجلالة (الله) في منطقة الخبر؛ إذ السياق لا يركز على الربوبية بقدر تركيزه وتناوله للألوهية.

فإن قيل: لِمَ أضاف دال (رب) إلى (نا) العائدة إلى جماعة المسلمين، ممثلة في النبي ﷺ، ولم يضفها إلى (ك) الخاطب الجمع في منطقة الخبر، بل أوردها في منطقة العطف (وربكم)؟ قلتُ: لأسباب، **الأول**: الأمر بالعدل في قوله (وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ)، ولما كان من مقتضيات العدل إلزام المتكلم نفسه بما ينصح به غيره ويدعوه إليه؛ لذا كان إسناد توحيد الربوبية للمتكلم أولًا قبل إسناده للمخاطَب .

الثاني: إقامة الحجة على المخاطَب؛ إذ في إسناد توحيد الربوبية للمتكلم المأمور بالعدل الحاكم بين الأطراف، ما يدحض تشكيك المخاطَب في دعوة المتكلم.

الأخير: أن هذا مسلك لغوي ورد في كثير من مواضع الذكر الحكيم؛ للأسباب سالفة الذكر. ولنا أن نقرأ – على سبيل المثال - قول (الله) عز وجل: ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾(آل عمران:61).

وفي نموذج آخر يقول تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (النمل: 26). إن النحو التقعيدي يعطينا لإعراب دال (رب) وجهين من الإعراب: **الأول**، أنه بدل من الضمير (هو). **الآخر**: أنه خبر ثان لاسم الجلالة (الله) ([1]).

---

[1] انظر: محمود سليمان ياقوت ، إعراب القرآن الكريم ، المجلد السابع: 3403 . وكذلك: بهجت عبد الواحد صالح ، الإعراب المفصل ، المجلد الثامن: 291 . لكن بهجت يعرب دال (رب) خبرًا للضمير (هو) الواقع بعد الأداة (إلا) في قوله (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) ، بدليل أنه قال بعد ذلك: " ويجوز أن تكون الجملة الاسمية (هو رب) في محل رفع خبر (لله) . وفي هذه الحالة يكون قد أخطأ ؛ لأنه أعرب الضمير (هو) في محل رفع ؛ لكونه بدلًا من محل (لا إله) ، فكيف يكون بدلًا ومبتدأ في الوقت نفسه؟!! .

لكن إذا كان دال (رب) سيُعرب خبرًا للضمير (هو) فسيكون خبرًا لضمير محذوف تقديره (هو) ، ويكون أصل التركيب: (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ هُوَ ربُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) ، على غرار إعراب دال (الحي)

وفيما يخص دال **(إله)** في وقوعه في منطقة الخبر مع انشغال منطقة المبتدأ باسم الجلالة (الله) يقول (الله) سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ (النساء: 171) *.

والنحو التقعيدي يعرب اسم الجلالة (الله) مبتدأ، ودال (إله) خبر، ودال (واحد) صفة ل(إله) ([1]).

وبلاغيًا، فقد بُني الخطاب بالاعتماد على بنية القصر ب(إنما) التي تفيد الاختصاص وفي تصدر (إنما) للتركيب الاسمي يقول عبد القاهر الجرجاني:" واعلم أن الأمر في المبتدأ والخبر، إن كان بعد (إنما) على العِبْرة التي ذكرت لك في الفاعل والمفعول، إذا أنت قدمتَ أحدهما على الآخر. معنى ذلك: أنك إن تركتَ الخبر في موضعه فلم تقدمه على المبتدأ، كان الاختصاص فيه، وإن قدمته على المبتدأ، صار الاختصاص الذي كان فيه في المبتدأ. تفسير هذا، أنك تقول: (إنما هذا لك)، فيكون

في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ (البقرة: 255، آل عمران:2) ؛ فلإعراب (الحي) في الموضعين وجهان: خبر لاسم الجلالة (الله) ، أو خبر لمبتدأ محذوف تقديره (هو) . انظر:محيي الدين الدرويش ، إعراب القرآن الكريم وبيانه ، المجلد الأول: 331 ، 391 ، غير أن الدرويش قال بإمكانية إعراب (الحي) صفة (لله) في موضع سورة (البقرة) . وهذا ما قاله محمود سليمان ياقوت . انظر: إعراب القرآن الكريم ، المجلد الأول: 458 ، 538 . مع إضافة أوجه أخرى .

والخلاصة: أن دال (رب) إما أن يكون بدلًا من الضمير (هو) ، أو خبرًا ثانيًا لاسم الجلالة (الله) ، أو خبرًا لمبتدأ محذوف تقديره (هو) . ولعدم الإطالة ، نترك هذا النموذج لتأمل القارئ المتلقي ، وإعمال فكره فيه .

* سبق أن درسنا عكس هذا التركيب اللغوي ، أي ورود اسم الجلالة (الله) في منطقة الخبر ، ودال (إله) في منطقة المبتدأ ، وهو قول الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا **إِلَهُكُمُ** اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (طه: 98) . والآن ندرس الخطاب في حالة تبديل المواقع النحوية . وسنوازن بين التركيبين في نهاية الدراسة .

([1]) انظر: محيي الدين الدرويش ، إعراب القرآن الكريم وبيانه ، المجلد الثاني: 162 ، وكذلك: بهجت عبد الواحد صالح ، الإعراب المفصل ، المجلد الثاني: 442 . وكذلك: محمود سليمان ياقوت، إعراب القرآن الكريم ، المجلد الثاني: 1134 .

الاختصاص في (لك) بدلالة أنك تقول: (إنما هذا لك لا لغيرك). وتقول: (إنما لك هذا) فيكون الاختصاص في (هذا)، بدلالة أنك تقول: (إنما لك هذا لا ذاك)، والاختصاص يكون أبدًا في الذي إذا جئت (بلا) العاطفة كان العطف عليه. وإن أردت أن يزداد ذلك عندك وضوحًا، فانظر إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ (الرعد:40)، وقوله عز وعلا: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ﴾ (التوبة: 93)، فإنك ترى الأمر ظاهرًا أن الاختصاص في الآية الأولى في المبتدأ الذي هو (البلاغ) و(الحساب)، دون الخبر الذي هو (عليك) و(علينا)، وأنه في الآية الثانية في الخبر الذي هو (على الذين) دون المبتدأ الذي هو (السبيل)"([1]).

ويفهم من كلام عبد القاهر، أن الاختصاص يقع في الجزء الثاني من الجملة الاسمية؛ سواء حوى هذا الجزء خبر الجملة، أو مبتدأها المؤخر. ومن ثم فإن الاختصاص يقع على دال (إله) في موضع الشاهد: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾. ولما كان دال (واحد) صفة لدال (إله)، فإن الاختصاص ينصرف إلى مفهوم الوحدانية (لله) جل في علاه.

ويتوافق طرح عبد القاهر في مسألة الاختصاص مع ما قدمه النحو التقعيدي في التركيز الدلالي على منطقة الخبر، المفهوم من الطرح السابق عند ابن السراج وابن يعيش. وإذا كان ذلك كذلك، فلم يبق لنا إلا أن نبحث عن علة البدء باسم الجلالة (الله) والإخبار بدال (إله)، موازنين بين هذا التركيب وعكسه في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (طه: 98).

إن ورود التركيب على هذا النحو، يطلعنا– وفق الطرح النحوي والبلاغي – على علم المخاطَب باسم الجلالة (الله)، وأن الجدال هو الذي يشوب مفهوم الوحدانية، ومن ثم وردت الوحدانية (إله واحد) في منطقة الخبر؛ لتطلع المخاطَب على وجوب الإيمان بالوحدانية (لله) جل في علاه، وتفرده بالعبادة وحده، دون غيره.

([1]) انظر: دلائل الإعجاز: 345 . وانظر كذلك: السكاكي ، مفتاح العلوم: 300 .

وبالعودة إلى أطراف الخطاب، يدرك أن المخاطِب هو (الله) عز وجل، وأن المخاطَب هم أهل الكتاب، وذلك في قوله تعالى: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ (النساء: 171).

والمقصود بأهل الكتاب هنا هم أهل الإنجيل من النصارى ([1]). ويبدأ خطابهم بقول الله عز وجل ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ (النساء: 153). والمتأمل في سياق هذا المقطع القرآني الطويل، يدرك أن الحق سبحانه وتعالى قد ساق في ثناياه قوله عز وجل: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا * وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا * رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (النساء: 165)، وذكر الوحي المنزل على الرسل كلهم على هذا النحو، يلفت الانتباه إلى أن دعوة الأنبياء واحدة، فحواها عبادة(الله) سبحانه وتعالى وحده، وعدم الإشراك به.

ولما اختلف أهل الكتاب في مسألة التوحيد، وأشركوا مع (الله) تعالى آلة أخرى، ونهاهم (الله) سبحانه وتعالى عن ذلك في أكثر من موضع في القرآن الكريم، كان التركيز الدلالي على منطقة الخبر الموصوف (إله واحد)؛ لإبهامهم ولفت انتباههم إلى ما ينبغي أن يكونوا عليه في مسألة إفراد (الله) بالوحدانية [*].

([1]) انظر: الإمام الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، المجلد الثاني: 614 .

[*] ربما يعاد تناول بنية هذا الخطاب في ضـرب الخطاب (الإلهي – البشـري) ؛ لذا لا نخوض في تفاصيله هنا ، وإنما نركز على مسألة انبناء منطقة الخبر على دال (إله) .

فإن قيل: إذا كان ذلك كذلك، فما الفرق بين بنية هذا الخطاب، وهو قوله سبحانه تعالى: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ﴾ (طه: 98)؟ قلتُ: الفرق – كما هو واضح - يكمن في ملمحين لغويين: **الأول** تغير المواقع النحوية بين منطقتي المبتدأ والخبر. **الآخر**: تجرد دال (إله) من الإضافة إلى ضمير الجمع (كم) العائد إلى المخاطَب في الموضع الأول (إِلَهٌ وَاحِدٌ) – موضع الشاهد – وإضافته إليه في الموضع الآخر (إِلَهُكُمُ).

وفيما يخص الملمح الأول، فإن اختلاف السياق هو الذي أدى إلى انبناء التركيبين على هذا النحو. وإذا كنا قد بينا هذا في بناء الخطاب موضع الشاهد، فإن الرجوع إلى السياق في الموضع الآخر يؤكد ما طرحنا.

إن سياق الخطاب يبدأ بقوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ (طه: 85). إلى أن يصل إلى خطاب سيدنا موسى عليه السلام للسامري في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ﴾ (طه: 95) *.

ولما كان الخلاف هنا لا ينصب على عملية التوحيد والإفراد – إذ إنهم لم يصنعوا أكثر من إله - بل على طبيعة المعبود، ومحاولة تجسيده في شكل إله، كان البدء بدال(إله) الذي يشغلهم، ثم التثنية باسم الجلالة (الله) في منطقة الخبر، التي تستحوذ على التركيز الدلالي أولى، ليلفت انتباههم إلى أن المعبود الذي تبحثون عنه هو (الله) جل في علاه، الذي لا يمكن أن يتجسد في أي شكل من الأشكال.

أما الملمح **الآخر**، فإن تجرد دال (إله) في موضع الشاهد، ورد في سياق عام، وبخاصة أنه سُبِقَ – كما بينا من قبل – بذكر الأنبياء المرتبط بذكر أقوامهم. كأنه

---

* وتُعتبر الآيات التي خاطب فيها سيدنا موسى عليه السلام قومه وأخاه سيدنا هارون عليه السلام من قوله تعالى: ﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي﴾ (طه: 86) إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ اعتراضية بين الموضعين.

قيل: إنما (الله) إله واحد لكل الناس. أما الخطاب في موضع سورة (طه) فهو خطاب خاص باليهود؛ جراء ما فعلوه من صنع إله لهم في شكل عجل؛ لذا كانت الإضافة.

2-دال (رب - إله) خبروالمبتدأ اسم إشارة

ترد بنية هذا التركيب من الخطاب في ثلاثة أضرب من حيث منطقتي المبتدأ والخبر؛ **الأول**: هو انبناء منطقة المبتدأ على اسم الإشارة المفرد(ذلك)، وتجريد دال (رب) من الإضافة إلى الضمائر.ويتمثل هذا الضرب في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا **ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾(فصلت: 9).

ويتمثل الضرب **الثاني** في انبناء منطقة المبتدأ على اسم الإشارة المضاف إلى ضمير الجمع (كم)، مع إضافة دال (رب) إلى ضمير المتكلم المفرد المتصل (ي)، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ **ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي** عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (الشورى: 10).

أما **الأخير**، فترد فيه منطقة المبتدأ مؤسسة على اسم الإشارة المضاف إلى ضمير الجمع (كم)، وإضافة دال (رب) إلى الضمير نفسه (كم)، وذلك كما في قوله سبحانه تعالى: ﴿**ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ** لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (الأنعام: 102) ([1]).

([1]) انظر في هذا التركيب كذلك: سورة (يونس: 3 ، 32) ، وسورة (فاطر: 13) ، وسورة (الزمر: 6) ، وسورة (غافر: 62، 64) . وسورة (الشورى: 10) . أما قوله تعالى على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام:﴿هَذَا رَبِّي﴾ (الأنعام: 76 ، 77 ، 78) ، فإن دال (رب) هنا لا يعود إلى رب العزة سبحانه وتعالى . وقد وردت أراء كثيرة في سبب إطلاق سيدنا إبراهيم دال (رب) على هذه الكواكب . يحسن الرجوع في ذلك إلى التفاسير المتعددة للقرآن الكريم .

والذي أميل إليه أن هذا التركيب ورد على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام ؛ لمجاراة القوم في منطقهم، بهدف كشف زيفهم ، وضلال اعتقادهم في عبادتهم للكواكب ، والوصول بهم إلى عقيدة التوحيد وعبادة (الله) جل وعلا.

فإذا جئنا إلى البنية التكوينية للخطاب في النموذج الأول، وهو قول (الله) سبحانه وتعالى: ﴿ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (فصلت: 9)، ألفينا أن ذلك: اسم إشارة مبني على السكون في محل رفع مبتدأ، ودال (رب) خبر مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة، وهو مضاف و(العالمين) مضاف إليه مجرور ب(الياء)؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم ([1]).

ومعالجتنا لبنية الخطاب في هذا التركيب، ترد في نقطتين: **الأولى** بلاغة اسم الإشارة في منطقة المبتدأ، و**الأخرى** وجاهة دال (رب) هنا، دون الإتيان باسم الجلالة (الله)، أو دال (إله)، ثم إيضاح بلاغته في شغله منطقة الخبر.

وإذا كان المنطلق النحوي يكتفي بالجانب الإعرابي في بناء اسم الإشارة على الرفع في منطقة المبتدأ، فإن الطرح البلاغي يبحث وراء العلل التي تؤدي إلى حلول اسم الإشارة في هذه المنطقة. وهنا يقول السكاكي: " وأما الحالة التي تقتضي كونه – أي المسند اليه / المبتدأ – اسم إشارة، فهي متى صح إحضاره في ذهن السامع بوساطة الإشارة إليه حسًا، واتصل بذلك داع، أو أن تقصد بذلك أكمل تميز له وتعيين، أو أن تقصد بذلك أن السامع غبي لا يتميز الشيء عنده إلا بالحس، أو أن تقصد بقربه

([1]) انظر: محيي الدين الدرويش ، إعراب القرآن الكريم وبيانه ، المجلد السادس: 613 . ومحمود سليمان ياقوت، إعراب القرآن الكريم ، المجلد التاسع: 4156 . ويقول ياقوت: إن (اللام) في (ذلك) للبعد . وانظر كذلك: بهجت عبد الواحد صالح ، الإعراب المفصل ، المجلد العاشر: 315 . وقد ذهب في (لام) (ذلك) إلى ما ذهب إليه ياقوت . غير أنه يذهب إلى أن إعراب دال (رب) خبر لمبتدأ محذوف تقديره (هو) أي (ذلك هو رب العالمين) . وأن جملة (هو رب العالمين) في محل رفع خبر للإشارة (ذلك) . وأرى في هذا تكلفًا ، لا داعي له . وإنما الرأي عندي هو ما ذهب إليه الدرويش وياقوت . أما مسألة (لام) (ذلك) الذي تدل على البعد عند صالح وياقوت ، فهذا صحيح إذا جاءت مع غير (الله) سبحانه وتعالى . أما عندما ترد مع (الله) تعالى فإنها تدل على عظمة الشأن . وهذا ما أؤمن به دائمًا: أن هناك بونًا شاسعًا بين النحو التقعيدي وفلسفة النحو .

تحقيره واسترذاله، أو ببعده تعظيمه...أو ما سوى ذلك مما له انخراط في هذا المسلك، ولطائف هذا الفصل لا تكاد تنضبط "([1]).

وقد أعجبني رأي القزويني عندما قال في دلالة اسم الإشارة على البعد:"وإما للتنبيه - أي جُعِلَ البعد للتنبيه– إذا ذُكِرَ قبل المسند إليه مذكور، وعُقِّبَ بأوصاف؛ على أن ما يَرِد بعد اسم الإشارة فالمذكور جدير باكتسابه من أجل تلك الأوصاف"([2]).

فإذا ولجنا إلى بلاغة الإشارة، ألفينا أن (ذلك) تتضمن إحدى صفات الخبر (رب) المتمثلة في (خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ). ولما كان هذا الأمر من العظمة والقدرة بمكان، ورد – حسب طرح السكاكي - (لام) البعد للتنويه بتلك العظمة وبهذه المقدرة.

وإذا تأملنا في شرط القزويني في جعل البعد للتنبيه، وهو ذِكْرُ صفات قبل الإشارة، تجعل المشار إليه / الخبر مستحقًا للأوصاف التي ترد بعده، نجد أن الإشارة سُبِقَتْ ب(خَلْقِ الأرضِ في يومين)، لترد إضافة العالمين إلى دال (رب) ماكنة في مكانها. كأنه قيل: الذي خلق الأرض في يومين حقيق أن يكون ربًا للعالمين، لا غيره.

فإن قيل: إن ما ورد بعد الإشارة في الآيات اللاحقة ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ * ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (فصلت: 10 – 12) لهو متعلق بما قبل الإشارة (خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ)؛ إذ هو من تمامه وداخل في إطاره؛ لذا عطف عليه، فلِمَ توسطت

([1]) انظر: مفتاح العلوم: 183 ، 184 . والقزويني:الإيضاح في علوم البلاغة، الجزء الثاني:18–21 .

([2]) انظر: الإيضاح في علوم البلاغة ، المجلد الأول ، الجزء الثاني: 20 .

الإشارة والمشار إليه تلك الصفات، ولم ترد بعد تعددها، أي لِمَ جاءت معترضة بين المعطوفات على صلة الموصل (خلق الأرض في يومين)؟*.

قلتُ: لعلتين: **الأولى** إظهار كفر المخاطَب وجحوده وبيان جرمه، إذ بمجرد أن يسمع أن ثمة (ربًا) خلق الأرض في يومين، كان من المنطق أن يلحق بركب من يؤمن به حتى دون أن يصل إلى مضمون المعطوفات؛إذ في خلق الأرض في يومين – وحده- دليل على استحقاق الرب العلي للعبادة.

فإن قيل: ربما يكون ثمة (رب) غير الحق سبحانه وتعالى فعل هذا أو أشد منه، وهو ما دفعهم إلى الكفر. قلتُ: لم يدعِ مدعٍ أنه قد فعل هذا ولا غيره، وما دام الأمر هكذا، فهذا دليل على أن الرب العلي هو من فعل هذا وحده، دون منازع ولا مشارك. ومن هنا كانت جريمة الكفر به.

الأخرى: إبراز ربوبية (الله) سبحانه وتعالى للعالمين وإظهارها، بوضعها وسط مظاهر تلك الربوبية، في خلق الأرض في يومين، ثم ما استتبع ذلك من معطوفات ، ليرد التنويه بالعظمة في تركيب (ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) ماكنًا في مكانه، مظهرًا من ربوبية (الرب العلي) سبحانه وتعالى للعالمين (العزة) و(العلم)؛ إذ هو صاحب القدرة فيما سبق الإشارة، لا يغلبه أحد، ولا يعلم علمه أحد.

أما النقطة **الأخرى**، المتمثلة في علة الإتيان بدال (رب)، فإنها من الوضوح بمكان؛ إذ ما حوته الآية الكريمة، وما استتبعها من مضامين المعطوفات، لهي من اختصاص سمات الربوبية. ولما كانت تلك النعم، لا تخص عالمًا بعينه، بل شملت المخلوقات كلها، استحق مولانا جل في علاه أن يكون ربًا للعالمين.

---

* رغم إقرار ابن عاشور أن تركيب (ذلك رب العالمين) ورد معترضًا بين المعطوفات ، فإنه لم يُبِنْ علة ذلك . انظر: التحرير والتنوير ، المجلد الرابع والعشرين: 243 .

ولنأخذ النموذج الأخير - تاركين الثاني لتأمل القارئ الكريم – المتمثل في قول (الله) عز وجل: ﴿**ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ**﴾ (الأنعام: 102) *

وقد اختلف الطرح النحوي بين النحاة؛ فيرى الدرويش أن: (ذلكم) مبتدأ، واسم الجلالة (الله) خبر أول، و(ربكم) خبر ثان، وجملة التوحيد (لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) خبر ثالث، و(خالق) خبر رابع ([1]).

في حين يرى بهجت عبد الواحد صالح أن (ذلكم): مبتدأ أول، واسم الجلالة (الله) مبتدأ ثان، و(ربكم) خبر لاسم الجلالة (الله)، ويجوز أن يكون (ربكم) بدلًا من اسم الجلالة (الله)، وجملة (الله ربكم) خبر للإشارة (ذلكم)، وجملة التوحيد خبر ثان للمبتدأ الأول (ذلكم)، و(خالق) خبر ثالث للإشارة (ذلكم) ([2]).

وأخيرًا يرى محمود سليمان ياقوت أن: (ذلكم) مبتدأ، واسم الجلالة (الله) خبر أول و(ربكم) خبر ثان، وجملة التوحيد خبر ثالث، وخالق خبر رابع. وهو يوافق الدرويش فيما طرحه. كما يرى ياقوت إمكانية إعراب (ربكم) بدل من اسم الجلالة (الله)، وهو يوافق في ذلك رأي بهجت صالح، كما يرى إمكانية إعراب اسم الجلالة (الله) بدل من الإشارة (ذلكم) ([3]).

أما التفاسير، فقد قدم الزمخشري ما قدمه محيي الدين الدرويش، فقال:" (ذلكم) إشارة إلى الموصوف مما تقدم من الصفات، وهو مبتدأ، وما بعده أخبار مترادفة (اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ) أي ذلكم الجامع لهذه الصفات " ([4]).

---

* رجحنا اختيار هذا الضرب ؛ لكثرة تردده في آيات الذكر الحكيم ، وتركنا موضع سورة الشورى لتأمل القارئ الكريم ؛ إذ هو الموضع الوحيد في القرآن الكريم الذي ضم هذا التركيب .

([1]) انظر: إعراب القرآن الكريم وبيانه ، المجلد الثاني: 424 .

([2]) انظر: الإعراب المفصل ، المجلد الثالث: 289 ، 290 .

([3]) انظر: إعراب القرآن الكريم ، المجلد الثالث: 1462 .

([4]) انظر: الكشاف ، الجزء الثاني: 51 .

وبعد أن ذكر أبو السعود ما ساقه الزمخشري، قال:" وقيل: الخبر هو الأول – أي اسم الجلالة (الله)، والبواقي أبدال، وقيل: الاسم الجليل بدل من الإشارة / المبتدأ، والبواقي أخبار، وقيل: يقدر لكل من الأخبار الثلاثة مبتدأ، وقيل: يجعل الكل بمنزلة اسم واحد "([1]).

وبعيدًا عن كل هذه الأوجه، ورد رأي ابن عاشور على هذا النحو: " والمشار إليه – اسم الجلالة (الله) – هو الموصوف بالصفات المضمنة بالأخبار المتقدمة، ولذلك استغنى عن اتْباع اسم الإشارة ببيان أو بدل. وقوله (ربكم) صفة لاسم الجلالة، وجملة (لا إله إلا هو) حال من (ربكم)، وقوله (خالق كل شيء) صفة ل(ربكم)، أو لاسم الجلالة (الله) وإنما لم نجعله خبرًا؛ لأن الإخبار قد تقدم بنظائره في قوله (وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ) – وهو التركيب الوارد في الآية السابقة على هذه الآية " ([2]).

والراجح عندي، أن ذلكم: مبتدأ، واسم الجلالة (الله) خبر أول، و(ربكم) خبر ثان، وجملة التوحيد (لا إله إلا هو) خبر ثالث ، و(خالق) صفة لدال (ربكم)؛ إذ من سمات الربوبية الخلق والفطرة؛ ولاسيما أن دال (خالق) إضيف إلى كل شيء؛ مما يدل على تجلي نعم الربوبية على المخلوقين *.

وإذا كنا قد بينا من قبل بلاغة الإشارة *، فإن تناولنا سينصب هنا على انشغال منطقة الخبر الأول باسم الجلالة (الله)، ومنطقة الخبر الثاني بدال (رب).

أما النقطة **الأولى**، فإن انشغال منطقة المبتدأ باسم الجلالة له ما يبرره من الجانب اللغوي والجانب الدلالي. أما **الأول**، فإن من يتأمل في سياق الآية الكريمة،

([1]) انظر: إرشاد العقل السليم ، الجزء الثالث: 169 .

([2]) انظر: التحرير والتنوير ، الجزء السابع: 412 .

* سأناقش الآراء النحوية السابقة في كتابنا (فلسفة النحو بين النظرية والتطبيق . قراءة في النص القرآني) .

* انظر: 140، والفرق بين (ذلك) و(ذلكم) أن (كم) جاء للدلالة على الجمع؛لطبيعة المخاطب في الآيات السابقة.

يجد أنه يبدأ من قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ (الأنعام: 95). وقد تكرر اسم الجلالة (الله) سبحانه وتعالى حتى الآية 99 بصور متعددة؛ منها الضمير البارز (هو)، أو الضمير البارز المتصل (نا)، أو الضمير المستتر(هو)، مرتبطًا في بعض المواضع بالموصول (الذي) الذي من شأنه التخصيص والتحديد.

ثم يرد قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (الأنعام: 100)، مستنكرًا على المخاطب كفرهم ب(الله)، بعدما أفاض عليهم بكل نعم الربوبية التي شملتها الآيات السابقة، ثم يتكرر اسم الجلالة (الله) في الآية اللاحقة من خلال منطقة المبتدأ المحذوف في (بديع السموات والأرض)، أو حقل الضمائر البارزة والمستترة.

أما الجانب الدلالي–الآخر -فيمكن تأمله من خلال بدء السياق بالألوهية (إن الله)، ثم سوق التعجب من موقف المشركين، بجعل الجن شركاء (لله)، أي كفرهم بتوحيد الألوهية، ثم نفي أن يكون له ولد، تعريضًا بالنصارى فيما ادعوه.

ووفق الجانبين السابقين، واتساقًا مع الإعجاز اللغوي للذكر الحكيم، ورد اسم الجلالة (الله) في منطقة الخبر الأول، منوهًا بعظم الشأن من خلال الإشارة.

وتتبلور علل وضع دال (رب) في منطقة الخبر الثاني في الآتي: **أولًا** أن السمات التي شملتها الآيات السابقة دارت في إطار نعم الربوبية. **ثانيًا**: أنه لما كان البدء بالألوهية (إن الله)، ثم سيقت سمات الربوبية، كان الهدف من ذلك – والله بمراده عليم- الإشارة إلى أن (الله) الذي تخصص بكل سمات الربوبية ونعمها على من خلق، هو وهو وحده المستحق للعبادة، دون شريك، أو ادعاء أن له ولدًا...إلخ.

فلما كان ذلك كذلك ورد الاسم الجليل (الله) في منطقة الخبر الأول، ودال (رب) في منطقة الخبر الثاني، على أعلى ما يُراد لهما من بلاغة وإعجاز.

ويمكن القول: إن الآية موضع الشاهد قد بلورت ذلك من خلال بلاغة بنيتها التركيبية وفق هذا المخطط: *

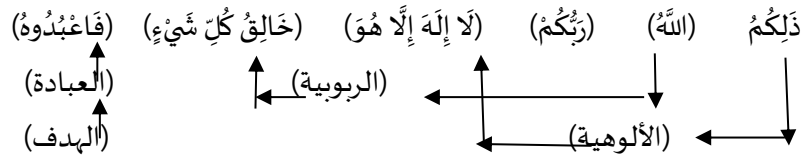

3-دال (رب- إله) خبروا المبتدأ (مَنْ - مَا)

وإذا بدأنا بدال (رب) ألفينا أنه ورد في منطقة الخبر لاسم الاستفهام (مَنْ) في قوله تعالى: ﴿**قُلْ مَنْ رَبُّ** السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (الرعد: 16). وقوله سبحانه وتعالى: ﴿**قُلْ مَنْ رَبُّ** السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ (المؤمنون: 86). وقوله عز وجل: ﴿قَالَ **فَمَنْ رَبُّكُمَا** يَا مُوسَى ﴾ (طه: 49). وقد ورد خبر لاسم الاستفهام (ما) في قول (الله) سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ **وَمَا رَبُّ** الْعَالَمِينَ ﴾ (الشعراء:23).

فإذا جئنا إلى اسم الاستفهام (من)، واعتمدنا الموضع الأول نموذجًا، وجدنا أن: (مَنْ) اسم استفهام مبتدأ، و(رب) خبر، و(السموات) مضاف إليه، و(الأرض) معطوف ([1]).

و(مَنْ) اسم استفهام عمن يعقل ([2]). وفي تعريفها أضاف الزمخشري لفتة بلاغية رائعة؛ إذ قال عن (مَنْ): " وهي تختص بأولي العلم " ([3]). وفي تعليق ابن يعيش على هذا التركيب يقول: " وإنما قال – أي الزمخشري – تختص بأولى العلم، ولم يقل:

---

* من الجدير بالذكر أن دال (إله) لم يرد في منطقة الخبر المعتمد مبتدؤه على اسم الإشارة .

([1]) انظر: محيي الدين الدرويش . إعراب القرآن الكريم وبيانه ، المجلد الرابع: 85 ، وبهجت عبد الواحد صالح ، الإعراب المفصل ، المجلد الخامس: 410 ، ومحمود ياقوت ، إعراب القرآن الكريم المجلد الخامس: 2347 .

([2]) انظر: ابن يعيش ، شرح المفصل ، الجزء الثاني: 410 . وفاضل السامرائي ، معاني النحو ، الجزء الرابع: 267 .

([3]) انظر: السابق ، الجزء نفسه: الصفحة نفسها .

(بأولي العقل) على عادة النحويين؛ لأنه رآها تطلق على الباري سبحانه وتعالى... والباري سبحانه وتعالى يوصف بالعلم، ولا يوصف بالعقل. فاعرفه " ([1]).

ويرد تحليل هذا الخطاب من مظهرين لغويين: **الأول** اعتماد بنيته على الاستفهام في منطقة المبتدأ. **الآخر**: ورود دال (رب) في منطقة الخبر. أما المظهر **الأول**، فقد بني الخطاب على الاستفهام في منطقة المبتدأ؛ لأنه سؤال من النبي ﷺ للكفار.

والاستفهام هنا ليس على سبيل الحقيقة؛ لأن المخاطَب يعلم يقينًا الجواب. لذلك جاء الجواب من قبل المستفهِم (قل الله). ولما كان المخاطَب يعلم الجواب، جاء له السؤال الثاني(قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ) على سبيل التوبيخ والتبكيت *.

أما المظهر **الآخر**، فإن ورود دال (رب) جاء ليلجم القوم ويبهتهم، ويقيم الحجة عليهم في أن مَنْ تتنعمون بنعم ربوبيته، وتعترفون بخلقه السموات والأرض من خلال الإجابة (قل الله)، هو من يطالبكم بعبادته، فلم تتخذون معه أولياء؟ ومن هنا فإن بنية الخطاب هنا بمضمونها قد عالجت المفهومين معًا: الألوهية والربوبية.

وفي انبناء بنية الخطاب في منطقة المبتدأ على (ما) الاستفهامية، ومنطقة الخبر على دال (رب) يرد قول (الله) سبحانه: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ **وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾ (الشعراء:23).

([1]) انظر: ابن يعيش ، شرح المفصل ، الجزء الثاني: 410 . وأحيانًا تشرب معنى النفي ، مثل قول (الله) تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ (آل عمران: 135) . ومن المدهش أن الإمام الزركشي لم يسق الدلالة الاستفهامية الصريحة ل(من) ، مثل المواضع التي بين أيدينا الآن ، بل قال باستفهاميتها في المواضع التي أشربت فيها معنى النفي . انظر: البرهان في علوم القرآن ، الجزء الرابع: 411 .

* وقد وضحنا هذا المسلك اللغوي في القرآن الكريم عند تناولنا لاسم الجلالة (الله) في منطقة الخبر شبه الجملة ، المحذوف مبتدؤه . انظر: الكتاب الأول .

وبالتأمل الإعرابي لبنية التركيب يُعْلَمُ الآتي: (ما) اسم استفهام مبتدأ، و(رب) خبر، و(العالمين) مضاف إليه. وقال فرعون (ما)؛ لأنه سأل عن صفاته وأفعاله، ولو أراد عينه لقال: مَنْ؟ ([1]).

ويعرب بهجت عبد الواحد صالح (ما): اسم استفهام مبني في محل رفع خبر مقدم و(رب) مبتدأ مؤخر، ثم يعلل ذلك، قائلًا: أي قال له عند دخوله، أي سأله قائلًا: أي شيء رب العالمين؟ و(ما) يُستفهم بها عن الذات المبهمة. وفي سؤاله إنكار لادعائه الألوهية ([2]).

ويذهب الدكتور محمود سليمان ياقوت إلى ما ذهب إليه الدرويش في إعرابه، ثم يعلق على معنى الآية، قائلًا: والمعنى: ما صفة رب العالمين الذي تذكره كثيرًا، وتدعي أنك رسوله؛ حيث لا نعلم عنه شيئًا ([3]).

و(ما) تعني: أي شيء، وهو اسم واقع على جميع ما لا يعقل، مبهم فيه ([4]). ويمكن لنا أن نجمل هذه الآراء في طرح الإمام الزركشي عن (ما) الاستفهامية في رأيين: الأول دلالتها، والآخر: إعرابها.

في دلالة (ما) الاستفهامية يقول الزركشي: " (ما) الاستفهامية بمعنى (أي شيء)، ولها صدر الكلام كالشرط، ويسأل بها عن أعيان ما لا يعقل وأجناسه وصفاته، وعن أجناس العقلاء وأنواعهم وصفاتهم ...وجوز بعض النحويين أن يسأل بها عن أعيان من يعقل أيضًا، حكاه الراغب؛ فإن كان مأخذه قوله تعالى عن فرعون: ﴿وما رب العالمين﴾ (الشعراء: 23)، فإنما هو سؤال عن الصفة؛ لأن الرب هو المالك والمِلْك

([1]) انظر: العكبري ، التبيان في إعراب القرآن ، القسم الثاني: 995 .

([2]) انظر: الإعراب المفصل ، المجلد الثامن: 176 . ويبدو أن صالح قد تأثر برأي الزمخشري في هذا . انظر: الكشاف ، الجزء الثالث: 298 .

([3]) انظر: إعراب القرآن الكريم ، المجلد السابع: 3310 . وأنا أميل إلى ما طرحه الشيخ محيي الدين الدرويش والدكتور محمود سليمان ياقوت من إعراب وتعليل .

([4]) انظر: ابن يعيش ، شرح المفصل للزمخشري ، الجزء الثاني: 405 . وانظر كذلك: ابن هشام ، مغني اللبيب: 330 .

صفة، ولهذا أجابه موسى بالصفات. ويحتمل أن (ما) سؤال عن ماهية الشيء، ولا يمكن ذلك في حق الله تعالى؛ فأجابه موسى تنبيهًا على صواب السؤال " ([1]).

وفي إعراب (ما) الاستفهامية يقول الزركشي: " هو – أي إعراب (ما) بحسب الاسم المستفهم عنه، فإن كانت هي المستفهم عنها كانت في موضع رفع بالابتداء، نحو قوله تعالى: ﴿ما لونها﴾ (البقرة: 69)، و﴿ما هي﴾ (البقرة: 70). وإن كان ما بعدها هو المسئول، كانت في موضع الخبر، كقوله: ﴿وما الرحمن﴾ (الفرقان: 60)، وقوله: ﴿ما القارعة﴾ (القارعة: 2)، و قوله تعالى: ﴿ما الحاقة﴾ (الحاقة: 2) "([2]).

وعلى هذا، ورد الاختلاف في أوجه الإعراب التي سبقت. فجات (ما) عند الدرويش للسؤال عن معناها / أي الصفات والأفعال؛ لذا وقعت عنده في منطقة الابتداء. وهو ما جعله يقول: ولو أراد عينه لقال: مَنْ؟. وهو ما ذهب إليه ياقوت كذلك.

وعلى خلاف ذلك، ورد إعراب (ما) عند بهجت صالح، إذ يفهم من طرحه أن (ما) هنا يسأل بها عن الرب العلي؛ لذا جاءت في موضع الخبر المقدم.

لكن ما يعضد الوجه الأول للإعراب هو رأي الإمام الزركشي، في أن سيدنا موسى عليه السلام أجاب فرعون بصفات الرب العلي، وذلك في قول (الله) سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ * قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ* قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ

([1]) انظر: البرهان في علوم القرآن ، الجزء الرابع: 402 ، 403 . وانظر كذلك: 43 ، 44 .

([2])انظر: البرهان في علوم القرآن ، الجزء الرابع: 403 . وفي قوله: (وما الرحمن) أعرب محيي الدين الدرويش (ما) خبرًا مقدمًا ، والرحمن مبتدأ مؤخرًا ، أو بالعكس . انظر: إعراب القرآن الكريم وبيانه المجلد الخامس: 370 . وكذلك بهجت عبد الواحد صالح . انظر: الإعراب المفصل ، المجلد الثامن: 146 . أما محمود سليمان ياقوت فقد أعرب (ما) مبتدأ والرحمن خبرًا ، وقد قدم الأوجه المحتملة لمعنى الآية . انظر: إعراب القرآن الكريم ، المجلد السابع: 3285 . وبهذا اتفق ياقوت مع الدرويش في وجه الابتداء في (ما) ، والإخبار في (الرحمن) . واتفق صالح مع الدرويش في الوجه الثاني .

لَمَجْنُونٌ * قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (الشعراء:24 - 28)، ولم يجبه عن الذات.

وفي وقوع دال **(إله)** في منطقة الخبر، والمبتدأ (مَنْ) الاستفهامية يرد قول (الله) عز وجل: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ **مَنْ إِلَهٌ** غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ (الأنعام: 46) ([1]).

والطرح الإعرابي يقول: (مَنْ) اسم استفهام للتوبيخ، وهو مبتدأ، و(إله) خبره، و(غيرُ اللهِ) صفة، وجملة (يأتيكم) صفة ثانية ([2]).

و(مَنْ) الاستفهامية تأخذ معنى النفي في هذا الموضع ([3])، أي ليس غير (الله) يأتيكم بشيء من هذا؛ إذ هو الخالق القادر. وهنا يقول ابن عطية: " والاستفهام في قوله (مَنْ إِلَهَ) معناه التوقيف؛ أي: ليس ثمة إله سواه، فما بال تعلقكم بالأصنام وتمسككم بها، وهي لا تدفع ضررًا، ولا تأتي خيرًا " ([4]).

([1]) وانظر كذلك: سورة (القصص: 71 ، 72) .

([2])انظر: العكبري ، التبيان في إعراب القرآن ، القسم الأول: 497 ، ويرى العكبري أن الاستفهام هنا للإنكار. ومحيي الدين الدرويش ، إعراب القرآن الكريم وبيانه ، المجلد الثاني: 369 ، وبهجت عبد الواحد صالح ، الإعراب المفصل ، المجلد الثالث: 222 ، غير أنه قدم أوجه أخرى لإعراب (غير) ، وجملة (يأتيكم) . وكذلك محمود سليمان ياقوت ، إعراب القرآن الكريم ، المجلد الثالث: 1393 . وانظر فيمن ذهب إلى ذلك من المفسرين: الرازي ، مفاتيح الغيب ، الجزء الثاني عشر: 239 . والقرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، الجزء الثامن: 382 . وأبي السعود: إرشاد العقل السليم ، الجزء الثالث: 134 . وابن عاشور ، التحرير والتنوير ، الجزء السابع: 234 .

ويذهب ابن يعيش إلى أن (مَنْ) الاستفهامية في موضع رفع بالابتداء ، وما بعدها الخبر . انظر: شرح المفصل ، الجز ءالثاني: 411 .

([3]) انظر: ابن هشام ، مغني اللبيب ، الجزء الأول: 346 ، وكذلك الإمام الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، الجزء الرابع: 411 .

([4])انظر: المحرر الوجيز: 622 . وانظر في معنى النفي كلًا من: الرازي ، مفاتيح الغيب ، الجزء الثاني عشر: 238 ، وأبي حيان الأندلسي ، البحر المحيط ، الجزء الرابع: 135 ، وابن عاشور ، التحرير والتنوير ، الجزء السابع: 234 .

وإذا كنا قد لحظنا دلالة النفي في الاستفهام، فإن دلالة التوبيخ التي ساقها محيي الدين الدرويش في إعراب (مَنْ) تأتي نتيجة لقول ابن عاشور في بنية الاستفهام: " (مَنْ إِلهٌ) معلِّق لفعل الرؤية لأنه استفهام، أي أعلمتم جواب هذا الاستفهام أم أنتم في شك. وهو استفهام مستعمل في التقرير يقصد منه إلجاء السامعين إلى النظر في جوابه، فيوقنوا أنه لا إله غير الله يأتيهم بذلك؛ لأنه الخالق للسمع والأبصار والعقول فإنهم لا ينكرون أن الأصنام لا تخلق " ([1]).

ومن شأن السامع عندما يجيب هو عن نفسه، ويدرك خطأه، كأنه يوبخ نفسه بنفسه؛ لأنه يدرك قلة فهمه، أو سفاهة عقله، وإن لم يعترف بذلك أمام الآخرين. وهذا مسلك قرآني ماثل في أكثر من موضع في القرآن الكريم.

ولنا أن نقرأ في ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ (القصص: 71) ([2]). وإذا كان الحق سبحانه وتعالى قد ترك الإجابة لهم، ففي بعض المواضع الأخرى يجري الجواب على ألسنتهم هم، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (العنكبوت: 61) ([3]). أما دلالة الإنكار التي ساقها العكبري في إعرابه، فقد تكفلت بها دلالة النفي؛ لأن نفي ما يعتقدونه هو إنكار له.

([1])انظر: التحرير والتنوير ، الجزء السابع: 234 .

([2]) وانظر كذلك: سورة (القصص: 72) ، وسورة (فاطر: 40) ، وسورة (فصلت: 52) ، وسورة (الأحقاف: 4) ، وسورة (الملك: 28 ، 30) .

([3]) وانظر كذلك: سورة (العنكبوت: 63) ، وسورة (لقمان: 25) ، وسورة (الزمر: 38) ، وسورة (الزخرف: 9 ، 87) .

4-دال (رب - إله) خبروالمبتدأ الضمير (أنا)

في هذا الضرب من الخطاب يرد قول (الله) سبحانه وتعالى:﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: 92)، وقول (الله) سبحانه وتعالى:﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ (المؤمنون: 52) *.

والواضح من تكوين بنية هذا الخطاب، أن الدراسة ستنصب على نقطتين: **الأولى** بلاغة الضمير (أنا) في هذا الموضع. **الأخرى**: علة ورود دال (رب)، دون اسم الجلالة (الله)، أو دال (إله).

أما النقطة **الأولى**، فقد كان للسياق الفاعلية الأولى في جعل الضمير (أنا) مسندًا إليه في بنية تركيب هذا الخطاب. وقد تمثل سياق الآية الكريمة في ضربين: عام وخاص.

يبدأ السياق العام للآية الكريمة بقوله سبحانه وتعالى:﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ﴾ (الأنبياء:48). ويستمر هذا السياق حتى الآية قبل موضع الشاهد في قوله تبارك تعالى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء:91).

والمتأمل في مضمون السياق، يدرك أنه تناول ذكر الأمم السابقة. حتى إذا جئنا إلى بنية الخطاب في الآية الكريمة – وهو السياق الخاص للآية الكريمة - ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾، ألفينا أن أطراف التواصل اللغوي فيه هي: مخاطِب ومخاطَب، ثم الرسالة، ثم السياق، ثم آلية التواصل، المتمثلة في اللغة.

أما المخاطِب فهو (رب العزة) سبحانه وتعالى، والمخاطَب هم الأمم السابقة أما الرسالة فتتمثل في إظهار وحدة الملة، والأمر بعبادة (الله)

---

* أجمعت كتب إعراب القرآن الكريم على أن (أنا) مبتدأ ، ودال(رب) خبر . وهذا الموضع من الوضوح بمكان من الناحية الإعرابية ؛ لذا ليس فيه أوجه خلافية . كما أنه جدير بالذكر أيضًا أن دال (رب) جاء في منطقة خبر الضمير (أنا) ، لكن لا يعود إلى (الله) سبحانه وتعالى ، وهو قوله عز وجل على لسان فرعون: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ (النازعات: 24) ؛ لذا لن ندرسه .

(الرب) العلي. كما يتمثل السياق في مشهد رباني يذكرنا بقول (الله) سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (الأعراف: 172، 173). وكأن الأمم السابقة قد مَثُلَتْ أمام خالقها جل في علاه، وأخبرها بهذا.

ولما كان المخاطِب (الله) سبحانه وتعالى في التركيب الأول (إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً)، وكان الهدف هو إبلاغهم بعبادته، كان من الطبيعي – وفق منطق اللغة – أن يتصدر الضمير (أنا) بنية الخطاب في التركيب الثاني المعطوف على الأول.

هذا الطرح هو الذى حدا بالطرح البلاغي إلى القول عن الضمير (أنا) بأنه يُطلق على المخبِر عن نفسه [1]. وأنه يرد في معرض الحكاية [2]، أي الحديث والإخبار عن النفس أي التكلم [3].

وفضلًا عن الدور الدلالي للضمير (أنا) الذي بَيَّنَتْه البلاغة، فإن هذا الضمير يشير إلى الوحدانية والتفرد؛ فكما أن ملتكم وشريعتكم واحدة وهو الإسلام لقوله عز وجل: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ (آل عمران: 19) الذي يعني التسليم، فأنا ربكم ربًا واحدًا كذلك، فلا تزيغوا ولا تتخبطوا في العبادة.

وتتمثل النقطة **الأخرى** في ورود دال (رب) وبلاغته في هذا الموضع. وبداية ينبغي أن ننظر ماذا طرح الجانب التفسيري. يقول الزمخشري:"و(أنا) إلهكم إله واحد" [4].

---

(1) انظر: الراغب الأصفهاني ، مفردات ألفاظ القرآن: 95 .

(2) انظر: السكاكي ، مفتاح العلوم: 179 .

(3) انظر: القزويني ، الإيضاح في علوم البلاغة ، المجلد الأول ، الجزء الثاني: 10 .

(4) انظر: الكشاف ، الجزء الثالث: 130 ، 131 . وإلى هذا ذهب البيضاوي . انظر: شيخ زاده ، الحاشية على تفسير البيضاوي، الجزء السادس: 70 ، وكذلك أبو السعود .انظر: إرشاد العقل السليم ، الجزء السادس: 84 .

ويقول ابن عاشور: " وأفاد قوله (وأنا ربكم) الحصر، أي أنا لا غيري بقرينة السياق والعطف على (أمة واحدة)، إذ المعنى: وأنا ربكم ربًا واحدًا، ولذلك فرَّع عليه الأمر بعبادته، أي فاعبدوني دون غيري. وهذا الأمر مراعي فيه ابتداءً حال السامعين من أمم الرسل، فالمراد من العبادة التوحيد بالعبادة والمحافظة عليها "([1]).

وإذا كان بعض المفسرين قد ذهبوا إلى تفسير دال (الرب) بالإله، وبعضهم تركه في إطار الربوبية، فقد جمع الألوسي بين الرأيين، معللًا اختيار دال (رب)، قائلًا: " (وأنا ربكم) أنا إلهكم إله واحد (فاعبدون) خاصة؛ وتفسير الرب بالإله؛ لأنه رتَّب عليه الأمر بالعبادة، والدلالة على الوحدة من وحدة الملة، وفي لفظ الرب إشعار بذلك، من حيث أن (الرب) وإن تُوهِم جواز تعدده في نفسه لا يمكن أن يكون لكل مربوب إلا رب واحد، لأنه مفيض الوجود وكمالاته معًا، وفي العدول إلى لفظ (الرب) ترجيح جانب الرحمة، وأنه تعالى يدعوهم إلى عبادته بلسان الترغيب والبسط "([2]).

وفضلا عما ساقه الألوسي من علة ورود دال (رب) في قوله: " وفي العدول...إلخ" فإن ثم عللًا أخرى يمكن أن تضاف إلى ما سبق في هذا السياق. **الأولى** أن الخطاب يشمل الأمم السابقة جميعها. ومن المسلم به أن من كفر من هذه الأمم كان قد تخبط في مفهوم الربوبية والألوهية؛ إذ اعترفوا بربوبية (الله) سبحانه، ونكفوا عن ذلك عند مسألة العبودية، ومن هنا كان الخطاب بالرب المضمن توحيد الألوهية.

الثانية: أن الحق سبحانه وتعالى أراد أن يذكرهم بنعم ربوبيته عليهم، ممثلة في إرسال الرسل لإخراجهم من الظلمات إلى النور...إلخ، وما أفاضه على بني إسرائيل خاصة من نعم حسية، فضلًا عن المعنوية.

الأخيرة: أن في مفهوم الألوهية المضمن في دال (رب)، إضافة إلى إشعاع الوحدة والتفرد من الضمير (أنا) ما يُعَرِّضُ بمن زعم من الأمم السابقة بمبدأ التثليث في

([1]) انظر: التحرير والتنوير ، الجزء السابع عشر: 141 .

([2]) انظر: روح المعاني ، الجزء السابع عشر: 90 .

العبادة. ومن ثم يمكن القول: إن بنية هذا الخطاب بما أسست عليه من جماليات لغوية – كما طرحنا - قد عالجت المفهومين معًا: الألوهية والربوبية.

5-دال (رب - إله) خبروالمبتدأ الضمير(هو)

في البنية التكوينية لهذا الضرب من الخطاب يتجلى دال (رب) في منطقة الخبر، الذي مبتدؤه الضمير (هو) في قول (الله) سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ **وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ** وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ (البقرة: 139) ([1]).

وبنية الخطاب (وهو ربنا) لم يختلف حولها النحاة في أن الضمير (هو) مبتدأ، ودال (ربنا) خبر، و(نا) مضاف إليه. لكن يكمن الاختلاف حول (الواو). فمنهم من قال: إنها حالية ([2])، ومنهم من قال: إنها استئنافية أو اعتراضية ([3]).

والمسند إليه / المبتدأ يكون ضميرًا غائبًا، إذا كان في ذهن السامع لكونه مذكورًا، أو في حكم المذكور، لقرائن الأحــوال، ويــراد الإشــارة إليه؛ أي إعادته في صورة الضمير (هو) ([4]).

وانطلاقًا من هذا الطرح البلاغي، فلما كان الضمير (هو) يعود إلى اسم الجلالة (الله) ولم يفصل بينهما إلا (الواو)، تم – وفق نواميس اللغة العربية - إضمار اسم

([1]) وانظر كذلك: سورة (الأنعام: 164) سورة (التوبة: 129) ، وسورة (هود: 34) ، وسورة (الرعد: 30) ، وسورة (المؤمنون: 116) ، وسورة (النمل: 26) ، وسورة (الزخرف: 64) .

([2]) انظر: محيي الدين الدرويش ، إعراب القرآن الكريم وبيانه ، المجلد الأول: 182 . ومحمود سليمان ياقوت ، إعراب القرآن الكريم ، المجلد الأول: 234 . ومحمد حسن عثمان ، إعراب القرآن وبيان معانيه ، المجلد الأول: 326 . ومن التفاسير: أبو السعود ، انظر: إرشاد العقل السليم ، الجزء الأول: 169 . وابن عاشور . انظر: التحرير والتنوير ، الجزء الأول: 746 .

([3]) انظر: بهجت عبد الواحد صالح ، الإعراب المفصل ، المجلد الأول: 176 . ولهذا الخلاف النحوي مكان آخر من الدراسة ؛ إذ هو من الاتساع بمكان .

([4]) انظر:السكاكي ، مفتاح العلوم: 180 . والقزويني ، الإيضاح في علوم البلاغة، المجلد الأول، الجزء الثاني: 10.

الجلالة (الله) في موضع الابتداء، وجيء بالضمير (هو)؛ إذ ما زال في ذهن المخاطَب / أهل الكتاب.

ثم إن الضمير (هو) يعني كذلك التفرد والوحدانية (لله) عز وجل، كأنه قيل: كيف تحاجوننا في (الله)، وهو هو وليس غيره - وليس كما عند بعضكم بإيمانكم بالتثليث- ربنا وربكم. ولما كان هذا الخطاب موجهًا لمن آمن منهم إيمانًا صحيحًا، ولغيرهم من فاسدي العقيدة، كان الأحرى بصحيحي العقيدة عندهم أن يفطنوا لهذا، ويلحقوا بركب الإيمان بالنبي ﷺ.

ومعنى هذا، أن بنية هذا الخطاب كانت – لو لم يكن الإضمار – على هذا النحو: (الله ربنا). فإن قيل: لِمَ بدأ باسم الجلالة وأخبر بدال (رب)؟ قلتُ: لأن اسم الجلالة (الله) هو مَنْ وقعت المحاجَّة - التي تعني المخاصمة والمجادلة - فيه / أي في دينه .

يعضد ذلك أن السياق العام للآية الكريمة بدأ بقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (البقرة: 135). ومن يتأمل مضمون هذا السياق يدرك أنه يتناول مجادلة أهل الكتاب للمؤمنين في عقيدتهم. ولما كان الحديث عن العقيدة، كان البدء بتوحيد الألوهية (الله) في منطقة المبتدأ أولى وأنسب.

ثم ثنَّى بالربوبية (ربنا) للفت الانتباه إلى أنه من تؤمنون به ربًا لكم، وهو ربنا كذلك، هو (الله) سبحانه وتعالى، فَفِيمَ الجدال؟. كما أن التثنية ب(الرب) في منطقة الخبر تعد تذكيرًا لهؤلاء بنعم الربوبية التي أفاضها عليهم الرب العلي ظاهرة وباطنة، كما ذكر القرآن في مواضع كثيرة. ولما أخبر بالربوبية، ذكر ما تختص به في:(وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ)؛ إذ الرب العلي هو مَنْ يجازي على الأعمال.

وبعد أن ذكر ابن عاشور أن الاستفهام في (أتحاجوننا) للتعجب والتوبيخ، قال في خطاب هذا التركيب: " فلذلك كان لقوله (وهو ربنا وربكم) موقع في تأييد الإنكار؛ أي بلغت بكم الوقاحة إلى أن تحاجونا في إبطال دعوة الإسلام بلا دليل سوى زعمكم

أن الله اختصكم بالفضيلة، مع أن الله ربنا كما هو ربكم، فلماذا لا يمن علينا بما من به عليكم " [1].

وفيما يخص دال **(إله)** في شغله لمنطقة الخبر، مع انشغال منطقة المبتدأ بضمير الغيبة (هو) قول مولانا عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ (الأنعام:19) [2].

وأطراف الخطاب في تلك البنية أربعة: مخاطِب وهو (الله) عز وجل، ومخاطَب وهو النبي ﷺ في (قل)، ومخاطِب وهو النبي ﷺ، ومخاطَب وهم المشكون في مضمون الأمر (إنما هو إله واحد).

فإذا ولجنا إلى بنية الخطاب في قوله (إنما هو إله واحد)، ألفيناه مؤسسًا - نحويًا - على (إن) و(ما) الكافة، والمبتدأ (هو)، والخبر (إله)، و(واحد) [3].

وتستهل بنية هذا الخطاب – بلاغيًا – بالأداة (إنما). وفي علاقة (إنما) بالمخاطَب يقول عبد القاهر: " اعلم أن موضوع (إنما) على أن تجيء لخبر لا يجهله المخاطَب ولا يدفع صحته، أو لما ينزل هذه المنزلة. تفسير ذلك أنك تقول للرجل: (إنما هو أخوك) و(إنما هو صاحبك القديم): لا تقول لمن يجهل ذلك

---

[1] انظر: التحرير والتنوير ، الجزء الأول: 746 . وفي الآية الكريمة كثير شرح وبيان وتفصيل ، يرجى الرجوع إلى كتب التفسير المتعددة للقرآن الكريم ؛ إذ تنصب دراستنا على بلاغة وقوع دال (رب) في منطقة الخبر ، مع انبناء منطقة المبتدأ على الضمير (هو) فحسب .

[2] وانظر كذلك: سورة (إبراهيم: 52) ، وسورة (النحل: 51) .

[3] انظر: محيي الدين الدرويش ، إعراب القرآن الكريم وبيانه ، المجلد الثاني: 342 . وكذلك: بهجت عبد الواحد صالح ، الإعراب المفصل ، المجلد الثالث: 193. غير أن الدرويش أعرب دال (واحد) صفة لدال (إله) ، في حين أعربها صالح توكيدًا . وانظر كذلك: محمود سليمان ياقوت ، إعراب القرآن الكريم ، المجلد الثالث: 1364 . وقد ذهب ياقوت مذهب الدرويش في إعراب دال (واحد) صفة ل(إله) .

ويدفع صحته، ولكن لمن يعلمه ويَقِرُّ به، إلا أنك تريد أن تنبهه للذي يجب عليه من حق الأخ وحرمة الصاحب " ([1]).

ومن هنا، فإن تصدر (إنما) لبنية هذا الخطاب وما يشابهه، تشير إلى لفت الانتباه والتذكير بعبادة (الله)، وإفراده بالوحدانية من قِبَلِ المخاطَب، ولا تدل على جهله بهذا. هذا الجهل المدفوع أحيانًا من الكِبْرِ أو اتِّبَاعِ الآباء....إلخ.

وفي تصدر (إنما) للتركيب الاسمي يقول عبد القاهر الجرجاني:" واعلم أن الأمر في المبتدأ والخبر، إن كان بعد (إنما) على العِبْرة التي ذكرت لك في الفاعل والمفعول، إذا أنت قدمتَ أحدهما على الآخر. معنى ذلك: أنك إن تركتَ الخبر في موضعه فلم تقدمه على المبتدأ، كان الاختصاص فيه، وإن قدمته على المبتدأ، صار الاختصاص الذي كان فيه في المبتدأ. تفسير هذا، أنك تقول: (إنما هذا لك)، فيكون الاختصاص في (لك) بدلالة أنك تقول: (إنما هذا لك لا لغيرك). وتقول: (إنما لك هذا) فيكون الاختصاص في (هذا)، بدلالة أنك تقول: (إنما لك هذا لا ذاك)، والاختصاص يكون أبدًا في الذي إذا جئت (بلا) العاطفة كان العطف عليه. وإن أردت أن يزداد ذلك عندك وضوحًا، فانظر إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ (الرعد:40)، وقوله جل وعلا: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ﴾ (التوبة: 93)، فإنك ترى الأمر ظاهرًا أن الاختصاص في الآية الأولى في المبتدأ الذي هو (البلاغ) و(الحساب)، دون الخبر الذي هو (عليك) و(علينا)، وأنه في الآية الثانية في الخبر الذي هو (على الذين) دون المبتدأ الذي هو (السبيل)"([2]).

ويفهم من كلام عبد القاهر أن الاختصاص يقع في الجزء الثاني من الجملة الاسمية سواء حوى هذا الجزء خبر الجملة، أو مبتدأها المؤخر. ومن ثم فقد

([1]) انظر: دلائل الإعجاز: 330 . وقد تكرر هذا المعنى عند الزركشي ، انظر: البرهان في علوم القرآن الجزء الرابع: 231 .

([2]) انظر: دلائل الإعجاز: 345 . وانظر كذلك: السكاكي ، مفتاح العلوم: 300 ، والخطيب القزويني الإيضاح في علوم البلاغة ، المجلد الأول ، الجزء الثالث: 26 .

قصرت الآية الكريمة مفهوم الألوهية على الخبر الموصوف (إله واحد)، أي أنما (هو) معبود واحد والمعبود الواحد إنما هو (الله) سبحانه وتعالى.

فإن قال قائل: دال (إله) الواقع في منطقة الخبر قد يعني (الله) أو غيره، فكيف نفهم هذا؟ قلتُ: نفهمه من سبيلين: الأول، الضمير (هو) القابع في منطقة المبتدأ العائد إلى (الله) سبحانه وتعالى في قوله: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى﴾. ولما كان اسم الجلالة (الله) ما زال في ذهن المتلقي، قريبًا من موقع المبتدأ أُضْمِرَ ولم يُظْهَر؛ لذا كان الضمير (هو).

السبيل **الآخر**: أن وصف دال(إله) بالواحد دل على أنه (الله) سبحانه وتعالى؛ إذ ليس في شريعة القوم مفهوم الوحدانية فيما يعبدونه من آلهة. وكأن هذا الخطاب على هذا النحو (إنما الله إله واحد).

فإن قيل: إذا كان ذلك كذلك، فلماذا أظهر المبتدأ في قوله: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ (النساء: 171)، ولم يظهره هنا، رغم أن الخطابين يتوسطان آياتهما، بمعنى أنهما لم يبدآ خطابًا جديدًا في آية مستقلة؟

قلتُ – والله بمراده عليم -: إن آية سورة النساء قد وردت في سياق استنكار القرآن الكريم لبشاعة ما تذهب إليه النصارى في عملية التثليث ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ﴾، وكذلك ادعائهم بأن (لله) سبحانه وتعالى ولدًا ﴿سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾، فكان إعادة ذكر اسم الجلالة (الله) هنا أوجب، رغم وروده في قوله ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ قبل هذا الموضع، بل وقربه منه. وكل هذا بهدف التأكيد على مبدأ الوحدانية والتفرد، والتنزيه، والتقديس.

أما الخطاب في موضع سورة الأنعام، فهو موجه للمشركين من كفار مكة. ولما كان المشركون يعبدون (الله)، ويشركون معه غيره في العبادة ، المفهوم من قوله: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى﴾، ولم تكن لديهم عقيدة راسخة في هذا الشرك، إنما هو إرث من آبائهم ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ * وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى

أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴾ (الزخرف: 22، 23)، وكذلك لم تكن لديهم كتب يحرفونها، وهو ما يدفعهم إلى إخلاص العبادة (لله) وإفراده بالواحدانية–إذا آمنوا به–دون التثليث، أو ادعاء الولد، أو غير ذلك من الأباطيل، وفساد العقيدة، كان الإضمار هنا أبلغ *.

6-دال (رب – إله) خبروالمبتدأ (الضميرهو) محذوف

وردت البنية التكوينية لهذا الضرب من الخطاب في كثير من آيات الذكر الحكيم. يقول(الله) تبارك وتعالى: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ (مريم: 65) ([1]).

ودال (رب) الذي صُدِّرت به الآية الكريمة خبر لمبتدأ محذوف تقديره (هو)، أو بدل من دال (ربك) في الآية السابقة في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ (مريم: 64) ([2]).

وفي حذف المبتدأ يقول سيبويه: " هذا باب يكون المبتدأ فيه مضمرًا، ويكون المبني عليه مظهرًا، وذلك أنك رأيت صورة شخص فصار آية لك على معرفة الشخص

---

* اللهم إني أسالك مغفرتك وعفوك وصفحك عني ، إن أخطأت في تأويل كتابك الكريم . يا أرحم الراحمين ، يا (الله). كما أنني أتوسل إلى القارئ الكريم لهذا السفر، أن يسامحني إن تبين له غير ما أقول، وأن يدعو لي بالرحمة.

([1]) وانظر: وسورة (الصافات: 5) ، وسورة (الدخان: 8) ، وسورة (الرحمن: 17)، وسورة (المزمل: 9)، و(النبأ: 37) .

([2]) انظر: محيي الدين الدرويش ، المجلد الرابع: 626 . وكذلك: بهجت عبد الواحد صالح ، الإعراب المفصل ، المجلد السابع: 51 . وانظر كذلك: محمود سليمان ياقوت ، إعراب القرآن الكريم ، المجلد السادس: 2826 . وفي هذين الوجهين من الإعراب انظر في تفاسير القرآن الكريم ، الزمخشري ، الكشاف: الجزء الثالث:28 . لكن لم يقل ابن عاشور بوجه (البدل) . انظر: التحرير والتنوير ، الجزء السادس عشر: 142 .

فقلتَ: عبد الله وربي، كأنك قلتَ: ذاك عبد الله، أو هذا عبد الله. أو سمعت صوتًا فعرفت صاحب الصوت، فصار آية لك على معرفته فقلتَ: زيد وربي..."([1]).

كما يقول ابن يعيش:" اعلم أن المبتدأ والخبر جملة مفيدة، تحصل الفائدة بمجموعهما، فالمبتدأ متعمد الفائدة، والخبر محل الفائدة، فلابد منهما، إلا أنه قد توجد قرينة لفظية، أو حالية تُغْنِي عن النطق بأحدهما، فيحذف لدلالتها عليه؛ لأن الألفاظ إنما جيء بها للدلالة على المعنى، فإذا فُهِمَ المعنى بدون اللفظ، جاز ألا تأتي به، ويكون مرادًا حكمًا وتقديرًا " ([2]).

وإذا كان هذا هو الطرح النحوي لحذف المبتدأ، ففي الطرح البلاغي يقول المبرد:" واستُعمل هذا–أي الحذف–فكثُر حتى حُذِفَ استخفافًا لعلم السامع بما يريد القائل كقولك: الهلالُ واللهِ، أي هذا الهلال، وأَغْنَى عن قوله هذا القصدُ والإشارةُ "([3]).

ويقول علامة العربية الشيخ عبد القاهر الجرجاني: " ومن المواضع التي يطَّرد فيها حذف المبتدأ (القطع والاستئناف)، يبدأون بذكر الرجل، ويقدمون بعض أمره، ثم يَدَعُون الكلامَ الأول، ويسأنفون كلامًا آخر. وإذا فعلوا ذلك، أتوا في أكثر الأمر بخبر من غير مبتدأ "([4]).

وفي الحالات التي تقتضي حذف المسند إليه / المبتدأ يقول السكاكي: " أما الحالة التي تقتضي طي ذكر المسند إليه فهي: إذا كان السامع مستحضرًا له، عارفًا منك القصد إليه عند ذكر المسند. والترك راجع إما لضيق المقام، وإما للاحتراز عن العبث

([1]) انظر: الكتاب ، الجزء الثاني: 130 .

([2]) انظر: شرح المفصل للزمخشري ، الجزء الأول: 239 . وانظر كذلك: ابن عقيل ، شرح ابن عقيل المجلد الأول ، الجزء الأول: 244 – 246 .

([3]) انظر: الكامل في اللغة والأدب ، مؤسسة المعارف ، بيروت – لبنان ، بدون تاريخ ، الجزء الأول: 294 .

([4]) انظر: دلائل الإعجاز: 147 .

بناء على الظاهر، وإما التخييل أن في تركه تعويلًا على شهادة العقل، وفي ذكره تعويلًا على شهادة اللفظ من حيث الظاهر، وكم بين الشهادتين، وإما لإيهام أن في تركه تطهيرًا للسان عنه، أو تطهيرًا له عن لسانك، وإما للقصد إلى عدم التصريح ليكون لك سبيل إلى الإنكار إن مست إليه الحاجة، وإما لأن الخبر لا يصلح إلا له حقيقة أو ادعاء، وإما لأن الاستعمال وارد على تركه أو ترك نظائره، وإما لأغراض سوى ما ذُكِرَ، مناسبة في باب الاعتبار بحسب المقامات لا يهتدي إلى أمثالها إلا العقل السليم، والطبع المستقيم، وقلما ملك الحكم هناك شيء غيرهما " ([1]).

وبعد هذين الطرحين: النحوي والبلاغي نعود إلى بنية الخطاب ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾. وقبل أن نفتش عن العلل البلاغية الكامنة خلف هذا الحذف، ينبغي علينا أولًا تحديد المخاطِب والمتلقي؛ إذ المتلقي هو المعني بالخطاب، ومن ثم تتعلق به بنية الحذف.

ولما كانت هذه الآية الكريمة تتعلق بسابقتها، فإن البحث عن المخاطِب في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ (مريم: 64) يهدينا إلى أن المخاطِب هو سيدنا جبريل عليه السلام، وذلك لما تأخر سيدنا جبريل في النزول على سيدنا النبي ﷺ واشتاق له النبي وحزن لما قد يتقوله الكفار، خاطبه سيدنا جبريل بهذه الآية الكريمة ([2]). ومن الطبيعي أن يكون المخاطَب / المتلقي هو سيدنا النبي ﷺ.

وإذا كان ذلك كذلك، فإن مبررات حذف المبتدأ الضمير (هو) وعدم الحاجة إلى تكراره تكمن – حسب الطرحين: النحوي والبلاغي - في علم المتلقي بصفات الخبر (رب) الواردة في منطقة الإضافة والعطف (السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا)، وبغيرها.

([1]) انظر: مفتاح العلوم: 176. وانظر كذلك: الخطيب القزويني ، الإيضاح في علوم البلاغة ، المجلد الأول ، الجزء الثاني: 4 ، 5 .

([2]) انظر: الإمام الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، المجلد الخامس: 168 ، 169 . وانظر كذلك: النيسابوري ، أسباب النزول: 308 ، 309 .

ولِمَ لا وقد خاطبه الحق سبحانه وتعالى على لسان سيدنا جبريل بقوله(ربك)، بضمير الخطاب؛ تشريفًا وتعظيمًا له، وتنويهًا بعلو قدره، وعظمة مكانته عنده سبحانه وتعالى.

وهو ما يتوافق كذلك مع ما طرحه علامة العربية الشيخ عبد القاهر في مسألة الاستئناف؛ إذ بعدما قَدَّمَ سيدنا جبريل مبررات التأخر في النزول على النبي ﷺ في الآية الأولى، ترك الحديث عن هذا، مستأنفًا ببيان صفات الربوبية من خلال منطقة الإضافة والمعطوف. ولما كان الحديث عن واحد (الرب العلي) في الآيتين، ورد الاستئناف بدون ذكر المبتدأ (هو)، درءًا للعبث عن التزيد غير اللازم في الكلام.

كما يتوافق هذا مع ما طرحه السكاكي في قوله:(وإما لأن الاستعمال وارد على تركه)؛ لأنك إذا رجعت بعض آيات القرآن الكريم تجد هذا الملمح اللغوي البديع ([1]).

وفي براعة هذا الفن، ولطفه، وحسن موقعه لدى المتلقي يقول الشيخ عبد القاهر معلقًا على ما ساقه من شعر في حذف المبتدأ: " فتأمل الآن هذه الأبيات كلها، واسْتَقْرِهَا واحدًا واحدًا، وانظر إلى موقعها في نفسك، وإلى ما تجده من اللطف والظرف إذا أنت مررت بموضع الحذف منها، ثم فَلَيْتَ النفس عما تَجِد، وألطفت النظر فيما تُحِسُّ به. ثم تَكَلَّفْ أن ترُدَّ ما حذف الشاعر، وأن تخرجه إلى لفظك، وتوقعه في سمعك، فإنك تعلم أن الذي قلتُ كما قلتُ، وأن رُبَّ حذفٍ هو قِلَادةُ الجِيد، وقاعدةُ التجويد "([2]).

وإذا أردنا أن نذكر ضمير المبتدأ – مجازًا، كما نوه عبد القاهر – في الآية الكريمة ونقول: (هو رب السموات والأرض وما بينهما) لبدا لنا الاستثقال، ولدخلنا في منطقة التزيد في الكلام، الذي يعني العبث. رحم (الله) علماؤنا الأفاضل رحمة واسعة، وجزاهم عنا خير الجزاء.

([1]) انظر: سورة (الصافات: 5) ، وسورة (الدخان: 7) ، وسورة (النبأ: 37) .

([2]) انظر: دلائل الإعجاز: 151 . وفَلَيْتَ: أي فَتَّشْتَ . لله در هذا الشيخ .

أما الإتيان بدال (رب) دون اسم الجلالة (الله)، أو دال (إله)؛ فلأن السياق بنوعيه: اللغوي والدلالي يستوجبه. فإذا نظرنا مثلًا في السياق اللغوي، ألفينا أن دال (رب) ورد في الآية السابقة في موضعين، مضافًا إلى سيدنا النبي ﷺ (ربك)، فكان ذكره في بداية الآية بالاستئناف وفق منطق اللغة.

أما السياق الدلالي، فإن اصطفاء (الله) جل في علاه للنبي ﷺ واختصاصه بوحيه لهو من رحمة المولى بالناس جميعًا، وحبه لخلقه، ثم إن خلقه للسموات والأرض، وما بينهما لهي من سمات الربوبية.

وهذا الموضع من المواضع التي تجمع بين سمات الربوبية وتوحيد الألوهية، يتضح لنا ذلك من خلال قوله:﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾، كأنه قيل: إن ربك الذي خصك بالرسالة، ولم يَنْسَك، رب السموات والأرض وما بينهما هو الأحق بالعبادة، لا غيره.

وهذا تعريض بالمشركين الذين يشركون مع (الله) آلة أخرى، أي أنه خطاب موجه إلى الناس في شخص النبي ﷺ، ولم يخصه هو؛ فهو من هو. ولك أن تتأمل هذا المسلك اللغوي البلاغي في القرآن الكريم من قيبل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا * وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ (الأحزاب: 1 -3). فكل تلك الأوامر والنواهي إنما هي للناس.

ولتأخذ نموذجًا آخر، وليكن قول (الله) تبارك وتعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ * قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ * قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ* قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (الشعراء: 23- 28).

من الملحوظ أن الآيات موضع الشاهد، جاء فيها الموضع الأول إجابة عن سؤال: وما رب العالمين، وجا ءالموضع الثاني إغاظة لفرعون وتحديًا له، أما الموضع الأخير، فقد ورد لزيادة إغاظة فرعون.

ودال (رب) في المواضع الثلاثة خبر لمبتدأ محذوف تقديره الضمير (هو) [1]. وهنا نكتتان: **الأولى** تتمثل في التعبير بدال (رب) بدلًا من اسم الجلالة (الله) أو دال (إله)، و**الأخيرة** تتمثل في مبررات حذف المبتدأ (هو) العائد إلى دال (رب).

أما النكتة **الأولى**، فلأن معنى الربوبية كان هو المعنى السائد والمسيطر في قصة سيدنا موسى عليه السلام مع فرعون لم يذكر اسم الجلالة (الله) أو دال (إله)، وإنما ذكر دال (رب).

أما النكتة **الأخيرة**، فإننا إذا جئنا إلى مبررات الحذف وجدنا أن حذف المبتدأ يكون جائزًا إذا وقع جوابًا لسؤال؛ فتجيب مثلًا على من يسألك عن زيد: كيف زيد؟ قائلًا: صحيح، أي هو صحيح [2]. هذا من الجانب النحوي التقعيدي. أما الجانب البلاغي، فإنه من مبررات حذف المبتدأ، أن الخبر لا يصلح إلا له حقيقة [3].

واتساقًا مع الجانبين: النحوي والبلاغي، تم حذف الضمير (هو) في منطقة المبتدأ. فإن قيل: إذا كان النحو التقعيدي يجيز الحذف، معنى ذلك أنه يجيز الذكر، ومن ثم يمكن ذكر المبتدأ (هو) ويكون التركيب: (هو رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ). قلتُ: صحيح، لكن بالعودة إلى السياق ندرك على الفور أن الحذف أبلغ من الذكر لعلل عدة: **الأولى** أن تركيز الدلالة في هذا الخطاب، والهدف من الحوار هو الحديث عن المعبود الذي يدعو إليه سيدنا موسى عليه السلام، ومن ثم فإن التكثيف الدلالي يتسلط على منطقة الخبر، لا المبتدأ، بداية من السؤال نفسه: وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ؟. فكان من الطبيعي أن تتسلط الدلالة وتتوجه مباشرة في الجواب على منطقة الخبر (رب).

---

[1] انظر: محيي الدين الدرويش ، إعراب القرآن الكريم وبيانه ، المجلد الخامس: 397 ، 298 . وبهجت عبد الواحد صالح ، الإعراب المفصل ، المجلد الثامن: 176 ، 177، 178 . والدكتور محمود سليمان ياقوت ، إعراب القرآن الكريم ، المجلد السابع: 3310 ، 3311 ، 3312 .

[2] انظر: ابن عقيل ، شرح ابن عقيل ، المجلد الأول ، الجزء الأول: 246 .

[3] انظر: السكاكي ، مفتاح العلوم: 176 . وانظر كذلك الخطيب القزويني ، الإيضاح في علوم البلاغة ، المجلد الأول ، الجزء الثاني: 5 .

العلة الثانية: أن الإجابة عن السائل من حيث انتهى إليه من دوال، أَدْعَى إلى اهتمام هذا السائل بحذف ما يمكن أن يشغل ذهنه، أو يصرفه، أو يقلل انتباهه من التعرف على ما يَسأل عنه.

وهذه العلة قد تكون قريبة المعنى مما قاله عبد القاهر الجرجاني في قول عبد الله ابن الزبير:

تَثَاءَبَ حَتَّى قُلْتُ: دَاسِعُ نَفْسِهِ وَأَخْرَجَ أَنْيَابًا لَهُ كَالمَعَاوِلِ

حيث قال عبد القاهر:"الأصل: حتى قلتُ: "هو داسع نفسه"، أي حسبته من شدة التثاؤب، ومما به من الجُهْد، يقذف نفسه من جوفه، ويخرجها من صدره، كما يدسع البعير جِرَّته. ثم إنك ترى نِصْبَةَ الكلام وهيئتَه تروم منك أن تنسى هذا المبتدأ، وتباعده عن وهمك، وتجتهد أن لا يدور في خَلَدِكَ، ولا يَعْرض لخاطرك، وتراك كأنك تتوقَّاهُ توَقِّي الشيءِ تكرهُ مكانَهُ، والثقيلِ تَخْشى هجومَه "([1]).

ولما كان المخاطَب بهذا الجواب هو فرعون، فكأن هذا الخطاب يقول له: انتبه، لا تشغل بالك بغير ما تسأل عنه (رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)، دون ذكر (هو).

ومن جهة المخاطِب، فإن عملية الحذف تتعلق بعلمه بما يريد أن يصل إليه المخاطَب من معان؛ لذا يطلعه على ما يريد بأقصر السبل، بلاغة وفصاحة منه.

العلة الثالثة: أن حذف المبتدأ وذكر الخبر مباشرة تدل على ثقة المسؤول في صحة إجابته، بل واقتناعه بما يطرح من جواب. يفهم ذلك من تبادر ذكر الخبر مباشرة على ذهنه، وعدم انشغاله بالمبتدأ.

العلة الرابعة: هي ما ذكرها السكاكي أن الخبر لا يصلح إلا له حقيقة. فإن قيل: الخبر في هذا التركيب هو دال (رب) والمبتدأ المحذوف (هو)، أي أن التركيب الأصلي (هو رب) مما لا يفيد شيئًا. قلتُ: الإفادة تقع في معاني الإضافة في المواضع الثلاث: رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ، رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا. إذ فرعون يعلم دلالة (رب)، لكن ما يريد الإخبار عنه هو سمات هذا الرب وصفاته وقدرته، أي مبررات وجوب عبادته سبحانه وتعالى.

---

[1] انظر: دلائل الإعجاز: 151 .

أما **العلة الأخيرة**، فهي التي يمكن أن تلمح من تفسير القزويني لذوق البليغ في عملية حذف المبتدأ بقوله:" ومنه – أي من ذوق البليغ – ضيق المقام عن إطالة الكلام بسبب ضجر، أو سآمة، أو فوات فرصة، أو محافظة على وزن، أو سجع، أو قافية، أو ما أشبه ذلك " ([1]).

والذي يمكن أن يؤخذ من ضيق المقام عن إطالة الكلام يتمثل في الضجر والسآمة وفوات الفرصة. فإن قيل: كيف؟ قلتُ: لما كان الكلام مع فرعون يبعث على الضجر والسآمة / الملل؛ لجهله وغطرسته وشدة كفره، كان الاقتضاب فيه أبلغ [*]؛ لذا حُذف المبتدأ (هو)، وتم التركيز على الخبر (رب)، الذي يعني المخاطَب مباشرة.

ومن ناحية أخرى، كان نبي الله سيدنا موسى عليه السلام حريصًا على هداية قومه؛ ومن ثم لا يريد أن تفوت منه فرصة نصيحتهم ممثلة في كبيرهم/ الفرعون، فكان الاهتمام بذكر الخبر (رب) دون المبتدأ (هو)، الذي هو معروف من سياق الكلام [*].

---

[1] انظر: الإيضاح في علوم البلاغة ، المجلد الأول ، الجزء الأول: 5 . وهذا ما يخص المخاطِب كما ذكرنا .

[*] علينا أن نقارن ذلك بضده ، وهو الإطالة في الكلام / الإطناب ؛ للتلذذ بالحديث مع المخاطَب ، وذلك من خلال حديث سيدنا موسى نفسه مع رب العزة سبحانه وتعالى في قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾ (طه: 17 ، 18) ؛ إذ ذَكَرَ المبتدأ (هي)، ولم يقل: عصاي ، ثم ساق الحال (أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا) ، ثم عطف (وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي) . ولما أدرك أن المقام مقام إجلال ، اقتضب فقال (وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى) . انظر في بلاغة هذا الموضع ، محيي الدين الدرويش ، إعراب القرآن الكريم وبيانه ، المجلد الرابع: 668 – 670 .

[*] ذكر السكاكي أن هناك أغراضًا أخرى في حذف المبتدأ غير ما ذُكر ، فقال: " وإما لأغراض سوى ما ذُكِرَ ، مناسبة في باب الاعتبار بحسب المقامات ، لا يهتدي إلى أمثالها إلا العقل السليم ، والطبع المستقيم ، وقلما ملك الحكم هناك شيء غيرهما . ثم أورد أبياتًا شعرية وآيات قرآنية تدل على هذا الذوق السليم " . انظر: مفتاح العلوم: 176 ، 177. ومن قبله أرجع عبد القاهر حلاوة الإحساس بالحذف إلى النفس والذوق . انظر: دلائل الإعجاز: 151 ، 153 . وهذا ما يجعلنا

وفي مجيء دال **(إله)** في تلك البنية التكوينية لهذا الضرب من الخطاب يرد قول (الله) سبحانه وتعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ **إِلَهٌ** وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ (الزخرف: 84).

والطرح النحوي يعرب دال (إله) في قوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ **إِلَهٌ**) خبرًا لمبتدأ محذوف تقديره (هو) ([1]). ويعرب (إله) الثانية (وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ) خبرًا لمبتدأ محذوف تقديره (هو) مثل سابقه ([2]).

وتحليلنا لبنية هذا الخطاب يندرج تحت ملامح أربعة: ثلاثة منها أسلوبية، وواحد دلالي. ويتمثل الملمح الأسلوبي **الأول** في حذف المبتدأ (هو). ويرد الملمح **الثاني** في عدم جواز أن يكون دال (إله) مبتدأ مؤخرًا والجار والمجرور (في السماء) خبرًا مقدمًا. أما **الأخير** فيتعلق بما أُثيرَ حول تنكير دال (إله) في الموضعين؛ إذ تكرار النكرة يعني

نتأمل الآيات القرآنية ، ونعرضها على قلوبنا وأنفسنا ، ونملأ بها عروقنا ، حتى تجري منها مجرى الدم ، ثم بعد أن تختمر بها مشاعرنا وتمتزج بها إحساساتنا نعرضها على عقولنا ، ثم نتأول فيها بما أفاضه المولى علينا من علمه وهديه ، بعيدًا عن قوانين النحو التقعيدي ، وعلل البلاغة . وأرجو (الله) سبحانه وتعالى أن يغفر لي إن أخطأت في عملية التأويل القائمة على الذوق . علمنا (الله)وإياكم، وغفر لنا.

([1]) انظر: محيي الدين الدرويش ، إعراب القرآن الكريم وبيانه ، المجلد السابع: 109 .وكذلك: بهجت عبد الواحد صالح ، الإعراب المفصل ، المجلد العاشر: 485 . وكذلك محمودسليمان ياقوت ، إعراب القرآن الكريم ، المجلد التاسع: 4284 . وانظر في التفاسير ، الزمخشري ، الكشاف ، الجزء الرابع: 260 . والبيضاوي ، محيي الدين شيخ زاده ، الحاشية على تفسير البيضاوي ، الجزء السابع: 490 والرازي ، مفاتيح الغيب ، الجزء السابع والعشرين: 233 ، والقرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، الجزء التاسع عشر: 92 ، وأبي حيان الأندلسي ، البحر المحيط ، الجزء الثامن: 29 ، وأبي السعود إرشاد العقل السليم ، الجزء الثامن: 57 ، وابن عاشور ، التحرير والتنوير ، المجلد الخامس والعشرين: 267 .

([2]) الذي قال بهذا الرأي هو الدكتور محمودسليمان ياقوت . انظر: إعراب القرآن الكريم ، المجلد التاسع: 4284 . واكتفي الدرويش وصالح بعطف جملة (وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ) على جملة الصلة (وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ **إِلَهٌ**) ، والراجح أنهما يذهبان هذا المذهب ، وهو من الوضوح بمكان .

التغاير مما قد يُتَوَهَّمُ وجود إله في السماء وإله في الأرض. ثم يأتي الملمح **الدلالي** متمثلًا في علة الإتيان بدال (إله).

وفيما يخص الملمح الأسلوبي **الأول**، فإن علة حذف المبتدأ الضمير (هو) تكمن في العناصر الآتية: **الأول** تصدره لصدر الآية الكريمة (وهو الذي). ولما وَفَرَّ هذا القرب المكاني بين المبتدأَيْنِ للسامع / المتلقي / المخاطَب علمًا بعود الضمير (هو) المتصدر للآية الكريمة إلى دال (رب) في قوله سبحانه وتعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (الزخرف: 82)، مما جعل معاد المبتدأ مُسْتَحْضَرًا في ذهنه تم حذفه.

العنصر **الثاني**: ضيق المقام الذي طرحه السكاكي في حيثيات حذف الخبر؛ إذ لو ذُكِرَ المبتدأ (هو) بعد تصدره للآية الكريمة لدخلنا إلى منطقة التزيد اللغوي، الذي لا طائل منه، وهو ما أُطْلِقَ عليه (العبث) في طرح السكاكي. وبخاصة طول الصلة بمتعلق الخبر (في السماء)، والعطف عليه (وفي الأرض إله) ([1]).

أما العنصر **الأخير**، فيتمثل في معرفة المتلقي بقصد المخاطِب عند حذف المسند إليه / المبتدأ وذكر المسند / الخبر. هذه المعرفة المجلوبة من سياق قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (الزخرف: 82)، إضافة إلى أن الخبر / إله – الذي يعني المعبود – لا يصلح إلا للمبتدأ المحذوف (هو) - بمعاده على دال (رب) – حقيقة [*].

---

[1] انظر: الزمخشري ، الكشاف ، الجزء الرابع: 260 ، ومحيي الدين شيخ زاده ، الحاشية على تفسير البيضاوي، الجزء السابع:490، 491 ، والقرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، الجزء التاسع عشر: 92 وأبي حيان الأندلسي ، البحر المحيط ، الجـزء الثامن: 29 ، وشيخ الإسلام أبي السعود ، إرشاد العقل السليم ، الجـزء الثامـن: 57، وابن عاشـور ، التحرير والتنوير ، المجلد الخامس والعشرين: 267 .

[*] أعتقد أن تلك العناصر توافقت مع الطرح البلاغي السابق .

ويرد الملمح الأسلوبي **الثاني** في عدم جواز أن يكون دال (إله) مبتدأ مؤخرًا والجار والمجرور (في السماء) خبرًا مقـدمًا؛ لأن هذا الموضع ليس من المواضع التي يسوغ فيها الابتداء بالنكرة (إله) وجعل شبه الجملة (الجار والمجرور) خبرًا له ([1]).

---

[1] يجب تقديم الخبر شبه الجملة (الظرف أو الجار والمجرور) على المبتدأ النكرة في الحالات الآتية: **الأولى** أن تكون النكرة نكرة محضة . والنكرة المحضة:هي التي يكون معناها شائعًا بين أفراد مدلولها، مع انطباقه على كل فرد ، مثل كلمة (رجل)، فإنها تصدق على كل فرد من أفراد الرجال، لعدم وجود قيد يجعلها مقصورة على بعضهم، دون غيره . انظر: عباس حسن ، النحو الوافي ، الجزء الأول: 213 ، هامش (3) . ودال (إله) ليس نكرة محضة ؛ إذ يختلف مدلوله حسب الناطق له والمعتقِد به .

الثانية: أن يشتمل المبتدأ على ضمير يعود على بعض الخبر ، نحو (في الدار صاحبها) ، فصاحبها مبتدأ ، والضمير المتصل به راجع إلى الدار ، وهو جزء من الخبر ، فلا يجوز تأخير الخبر فنقول: (صاحبها في الدار) ؛ لئلا يعود الضمير على متأخر لفظًا ورتبة . ودال (إله) لا يوجد به ضمير يعود على بعض الخبر ، كأن يكون (إلهها) .

الثالثة: أن يكون الخبر له حق الصدارة كأسماء الاستفهام مثلًا ، نحو: أين زيد؟ وشبه الجملة (في السماء) في بنية هذا الخطاب ليس من هذا الضرب .

الأخيرة: أن يكون المبتدأ محصورًا ب(إنما) ، نحو: إنما في الدار زيد ، أو ب(ما وإلا) ، نحو: ما في الدار إلا زيد . ودال (إله) ليس محصورًا في بنية هذا التركيب .انظر: ابن عقيل ، شرح ابن عقيل ، المجلد الأول ، الجزء الأول: 240 - 243. وعباس حسن ، النحو الوافي ، الجزء الأول: 501 ، 502 .

وقد أورد الزمخشري في المفصل حالة أخرى ، لم أجدها في مصادر النحو ، فحواها أنه يجب تقديم الخبر شبه الجملة على المبتدأ النكرة إذا اشتمل شبه الجملة على ضمير هو المتحدث عنه في المعنى حتى وإن كانت النكرة هي المحدَّث عنها في اللفظ . وفي ذلك يقول:" وأما قولهم (تحت رأسي سرجٌ) ، و(على أبيه دِرْعٌ) و(لك مالٌ) ، فالذي سوغ ذلك كونك صدَّرت في الخبر معرفة هي المحدَّث عنها في المعنى ؛ ألا ترى أن (السرج) من قولك (تحت رأسي سرج) ، وإن كان المحدَّث عنه في اللفظ ، فالرأس مضاف إليه ضمير المتكلم ، وهو (الياء) من رأسي . وهذا الضمير هو المحدَّث عنه في المعنى ، كأنك قلت: (أنا متوسدٌ سرجًا) . وكذلك (على أبيه دِرْعٌ) . كأنك قلت: (أبوه متدرعٌ) ، وكذلك (لك مالٌ) ، المعنى: (أنت ذو مال) . فلما كان المعنى مفيدًا ، جاز ، وإن كان اللفظ على خلافه . والذي

ولمَّا لمْ يكن هذا ولا ذاك، مُنِعَ جعل (إله) مبتدأ مؤخرًا، والجار والمجرور خبرًا مقدمًا ([1]).

أما الملمح **الأخير** المتعلق بما أُثيرَ حول تنكير دال (إله) في الموضعين؛ وتكرارها بما قد يُوهم بعكس المراد، فهو مبني على قوله سبحانه وتعالى:﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (الشرح: 5، 6)، وما قيل فيه من حديث: لن يغلب عسر يسرين([2]).

وعلى مقتضى الظاهر – وفق هذه القاعدة – قد يتوهم أن هناك إلهين: إله في السماء، وإله في الأرض. وهذا من الخطأ بمكان لا يخفى على أحد. وللمفسرين آراء عديدة في ذلك.

منهم من قال بأن الآية الكريمة قرئت: (وهو الذي في السماء الله وفي الأرض الله)؛ ليخرج من عملية التنكير إلى التعريف الذي يعني وحدة دلالة اللفظ ([3]).

ومنهم من قال بخروج (إله) من التنكير إلى التعريف لدخولها في صلة الموصول (الذي) الذي هو معرفة. و هنا يقول الشيخ الشعراوي:" وهذه الآية لها معنا قصة مع الناس الدراويش في المسجد الأحمدي بطنطا، ففي يوم من الأيام جاءنا الشيخ

يؤيد عندك ما قلناه ، أنك لوقلتَ: (تحت رأسٍ سرجٌ) ، و(على رجلٍ درعٌ) ، و(لرجلٍ مالٌ) لم يكن كلامًا . انظر: ابن يعيش ، شرح المفصل للزمخشري ، الجزء الأول: 226 .

[1] انظر: محيي الدين شيخ زاده ، الحاشية على تفسير البيضاوي ، الجزء السابع: 491 ، وأبي السعود ، إرشاد العقل السليم ، الجزء الثامن: 57 .

[2] انظر: الفراء ، معاني القرآن ، الجزء الثالث: 275 ، والطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، طبعة دار هجر ، الجزء الرابع والعشرين: 495 – 497 ، والزمخشري: الكشاف، الجزء الرابع: 760 . وهذا المسألة اللغوية من الشهرة بمكان ؛ لذا لن نخوض فيها كثيرًا .

[3] انظر: النحاس ، إعراب القرآن: 954 ، والزمخشري ، الكشاف ، الجزء الرابع: 260 ، وابن عطية ، المحرر الوجيز: 1688 ، 1689، ومحيي الدين شيخ زاده ، الحاشية على تفسير البيضاوي ، الجزء السابع: 490 ، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن، الجزء التاسع عشر: 92 ، وأبي حيان الأندلسي ، البحر المحيط ، الجزء الثامن: 29 ، وأبي السعود ، إرشاد العقل السليم ، الجزء الثامن: 57 .

محمود شلتوت – وكان شيخًا للأزهر – ليزور مدينة طنطا، وجاء المسجد الأحمدي ليصلي، وبعد الصلاة سأله الشيخ أبو العينين – وكان أستاذًا للتفسير – وقال له: الحمد لله يا مولانا أنني وجدتك هنا لأنني في درس التفسير أمس وقفت أمام الآية: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ (الزخرف: 84). والقاعدة أن النكرة إذا كُرِّرت كانت الثانية غير الأولى؟.

وبمجرد أن بدأ الشيخ شلتوت في الجواب وقال: والله العلماء قالوا: إن القاعدة أغلبية، وعندها دخل رجل لا نعرفه قبل ذلك، ولا عرفناه بعدها، وكان عاري الرأس، وفي يده عصا، وقال: يا علماء أنتم نسيتم اسم الموصول (وهو الذي). اسم الموصول معرفة، وما بعده صلته، إذن الكلمة المكررة صلة لموصول واحد، يعني هو هو، ثم انصرف الرجل، وجلسنا نحن لم يتكلم منَّا أحد لمدة نصف ساعة " ([1]).

ويكمن الملمح الدلالي في الإتيان بدال (إله)، الذي يعني المعبود. والإتيان بدال (إله) الذي يعني الألوهية يتسق مع مضمون العبادة الوارد في قوله: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾. ولما نُزِّه بربوبيته: ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾، كان الإتيان بما ينوه عن وحدانيته، ونفي الشريك عنه في الألوهية من البلاغة بمكان.

وهنا يقول ابن عاشور:"عَطْفٌ–أي موضع الشاهد– على جملة (قل إن كان لرحمن ولد) والجملتان اللتان بينهما اعتراضان، قُصِدَ من العطف إفادة نفي الشريك في الألوهية مطلقًا بعد نفي الشريك فيها بالنبوة، وقُصِدَ بذكر السماء والأرض الإحاطة بعوالم التدبير والخلق؛ لأن المشركين جعلوا لله شركاء في الأرض وهم أصنامهم المنصوبة، وجعلوا له شركاء في السماء وهم الملائكة؛ إذ جعلوها بنات

[1] انظر: تفسير الشعراوي: 13961 ، 13962 . وأعتقد أن هذين الطرحين حلا المشكلة .

الله تعالى فكان قوله ﴿فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾ إبطالًا للفريقين مما زُعِمَتْ ألوهيتهم"[1].

7-دال (رب - إله) خبر الناسخ (إن)

في هذا الضرب من بنية الخطاب في القرآن الكريم يرد قول (الله) تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (آل عمران: 51) [2]. والإعراب يقول: إن دال (ربي) خبر الناسخ (إن)، و(الياء) ضمير مضاف إليه.

ويتضح من النسيج اللغوي المكون لبنية الخطاب أن تناول هذه النبية يندرج تحت أربعة مظاهر لغوية: تصدر الناسخ (إن) للبنية التركيبية، وانشغال منطقة اسم (إن) باسم الجلالة (الله)، ثم انشغال منطقة الخبر بدال (رب)، وأخيرًا إضافة دال (رب) إلى ياء المتكلم في منطقة الخبر، وإضافته إلى (كاف) الخطاب الملحقة ب(ميم) الجمع العائد إلى المخاطب في منطقة العطف.

ولما كانت البنية اللغوية لأي خطاب تلتحف جمالياتها بالسياق وطرفي الخطاب، كان لابد من التعريج على السياق، ثم التعرف على طرفي الخطاب.

إن الرجوع إلى السياق العام للآية الكريمة يطلعنا على أنها ورت في سياق اصطفاء الله سبحانه وتعالى للأنبياء بداية من سيدنا آدم عليه السلام إلى آل عمران:﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (آل عمران: 33، 34). ثم يخلص السياق العام كذلك للحديث عن آل عمران بخاصة: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾(آل عمران: 35).

---

[1] انظر: التحرير والتنوير ، المجلد الخامس والعشرين: 267 .

[2] وانظر كذلك: سورة (مريم: 36) ، وسورة (النجم: 49) . سبق أن درسنا في الكتاب الأول ، وقوع اسم الجلالة (الله) في منطقة اسم الناسخ (إن) ، مع تغاير منطقة الخبر بين المفرد والجملة ، دون دال (رب) ؛ لأننا أرجأنا هذا الموضع إلى دراسته هنا .

ويزداد السياق العام – بعد تناوله لقصة سيدتنا مريم عليها السلام – تخصصًا ليبشر بسيدنا عيسى عليه السلام: ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ (آل عمران:45).

وبعد هذا السياق العام يرد السياق الخاص للآية الكريمة، المتمثل في دعوة سيدنا عيسى عليه السلام بني إسرائيل، بعد أن قدم لهم البراهين الحسية - التي لا يؤمنون إلا بها - على صدق نبوته، واصطفاء الله له، قائلا لهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾.

إذًا، فالسياق سياق دعوي، والمخاطِب أحد الرسل من أولي العزم، والمخاطَب / المتلقي بنو إسرائيل، وهم من أشد الأمم كبرًا وفسقًا وكفرًا وغطرسة وقبحًا. وكان لهذين العنصرين: السياق وطرفي الخطاب أبلغ الأثر في تشكيل البنية اللغوية لهذا الخطاب القرآني، كماسنرى الآن.

وإذا بدأنا بالمظهر **الأول**، وهو تصدُّر (إن) لبنية الخطاب، نجد أن هذه البنية قد صُدِّرت بأداة التأكيد(إن)لطبيعة المخاطب القائمة على نكران كل ما هو إلهي تُعبدي، بداية من نبي(الله)سيدنا موسى عليه السلام، حتى يرث (الله) الأرض ومن عليها [*].

أما المظهر **الثاني**، وهو انشغال منطقة اسم (إن) باسم الجلالة (الله)، فلأسباب: **الأول** ذكر اسم الجلالة (الله) في كل ما جاء به سيدنا عيسى عليه السلام من معجزات ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ﴿وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

---

[*] يطول بنا المقام لو عددنا أخلاق هؤلاء القوم ، ولكن تكفي الإشـــارة . وربما يكون هذا الأمر متاحًا عند دراسة الخطاب (الإلهي – البشري) ، بوصف هؤلاء الطرف الثاني في عملية التخاطب .

الثاني: تقولهم على (الله) في عملية التثليث ﴿إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ (المائدة: 73).
الأخير: دناءتهم وخستهم من قديم الزمان في نظرتهم المادية؛ إذ طلبوا من سيدنا موسى عليه السلام أن يجعل لهم إلهًا، كما للقوم آلهة، وهو ما فعله السامري.

ومن ثم كان البدء باسم الجلالة (الله) إشارة لهم إلى أن (الله) سبحانه وتعالى صاحب تلك المعجزات، والمتفرد بالوحدانية، والذي ليس كمثله شيء... إلخ[1] هو ربكم. وكل هذا محاولة دعوية من سيدنا عيسى عليه السلام، ليفهم هؤلاء مفهوم الألوهية على الوجه الصحيح الأمثل، ومن ثم يخلصون العبادة (لله) جل في علاه.

ويتمثل المظهر اللغوي **الثالث** في انشغال منطقة الخبر بدال (رب). وتكمن أسباب ذلك في الآتي: **أولًا** أنه لما بدأ بالألوهية الخاصة بالتوحيد والعبادة، الذي يمثل دعوة كل الأنبياء والرسل، كان ذكر الربوبية التي تشمل الخلق والنعم من الأبلغ والأوجه بمكان.

ثانيًا أنه لما ذكر توحيد الألوهية، علق به توحيد الربوبية، في أن (الله) هو (الرب) العلي، تعريضًا بكفرهم في اتخاذهم أربابًا من دون (الله). وهو الوارد في قول (الله) عز وجل: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: 64). وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾(آل عمران: 80). وقوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (التوبة: 31).

ثالثًا: أن دال (رب) تكرر في سياق الآية اثنتي عشرة مرة؛ إذ المقام مقام دعوي يجمع بين توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية. فكما جمع السياق العام من بدايته بين

---

[1] وهذا ما حدا بالإمام البقاعي إلى قوله (إن الله) الجامع لصفات الكمال . انظر: نظم الدرر ، الجزء الثالث: 409 .

نوعي التوحيد، جمعت بنية هذا الخطاب الذي يعد - إضافة إلى تركيب (فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ) - خلاصة السياق كله بين التوحيدين كذلك.

ويرد المظهر **الأخير** في إضافة ياء المتكلم (ي) إلى دال (رب) في منطقة الخبر، وإضافته إلى ضمير (الكاف) الملحقة ب(ميم) الجمع في منطقة العطف. أما الإضافة الأولى فقد قلنا فيها من قبل أن الداعي إلى شيء عليه أن يلتزم به أولًا، سواء أكان هذا في العبادة أم في غير العبادة؛ لأن هذاالالتزام يدفع المدعو إلى الاقتناع بالدعوة من ناحية، ويعد حجة عليه إذا رفض الدعوة مع صحتها من ناحية.

ومن هنا كان الترتيب اللغوي على هذا النحو المعجز: (ي) الداعي أولًا، ثم (كم) المدعو أخيرًا؛ كي لا يكون للناس حجة بعد هذا. وهذا المعنى هو الوارد في قوله سبحانه وتعالى ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (النساء: 165) *.

8- دال (رب - إله) خبر الناسخ (ليس)

وفي هذا الضرب من الخطاب يرد قول (الله) سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ (الأعراف: 172) *

---

* وهذا مسلك لغوي قرآني ينم عن عمق البلاغة وجمال الإعجاز ، سبق أن نوهنا عنه في كثير من المواضع ، مستشهدين على ذلك بآيات من القرآن الكريم . وجدير بالذكر أن دال (إله) لم يرد في منطقة خبر الناسخ (إن) .

* سبق أن درسنا هذا الموضع عند تناولنا لانشغال منطقة اسم الناسخ (ليس) بضمير المتكلم المفرد (تُ) العائد إلى رب العزة سبحانه وتعالى، ولما سبقت منطقة المبتدأ منطقة الخبر في الدراسة ، وكان دال (رب) قد شغل منطقة الخبر من الناسخ (ليس) ، فقد أوضحنا بلاغة المنطقتين في حينها كما أنه جدير بالذكر أن دال (إله) لم يشغل منطقة خبر الناسخ (ليس) .

المحور الثاني: دال (رب - إله) خبر شبه جملة

1- دال (رب - إله) خبر شبه جملة مؤخر

وتبدو بنية هذا الخطاب بوقوع دال (رب) في منطقة الخبر شبه الجملة، في حين تبدأ الجملة باسم معرفة في قول (الله) سبحانه وتعالى: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ (البقرة:147) ([1]).

وتتبلور نقاط التحليل لبنية هذا الخطاب القرآني في الآتي: النقطة **الأولى** مناقشة الأوجه الإعرابية لدال (الحق)، وبيان علة اختيارنا لوجه الابتداء. **الثانية**: مناقشة المحذوف المتعلق به الجار والمجرور (من ربك)، وأثر ذلك في إنتاج الدلالة القرآنية. **الأخيرة**: علة ورود دال (رب) مقرونًا بكاف الخطاب العائد إلى سيدنا النبي ﷺ.

وفيما يخص النقطة **الأولى**، فأنه لما تعددت الأوجه الإعرابية لدال (الحق)، كان من الطبيعي أن تتعدد أوجه التعلق للجار والمجرور (من ربك). وتسهيلًا على القارئ المتلقي في بيان هذه الأوجه نضعها في الشكل الآتي: ([2])

الدال	النحاس	الدرويش	بهجت صالح	ياقوت	ع. الطيب
(الحق)	مبتدأ، خبر، مفعول به ليعلمون	مبتدأ	مبتدأ– خبر	مبتدأ – خبر	مبتدأ – خبر
(من ربك)	-	خبر	خبر – خبر ثان	خبر - حال	خبر

([1]) وانظر: سورة (آل عمران: 60) ، وسورة (الكهف: 29) ، وسورة (السجدة: 2) .

[2] انظر في كل هذا: النحاس ، إعراب القرآن: 70 . ومحيي الدين الدرويش ، إعراب القرآن الكريم وبيانه ، المجلد الأول: 193 ، وبهجت عبد الواحد صالح ، الإعراب المفصل ، المجلد الأول: 190 . وعبد الجواد الطيب ، الإعراب الكامل لآيات القرآن الكريم ، مكتبة الآداب ، الطبعة الأولى 1414هـ – 1994م ، الجزء الثاني ، القسم الأول (حزب:3): 32 . ومحمود سليمان ياقوت ، إعراب القرآن الكريم ، المجلد الأول: 251 ، 252 .

وكما عرضنا لتلك الأوجه الإعرابية في النحو التقعيدي، نعرض لها كذلك في كتب التقسير على النحو الآتي: ([1])

الدال	الزمخشري	ابن عطية	القرطبي	البيضاوي	عاشور
(الحق) من ربك	مبتدأ، خبر، بدل خبر/خبرثان/حال	مبتدأ، خبر، مفعول يعلمون، أو لِالْزَمْ خبر	مبتدأ، خبر، فاعل مفعول يعلمون مفعول الزم -	مبتدأ، خبر، بدل مفعول يعلمون خبر/خبرثان/حال	خبر -

([1]) انظر في كل هذا: الزمخشري ، الكشاف ، الجزء الأول: 203 ، ابن عطية ، المحرر الوجيز: 143 ، القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، الجزء الثاني: 447 ، 448 . ومحيي الدين شيخ زاده ، الحاشية على تفسير البيضاوي ، الجزء الثاني : 376 ، 377 ، وابن عاشور ، التحرير والتنوير ، الجزء الثاني: 41 . وقد ذهب أبو السعود مذهب البيضاوي تمامًا . انظر: إرشاد العقل السليم ، الجز ءالأول: 176 . وإضافة إلى ذلك ، ذكر أبو حيان الأندلسي وجها آخر لإعراب دال (الحق) تمثل في كونه مبتدأ ، وخبره محذوف جملة (يعرفونه) يعني (الحق من ربك يعرفونه) انظر: البحر المحيط ، الجزء الأول: 610 .وانظر كذلك في تلك الأوجه: الألوسي، روح المعاني، الجزء الثاني: 13 ، 14. ووجه (الفاعل) الذي ورد عند القرطبي تقديره (جاءك الحق) أسنده محقق التفسير إلى إعراب النحا، لكن لم أجده عند النحاس ، وربما سها المحقق .

وبتأمل الأوجه الإعرابية لدال (الحق) نجد أنها تدور حول ستة أوجه: مبتدأ، خبر، مفعول به ل(يعلمون) في الآية السابقة، بدل من الحق في الآية السابقة كذلك، مفعول به لفعل تقديره (الزم)، فاعل.

وإذا حاولنا –داخل عملية التأويل- الربط بين كل وجه إعرابي من تلك الأوجه والناتج الدلالي، نجد أن الأوجة الإعرابية الثلاث:(خبر، بدل، مفعول يعلمون) تقيد مفهوم (الحق) بعود ضمير(الهاء) في يعرفونه، المتمثل في معرفة أهل الكتاب لسيدنا النبي ﷺ، أو تحويل القبلة، أو العلم، أو القرآن الكريم ([1]).

وبمناقشة كل وجه على حدة، نجد أن وجه خبرية (الحق) يعني حذف مبتدأ مقدر بالضمير (هو) . أو هذا. والضمير والإشارة يعودان بدورهما إلى (الحق) الواقع في منطقة المفعولية من الفعل يكتمون في قوله: (وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ)، و(الحق) المكتوم هنا هو معرفة أهل الكتاب بمعاد الضمير في (يعرفونه)، المقيد بدوره في تلك الأربع.

والأمر نفسه في وجه (البدلية)؛ لأن دال (الحق) هنا سيكون بدلًا من (الحق) في منطقة المفعولية من (يكتمون)، العائد بطبيعة الحال إلى ضمير (يعوفونه)، أي أن وجه البدلية سيقيد مفهوم الحق كذلك بتلك الأربع.

وكذلك وجه المفعولية ل(يعلمون)؛ لأن التركيب سيكون هكذا: (وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ الْحَقُّ) فدلالة (الحق) هنا واحدة، غير أن كتمانهم للحق مع العلم به يدل على عنادهم، وغطرستهم، وكرههم للدعوة من أساسها.

([1]) الإمام الطبري قال بعود الضمير إلى موضوع القبلة . انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، المجلد الأول: 425 . أما الزمخشري ، فقد قال بعود الضمير إلى هؤلاء الأربع . انظر: الكشاف ، الجزء الأول: 203 . وقال ابن عطية بعود الضمير إما إلى الحق في موضوع القبلة ، أو إلى معرفة أهل الكتاب بالنبي ﷺ . انظر: المحرر الوجيز:143 . وكذا قال الإمام القرطبي . انظر: الجامع لأحكام القرآن ، الجزء الثاني: 447 . وذهب البيضاوي مذهب الزمخشري. انظر: محيي الدين شيخ زاده ، الحاشية على تفسير البيضاوي، الجزء الثاني: 373 .

والحاصل من هذا الطرح، أن مفهوم (الحق) سيكون مقيدًا بتلك الأمور الأربعة في حالة تلك الأوجه الإعرابية. يتوافق مع ذلك (ال) التعريف في دال (الحق)؛ وذلك عندما تكون للعهد، أي الحق الذي يكتمونه، المرتبط بالضمير في (يعرفونه) ([1]).

أما الأوجه الثلاثة الأخرى: (مبتدأ، مفعول للفعل الزم، فاعل لفعل محذوف تقديره "جاء")، فهي تضفي على مفهوم (الحق) مدلولًا شموليًا. وبذا يضم مدلول (الحق) – والحال هكذا – تلك الأمور الأربع وغيرها. يتوافق هذا مع دلالة (ال) التعريف في دال (الحق)، إذا كانت للجنس، أي كل ألوان الحق ومظاهره، سواء ما يخص معاد الضمير في يعرفونه، أو غيره ([2]).

وإذا كان علينا أن نرجح وجهًا واحدًا من تلك الأوجه الإعرابية، فإن العلاقة بين النحو التقعيدي والدلالة هو الذي يساعدنا ويسعفنا في ذلك. فلما كانت الجملة الاسمية أقوى في ثبوت الدلالة من الجملة الفعلية ([3])، فإننا يمكن أن نقول – مع صحة النواتج الدلالية المنبثقة من الأوجه الأخرى كذلك – أن وجه الابتداء لدال (الحق) من البلاغة بمكان هنا؛ في ثبوت دلالة (الحق) من ناحية، وشموليتها وانفتاحها من ناحية أخرى. وهو ما أشارت إليه بعض التفاسير ([4]).

وبعد هذا الطرح، يحلو لي أن أناقش العلامة ابن عاشور في اختياره لأن يكون دال (الحق) خبرًا لمبتدأ محذوف تقديره (هذا)، وذلك عندما يقول: " ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا

([1]) انظر: الزمخشري ، الكشاف ، الجزء الأول: 203 . وأبي السعود ، إرشاد العقل السليم، الجزء الأول: 176، والألوسي ، روح المعاني ، الجزء الثاني: 13 .

([2]) انظر: الزمخشري ، الكشاف ، الجزء الأول: 203 . وأبي السعود ، إرشاد العقل السليم، الجزء الأول: 176، والألوسي ، روح المعاني ، الجزء الثاني: 13 . وابن عاشور ، التحرير والتنوير ، الجزء الثاني: 41 .

([3]) انظر في الفرق بين الإخبار بالاسم والفعل ، عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز: 176 ، 177 .

([4]) يمكن للقارئ أن يراجع انفتاح دلالة (الحق) وسعتها عند الإمام البقاعي ، نظم الدرر ، الجزء الثاني: 228 .

تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ تذييل لجملة (وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ) على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره هذا الحق، وحذف المسند إليه في مثل هذا مما جرى على متابعة الاستعمال في حذف المسند إليه بعد جريان ما يدل عليه، من مثل قولهم بعد ذكر الديار(رَبْعٌ قَواءٌ)، وبعد ذكر الممدوح (فتي) ونحو ذلك كما نبه عليه صاحب المفتاح / يعني السكاكي "([1]).

ومعنى اختيار العلامة ابن عاشور لوجه الخبرية لدال (الحق) يعني قصره على معاد الضمير في يعرفونه، كما بينا، يعضد ذلك قوله: "وقوله (فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ) نهي عن أن يكون من الشاكين في ذلك والمقصود من هذا " ([2]).

والآن نناقش ابن عاشور في أمرين: **الأول** أن ما استشهد به من (ربع قواء)، و(فتى) المبتدأ المحذوف فيه يعود على معين محسوس، لا تنصرف الدلالة إلى غيره. أما هنا، فإن كانت دلالة (الحق) تشمل الأمور الأربع المذكورة، فهي تشمل غيرها كذلك. لذا أرى أن الاستشهاد هنا ليس في محله.

الأخير: أن العلامة ابن عاشور نفسه ذهب إلى أن التعريف في (الحق) تعريف الجنس كما في قوله (الحمد لله) ([3]). والحمد هنا يطلق على مظاهره كلها: الحسية باللسان، والمعنوية بالشكر القلبي الروحي، والعملية بالطاعة وحسن العبادة. وهو ما يفتح دلالات الحمد ويوسع مفهومه.

وأنا من الذين يؤمنون بتعدد الدلالة للدال الواحد، وتوسيع مفهومه، طالما أن ثمة سندًا نحويًا أو بلاغيًا يساعد على هذا ويؤكده ويسانده، بشرط أن يستمد هذا السند من النص ذاته، لا أن يُفرض عليه. وهذا ما طرحه المنهج السيميولوجي في دراسة الدوال اللغوية.

([1]) انظر: التحرير والتنوير ، الجزء الثاني: 41 .

([2]) انظر: السابق ، الجزء نفسه: الصفحة نفسها .

([3]) انظر: التحرير والتنوير ، الجزء الثاني: 41 .

ثم ثمة سبب آخر يعضد من كون دال (الحق) مبتدأ، يتمثل هذا السبب في أن الآية الكريمة بُنِيتْ – بلاغيًا - على الفصل، أي ترك العطف، أو القطع ([1]) وفي حالة الفصل، تكون الجملة الثانية بالنسبة للأولى إما استئنافًا أو تعليلًا أو تأكيدًا ([2]) .

وقد اعتمد خطاب الآية الكريمة على الاستئناف. طُرِحَ هذا من الجانب النحوي التقعيدي، وكذلك الجانب التفسيري ([3]). ولذا اعتمدنا دال (الحق) مبتدأ.

أما الشبه جملة (من ربك) فكان له ثلاثة أوجه من الإعراب: (خبر، خبر ثان، حال). ولما رأينا أن الوجه الإعرابي لدال (الحق) وهو الابتداء يكون أكثر فائدة في توسيع الدلالة، كان اختيارنا للوجه الإعرابي لشبه الجملة (من ربك) هو خبر المبتدأ(الحق)، وليس الخبر الثاني؛ لقصر الدلالة – في تلك الحال – وتقييدها بمعاد الضمير.

أما وجه (الحال) في إعراب شبه الجملة، فالذين ذهبوا إلى هذا، قالوا: إن صاحب الحال هو (الحق) ([4]). وما نفهمه من هذا الطرح أن (الحق) عندما يكون من (رب العزة) يكون هو (الحق) بأكمليته، النافع للبشر، وإن كان من غير (رب العزة) يحتمل أن يكون حقًا نافعًا، أو حقًا ضارًا، إن أُرِيدَ به باطل. وهذا ما يتناسب مع طرح الوجه الإعرابي ل(لحال) في إعراب شبه الجملة؛ للتغاير بين الحقين.

لكن عندما يرد الحق من لدن رب العالمين، فهو ثابت لا يتغير ولا يتبدل؛ لأن الحال من سماته التغير، والتغير لا يصدر إلا عن بشر؛ لاختلاف الأهواء وتقلب

([1]) انظر: السكاكي ، مفتاح العلوم: 249 ، والقزويني ، المجلد الأول ، الجزء الثالث: 97 .

([2]) انظر في تفاصيل هذا: عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز: 235 – 238 ، والسكاكي ، مفتاح العلوم: 252 ، 253 .

([3]) فيما يخص الجانب النحوي ، انظر: محيي الدين الدرويش ، إعراب القرآن الكريم وبيانه ، المجلد الأول: 193 ، ومحمود سليمان ياقوت ، إعراب القرآن الكريم ، المجلد الأول: 251 . وفيما يخص الجانب التفسيري ، انظر: الألوسي ، روح المعاني ، الجزء الثاني: 13 .

([4]) انظر: محمود سليمان ياقوت ، إعراب القرآن الكريم ، المجلد الأول: 252 .

الأمزجة، وتعدد المقامات والأحوال. وهذا محال مع رب العزة جل في علاه. وهذا ما دفعنا – مع تقديرنا للأوجه الإعرابية الأخرى – إلى اعتماد خبرية (من ربك) *.

وبما أننا اعتمدنا شبه الجملة (من ربك) خبرًا للمبتدأ (الحق)، ترد النقطة **الثانية** متمثلة في مناقشة المحذوف المتعلق به الجار والمجرور (من ربك)، وأثر ذلك في إنتاج الدلالة القرآنية.

وفي الخبر شبه الجملة يقول النحاة: إن شبه الجملة ليس هو الخبر الأصلي، إنما هو متعلق بالخبر المحذوف. وهذا الخبر المحذوف إما أن يكون جملة فعليه فعلها: اِسْتَقَرَّ أو ثَبتَ أو وُجِدَ، وفاعلها مستتر تقديره (هو) يعود إلى المبتدأ، أو يكون الخبر اسمًا مفردًا: كائن، مستقر، موجود ([1]).

وفي العلاقة بين المحذوف والجار والمجرور، وأثر ذلك في حصول الفائدة، يقول محمد محيي الدين عبد الحميد: " اعلم أنه قد اختلف النحاة في الخبر: أهو متعلق الظرف والجار والمجرور فقط، أم هو نفس الظرف والجار والمجرور فقط، أم هو

---

* ولأن دال (الحق) عندما يرد مع رب العزة سبحانه وتعالى، يدل على الحق بأكمليته وبطلاقته ، ورد كثيرًا في آيات الذكر الحكيم . لنقرأ قوله تعالى بعد هذاالموضع بآية واحدة ، وفي الموضوع ذاته: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ **لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ** وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾(البقرة: 149) . وقوله تعالى: ﴿ المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ **مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ** وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الرعد:1) وانظر: (الرعد: 19) . وكذلك قوله سبحانه: ﴿ وَقُلِ **الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ** فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (الكهف: 29). وكذلك قوله عز وجل: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ **مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ** وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (سبأ: 6) ، بل (الله) هو الحق: ﴿ذَلِكَ **بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ** وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (الحج: 6) وانظر كذلك: (الحج: 62) ، و(لقمان: 30) .

[1] انظر: ابن يعيش ، شرح المفصل للزمخشري ، الجزء الأول: 231 ، 232 . وابن عقيل ، شرح ابن عقيل ، المجلد الأول ، الجزء الأول: 209 – 213 ، وعباس حسن ، النحو الوافي ، الجزء الأول: 479.

مجموع المتعلق والظرف أو الجار والمجرور؟ فذهب جمهور البصريين إلى أن الخبر هو المجموع؛ لتوقف الفائدة على كل واحد منهما، والصحيح الذي نرجحه أن الخبر هو نفس المتعلق وحده، وأن الظرف أو الجار والمجرور قيد له "[1].

وهذا يعني أننا إذا قلنا: (الحق ثابت أو مستقر أو كائن أو استقر..إلخ) دون ذكر الجار والمجرور، تظل الدلالة ناقصة المفهوم ومتأرجحة، حتى يُعلم مِمَّنْ صدر هذاالثبوت وهذا الاستقرار. حتى إذا ذُكِرَ الجار والمجرور اتضحت الدلالة.

وهذا الامتزاج بين المحذوف / متعلق الخبر والمذكور (الجار والمجرور) هو الذي نوهت إليه التفاسير القرآنية. وهنا يقول الزمخشري: " يعني أن الحق ما ثبت أنه من (الله) كالذي أنت عليه، ومـا لـم يثبت أنه مـن (الله) كالـذي عليه أهـل الكتاب فهو الباطل "[2].

وأخيرًا، ترد النقطة **الأخيرة** في علة ورود دال (رب) مقترنًا بكاف الخطاب العائد إلى سيدنا النبي ﷺ. وهذه النقطة نفسها تنقسم إلى شقين: **الأول** سبب ورود دال (رب)، **الأخير:** اقتران دال (رب) بكاف الخطاب العائد إلى سيدنا النبي ﷺ.

وفيما يخص الشق **الأول**، فإن سوق الآية لدال (رب) يمكن استنتاجه من عناصر ثلاث: **الأول** طبيعة المخاطَب، فالمخاطَب هم أهل الكتاب، وأهل الكتاب يقرون – وغيرهم من الناس – بمفهوم الربوبية، بينما يكمن الخلاف في مفهوم الألوهية الذي يعني العبادة، ومن ثم التكليف، فأورد ما يؤمنون به.

---

[1] انظر: ابن عقيل ، شرح ابن عقيل ، المجلد الأول ، الجزء الأول: هامش: 210 .وأرى أن الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد لم يبتعد عما ذهب إليه البصريون من حصول الفائدة في الجمع بين المحذوف والجار والمجرور؛ إذ قال بتقييد الظرف أو الجار والمجرور للمحذوف .

[2] انظر: الكشاف ، الجزء الأول: 203 . وانظر كذلك أبي السعود ، إرشاد العقل السليم ، الجزء الأول: 176 . والألوسي ، روح المعاني ، الجزء الثاني: 13 .

الثاني: عنصر لغوي سياقي، وهو المستقى من قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ (البقرة: 145)، فلما خاطبهم بالربوبية، خاطب حبيبه كذلك بالربوبية.

الأخير: عنصر دلالي، مفهوم من السياق العام للآية الكريمة. ويتمثل هذا العنصر في ملامح ثلاث: **الأول** أن جعل القبلة الأولى للمسلمين شطر المسجد الأقصى، كان من باب الاختبار والابتلاء لأتباع النبي ﷺ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ (البقرة: 143)؛ ولأن الابتلاء والاختبار يرتبطان بتربية المخْتَبَر والمبْتَلى وتهذيبه، وكانت التربية من معاني دال (رب)، كان الإتيان بدال (رب) أوجه وأبلغ.

الملمح **الثاني**: أن عدم ضياع عبادة المسلمين إبان توجههم إلى المسجد الأقصى في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ يندرج تحت نعم الربوبية؛ فالذي ربى النبي ﷺ وصحابته الكرام الذين يتبعونه في كل أمر ونهي، ولا ينقلبون على أعقابهم، لم يضع إيمانهم / الخاص بالعبادة / أي بتوحيد الألوهية.

الملمح **الأخير**: أن استجابة مولانا جل في علاه لدعوة حبيبه ﷺ في تحويل القبلة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ (البقرة: 144)، انتمت كذلك إلى نعم الربوبية ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (غافر: 60).

وفيما يخص الشق **الأخير**، فإن اقتران دال (رب) بكاف الخطاب العائدة إلى سيدنا النبي ﷺ له وجاهته من ناحيتين: **الأولى** أن النبي ﷺ هو صاحب الحدث/ التحويل؛ إذ هو المنفذ لأمر (الله) سبحانه وتعالى، وفي شخصه الكريم يُخاطَب المسلمون. **الثانية**: أن تَقَوُّلَ أهل الكتاب وافتراءَهم سيوجه إلى شخص النبيﷺ

قبل أن يوجه للمسلمين، لذا كان التلطف به. **الأخيرة** تشريف النبي ﷺ وإظهار مكانته وقدره عند ربه جل في علاه.

وهنا يقول أبو السعود: " وفي التعرض لوصف الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام من إظهار اللطف به عليه السلام ما لا يخفى " ([1]).

وأحيانًا يرد الخبر شبه الجملة مؤسسًا على بنية القصر في منطقة الحصر ب(إلا)، كما في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الشعراء: 109) ([2]). والطرح الإعرابي يقول: إن (إِنْ) أداة نفي بمعنى (ما)، و(أجري) مبتدأ ومضاف إليه، و(إلا) أداة حصر، و(على رب العالمين) خبر شبه جملة ومضاف إليه ([3]).

وباعتبار نوعي القصر، يندرج هذا التركيب تحت نوع القصر الحقيقي. أما باعتبار طرفي القصر، فإنه يندرج تحت قصر الصفة على الموصوف ([4]).

والقصر الحقيقي يعني لزوم الاختصاص بين المقصور والمقصور عليه. والمراد بالاختصاص والقصر في هذا الضرب هو ما يقع بعد (إلا).

ووفق ما سبق، فإن هذا التركيب يندرج تحت نوع القصر الحقيقي؛ لأن المقصور عليه / المراد بالاختصاص / الواقع بعد (إلا) وهو شبه الجملة (على رب العالمين) هو المختص بالحُكْمِ حقيقة وواقعًا، لا غيره.

---

[1] انظر: إرشاد العقل السليم ، الجزء الأول: 176 . ولعدم الإطالة ، يرجى من القارئ الكريم تأمل بلاغة قوله تعالى:﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ بين النحو والتفسير للوصول إلى الدلالة في أكمليتها ، كما قدمنا في هذا الموضع. وجدير بالذكر أن دال (إله) لم يأت في منطقة الخبر شبه الجملة .

[2] وانظر كذلك: سورة (الشعراء: 127 ، 145 ، 164 ، 180) .

[3] انظر: محيي الدين الدرويش ، إعراب القرآن الكريم وبيانه ، المجلد الخامس: 426، وبهجت عبد الواحد صالح، الإعراب المفصل، المجلد الثامن: 218 ، ومحمود ياقوت ، إعراب القرآن الكريم ، المجلد السابع: 3344 .

([4]) انظر في القصر: السكاكي ، مفتاح العلوم: 288– 300 . والخطيب القزويني ، الإيضاح في علوم البلاغة ، المجلد الأول ، الجزء الثالث: 4 – 47 .

فإن قيل: ألا يمكن القول:إن هذا الضرب من القصر يندرج تحت نوع القصر الإضافي، على أساس أن الأجر– بمعناه المادي بين البشر- يُعْطَى من الرب ومن العبد؟ قلتُ: لا؛ لأن إعطاءه من العبد يكون على سبيل المجاز. أما الحقيقة فالرب العلي هو الذي وفق العامل إلى العمل، والمعطي إلى إعطاء الأجر.

وينتمي هذا التركيب إلى نوع قصر الصفة ([1]) على الموصوف؛ لأن الصفة إعطاء الأجر– الذي هو المبتدأ - هي التي قُصرت على (رب العالمين) المختص بالقصر والاختصاص، الواقع بعد (إلا)، وهو الخبر شبه الجملة.

وهذا الضرب من أضرب القصر، وهو النفي والاستثناء يُخَاطَبُ به من يسند صفة إلى موصوف، ولا يعتقد أن موصوفًا آخر يتصف بها، أي يقصرها ويخصها بهذا الموصوف دون غيره.

وفي هذا الضرب من القصر يقول عبد القاهر الجرجاني:"وأما الخبر بالنفي والإثبات نحو:(ما هذا إلا كذا)، و(إنْ هو إلا كذا)، فيكون للأمر ينكره المخاطَب ويشك فيه فإن قلتَ:(ما هو إلا مصيب)، أو (ما هو إلا مخطئ)، قلتَه لمن يدفع أن يكون الأمر على ما قلتَ، وإذا رأيتَ شخصًا من بعيد فقلتَ: (ما هو إلا زيد)، لم تَقُلْهُ إلا وصاحبك يتوهم أنه ليس زيد، وإنه إنسان آخر، ويجدُّ في الإنكار أن يكون زيدًا"([2]).

ولما لح سيدنا نوح عليه السلام على قومه في الدعوة التي استمرت ألف سنة إلا خمسين عامًا، ظن المخاطَب - كعادة البشر- أن من يصنع هذا الصنيع، لابد وأن يطلب أجرًا ممن يدعوهم، وبخاصة في ظل هذا الإلحاح، وردت بنية الخطاب مؤسسة على أسلوب القصر بالنفي والإثبات؛ لدرء هذا التوهم وذلك الشك.

([1]) ليس المراد بالصفة المعنى النحوي ، وإنما الصفة المعنوية .انظر: القزويني ، الإيضاح في علوم البلاغة ، المجلد الأول ، الجزء الثاني: 8 .

([2]) انظر: دلائل الإعجاز: 332 .

وفي نفي طلب الأجر من المخاطَب يقول الإمام الطبري: "﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ يقول: وما أطلب منكم على نصيحتي لكم وأمري إياكم باتقاء عقاب الله، بطاعته فيما أمركم ونهاكم - من ثواب ولا جزاء " ([1]).

وهنا يقول ابن عاشور: " وفي قوله: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إشارة إلى يوم الجزاء. وكانوا ينكرون البعث، كما دل عليه قوله في سورة (نوح) ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ (نوح: 17، 18) " ([2]).

وأما بخصوص ورود دال (رب) دون اسم الجلالة (الله)، أو دال (إله)؛ فلأن الحديث حديث عن الأجر الذي يدخل في إطار الرزق – حتى وإن كان يقصد به الثواب الأخروي كما ذهبت بعض التفاسير - والرزق من سمات الربوبية التي تخص المؤمن وغيره، ولذا قال: (رب العالمين).

2-دال (رب - إله) خبر (شبه جملة) مقدم

وفي بنية هذا الضرب من الخطاب القرآني يرد قول (الله) عز وجل: ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ (القيامة: 12) ([3]).

والجانب الإعرابي يقول: إن (إلى ربك) جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم، و(يومئذ) ظرف زمان منصوب متعلق بالخبر المحذوف، و(إذ) اسم مبني على السكون مضاف إليه، و(المستقر) مبتدأ مؤخر ([4]).

([1]) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، المجلد الخامس: 518 .

([2]) انظر: التحرير والتنوير ، الجزء التاسع عشر: 159 .

([3]) وانظر:سورة (الأنعام: 108 ، 164) ، وسورة (الصافات: 149)، وسورة (الزمر: 7) ، وسورة (القيامة: 30) ، سورة (النازعات: 44) .

([4]) انظر: محيي الدين الدرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه، المجلد الثامن: 147، وبهجت عبد الواحد صالح، الإعراب المفصل ، المجلد الثاني عشر: 261 . ومحمود سليمان ياقوت ، إعراب القرآن الكريم ، المجلد العاشر: 4897 .

والنحو التقعيدي يجيز تقديم الخبر على المبتدأ المعرفة، ولا يوجبه [1]؛ لأن الأصل في الخبر هو التأخير، وبخاصة عندما يكون المبتدأ معرفة. ومعنى أن يقدم الخبر على المبتدأ المعرفة أن ثمة بلاغة تقتضي ذلك التقديم، فما النكتة البلاغية التي تقف وراء هذا التقديم؟

في التقديم والتأخير يقول عبد القاهر الجرجاني: " هو باب كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفْتَرُّ لك عن بديعة، ويُفْضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعرًا يروقك مسْمَعُهُ، ويَلْطُف لديك موقعُهُ، ثم تنظر فتجد سببَ أَنْ راقـك ولطُف عنـدك، أَنْ قُدِّم فيه شيء، وحُـوِّل اللفظ عن مكانٍ إلى مكان " [2].

وبعد أن يبين عبد القاهر بلاغة هذا الباب، ينفي أن يقال قُدِّمَ للعناية دون إظهار علة هذا التقديم، يقول: " وقد وقع في ظنون الناس أنه يكفي أن يقال: (إنه قُدِّم للعناية، ولأن ذكره أهم)، من غير أن يُذْكَرَ، من أين كانت تلك العناية؟ وبِمَ كان أهم ولتخيلهم ذلك، قد صغُرَ أمر (التقديم والتأخير) في نفوسهم، وهوّنوا الخطب فيه، حتى أنك لترى أكثرهم يرى تَتَبُّعَه والنظرَ فيه ضربًا من التكلف. ولم ترَ ظنًّا أزْرَى على صاحبِه من هذا وشبهه "[3].

وبالذهاب إلى المنطلقات البلاغية يُدرك أن من أسباب تقديم المسند / الخبر، وتأخير المسند إليه / المبتدأ، أن يراد تخصيص المسند بالمسند إليه، أي قصر المسند إليه المؤخر على المسند [4].

---

(1) انظر: ابن يعيش ، شرح المفصل للزمخشري، الجزء الأول: 234 . وابن عقيل ، شرح ابن عقيل ، المجلد الأول، الجزء الأول: 227 . وعباس حسن ، النحو الوافي ، الجزء الأول: 492 .

(2) انظر: دلائل الإعجاز: 106 .

(3) انظر: السابق: 108 .

(4) انظر: السكاكي ، مفتاح العلوم: 219 . والخطيب القزويني ، الإيضاح في علوم البلاغة ، المجلد الأول ، الجزء الثاني: 135 .

وبنية التقديم والتأخير التي نحن بصدد دراستها من قَبِيلِ (ما قُدِّمَ والنيةُ به التأخير). أي لا يفقد المقدم أو المؤخر رتبته النحوية، بل يظل محتفظًا بها. وهنا يقول عبد القاهر الجرجاني: " واعلم أن تقديم الشيء يكون على وجهين: تقديم يُقال إنه على نية التأخير، وذلك في كل شيء أقْرَرْتُه مع التقديم على حكمه الذي كان عليه، وفي جنسه الذي كان فيه، كخبر المبتدأ إذا قدمته على المبتدأ " ([1]).

وإذا عدنا للآية الكريمة وجدنا أن المقدم (إلى ربك) هو الخبر، وأن المؤخر (المستقر) هو المبتدأ، وللتعرف على علل التقديم نعود إلى السياق.

لقد وردت الآية الكريمة في سياق الحديث عن يوم القيامة، الذي أقسم (الله) به في افتتاح السورة الكريمة:﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ (القيامة: 1) *، ثم عرَّج على شك الإنسان في جمع عظامه في هذا اليوم في قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ (القيامة: 3).

والمقصود بالإنسان هنا هو عدي ابن ربيعة، وذلك: أنه أتى النبي ﷺ، فقال:حدثني عن يوم القيامة متي يكون؟وكيف يكون أمرها وحالها؟فأخبره النبيﷺبذلك، فقال:لو عاينتُ ذلك اليوم لم أصدقك يا محمد، ولم أُومن به، أَوَ يَجْمَعُ الله هذه العظام؟([2]).

([1]) انظر: دلائل الإعجاز: 106 . وانظر في هذا الضرب وأمثلته: الزركشي ، البرهان في علوم القرآن الجزء الثالث: 275 – 283 . والضرب الآخر هو تقديم لا على نية التأخير ، ولكن على أن تنقل الشيء عن حكم ، وتجعل له بابًا غير بابه ، وإعرابًا غير إعرابه ، وذلك أن تجيء إلى اسمين يحتمل كل واحد منهما أن يكون مبتدأ ويكون الآخر خبرًا له ، فتقدم تارة هذا على ذاك ، وأخرى ذلك على هذا . انظر عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز: 106 ، 107 . والزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، الجزء الثالث: 284 – 287 .

* اشتمال بنية التركيب في خطاب القسم في هذه الآية الكريمة والتي تليها: ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ (القيامة:2) على الأداة (لا) لا يسعنا الحديث عنه الآن ، ولربما تأتي فرصة لتناول هذا .

([2]) انظر: النيسابوري ، أسباب النزول: 469 .

ثم تستمر الآيات الكريمة في إظهار قدرة (الله) على تسوية البنان، وبيان فجور هذا الإنسان – ومن على شاكلته – ثم سؤاله عن يوم القيامة، ثم عرض بعض مشاهد هذا اليوم، حتى الوصول إلى قول (الله) عز وجل: ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ﴾ (القيامة: 10).

ومعنى سؤال الإنسان يومئذ: أين المفر؟ أنه يعلم أنه لابد أن يكون ثمة مفر، ثم تأتي الآية الكريمة: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ (القيامة: 11) * لتقطع الأمل في كل ما كان يعتقده هذا الإنسان من مكان لجوء في الدنيا. ومعنى هذا: أن السؤال هنا عن أينية المكان، لا عن المكان نفسه؛ لأنه لابد أن يكون يكون ثمة مكان.

وفي هذه الآية الكريمة ينكشف الغطاء، وتتضح الرؤية، ويُقطع الكلام، بإظهار أينية المكان، في تقديم الجار والمجرور (إلى ربك) معتليًا بلاغة وإعجازًا وروعة ما أحلاها وما أبهاها !!! ، ثم يرد المبتدأ مؤخرًا بعد ذلك.

وها نحن أولاء وصلنا إلى المنطلقات البلاغية، في أن تقديم المسند يراد به تخصيصه بالمسند إليه، أي قصر المسند إليه المؤخر على المسند.

وهذا التخصيص والقصر هو الذي قطع الأمل في عدم الفرار من لقاء (الله) عز وجل، كما كان يعتقد هذا الإنسان. وتقديم الجار والمجرور (إلى ربك) مع قطع الأمل واليأس، تجعل المخاطَب لا يلتفت إلى المسند إليه المؤخر / المبتدأ؛ إذ هو معروف لديه بالضرورة، وكان يتنى ألَّا يتخصص المبتدأ بطبيعة الخبر المقدم الذي فيه عذاب هذاالإنسان وشقاؤه الذي لا ينقطع أبدًا؛ إذ هو خالد في النار.

---

* و(الوزر) هنا يعني: الحص أو الجبل أو الملجأ أو المعقل أو الحرز . كانت العرب تخيف بعضها بعضًا ، وكان الرجلان يكونان في ماشيتهما ، فلا يشعران بشيء حتى يأتيهما الخيل ، فيقول أحدهما لصاحبه: يا فلان الوزر الوزر ، الجبل الجبل . انظر: الإمام الطبري ، جامع البيان عن تأول آي القرآن ، طبعة دار هجر ، الجزء الثالث والعشرين: 485 -487 . وانظر: طبعة موسسة الرسالة، المجلد السابع: 411 .وفي الأولى زيادة توضيح وتفصيل .

ولو وردت بنية التركيب على الأصل / أي تقديم المبتدأ على الخبر، وبخاصة أن المبتدأ معرفة، مما يعطيه حق التقديم (المستقر يومئد إلى ربك)، لم تُنْتَجْ هذه الدلالة؛ إذ السؤال ليس عن المكان، وإنما عن الأينية التي يريد السائل أن يطمئن عليها: أهي إلى ما كان يُؤى إليه في الدنيا عند الفرار، أم غير ذلك.

وهذا الطرح، هو المقصود من كلام عبد القاهر، في أنه لا يكفي أن يُقال: (قُدِّمَ للعناية والاهتمام)، دون ذكر أسباب هذه العناية، وإيضاح علل هذا الاهتمام.

وهذا الاختلاف في الناتج الدلالي ما بين التقديم وعدمه، يجعلني لا أوافق الإمام الزركشي على ما ساقه في هذا الاتجاه في عنوانه (إيقاع المناسبة في فواصل الخواتم)، إذ قدم اثني عشر مظهرًا لغويًا خروجًا عن نظم الكلام لأجل مراعاة الفواصل، وجعل منها في الموضع الرابع تأخير ما أصله أن يقدم – كما هو الأمر هنا في تأخير المبتدأ المعرفة الذي أصله التقديم – وضرب مثالًا لذلك بقوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾(طه: 67) قائلًا:" أصل الكلام أن يتصل الفعل بفاعله ويؤخر المفعول، لكن أُخِّرَ الفاعل، وهو موسى لأجل رعاية الفاصلة ([1]). ثم يعلق على تأخير الفاعل قائلًا:" قلتُ: للتأخير حكمة أخرى، وهي أن النفس تتشوق لفاعل ﴿أوجس﴾، فإذا جاء بعد أن أُخِّرَ وقع بموقع " ([2]).

والتعليق الدلالي الذي قدمه الزركشي على تأخير الفاعل يدل على أن بنية التقديم والتأخير لا ترد إلا لدواع دلالية، لا صوتية. بل يمكن القول: إن الجانب الصوتي يرد في المرتبة الثانية بعد الجانب الدلالي. وهذه هي قمة الإعجاز؛ أن يحدث توافق بين الجانبين.

وفيما قُدِّمَ والمعنى عليه، جعل الإمام الزركشي الموضع الخامس والعشرين رعاية الفواصل سببًا لهذا التقديم. وضرب لهذا النوع أمثلة مثل تأخير دال (غفور) في

([1]) انظر: البرهان في علوم القرآن ، الجزء الأول: 62 .

([2]) انظر: السابق ، الصفحة نفسها .

قوله ﴿لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ (الحج: 60) ([1])، وكذلك قول (الله) سبحانه وتعالى: ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ (مريم: 51) ([2]). ثم يعلق قائلًا: وإن كانت القاعدة في علم البيان تأخير ما هو الأبلغ، فإنه يقال: عالم نحرير، وشجاع باسل، وسبق له نظائر ([3]).

وهكذا يسوق الإمام الزركشي – فيما ذكره من نماذج - سببًا صوتيًا – المتمثل في رعاية الفواصل ورؤس الآي – ثم يسوق آخر دلاليًا يبرهن به على نفي أسبقية الجانب الصوتي للجانب الدلالي. وكان عليه أن يسوق العلل البلاغية أولًا، ثم يسوق الجوانب الصوتية، بوصفها نتائج ثانوية لعملية التقديم والتأخير. وربما تأتي لنا فرصة لمناقشة هذا الطرح في دراسة مستقلة.

وللتأكد من هذا نذهب إلى عبد القاهر الجرجاني الذي يقول عن التجنيس - وهو ناحية صوتية مثل السجع – وعلاقته بالدلالة / المعنى، بعد أن قدم أمثلة له: " فقد تبيّن لك أن ما يُعطي التجنيس من فضيلة، أمر لم يتم إلا بنصرة المعنى، إذ لو كان باللفظ وحده لما كان فيه مستحسن، ولما وجد فيه معيب مستهجن؛ ولذلك ذم الاستكثار منه والولوع به، وذلك أن المعاني لا تدين في كل موضع لما يجذبها التجنيس إليه؛ إذ الألفاظ خدم المعاني والمُصَرَّفةُ في حكمها، وكانت المعاني هي المالكة سياستها، المستحقة طاعتها. فمن نصر اللفظ على المعنى كان كمن أزال الشيء عن جهته، وأحاله عن طبيعته...ولهذه الحالة كان كلام المتقدمين الذين تركوا فضل العناية بالسجع ولزموا سجية الطبع، أمكن في العقول، وأبعد عن القلق، وأوضح

([1]) وانظر كذلك: سورة (المجادلة: 2) . وقد قدمت دراسة بلاغية لخواتم الآيات التي تشمل أسماء (الله) الحسنى المتجاورة مثل (عفو غفور) وغيرها ، وكذلك الأسماء المتبادلة ، بمعنى أنه أحيانًا تنتهي الخاتمة بـ(غفور رحيم) ، وفي موضع آخر ترد (رحيم غفور) . وقد بُنيت الدراسة على إظهار النواحي الدلالية وفاعليتها في هذا. انظر كتابنا: خواتم الآيات التي تشمل أسماء الله الحسنى في القرآن الكريم . دراسة أسلوبية: 104 – 127 .

([2]) وانظر كذلك: سورة (مريم: 54) .

([3]) انظر: البرهان في علوم القرآن ، الجزء الثالث: 274 ، 275 . وانظر بقية النماذج التي ساقها، وعلق عليها: 275.

للمراد، وأفضل عند ذوي التحصيل، وأسلم من التفاوت، وأكشف عن الأغراض، وأنصر للجهة التي تنحو نحو العقل، وأبعد من التعمل الذي هو ضرب من الخداع بالتزويق، والرضى بأن تقع النقيصة في نفس الصورة " [1].

وما يُفهم من كلام عبد القاهر أن الاهتمام بالدلالة هو الأوْلَى، ثم تأتي مرحلة الناحية الشكلية. ولما كان من الصعب على البشر أن يجمع بين هذا وذاك في إبداعاته المتنوعة، على مدى العصور، واستقر هذا الأمر استقرارًا بينًا في كتاب(الله)الكريم، غير ناب ولا شاذ، كانت الناحية اللغوية إحدى نواحي الإعجاز في القرآن الكريم.

والآن نعود مرة أخرى إلى بنية الخطاب في الآية الكريمة، لنناقش ملمحين لغويين: **الأول** التعبير بدال (رب). الآخر: إضافته إلى كاف الخطاب العائد إلى النبي ﷺ. أما الملمح الأول، فقد جاء التعبير بالربوبية؛ لإيمان هؤلاء ب(الله) ربًا منعمًا، وكفرهم به إلهًا، أو على أقل تقدير إشراك غيره معه في العبادة. وكأنه قيل: إن الذي تنعمتم في نعمائه وكفرتم به، لا مفر لكم ولا مهرب اليوم إلا إليه. وفي هذا تبكيت أي تبكيت وخزي أي خزي !!!.

أما الملمح الآخر، فإن إضافة دال (رب) إلى كاف الخطاب العائد إلى النبي ﷺ يشير إلى تلطف مولانا جل في علاه بنبيه الكريم ﷺ، وتسريته لنفسه عما يلاقيه منهم. وعلى الجانب الآخر تنتج هذه الإضافة دلالة عظيمة، فحواها خزي هؤلاء وإبهاتهم؛ إذ كيف بهم في هذا اليوم وهم يلجئون إلى (رب) محمد * الذي سخروا منه ورفضوا دعوته في الدنيا، بل وأنكروا هذا اليوم؟!!!.

---

[1] انظر: أسرار البلاغة: 18 ، 19 .

* قلت: (محمدًا) جريًا على منطقهم ، وأعوذ ب(الله) سبحانه وتعالى وأستغفره من أن أكتب اسم النبي الكريم سيدي وسيد الكل بلا منازع محمد بن عبد الله ﷺ بدون الصلاة والسلام عليه .

وفي تلك الإضافة يقول ابن عاشور: " وفي إضافة (رب) إلى ضمير النبيء ﷺ إيماء إلى أنه ناصره يومئذ بالانتقام من الذين لم يقبلوا دعوته " ([1]).

وفي بنية التقديم والتأخير يقول:" وتقديم المجرور لإفادة الحصر، أي إلى ربك، لا إلى ملجأ آخر. والمعنى: لا ملجأ يومئذ للإنسان إلا منتهيًا إلى ربك، وهذا كقوله تعالى: (وإلى الله المصير) " ([2]).

وفي مواضع أخرى يرد دال (رب) في صورة كاف الخطاب (كَ) في شبه الجملة خبرًا مقدمًا، وذلك مثل قول (الله) تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا **وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ**﴾ (البقرة: 285)، وقوله تعالى على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا **وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ**﴾ (الممتحنة: 4).

وكما هو واضح من تلك النماذج وغيرها، أن اشتمال المجرور على ضمير الخطاب العائد إلى رب العزة سبحانه وتعالى، ورد في منطقة الإضمار؛ لسبق ذكره جل في علاه. ومن الناحية البلاغية تفيد بنية التقديم والتأخير الحصر، كما أفادته في النموذج السابق، وغيره مما يشابهه [*].

3- دال (رب - إله) خبر شبه جملة مقدم للناسخ (إنَّ - أنَّ)

في البنية التركيبية لهذا الضرب من الخطاب، يأتي دال (رب) في منطقة الخبر شبه الجملة المقدم للناسخ (إنَّ، أنَّ). وفي (إنَّ) يرد قول (الله) سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ

([1]) انظر: التحرير والتنوير ، الجزء التاسع والعشرين: 346 .

([2]) انظر: التحرير والتنوير ، الجزء التاسع والعشرين: 346 .

[*] أعتقد أن ما قدمناه من تحليل لبنية الخطاب في النموذج السابق قد أغنانا عن إعادته هنا ؛ لأن الفرق يكمن في سوق الضمير في منطقة الإضمار بدلًا من دال (رب) ، لذكره في السياق . وجدير بالذكر أن دال (إله) لم يرد في بنية هذا الخطاب القرآني .

إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾ (العلق: 8). وفي (أَنَّ) يرد قول (الله) تبارك وتعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ (النجم:42) *.

وفي النموذج الأول، يقول الطرح النحوي:(إِنَّ) حرف ناسخ، و(إلى ربك) شبه جملة خبر (إن) المقدم، والرجعى اسمها المؤخر (1).

ولا يخفى على القارئ الكريم، أن الفرق بين هذا الضرب وسابقه يكمن في تصدير الناسخ (إن) لبنية الخطاب هنا. أما عملية تقديم الخبر شبه الجملة على اسم الناسخ، والإتيان بدال (رب)، وإضافته إلى الضمير المخاطب العائد إلى سيدنا النبيء ﷺ، فتحليل ذلك كما قدمنا في النموذج السابق *.

والعناصر اللغوية الجديدة في بنية هذا الخطاب عن النموذج السابق تكمن في عنصرين: **الأول**: تصدير بنية هذا الخطاب بالناسخ (إِنَّ). **الأخر**: انبناء بنية هذا الخطاب على ظاهرة الالتفات.

---

* لأن الفرق بين الخطابين لا يكمن إلا في كسر همزة (إن) وفتحها ، وهو ما يمكن أن يستشفه القارئ المتلقي من السياق ، فسنكتفي بدراسة النموذج الأول ؛ منعًا للإطالة ، ودفعًا للملل .

(1) انظر: النحاس ، إعراب القرآن: 1344 ، ومحيي الدين الدرويش ، إعراب القرآن الكريم وبيانه ، المجلد الثامن: 363 . وبهجت عبد الواحد صالح، الإعراب المفصل، المجلد الثاني عشر: 472 ، ومحمود سليمان ياقوت، إعراب القرآن الكريم ، المجلد العاشر: 5135 .

* وبخاصة أن الإنسان في قوله: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى﴾ (العلق: 6) ينتمي إلى زمرة الكفار ، مثل عدي ابن ربيعة ، وقيل: يُقْصد به أبو جهل . انظر: الزمخشري ، الكشاف ، الجزء الرابع: 768 . والسيوطي ، أسباب النزول: 300 ، والرازي ، مفاتيح الغيب ، المجلد الثاني والثلاثين: 20 ، وابن عاشور ، التحرير والتنوير ، الجزء الثلاثين: 443 . ولم يذكر ذلك النيسابوري . وعلى كل حال ، واضح من الدلالة طغيان هذا الإنسان ، بما يُفهم منه كفره ب(الله) عز وجل .

ورغم أننا قلنا:إن تقديم (إلى ربك) على المبتدأ المؤخر (الرجعى) يفيد الحصر، كما قدمنا في النموذج السابق ، يقول ابن عاشور التقديم للاهتمام ، ويكتفي بذلك ، وهو ما نفاه علامة العربية عبد القاهر . انظر: التحرير والتنوير، الجزء الثلاثين: 446 . رغم أن ابن عاشور قال في النموذج السابق ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ (القيامة: 12) بعملية (الحصر) . انظر: التحرير والتنوير، الجزء التاسع والعشرين: 346.

وإذا جئنا إلى العنصر **الأول**، ألفينا أن تصدير بنية الخطاب هنا تهدف إلى تأكيد الدلالة، هذا التأكيد الراجع إلى طبيعة المخاطَب، المفهوم من قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ (العلق: 6، 7)؛ ولأن الإنسان هنا – سواء أكان في عمومه، أم أبا جهل - من سماته الطغيان، مما يجعله منكرًا لأمر الرجوع إلى (رب) العزة في الآخرة، كما رأينا عند عدي ابن ربيعة في النموذج السابق. ومن ثم كان التأكيد وتصدير الخطاب بالناسخ (إنَّ): ﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾.

وفي التأكيد يقول ابن عاشور:"وتأكيد الخبر ب(إنَّ)مراعى فيه المعنى التعريضي؛لأن معظم الطغاة ينسون هذه الحقيقة، بحيث يُنَزَّلون منزلة من ينكرها "([1]).

أما العنصر **الأخير**، فقد تأسست بنية الخطاب في الآية الكريمة على أسلوب الالتفات من الغيبة في الآيات السابقة إلى الخطاب في الآية الكريمة، في ضمير (الكاف) المضاف إلى دال (رب). وهنا يقول الزمخشري: " ﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾ واقع على طريقة الالتفات إلى الإنسان، تهديدًا له وتحذيرًا من عاقبة الطغيان " ([2]).

ويقول أبو السعود: " (إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى) تهديد للطاغي وتحذير له من عاقبة الطغيان، والالتفات للتشديد في التهديد، والرجعى مصدر بمعنى الرجوع كالبشري، وتقديم الجار والمجرور عليه لقصره عليه، أي إن إلى مالك أمرك رجوع الكل بالموت والبعث لا إلى غيره استقلالًا ولا اشتراكًا، فسترى حينئذ عاقبة طغيانك" ([3]).

([1]) انظر: التحرير والتنوير ، الجزء الثلاثين: 446 .

([2]) انظر: الكشاف ، الجزء الرابع: 768 . وواضح من كلام الزمخشري أن (كاف) الخطاب يعود عنده إلى الإنسان ، وليس على النبي ﷺ .

([3]) انظر: إرشاد العقل السليم ، الجزء التاسع: 179 . وواضح كذلك من كلام أبي السعود أن (كاف) الخطاب يعود عنده إلى الإنسان ، وليس على سيدنا النبي ﷺ ، كما أورد الزمخشري . وقد ذهب البيضاوي هذا المذهب في معاد الضمير . انظر: محيي الدين شيخ زاده ، الحاشية على تفسير البيضاوي ، الجزء الثامن: 640 . وكذلك ذهب الإمام الرازي ، انظر: مفاتيح الغيب، الجزء الثاني والثلاثين:

ويقول الالوسي:" ﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾ تهديد للطاغي وتحذير له من عاقبة الطغيان. والخطاب قيل للإنسان، والالتفات للتشديد في التهديد، وجُوِّز أن يكون الخطاب لسيد المخاطَبين ﷺ، والمراد أيضًا تهديد الطاغي وتحذيره، ولعله الأظهر نظرًا إلى الخطابات قبله " ([1]).

ويقصد بالخطابات قبله افتتاح السورة الكريمة بخطاب النبيء ﷺ، وذلك في قول (الله) سبحانه وتعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ (العلق: 1 - 3).

يتضح مما سبق أن ثمة اتفاقًا على أن بنية الالتفات تشير إلى التهديد ووعيد الإنسان الطاغي، لكن ليس ثمة اتفاق حول معاد الضمير في (ربك)، أهو إلى النبي ﷺ أم إلى الإنسان الطاغي.

وهنا يقول الإمام الطبري: "﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾. يقول: إن إلى ربك يا محمد مرجعه، فذائق من أليم عقابه ما لا قبل له به " ([2]).

والراجح عندي أن معاد الضمير إلى النبي ﷺ، وليس إلى الإنسان الطاغي، وذلك لأسباب: **الأول** يتمثل في بدء السورة – وهي أول ما نزل من القرآن الكريم – بخطاب النبي ﷺ ، كما أشار إلى ذلك الألوسي.

الثاني: أن هذه الآية جاء على غرارها قوله: ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ (القيامة: 12)، وبخاصة أن الموضعين قد سُبِقَا بالإنسان الكافر أو الطاغي، أبو جهل في سورة (العلق)، وعدي ابن ربيعة في سورة (القيامة)؛ ففي سورة (العلق): ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ

---

19 . وأخيرًا ذهب ابن عاشور هذا المذهب كذلك . انظر: التحرير والتنوير ، الجزء الثلاثين: 446 .

([1]) انظر: روح المعاني ، الجزء الثلاثين: 182 . وواضح من كلام الإمام الألوسي أنه يرجح أن الخطاب لسيدنا النبي ﷺ .

([2]) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، المجلد السابع: 546 . وقد ذهب البقاعي مذهب الإمام الطبري في عود الضمير إلى النبيﷺ.انظر:نظم الدرر، الجزء الثاني والعشرين: 163 .

لَيَطْغَى* أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى * إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾ (العلق:6-8). وفي سورة (القيامة): ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ (القيامة:3)، ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ * يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴾ (القيامة: 5، 6)، ﴿ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ * كَلَّا لَا وَزَرَ * إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ (القيامة:10 - 12).

والمدهش، أن من قال من علماء التفسير بعود الضمير في سورة (العلق) إلى الإنسان انقسموا قسمين في عوده في القيامة؛ فالزمخشري وأبو السعود والبيضاوي لم يذكروا عود الضمير في القيامة ([1]).

أما الإمام الرازي، فقد قاس هذا الموضع – أي موضع سورة القيامة - على عدة مواضع أخرى، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾ (العلق: 8)، وقوله تعالى: ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ (آل عمران: 28، النور: 42، فاطر 18)، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ (الشورى: 53)، وأخيرًا قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى ﴾ (النجم: 42).

وبالرجوع إلى تفسيره في موضع سورة (النجم)، نجده يقول عن الضمير (ك): " في المخاطب وجهان: أحدهما أنه عام تفسيره إلى ربك أيها السامع أو العاقل. ثانيهما الخطاب مع النبي ﷺ وفيه بيان صحة دينه "([2]). أي أنه ساق احتمال عود الضمير إلى النبي ﷺ، مما يجعله يعود إليه ﷺ في سورة (العلق).

وأما ابن عاشور فقد قال بمعاد الضمير– في موضع سورة (القيامة)- إلى النبيﷺ، وذلك حينما قال: " وفي إضافة (رب) إلى ضمير النبيء ﷺ إيماء إلى أنه ناصره يومئذ بالانتقام من الذين لم يقبلوا دعوته " ([3]).

([1]) انظر: الكشاف ، الجزء الرابع: 648 ، وإرشاد العقل السليم ، الجزء التاسع: 66 ، ومحيي الدين شيخ زاده ، الحاشية على تفسير البيضاوي ، الجزء الثامن: 416 .

([2]) انظر: مفاتيح الغيب ، الجزء التاسع والعشرين: 19 .

([3]) انظر: التحرير والتنوير ، الجزء التاسع والعشرين: 346 . ومن الطبيعي أن تفسير موضع سورة (القيامة) ورد عند علماء التفسير قبل موضع سورة (العلق) .

الثالث: أن إضافة (الرب العلي) إلى ضمير (الكاف) تفيد تشريف المضاف، ولا يصح معنى التشريف في إضافة مَنْ على هذه الشاكلة مِنْ جنس الإنسان الكافر ب(الله)، أو حتى المسلم الطاغي.

الأخير: أن عملية الالتفات تكون أبلغ عندما تتم من مخاطَب إلى آخر، وليس من ضمير إلى ضمير في مخاطَب واحد. وبذا، فالأمر على ما قد بينا، في أن ضمير الكاف هنا يعود إلى سيدنا النبي ﷺ. والله بمراده عليم.

يبقى عنصر لغوي مهم في فاصلة بنية هذا الخطاب القرآني، الكامن في دال (الرُّجْعَى). وبالرجوع إلى مصادر التفاسير لعلمائنا الإجلاء الأفاضل، نجد أنهم قالوا: والرجعى مصدر بمعنى الرجوع، مثل البُشْرى [1]، وهو ما قاله ابن منظور[2]. وقد عدل عن لفظ (الرجوع) إلى (الـرُّجْعَى)، مـراعاة لرؤوس الآي قبلها (اسْتَغْنَى)، وبعدها (يَنْهَى) [3].

أما الإمام الزركشي، فقد أورد هذا الدال (الرُّجْعَى) في (الخروج على خلاف الأصل وبيانه)، في القسم (العاشر) الذي عنونه بعنوان (تجيء اللفظة الدالة على التكثير والمبالغة بصيغ من صيغ المبالغة) فيما جاء على وزن (فُعْلَى) [4].

ويفهم من رأي الزركشي أن دال (الرُّجْعَى) ورد على وزن صيغة المبالغة (فُعْلَى) بهدف تكثير الدلالة وتوسعة المعنى، أي أن جميع جنس الرجوع سيئول إلى (رب) العزة جل في علاه، بحيث لا يفلت من ذلك أحد.

وهذا التكثير الدلالي والمبالغة فيه له ناتجان دلاليان: **الأول** شيوع الاطمئنان في قلب المؤمن العابد (لله) جل في علاه؛ إذ الرجوع بكل أشكاله ولكل المخلوقات سيئول إلى معبوده في الآخرة. **الآخر** بعث الخوف والرعب في قلب الكافر والمشرك، نتيجة

---

(1) يحسن الرجوع إلى التفاسير المتعددة للآية الكريمة .

(2) انظر: لسان العرب ، مادة (رجع) .

(3) انظر: بهجت عبد الواحد صالح ، الإعراب المفصل ، المجلد الثاني عشر: 472 .

(4) انظر: البرهان في علوم القرآن ، الجزء الثاني: 515 .

للتهديد والوعيد اللذين نتجا بفعل بنية الالتفات التي أسِّسَتْ عليها بنية الخطاب القرآني في تلك الآية الكريمة.

وهكذا وصلنا إلى أن دال (الرجعى) فيه مبالغة ليس في المصدر (الرجوع)، ولذا لم يكن وروده على هذه الصيغة بهدف مشاكلة رؤوس الآي بقدر ما كان يحمل من مبالغة في دلالة (الرجوع). ولو كان الهدف صوتيًا لأورده الزركشي في أغراض بنية التقديم والتأخير [*].

المبحث الخامس: دال (رب - إله) في موقع الجر

بداية، يندرج تحت موقع الجر منطقتان نحويتان: المجرور بحر الجر، والمجرور بالإضافة. أما الضرب **الأول** فإن حروف الجر فيه تنقسم إلى نوعين: حروف لا تجر إلا الاسم الظاهر فحسب، وهي سبعة أحرف: منذ، مذ، حتى، الكاف، الواو، رب، التاء ([1]). وما يختص منها بدال (رب) هو (واو) القسم .

ويرد هذا الخطاب في حالة إضافة دال (رب) إلى ضمير المتكلم المفرد (ي) مثل قول (الله) تعالى: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي **وَرَبِّي** إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ (يونس: 53) ([2]). كما يرد كذلك في إضافة دال (رب) إلى ضمير المتكلم الجمع (نا)، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى **وَرَبِّنَا** قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾(الأنعام: 30) ([3]).

---

[*] جدير بالذكر أن دال (إله) لم يرد في بنية هذا الخطاب القرآني .

([1]) انظر:شرح ابن عقيل ، المجلد الثاني ، الجزء الثالث: 10 . جدير بالذكر أن دال (إله) لا يرد في منطقة الجر.

([2]) وانظر كذلك: سورة (سبأ: 3) ، وسورة (التغابن: 7) .

([3]) وانظر كذلك: (الأحقاف:34) . ولأن الجار والمجرور هنا يتعلق بفعل محذوف تقديره (أقسم – نقسم) سأرجئ هذا الضرب من بنية الخطاب إلى المتعلق الزمني .

أما النوع الآخر من حروف الجر، فهي الحروف التي تجر الاسم الظاهر وكذلك الضمير ([1]). وما يختص منها بدال (رب) وبالضمائر التي تعود إليه سبحانه وتعالى، يتمثل في: إلى، على، مِنْ، الباء، في، اللام. وبذا تبلغ عدد حروف الجر التي ترد مع دال (رب) سبعة أحرف [*].

أما الإضافة، فمنها الإضافة المعنوية ومنها الإضافة اللفظية، كما سندرس في موضعه. ولكن ينبغي التنبه إلى أننا سوف نتناول بالدراسة في موقع الجر، دال (رب) في حالة الإظهار، وكذلك في حالة الإضمار([2]).

أولًا: المجرور بحرف الجر

ولأن الجر والمجرور لا يؤدي معنى مستقلًا بذاته، إلا من خلال علاقته مع ما يجاوره من الدوال التي توزع (في محور التوزيع – الحركة الأفقية) حسب وظائفها النحوية، التي لا تخدم إلا الجوانب الدلالية، فكان لابد للجر والمجرور من متعلق يبرز معناه، ويوضح الهدف من مجيئه ([3]).

ولما كان الجر والمجرور من التراكيب المستخدمة في اللغة على نطاق واسع، تعددت المواقع النحوية المتعلَّق بها. وتكاد تنقسم هذه المواقع إلى قسمين: **الأول** الموقع الاسمي و**الآخر** الموقع الزمني. ولما كانت الدراسة قائمة هنا في إطار دراسة دال

([1]) انظر:المبرد، المقتضب، الجزء الرابع:136–147، وابن السراج، الأصول في النحو، الجزء الأول: 408 - 429.

[*](إله) لم يرد مجرور بحروف الجر إلا ب(من)الزائدة–نحويًا–ويعرب حسب موقعه في الجملة .

([2])هذا على المستوى النحوي تيسيرًا للدراسة .أما على المستوى الدلالي ، ف(رب) العزة تعالى حاضر.

([3]) من أنواع التعلق ، تعلق الجر والمجرور بمحذوف خبر ، سواء أكان هذا الخبر مقدمًا أم مؤخرًا . وهذا الضرب تمت دراسته في ورود دال (رب) شبه جملة في منطقة الخبر، والخبر المقدم. وما قدمناه سابقًا يغني عن تكراره هنا.

(رب) في التركيب الاسمي، فسندرس تعلق الجر والمجرور بالاسم، مرجئين تعلقه بالفعل عند دراسة دال (رب) في التركيب الزمني.

التعلق في الموقع الاسمي

1- دال (رب - إله) اسم في موقع المجرور بحرف الجر

وفي الموقع الاسمي، ثمة رتب نحوية كثيرة، يتم تعلق الجر والمجرور بها، ومنها التعلق بخبر المبتدأ، مثل قوله سبحانه وتعالى: ﴿ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (البقرة: 178)، وقوله تعالى:﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (السجدة: 2). وقوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (القيامة 22، 23).

وأحيانًا يكون التعلق بخبر الناسخ ، ففي التعلق بخبر الناسخ (كان) يرد قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ (الإسراء: 27)، وفي التعلق بخبر (بات) يرد قوله تعالى:﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ (الفرقان: 64). وفي التعلق بخبر (إن) يرد قول (الله) سبحانه وتعالى:﴿ قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ (الأعراف: 125) ([1]).

وأحيانًا يكون التعلق بمحذوف صفة، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ (البقرة: 49) ([2]).

([1]) وانظر: سورة (الأنعام: 114) ، وسورة (الاعراف 75) ، وسورة (المؤمنون: 60) ، وسورة (الشعراء: 50) ، و(العنكبوت: 26) ، و(الصافات: 99) ، و(الانشقاق: 6) ، و(الزخرف: 14) ، و(القلم: 32) ، و(العاديات: 6) .

([2]) وانظر: سورة (البقرة: 5، 105، 178، 198، 248). وسورة (البقرة: 178) ، وسورة (آل عمران 49) ، وسورة (الأنعام: 57) ، وسورة (هود: 28 ، 63 ، 88) ، وسورة (الاسراء: 87) ، وسورة (الكهف: 98) . وغيرها .

وأحيانًا أخرى يرد التعلق بمحذوف حال، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (البقرة: 149) ([1]).

وربما يرد صاحب الحال نكرة متأخرة عن الجار والمجرور فيعرب الجار والمجرور حالًا من النكرة المتأخرة ([2])، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ (الأعراف: 71). في هذه الآية الكريمة ثمة خلاف بين النحويين؛ ففي حين أعرب محيي الدين الدرويش (من ربكم) جارًا ومجرورًا متعلقين بمحذوف صفة ل(رجس) ([3])، أعرب كل من بهجت عبد الواحد صالح ومحمود سليمان ياقوت (من ربكم) جارًا ومجرورًا متعلقين بمحذوف حال من (رجس) ([4]).

والذي يرجح إعراب بهجت عبد الواحد صالح ومحمود سليمان ياقوت، الذي جاء متسقًا مع ما أورده الدكتور السامرائي، ما ذهب إليه الخليل بن أحمد في نصب نعت النكرة المقدم عليها ([5]).

وفي قول (الله) سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ (الفرقان: 57)، قدم النحويون ثلاثة أوجه إعرابية لإعراب الجار والمجرور (إلى ربه) ([6]).

([1]) وانظر كذلك: سورة (المائدة: 64) ، وسورة (الأنعام: 114) ، وسورة (يونس: 37) ، وسورة (هود:17) ، وسورة (الفرقان:64) ، وسورة (القصص: 53) ، وسورة (محمد : 2 ، 3) .

([2]) انظر: فاضل السامرائي ، معاني النحو ، الجزء الثاني: 290 ، وهوامشها .

([3]) انظر: إعراب القرآن الكريم وبيانه ، المجلد الثاني: 578 .

([4]) انظر: الإعراب المفصل ، المجلد الرابع: 13 . وقد علل بهجت ذلك ، بأن النكرة (رجس) تأخرت عن الجار والمجرور، وانظر محمود سليمان ياقوت: إعراب القرآن الكريم ، المجلد الرابع: 1620 .

([5]) انظر: الجمل في النحو: 75 .

([6]) أعرب محيي الدين الدرويش الجار والمجرور (إلى ربه) في موضع المفعول الثاني للفعل (يتخذ) . انظر: إعراب القرآن الكريم وبيانه ، المجلد الخامس: 368 . وأعرب بهجت صالح الجار والمجرور متعلقًا بالفعل (يتخذ) أو متعلقًا بحال محذوفة من (سبيلًا) . انظر: الإعراب المفصل ، المجلد

وأحيانًا يكون التعلق بالمفعول به، مثل قول (الله) تبارك وتعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً **إِلَى رَبِّكُمْ** وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (الأعراف: 164) ([1]).

ومعنى تعلق الجار والمجرور بغيره، أي ارتباط معناه بمعنى غيره، أو لزومه به ([2]). وهذا معناه، أن الجار والمجرور لا يعطي معنى وحده، وإنما يتوقف عطاؤه الدلالي على ارتباطه بغيره من دوال التركيب اللغوي الذي يرد فيه. وفي هذا الإطار قد يكون المتعلق به مقدمًا: فعلًا أو اسمًا، وقد يكون مؤخرًا: فعلًا أو اسمًا أيضًا، وهو ما سيتضح لنا في الجانب التطبيقي.

الثامن: 142 . وأعرب محمود سليمان ياقوت الجار والمجرور متعلقًا بالفعل (يتخذ) فقط . انظر: إعراب القرآن الكريم ، المجلد السابع: 3283 . وانظر كذلك في هذا الضرب قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ (المزمل: 19) . وانظر كذلك في اختلاف تعلق الجار والمجرور (إلى ربه) كلًا من:محيي الدين الدرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه ، المجلد الثامن: 119، وعلى الرغم من عدم إعراب الدرويش للجار والمجرور نفسه (إلى ربه) في التركيب نفسه (أَنْ يَتَّخِذَ **إِلَى** رَبِّهِ سَبِيلًا) في موضع الفرقان: 57 متعلقًا بحال من (سبيلًا) ، علقه هنا بحال من (سبيلًا) . وانظر كذلك: بهجت صالح ، الإعراب المفصل ، المجلد الثاني عشر: 228 ، ومحمود سليمان ياقوت ، إعراب القرآن الكريم ، المجلد العاشر: 4866 . وانظر كذلك: سورة (الإنسان: 29) ، وسورة (النبأ: 39) ، وما دار حولهما من خلاف في تعلق الجار والمجرور في كتب الإعراب المتعددة . ويبدو أن عملية التعلق تختلف من نحوي لآخر ، حسب فهمه للمعنى وتأويله للآية التي يتعرض لإعراب دوالها ، مما يجعل هذا الموضع موضعًا مستقلًا بذاته ، يحتاج إلى دراسة منفردة .

([1]) في هذه الآية الكريمة ثمة أوجه إعرابية متعددة لدال (معذرة): إما أن تكون مفعولًا مطلقًا. أو مفعولًا لأجله، أو مفعولًا به . ومن ثم فإن تعلق الجار والمجرور (إلى ربكم) ستتعدد أوجه تعلقه كذلك . انظر: محيي الدين الدرويش ، إعراب القرآن الكريم وبيانه ، المجلد الثالث: 67 ، وبهجت عبد الواحد صالح: الإعراب المفصل ، المجلد الرابع: 118 ، ومحمود سليمان ياقوت : إعراب القرآن الكريم ، المجلد الرابع: 1717 .

([2]) انظر: ابن منظور ، لسان العرب ، مادة (علق) .

وكما هو واضح، فإن إجراء تعلق الجار والمجرور يتشعب ويتعدد ربما بتعدد اللغويين أنفسهم؛ إذ إن مناطق الخلاف بينهم كثيرة، وهذا الخلاف منشأه تأمل كل عالم من هؤلاء العلماء الأفاضل لمفهوم الآية الكريمة التي يدرسها.والحق نقول: إن هذا الخلاف يكسب عملية الدراسة ثراء وحيوية، ما كان لعملية التحليل أن تكتسبهما لولا الخلاف في وجهات النظر هذه.

وكما أكسب هذا الخلاف اللغة ثراء وحيوية أكسبها كذلك حركية وديناميكية، جعلت الدارس يتمتع بما يقرأه وبما يدرسه، وبما يحاول من فهم لوجهات النظر هذه. وكل هذا لأن لغة القرآن الكريم لغة معجزة: هل حدث هذا الخلاف بين العلماء في إعراب دال من دوال قصيدة شعرية على سبيل المثال، بوصف الشعر أعلى الفنون الأدبية وأرقاها؟!!!. والإجابة بكل تأكيد: لا.

لذا، كان من الصعب علينا أن ندرس كل تلك الجهات المتعلق بها الجار والمجرور، ونعرض كل وجهات النظر تلك ونناقشها؛ إذ إن هذه العملية تحتاج إلى بحث مستقل. ومن ثم فإننا سنختار – منعًا للإطالة - نموذجًا واحدًا محاولين فهمه من خلال الدخول إلى نسيجه اللغوي بالتحليل ومناقشة وجهات النظر لعلمائنا الأفاضل، جزاهم (الله) عنا خير الجزاء.

ليكن هذا النموذج – على سبيل المثال – قول (الله) سبحانه وتعالى:﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ **لِرَبِّهِمْ** سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ (الفرقان: 64). وإذا جئنا إلى إعراب دوال بنية الخطاب في تلك الآية الكريمة، نجد أن الكل مجمع على أن: (الذين) معطوف على الموصول قبلها في قوله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ **الَّذِينَ** يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ (الفرقان: 63).

والخلاف في دال (يبيتون)؛ فبينما قدم الدرويش وجهين لإعراب الفعل: أحدهما أنها ناقصة ناسخة من أخوات كان، والآخر أنها تامة ([1])، وذهب محمود سليمان ياقوت المذهب نفسه ([2])، قدم بهجت صالح وجهًا واحدًا تمثل في تمام (بات)([3]).

وكما بدا الخلاف في إعراب (يبيتون)، بدا كذلك في تعلق الجار والمجرور (لربهم)؛ فبينما علقه محيي الدين الدرويش ومحمود سليمان ياقوت ب(سجدًا)، علقه بهجت عبد الواحد صالح ب(يبيتون).

وكان طبيعيًا أن يبدو الخلاف كذلك في إعراب دال (سجدًا)، بناء على إعراب (يبيتون)، فقد أعرب الدرويش وياقوت (سجدًا) إما خبر (يبيتون) في حالة كونها ناقصة و(الواو) اسمها، أو حالًا في حالة كونها تامة. على الجانب الآخر أعربها بهجت صالح حالًا فحسب، بناء على ما قدمه لإعراب (يبيتون)، على أساس أنَّ (يبيتون) فعل من الأفعال الخمسة، و(واو) الجماعة فاعلة.

أما دال (قيامًا)، فقد أعربه الدرويش ومحمود ياقوت معطوفًا على (سجدًا)، وأعربه بهجت صالح حالًا ثانيًا ([4]).

وإذا سلطنا الضوء على الجار والمجرور - بوصفه ما نحن بصدد دراسته الآن - نجد أن موقف النحو التقعيدي قد تبلور تجاهه في وجهين: **الأول** أن الجار والمجرور تعلَّق بالفعل (يبيتون) قبله عند بهجت عبد الواحد صالح. **الآخر** أن الجار والمجرور تعلق بدال (سجدًا) بعده عند الدرويش وياقوت.

ويفهم من الوجه **الأول** أن تعلق الجار والمجرور بما قبله في الفعل (يبيتون) يؤدي إلى انفتاح الدلالة واتساعها؛ بمعنى أن عباد الرحمن يقضون ليلهم (لربهم)، بما يوحي بشمول كل ما يُرضي (الرب) العلي من أعمال الخير المنتمية إلى العبادة الفردية

([1]) انظر: إعراب القرآن الكريم وبيانه ، المجلد الخامس: 375 .

([2]) انظر: إعراب القرآن الكريم ، المجلد الثاني: 3288 .

([3]) انظر: الإعراب المفصل ، المجلد الثامن: 149.

([4]) انظر في كل هذا: المصادر الثلاثة السابقة ، الصفحات نفسها .

السرية بين العبد وربه: مثل قراءة القرآن الكريم، والذكر والتسبيح، والصلاة، والصلاة على النبي ﷺ. وقد تشمل تلك الأعمال قضاء حوائج الناس بالتفكر في حل قضاياهم ومشكلاتهم...إلخ. هذا إذا توقفت القراءة عندالجار والمجرور، وتم تعليقه بالفعل (يبيتون) (وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ).

أما الوجه **الآخر**، فيفهم منه أن تعلق الجار والمجرور ب(سجدًا) والمعطوف عليه (قيامًا) يؤدي إلى اقتصار الدلالة واختصاصها وحصرها في المتعلق به (سجدًا)، والمعطوف عليه (قيامًا). ويمكن توضيح ذلك في الشكل الآتي:

يَبِيتُونَ ← (انفتاح الدلالة) ← لِرَبِّهِمْ ← (اقتصار الدلالة) ← سُجَّدًا وَقِيَامًا

فإن قيل: أيَّ اتجاه تؤيد؟ قلتُ: الأخير لأسباب: **الأول** أن الآية الكريمة، لم تهدف إلى انفتاح الدلالة واتساعها، بدليل استمرارها فيما يقصر الدلالة بذكر المتعلق به (سجدًا وقيامًا). ولنا أن نتعرف على انفتاح الدلالة في جانب المؤمنين في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ * . وفي جانب غير المؤمنين في قوله: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ (المؤمنون: 63).

الثاني: أن الأعمال الليلية غالبًا ما تقتصر في القرآن الكريم على الصلاة. ولنا أن نقرأ خطاب مولانا عز وجل لنبيه وحبيبه ﷺ ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ (الإسراء: 79) ([1]). وفي السنة الشريفة، لك أن تراجع (كتاب التهجد) عند الإمام البخاري.

الأخير: أنه من الممكن أن تشمل العبادة الليلية المتمثلة في قيام الليل معظم العبادات الفردية، من ذكر وتسبيح واستغفار ودعاء، وكل هذا في الصلاة والسجود والوقوف بين يدي (الله) عز وجل، مما يذهب بنا إلى انفتاح الدلالة مرة أخرى. ومن هنا، يمكن لنا أن نقول: إن تعلق الجار والمجرور بالمتأخر (السجود والقيام) يحوي

---

* هذا التركيب اللغوي من الكثرة بمكان في التنزيل العزيز ، يحسن الرجوع إلى مواضعه وتأملها .

([1]) وانظر كذلك: سورة (السجدة: 15 ، 16) ، سورة (ق: 40) ، وسورة (الإنسان: 26) .

في طياته انفتاح الدلالة، مع اقتصارها على المتعلق به. وهذه هي قمة البلاغة القرآنية، التي لا تدانيها بلاغة، وهذا هو الإعجاز القرآني، الذي لا يصل إليه إعجاز. ومن ثم، كان التعلق بالمتأخر (سجدًا وقيامًا) أبلغ [*].

وأعتقد أنه لا يخفي على الأريب أن تقديم الجار والمجرور (لربهم) لحصر عبادة السجود والقيام للرب العلي، لا لغيره. وإذا بني التركيب على تأخير الجار والمجرور (والذين يبيتون سجدًا وقيامًا لربهم)، فإن عبادة السجود والقيام قد تكون للرب العلي وقد تكون لغيره.

وهذا التعلق بين الجار والمجرور (لربهم) بالسجود والقيام في وقت البيتوتة يشير إلى السبيل الأمثل في الوصول إلى رضا (الله) تبارك وتعالى، ناسفًا بذلك أي بيتوتة تُقْضَى في غير طاعة (الله) عز وجل. ومن هنا يمكن أن نفهم أن السجود والقيام عملان ظرفهما البيتوتة، ومقصدهما (الله) في علاه. ولما كان ذلك كذلك، وُصِفَ من يفعلون هذا بأنهم (عباد الرحمن).

والآن ننظر ماذا قالت التفاسير في بنية الخطاب في الآية الكريمة، وبخاصة في عملية التعلق، والحركة الأفقية للجار والمجرور/ أي تقديمه، وسبق السجود للقيام.

تُستهل تلك الأراء بقول البيضاوي:"﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ (الفرقان: 64) في الصلاة، وتخصيص البيتوتة؛ لأن العبادة بالليل أحمز وأبعد من الرياء. وتأخير القيام للروي" ([1]).

---

[*] وبعد ذلك يدعي المدعون ارتباط القرآن الكريم بثقافة ما ، وبتاريخ ما . وفي رأيي أن هذا الإعجاز هو الذي يذهب بعقل كل من تسول له نفسه محاولة نزع القداسة عن الذكر الحكيم ، بهدف تحويله إلى كتاب بشري .

([1]) انظر: محيي الدين شيخ زاده ، الحاشية على تفسير البيضاوي ، الجزء السادس: 311 .

ويقول أبو السعود:"﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾بيان لحالهم في معاملتهم مع ربهم... وتقديم السجود على القيام لرعاية الفواصل" ([1]).

ويقول الألوسي:" و(لربهم) متعلق بما بعده، وقُدِّمَ للفاصلة والتخصيص...وقدم السجود على القيام ولم يعكس وإن كان متأخرًا في الفعل لأجل الفواصل؛ ولأنه أقرب ما يكون العبد فيه من ربه سبحانه، وإباء المستكبرين عنه في قوله تعالى: (وإذا قيل) الآية " ([2]). ويقصد بالآية قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ (الفرقان: 60).

ونختم تلك الأراء برأي ابن عاشور الذي يقول: " وتقديم (سجدًا) على (قيامًا) للرعي على الفاصلة مع الإشارة إلى الاهتمام بالسجود، وهو ما بينه النبي ﷺ بقوله: (أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد) ([3]).

ومن النحويين الذين تابعوا المفسرين في تقديم السجود وتأخير القيام للروي محيي الدين الدرويش، حيث يقول:" وقدم السجود على القيام؛ وإن كان القيام قبله في الفعل؛ لمراعاة الفواصل"([4]).

وكما قلتُ من قبل: إن عملية مراعاة الفواصل بوصفها جانبًا صوتيًا، لا يمكن أن تكون هي الهدف الأول في عملية توزيع الدوال اللغوية لأي تركيب، وإنما يكمن الهدف الأول في الدلالة؛ لذا عيب على الشعر التكلف في صنع القوافي، وإن شئت ارجع إلى كتاب عيار الشعر للعلوي، ونقد الشعر لقدامة، والصناعتين للعسكري وغير هذه الكتب، لتدرك تكلف الشعراء في صنع القافية، على حساب الدلالة ([5]).

([1]) انظر: إرشاد العقل السليم ، الجزء السادس: 228 .

([2]) انظر: روح المعاني ، الجزء التاسع عشر: 45.

([3]) انظر: التحرير والتنوير ، الجزء التاسع عشر: 70 .

([4]) انظر: إعراب القرآن الكريم وبيانه ، المجلد الخامس:375 .

([5]) سبق أن قدمتُ رأيي في هذه المسألة . انظر هذه الدراسة: 188 – 190 . وانظر طرح عبدالقاهر: أسرار البلاغة: 18 ، 19 . والغريب أن الزمخشري ، برغم ما يقال عن تفسيره (الكشاف) بأنه

ومن ثم، لا أوافق على ما طُرِحَ من أن عملية التقديم والتأخير وردت لعلة الفواصل وإذا كان البيضاوي وأبو السعود قد عللا تأخير القيام لمراعاة الفواصل، بعيدًا عن مراعاة الدلالة، فقد عزا كل من الألوسي وابن عاشور عملية التقديم والتأخير في جانب منها إلى الدلالة. فقد قال الأول: (ولأنه أقرب ما يكون العبد فيه من ربه سبحانه وإباء المستكبرين عنه في قوله تعالى: (وإذا قيل) الآية)، وقال الآخر: (مع الإشارة إلى الاهتمام بالسجود، وهو ما بينه النبي ﷺ بقوله: (أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد).

إذن، لماذا نعلل ذلك بالجانب الصوتي، ما دام الجانب الدلالي يبرره؟ والصحيح – من وجهة نظري – أن نضع الجانب الدلالي في المقام الأول، ثم نقول: وللإعجاز اللغوي في القرآن الكريم، تناسبت بنية التقديم والتأخير مع انسجام آيات الذكر الحكيم صوتيًا، وهو ما يولد الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم من هذه الزاوية.

وإذا أردتَ أن تنظر إلى صواب الرأي، وبراعة التعليل، فعليك أن تقرأ قول الإمام البقاعي في هذه الآية الكريمة، إذ يقول " ولما كان السجود أشد أركان الصلاة تقريبًا إلى الله، لكونه أنهى الخضوع - مع أنه الذي أباه الجاهلون، قدمه لذلك، وليعلم بادئ بدء أن القيام في الصلاة- فقال (سجدًا)، وأتبعه ما هو تلوه في المشقة تحقيقًا؛ لأن السجود على حقيقته، فيتمحص الفعلان للصلاة، فقال (وقيامًا) أي ولم يفعلوا فعل الجاهلين من التكبر عن السجود، بل كانوا – كما قال الحسن رحمه الله-: نهارهم في خشوع، وليلهم في خضوع " ([1]).

وفي معنى (الواو) غير العاملة يقدم الإمام الزركشي وظيفتها الأولى في العطف، حيث يقول: " الأول– أي معناها الأول –وهو أصلها – العاطفة تشرك في الإعراب

تفسير بياني ، وأنه أفاد من الجاحظ وعبد القاهر ، لم يتعرض لجماليات بنية الخطاب في هذه الآية الكريمة

([1]) انظر: نظم الدرر ، الجزء الثالث عشر: 422 .

والحكم. وهي لمطلق الجمع على الصحيح، ولا تدل على أن الثاني بعد الأول، بل قد يكون كذلك وقد يكون قبله، وقد يكون معه. ويضرب مثالًا للنوع الثاني، الذي يحل فيه المعطوف قبل المعطوف عليه، وهو في الأصل بعده بقوله تعالى: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ (آل عمران: 43)، ويقول: والركوع قبل السجود، ولم ينقل أن شرعهم كان مخالفا لشرعنا في ذلك " ([1]).

وقول الإمام الزركشي صحيح، لكن هذا على المتعارف عليه نظريًا بين الناس من أن الركوع قبل السجود، أما إذا دخل الدالان في تركيب لغوي، ورد السجود قبل الركوع على خلاف الظاهر، ليس للفاصلة، ولكن لدواع دلالية تخص معاني التركيب اللغوي مرتبطة بالسياق والمخاطِب والمخاطَب...إلخ.

وهذا الطرح هو الذي حدا – من قبل - بالإمام البقاعي إلى القول في موضع (آل عمران: 43):"ولما قدم الإخلاص الذي هو روح العبادة أتبعه أشرفها فقال: (واسجدي) فإن أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد " ([2]).

وفضلًا عما قُدِّم من علل تقديم السجود على القيام أو الركوع في الدنيا، نرى هذا ماثلًا في الآخرة، وهو قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ (القلم: 42)، وذلك قبل أن يقرعهم بتكبرهم عن السجود في الدنيا بقوله: ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾ (القلم: 43). علمنا (الله) وإياكم، وغفر لنا ولكم.

2- **دال (رب - إله) ضمير في موقع المجرور بحرف الجر**

وأحيانًا يرد دال (رب) في صورة الضمائر المتعددة، في منطقة الجر بحروف الجر؛ فمثلًا يرد المتكلم (نا) مقترنًا بحرف الجر (على) في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ **عَلَيْنَا**

([1]) انظر: البرهان في علوم القرآن ، الجزء الرابع: 436 .

([2]) انظر: نظم الدرر ، الجزء الرابع: 272 .

بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ (القلم: 39). وبالتأمل يلحظ أن الجار والمجرور (علينا) متعلق بمحذوف صفة من دال (أيمان) ([1]).

فإن قيل: أين دال (رب) العائد إليه الضمير (نا) في هذه الآية؟ قلت: في قوله سبحانه وتعالى في الآية السابقة على هذا الموضع: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ (القلم: 34).

وأحيانًا يرد دال (رب) في صورة ضمير المتكلم(نا)مقترنًا بحرف الجر(إلى)، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ **إِلَيْنَا** رَاجِعُونَ﴾ (الأنبياء:93). وبالتأمل كذلك يدرك أن الجار والمجرور (إلينا) متعلق بالخبر (راجعون) ([2]).

فإن قيل: أين دال (رب) العائد إليه الضمير (نا) في هذه الآية؟ قلت: في قوله في الآية السابقة: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: 92)([3]).

ثانيًا:. دال (رب - إله) في التركيب الإضافي

يقول ابن يعيش في الإضافة:" اعلم أن إضافة الاسم إلى الاسم إيصاله إليه من غير فصل، وجعل الثاني من تمام الأول يتنزل منه منزلة التنوين. وهذه الإضافة على ضربين: إضافة لفظ ومعنى، وإضافة لفظ فقط ".

([1]) انظر: محيي الدين الدرويش ، إعراب القرآن الكريم وبيانه ، المجلد الثامن: 37 ، وكذلك بهجت عبد الواحد صالح ، الإعراب المفصل ، المجلد الثاني عشر: 127 . ومحمود سليمان ياقوت: إعراب القرآن الكريم ، المجلد العاشر: 4779 .

([2]) انظر: الإعراب المفصل ، المجلد السابع: 260 . وياقوت: إعراب القرآن الكريم ، المجلد السادس: 2997 .

[3] ويطول بنا الأمر لو أحصينا كل الشواهد القرآنية على ذلك ، والفرق بين تلك المواضع والمواضع السابقة هو ظهور دال (رب) في منطقة الإضمار بالضمائر المتعددة ، والإضمار ظاهرة لغوية يفرضها السياق اللغوي ذاته ؛ لوجود دال (رب) في منطقة الإظهار التي ترد قبل الإضمار . واتساقًا مع جماليات اللغة العربية ونواميسها يرد دال (رب) في منطقة الإضمار ؛ لذا ، سنكتفي بما درسناه من نماذج في منطقة الإظهار ، تاركين البقية لتأمل القارئ .

ثم يخصص ابن يعيش كلامه عن الإضافة المعنوية قائلًا: " أما الإضافة المعنوية فأن تجمع في الاسم مع الإضافة اللفظية إضافة معنوية. وذلك بأن يكون ثَمَّ حرف إضافة مقدر يوصِل معنى ما قبله إلى ما بعده ".

وفي وظيفة الإضافة المعنوية يقول:"وهذه الإضافة هي التي تفيد التعريف والتخصيص، وتسمى المحضة، أي: الخالصةَ بكون المعنى فيها موافقًا للفظ. وإذا أضفته إلى معرفة، تَعَرَّفَ...وإذا أضفته إلى نكرة اكتسب تخصيصًا، وخرج بالإضافة عن إطلاقه ".

وفي معنى الإضافة المعنوية يقول: " وهذه الإضافة المعنوية تكون على معنى أحد حرفين من حروف الجر، وهما (اللام) و(مِنْ). فإذا كانت الإضافة بمعنى (اللام) كان معناها المِلْكَ والاختصاصَ، وذلك قولك: (مال زيد)، أي مال لزيد....وإذا كانت الإضافة بمعنى (مِنْ)، كان معناها بيان النوع، نحو قولك: (هذا خاتم حديد) ، أي خاتم من حديد" ([1]).

أما عن تقدير حرف الجر، فيقول ابن الحاجب: " التقدير شرطه أن يكون المضاف اسمًا مجردًا تنوينه لأجلها "([2]). أي يجرد تنوين الاسم عند إضافته.

وللدكتور فاضل السامرائي رأي في تقدير حرف جر في عملية الإضافة، يقول: " والحق فيما نرى أن الإضافة تعبير آخر ليس على تقدير حرف، فقد يصح تقدير

([1]) انظر: شرح المفصل ، الجزء الثاني: 126. وكذلك ابن السراج ، الأصول في النحو ، الجزء الثاني: 5 ، وانظر كذلك: الرضي ، شرح الرضي: الجزء الثاني: 206 - 209 . وقد أضاف ابن مالك على حرفي (اللام) و(من) حرف الجر (في) . انظر: ابن عقيل ، شرح ابن عقيل ، المجلد الثاني ، الجزء الثالث: 43 . والرضي ، شرح الرضي على الكافية ، الجزء الثاني: 206 .

([2]) انظر: الرضي ، شرح الرضي على الكافية ، الجزء الثاني: 204 .

حرف في تعبير، وقد يمتنع تقدير أي حرف في تعبير آخر، وما صح تقديره بحرف لا يطابق معناه معنى المقدر. فهي– أي الإضافة– أعم من أن تكون بمعنى حرف"([1]).

وأنا أوافق الدكتور السامرائي في هذا الرأي؛ إذ لا يمكن أن يكون الناتج الدلالي في عدم تقدير حرف جر بين المضاف والمضاف إليه، مثل تقديره.

وأما الضرب الثاني من الإضافة، فهو الإضافة اللفظية / غير محضة . وفيها يقول ابن يعيش:" الإضافة اللفظية أن تضيف اسمًا إلى اسم لفظًا، والمعنى على غير ذلك. ويقال لها: غير محضة، إنما يحصل ثَمَّ اتصال وإسناد من جهة اللفظ لا غير، وذلك ضربان: أحدهما اسم الفاعل إذا أضفته، وأنت تريد التنوين، مثل (هذا ضاربُ زيدٍ غدًا) إذا أردت الاستقبال، وكذلك الحال.

الثاني – أي الضرب الثاني – الصفة الجاري إعرابها على ما قبلها، وهي في المعنى لما أضيفت إليه، وذلك نحو: (مررتُ برجلٍ حسنِ الوجه، معمورِ الدار) " ([2]).

والمضاف في تلك الحالات هو الوصف العامل، المتمثل في اسم الفاعل(ضارب)، واسم المفعول (معمور)، والصفة المشبهة (حسن). فإذا كان المضاف غير وصف، أو وصفًا غير عامل، فالإضافة محضة، نحو (عجبتُ مِنْ ضَرْبِ زيدٍ) واسم الفاعل بمعنى الماضي، نحو: (هذا ضاربُ زيدٍ أمس) ([3]). هذا على مستوى التقعيد النحوي.

1- دال (رب - إله) اسم في موقع المضاف إليه *

([1]) انظر : معاني النحو ، الجزء الثالث: 118 . وعلى كل حال ، فإن ما قُدِّم في مسألة الإضافة من الكثرة بمكان .

([2]) انظر: شرح المفصل ، الجزء الثاني: 127 ، 128 . وانظر كذلك: ابن السراج ، الأصول في النحو ، الجزء الثاني: 6 .

([3]) انظر : ابن عقيل ، شرح ابن عقيل ، المجلد الثاني ، الجزء الثالث: 45 .

* جدير بالذكر أن دال (إله) لم يرد في منطقة المضاف إليه ، لا بالاسم ولا بالضمير .

يرد دال (رب) في منطقة الإضافة في مواضع كثيرة في كتاب(الله) سبحانه وتعالى. ومنعًا للإطالة، كان لابد لنا أن نقتصر على بعض المواضع بوصفها نماذج لما نحن بصدد دراسته الآن .

فمثلًا نأخذ دال (تنزيل)، ودال (رحمة) في حالة الإضافة بعدم تقدير حرف جر، وبتقدير حرف جر. في الصورة الأولى يرد قول (الله) سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الشعراء: 192). وفي الصورة الأخرى يرد قوله تبارك وتعالى: ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الواقعة: 80) ([1]).

أما دال (رحمة)، فيرد في الصورة الأولى في قول (الله) تبارك وتعالى: ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ (ص: 9) . وفي الصورة الأخرى يرد قول (ربنا) جل في علاه: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا﴾ (الإسراء: 28) ([2]).

وما جعلنا نسوق الصورة الأخيرة بحرف الجر (مِنْ)؛ لأن هذا الحرف هو المقدر في الصورة الأولى، وليس (اللام) أو (في)، فلا يصح أن أقول: (تنزيل لرب العالمين)، أو (تنزيل في رب العالمين).

وفي الصورة الأولى لدال (تنزيل): ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الشعراء: 192). يقول الجانب الإعرابي: إن (الواو) استئنافية، و(إِنَّ) ناسخة، و(الهاء) اسمها عائد إلى القرآن الكريم، و(اللام) مزحلقة واجبة في خبر (إِنَّ)، و(تنزيل) خبر (إِنَّ) مرفوع، وهو

([1]) وانظر كذلك : سورة (الحاقة: 43) .

[2] وانظر كذلك: سورة (الإسراء: 87) ، وسورة (الكهف: 82) ، وسورة (القصص: 46 ، 86) ، وسورة (الدخان: 6) . وفي الصورتين الأخريين سيكون دال (رب) في منطقة الجر بحرف الجر ، وليس بالإضافة ؛ لكنني أدرس الظاهرة بوصفها نموذجًا مقارنًا بين عدم تقدير حرف الجر وتقديره .

مضاف، و(رب) مضاف إليه مجرور، وهو (رب) مضاف، و(العالمين) مضاف إليه مجرور بالياء؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم ([1]).

وقبل الدخول إلى بنية الإضافة، نرصد بعض العناصر الجمالية التي أسهمت مع بنية الإضافة في تشكيل الخطاب القرآني في تلك الآية الكريمة. وأول ما يواجهنا من تلك العناصر، هو انبناء الخطاب على الاستئناف، المتمثل في (الواو).

و(واو) الاستئناف تسمى (واو) القطع والابتداء، وهي التي يكون بعدها جملة غير متعلقة بما قبلها في المعنى، ولا مشاركة في الإعراب([2]).أي أنها تتصدر كلامًا جديدًا.

والقطع والاستئناف ([3]) يدلان على أهمية الخبر الذي يحمله خطاب الآية، المتمثل في كون القرآن بما فيه من قصص هو (تنزيل رب العالمين)، لا كما ادعى الكفار أنه من غير عند (الله) جل في علاه.

وفي سياق تلك الأهمية التي تحملها بنية الخطاب، ترد بنية التأكيد، المؤسسة على مظهرين: (إِنَّ)، و(اللام) المزحلقة الواقعة في جوابها (لتنزيل). وهذا التأكيد مبعثه ثلاثة أمور: تقرير حقيقة تلك القصص، وتأكيد نبوة سيدنا رسول الله ﷺ ([4]) على وجه العموم، ومراعاة لحال المخاطَب المنكر لهذه الحقيقة، وهم الكفار والمشركون.

---

[1] انظر: محيي الدين الدرويش ، إعراب القرآن الكريم وبيانه، المجلد الخامس: 457 . وبهجت عبد الواحد صالح، الإعراب المفصل ، المجلد الثامن: 247 ، 248 .ومحمود سليمان ياقوت ، إعراب القرآن الكريم ، المجلد السابع: 3368. غير أن الدكتور ياقوت علل جر دال (العالمين) بالياء بأنه جمع مذكر سالم ، وربما سقط هذا منه سهوًا .

[2] انظر: الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، الجزء الرابع: 437 .

[3] وإن كان ابن عاشور يرى أن الجملة معطوفة على الجمل التي قبلها المحكية فيها أخبار الرسل . انظر: التحرير والتنوير ، الجزء التاسع عشر: 188 .

[4] انظر: الألوسي، روح المعاني، الجزء التاسع عشر: 120، ومحيي الدين شيخ زاده: الحاشية على تفسير البيضاوي، الجزء السادس: 361.

وقد ورد دال (رب) في منطقة المضاف إليه في تركيب (تَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ). والإضافة هنا إضافة معنوية / أي إضافة محضة؛ لكون المضاف مصدرًا غير عامل، كما ورد عند ابن عقيل في الصفحات السابقة. ودال (تنزيل) مصدر على وزن (تفعيل) من الفعل الرباعي (نَزَّلَ) على وزن (فَعَّلَ).

ودال (تنزيل) يعود إلى القصص القرآني الذي يتناول قصص الأنبياء السابقين؛ بما يثبت به قلب نبيه الكريم ﷺ. وقد تمت إضافة المضاف (تنزيل) إلى معرفة (رب) المعرف بالإضافة إلى(العالمين)، معنى هذا أن دال(تنزيل) النكرة تم تعريفه بعملية الإضافة إلى (رب).

ومن ثَمَّ غدا زعم المخاطَب بتعدد جهة القرآن، وتنوع طرق وصوله من الباطل والزيف بمكان. إذ تم تحديد الجهة (رب العالمين)، وطريق الوصول ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ (الشعراء: 193)، وتخصيص مرفأ الرسو، مع بيان الهدف ووضوح علة التنزيل:﴿عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾(الشعراء: 194)، إضافة إلى كشف عجزهم وإبهاتهم في كون القرآن بلغتهم هم:﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ (الشعراء: 195).

ومعنى هذا، أن دال (تنزيل) عندما كان نكرة، قبل دخوله في بنية الإضافة المحضة، (إنه تنزيل...) كان متعدد الجهات، يستطيع كل خرَّاص أن يدعي ما يدعي على القرآن الكريم، فجاءت بنية الإضافة المعنوية؛ لتخرس الألسنة، وتدحض الكذب، وتكشف الافتراء والزيف*.

---

* وقد نوه القرآن الكريم إلى هذا ، فقال سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (الأنفال: 32) . وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ (النحل: 103) . كما اتهموا النبي ﷺ بالسحر، انظر: سورة (يونس: 2) ، وسورة (ص:4) وغيرها من الآيات . وهذا المعنى هو الذي حدا بابن عطية إلى أن يقول في عود الضمير في (إنه) في الآية موضع الشاهد (الشعراء: 192): " الضمير في (إنه) للقرآن ، أي: إنه ليس بكهانة ولا سحر ، إنما هو من عند الله تبارك وتعالى " . انظر: المحرر الوجيز: 1408 . وهذا موضوع طويل .

ولورود دال (رب) دون اسم الجلالة (الله) أو دال (إله)سببان:**الأول** لغوي؛ إذ ورد في الآية السابقة على هذا الموضع:﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (الشعراء: 191)، التي تكررت في السورة الكريمة ثماني مرات.

الأخير: أن تنزيل القرآن من (رب) العزة؛ لإنذار الناس – كما ورد في الآية الكريمة – وإخراجهم من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ليمثل أعلى مظاهر الرحمة ببني البشر، وحتى ببني الجن (رب العالمين). ولما كانت الرحمة من سمات ربوبية الخالق جل في علاه، وكان تنزيل القرآن بما يحمله من نواميس إلهية تهذيبًا وتربية لبني البشر، بما يدور في فلك معاني الربوبية، كان ورود دال (رب) أبلغ.

هذا، ولم تتعرض التفاسير لبنية العطف، وإنما أجمعت على أن الآية الكريمة عود إلى ما أُفْتُتِحَتْ به السورة الكريمة من التنويه بشأن القرآن، وذلك في قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ (الشعراء: 2)، وأن دال (تنزيل) بمعنى مُنَزَّل، وأن (تنزيل) جاءت للمبالغة ([1]).

والآن نذهب إلى دراسة الصورة الأخرى للتركيب نفسه، المتمثلة في قوله تعالى: ﴿ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الواقعة: 80). والطرح النحوي يقول: (تنزيل): صفة رابعة لدال (قرآن) في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ (الواقعة: 77)، أو خبر لمبتدأ محذوف

[1] انظر:الزمخشري، الكشاف، الجزء الثالث: 324، والرازي، مفاتيح الغيب، الجزء الرابع والعشرين:165. ومحيي الدين شيخ زاده: الحاشية على تفسير البيضاوي ، ج6: 361، وأبي السعود، إرشاد العقل السليم، ج6: 263 والألوسي، روح المعاني ، الجزء التاسع عشر:120.وابن عاشور، التحرير والتنوير، الجزء التاسع عشر: 188.

تقديره (هو)، و(من رب) جار ومجرور نعت لتنزيل، و(رب) مضاف و(العالمين) مضاف إليه مجرور بالياء؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم ([1]).

فيا ترى ما الفرق بين الدلالة هنا، والدلالة هناك؟ * ولكي نجيب عن هذا التساؤل ينبغي علينا أن نعود إلى السياق. وبالتأمل يدرك أن السياق في الآية الأولى – سورة الشعراء – سياق قصص قرآني، يقص أخبار الأمم الفائتة مع أنبيائهم. ولما كانت نهايات تلك الأمم لا تروق لمسامع المخاطَب؛ إذ يخشونها لتشابه حالهم مع النبي ﷺ، ادعى المشركون والكفار أن هذه القصص مجرد أساطير، وليس هذا فحسب بل أدعوا جهتها: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ (الفرقان:5).

ولما دارت الدلالة حول الجهة والمصدر، كان نهوض بنية الإضافة بتبيين الجهة الحقة، والمصدر الأوحد، في أن تلك القصص، بل القرآن الكريم كله (تنزيل من قبل رب العالمين)، وليس من غيره. يؤكد هذا الطرح، قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ

---

[1] انظر: محيي الدين الدرويش ، إعراب القرآن الكريم وبيانه ، المجلد السابع: 412 ، 413 ، وبهجت عبد الواحد صالح ، الإعراب المفصل ، المجلد الحادي عشر: 371 ، 372 ، ومحمود سليمان ياقوت إعراب القرآن الكريم ، المجلد التاسع: 4532 .

ومن الجدير بالذكر أن كلًا من بهجت عبد الواحد صالح ، ومحمود سليمان ياقوت هما اللذان قالا بوجه خبرية (تنزيل) ، أما محيي الدين الدرويش فلم يقل به ، واكتفى بكونه صفة رابعة .

ومن المفسرين الذين قالوا بالوجه الثاني في إعراب (تنزيل) ، وهو وجه الخبر –الزمخشري ، الكشاف ، الجزء الرابع: 457 . والألوسي ، روح المعاني ، الجزء السابع والعشرين: 155 . أما ابن عطية ، فلم يقل إلا بوجه الصفة. انظر: المحرر الوجيز: 1816. وانظر هذا التركيب كذلك: سورة (الحاقة: 43).

* جدير بالذكر ، أن التفاسير لم تتعرض للفرق بين البنية التركيبية لكلا الخطابين ، وإنما اكتفت بما قالته في دال (تنزيل) في سورة الشعراء . يحسن الرجوع إلى التفاسير المتعددة للقرآن الكريم في تلك الآية الكريمة .

السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (الفرقان: 6). وهي الآية التالية للموضع الذي ادعى فيه الكفار أسطورية القصص القرآني، كما ذكرنا آنفًا.

أما موضع سورة الواقعة، فقد ورد في سياق إظهار طبيعة القرآن الكريم وصفته: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ (الواقعة: 77 – 79). فالكلام هنا عن الصفة - في أن القرآن مصون، وطاهر مطهر، لا يمسه إلا المطهرون- وليس عن الجهة. ومن ثَمَّ كان الإتيان ببنية الصفة (من رب العالمين) أبلغ وأبين وأوضح وأشد اتساقًا، وأعلى انسجامًا مع النسج القرآني المعجز.

وهذا الاختلاف في الناتج الدلالي بين الإضافة، وتقدير حرف الجر، الذي يخرج المضاف إليه من الإضافة، ويضعه في منطقة الجر بالحرف، ومن ثم يصبح صفة للنكرة قبله، هذا الاختلاف يدفعنا إلى التشكيك في مسألة توصل المضاف إلى المضاف إليه بتقدي حرف جر. فللإضافة ناتجها الدلالي الخاص بها، وللجار والمجرور ناتجه الدلالي الخاص به، المختلف تمامًا عن الناتج الدلالي للإضافة. لذا أكرر تأييدي للدكتور السامرائي في هذا الإطار.

ولذا، ينبغي أن تدرس كل بنية لغوية في سياقها، ولا توضع قواعد عامة، قد تتسق أحيانًا في سياق ما، وتختلف في سياق آخر، مما يجعل عملية الدراسة عملية مهلهلة، غير متناسقة، ومن ثم عدم الوصول إلى نتائج مرجوة .

وأما دال (رحمة) فسأتناوله في صور ثلاثة. **الأولى**: بنية الإضافة. **الثانية**: توسط حرف الجر – كما في النموذج السابق - بين المضاف والمضاف إليه. **الأخيرة**: سبق حرف الجر للمضاف. ولننظر النواتج الدلالية التي تفرزها بنية الخطاب القرآني في تلك التراكيب اللغوية.

وفي الصورة **الأولى** -الإضافة يرد قوله تعالى: ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ **رَحْمَةِ رَبِّكَ** الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ (ص: 9). وفي الصورة **الثانية** - توسط الجر- يرد قول (ربنا) سبحانه: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ **رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ** تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا﴾ (الإسراء: 28).

وفي الصورة **الأخيرة** – سبق حرف الجر - يرد قوله سبحانه: ﴿**وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ** اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (القصص: 73) *.

وكما هو واضح، فإن بنية الخطاب في الموضع الأول أُسِّسَت على استفهام إنكاري غرضه توبيخ المتحدث عنه وهم الكفار. وقد أفادت بنية الإضافة – فضلًا عما اكتسبه دال (رحمة) من تعريف، وفقا للإضافة المحضة، كما مر من قبل – شمول الرحمة وعمومها، أكد ذلك دال (خزائن).

فإن قيل: لقد أعطى (ربنا) عز وجل الإنسان بعضًا من صفاته، ومنها (الرحمة)، فهل يمكن للمتحدَّث عنه أن يمتلك رحمة الإنسان بعيدًا عن رحمة (الرب) العلي؟ قلتُ: لا؛ لأن رحمة الخلق مستمدة – كما قلنا – من رحمة الخالق، فكيف بمن يفتقد امتلاك الأصل أن يمتلك الفرع؟!!.

كأنه قيل: إن كنتم تملكون خزائن رحمة الرب العلي، فافعلوا كذا وكذا، وهو المعنى الوارد في قوله عز وجل:﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾(الزخرف: 32) *.

---

* (الهاء) في دال (رحمة) يعود إلى اسم الجلالة (الله) في الآية السابقة: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (القصص: 72) . ولا يعود إلى (رب) ، لكن ندرس هذا الموضع للتدليل على اختلاف الناتج الدلالي بين الصور الثلاثة .

* إن الرجوع إلى التفاسير لتلك الآيات يطلعك على مسألة الشمول والعموم هذه ، لكن لا نريد أن نثقل على القارئ بهذا ، وإنما نريد الإشارة إلى الناتج الدلالي فحسب ، كما أنه يحسن الرجوع إلى التفاسير ؛ للتعرف على الحيثية التي ورد من أجلها دال (رب) بدلًا من اسم الجلالة (الله) . على سبيل المثال لا الحصر . انظر: ابن عاشور ، التحرير والتنوير ، الجزء الثالث والعشرين: 216 .

أما الصورة **الثانية (رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ)**، فإن ناتجها الدلالي يشير إلى وصف الرحمة، كما طرحنا من قبل، والوصف - كما قلنا - يرتبط بالسياق.

وأخيرًا، ترد الصورة الثالثة **(وَمِنْ رَحْمَتِهِ)**، لتدل على بعضٍ من الرحمة (جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ). فمن الثابت والمفهوم أن جَعْلَ الليل للسكنة والنهار للعمل، بعضٌ من رحمة(الله) وليس كلها. مثل قوله تعالى: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ** أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الروم: 21). فحرف الجر (من) يفيد معنى (بعض) ([1]).

ويمكن توضيح ذلك في الشكل الآتي:

(تَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ) (تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ) (وَمِنْ رَحْمَتِهِ) (خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ) (رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ)

جهة القرآن صفة القرآن بعض الرحمة شمولية الرحمة صفة الرحمة

على هذا النحو: تعددت النواتج الدلالية في حالة عدم تقدير حرف جر في بنية الإضافة، أو وجوده متحركًا حركة أفقية قبل المضاف أوبعده [*].

2- دال (رب - إله) ضمير في موقع المضاف إليه

[1] انظر: ابن هشام ، مغني اللبيب: 353 ، والزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، الجزء الرابع: 416 .

[*] هذه هي لغة القرآن الكريم ، وهذا هو الإعجاز في أبهى صوره ، وأنصع بيانه . أين أنت الآن يا أبا زيد؟!!!! .

وكما هو دأبنا، أحيانًا يرد دال (رب) في منطقة المضاف إليه في صورة الضمير: سواء أكان هذا الضمير مفردًا متكلمًا (ي)، أم جمعًا متكلمًا (نا)، أم مفردًا مخاطبًا (ك)، أم مفردًا غائبًا (ه) [*].

وقد أضيفت تلك الضمائر العائدة إلى (رب) العزة سبحانه وتعالى إلى دوال عديدة في القرآن الكريم، نختار منها على سبيل المثال دال (رحمة) [*].

وإذا أردنا أن نضرب مثالًا لكل ضمير، فسنجد أن ضمير المفرد المتكلم (ي) قد أضيف إلى دال (رحمة) في (رحمتي)، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ **وَرَحْمَتِي** وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف: 156) [*]. فإن قيل: أين دال (رب) العائد إليه ضمير المتكلم المفرد (الياء) في دال (رحمتي)؟ قلت: سبق ذكره في الآية السابقة في قوله تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ (الأعراف: 155).

ويرد الدال نفسه مقترنًا بضمير المتكلم الجمع (نا)، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ **رَحْمَتِنَا** أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ (مريم: 53) ([1]).فإن قيل: أين دال (رب) الذي يعود

---

[*] قلت وسأقول مرارًا وتكرارًا: الغياب هنا على مستوى النحو التقعيدي ، لا المستوى الدلالي ؛ ف(رب) العزة حاضر لا يغيب أبدًا .

[*] أختار دال (رحمة) في النماذج التي أدرسها ؛ لعل (الله) يرحمنا بهذا العمل ، ويرحم القارئ بقراءته له وإفادته منه ، أي أنني أختار هذا الدال تبركًا به ، وطلبًا له من (ربي) عز وجل .

[*] جدير بالذكر أن دال (رحمة) ورد في الذكر الحكيم مرتين: موضع الشاهد ، ومقرونًا يضمير المفرد المتكلم العائد إلى اسم الجلالة (الله) في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (العنكبوت: 23) .

[1] وانظر: سورة (يوسف: 56) ، وسورة (مريم: 50) ، وسورة (الأنبياء: 75، 86) .

إليه ضمير المتكلم الجمع (نا) في دال (رحمتنا)؟ قلتُ: عليك بقراءة الآيتين اللتين وردتا قبل هذا الموضع، وهما قوله تعالى:﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا * وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾(مريم:51، 52).

وبالتأمل يدرك أن المناداة التي ذُكرت هنا، وردت مقرونه بدال (رب) في قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى * فَلَمَّا أَتَاهَا **نُودِيَ** يَا مُوسَى * إِنِّي أَنَا **رَبُّكَ** فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ (طه: 9 -12). ومن ثم، كان عود الضمير إلى(الرب) سبحانه وتعالى.

كما يرد مقترنًا بضمير المفرد المخاطب (ك)، وذلك في قوله سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي **رَحْمَتِكَ** وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (الأعراف: 151) ([1]).

كما يرد مقترنًا بضمير المفرد الغائب (الهاء)، كما في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ **رَحْمَتَهُ** وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ (الإسراء: 57) ([2]).

3- تراكيب إضافية مشهورة

تتمثل تراكيب الإضافة المشهورة في القرآن الكريم، التي يرد فيها دال (رب) في منطقة المضاف إليه في وقوع دوال متعددة في منطقة المضاف مثل: (سبحان، عند، لدن). ندرس منها على سبيل المثال دال (سبحان). وفي منطقة الإضافة قد يرد دال (رب) اسمًا، أو ضميرًا.

---

[1] وانظر: سورة (يونس: 86) ، وسورة (النمل: 19) .

[2] وانظر: سورة (الكهف: 16) ، وسورة (الفرقان: 48) ، وسورة (الجاثية: 30) . وكما قلنا من قبل في منطقة الجر بحرف الجر: إن الفرق بين تلك المواضع وسوابقها يكمن في الإظهار والإضمار . ويأتي هذا اتساقًا مع نواميس اللغة العربية . بمعنى أننا نكتفي بتحليل نماذج الإظهار ، ونترك نماذج الإضمار لتأمل القارئ الكريم .

وفي إضافة دال (سبحان) إلى دال (رب) يرد قوله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ (الإسراء:93) ([1]).

وتحليلنا لبنية هذا الخطاب القرآني يتبلور في النقاط الآتية: **الأولى** المفهوم اللغوي والدلالي لدال (سبحان). **الثانية**: مناقشة بنية الإضافة لدال (سبحان). **الثالثة** علة المجيء بالربوبية، ثم علة إضافة الربوبية إلى (الياء) العائدة إلى الحبيب المصطفىﷺ. **الأخيرة**: تناول جماليات أسلوب الاستثناء (هل كنت...).

وعن النقطة الأولى – شقها **الأول** (المفهوم اللغوي) يقول ابن منطور:"(سَبَحَ) السَّبْحُ والسِّبَاحَةُ: الْعَوْمُ. سَبَحَ بالنهرِ وفيهِ يَسْبَحُ سَبْحًا وَسِبَاحَةً. وأَسْبَحَ الرجُلَ في الماءِ: عَوَّمَهُ. وسَبْحُ الْفَرَسِ: جَرْيُهُ. وفَرَسٌ سَبُوحٌ وسَابِحٌ: يَسْبَحُ بِيَدَيْهِ فِي سَيْرِهِ. والسَّوَابِحُ: الخَيْلُ لأَنَّهَا تَسْبَحُ"([2]).

والواضح، أن المفهوم اللغوي لدال (سبحان) يعني الزيادة من الفعل والإكثار فيه. وهذا ما أورده ابن منظور كذلك، حين قال:" سَبَحَ في الكلامِ إذا أَكْثَرَ فيه " ([3]).

وفي المفهوم الدلالي لدال (سبحان) يقول أبو عبيدة (210هـ):" سُبْحَانَكَ: تَنْزِيْهٌ للربِّ وتَبَرُّؤٌ "([4]). كما يقول الزجاج: " ومعنى سبحان الله في اللغة تنزيه الله عن السوء، وكذلك ما ورد عن النبي ﷺ " ([5]).

---

[1] وقد يرد دال (رب) مضافًا إلى ضمير المتكلم الجمع (سبحان ربنا) انظر: سورة (الإسراء: 108) ، وسورة (القلم: 29) . وقد يرد مضافًا إلى ضمير المفرد المخاطب (سبحان ربك) . انظر: سورة (الصافات:180) . وقد يضاف دال (رب) نفسه إلى اسم ، وليس ضمير:(سبحان رب السموات والأرض رب العرش) . انظر: سورة (الزخرف: 82) .

([2]) انظر: لسان العرب ، مادة (سبح) .

([3]) انظر: السابق ، المادة نفسها .

([4]) انظر: مجاز القرآن ، عارضه بأصوله وعلق عليه الدكتور محمد فؤاد سزكين ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، بدون تاريخ ، الجزء الأول: 36 .

([5]) انظر: معاني القرآن وإعرابه ، الجزء الثالث: 225 .

ويقول ابن منظور:"سبحان الله: معناه تنزيهًا لله من الصاحبة والولد، وقيل: تنزيه الله تعالى عن كل ما لا ينبغي له أن يوصف به"([1]).

وفي الجانب الصرفي والنحوي لدال(سبحان) يقول الزجاج: " (سبحان) منصوب على المصدر، المعنى: أسبح الله تسبيحًا " ([2]).

ويقول الراغب الأصفهاني:"و(سبحان) أصله مصدر نحو: غفران، قال: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ﴾ (الروم: 17)، و﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا﴾ (البقرة: 32) " ([3]).

ويقول الزمخشري: " سَبَّحَ: سَبَّحْتُ اللهَ وسَبَّحتُ له. وهو السُّبُّوحُ القُدُّوسُ، وَكَثُرَتْ تسبيحاتُه وتسابيحُه" ([4]).

وهذا الدال (سبحان) هو عَلَمٌ جنس للتنزيه والتقديس، وانتصابه دائمًا يكمن في فعل مضمر متروك إظهاره تقديره أسبح (الله) أو سبحتُ (الله) سبحان، أي فهو مفعول مطلق. ومعناه ما أبعد الذي له هذه القدرة عن جميع النقائص؛ ولذا لا يستعمل إلا فيه تعالى([5]).

ودال (سبحان) اسم علم معرفة ([6])، ولا يرد إلا مع اسم الجلالة(الله) جل في علاه، ودال (رب). ويرد في سياقات ثلاث: **الأول** التعجب من قدرة (الله) سبحانه وتعالى وطلاقتها، و**الثاني**: تنزيه (الله) عز وجل، وتقديسه، وإبعاده عن كل ما لا ينبغي له أن يوصف به. **الثالث**: في سياق الدعاء. **الأخير**: التعجب من أفعال البشر.

([1]) انظر: لسان العرب ، مادة (سبح) .

([2]) انظر: معاني القرآن وإعرابه ، الجزء الثالث: 225 .

[3] انظر: مفردات ألفاظ القرآن: 393 .

[4] انظر: أساس البلاغة ، تحقيق محمد باسل عيون السود ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى 1419هـ – 1998م ، الجزء الأول ، مادة (سبح): 433 .

([5]) انظر: محيي الدين الدرويش ، إعراب القرآن وبيانه ، المجلد الخامس: 388 .

([6]) انظر: لسان العرب ، مادة (سبح) . والنحاس ، إعراب القرآن: 513 .

وفي سياق القدرة وطلاقتها يرد قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الإسراء: 1) ([1]).

وفي سياق التنزيه يرد قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ (البقرة: 116) ([2]).

وفي سياق الدعاء يرد قوله تعالى: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(يونس: 10) ([3]).

وفي السياق الأخير – التعجب من أفعال البشر يرد قوله تعالى: ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ (الإسراء: 93) وهو الشاهد الذي ندرسه الآن ([4]).

ومصدر التعجب هنا، هو ما ورد في مطالب الكفار من سيدنا النبي ﷺ في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ﴾ (الإسراء: 90 – 93).

([1]) وانظر كذلك: سورة (البقرة: 32)، وسورة (آل عمران:191)، وسورة (الأعرتف: 143) ، وسورة (يسن: 36، 83) ، وسورة (الزخرف: 13) ...إلخ .

([2]) وانظر كذلك: سورة (النساء: 171) ، وسورة (المائدة: 116) ، وسورة (الأنعام:100) ، وسوة (التوبة: 31)...إلخ .

([3]) وانظر كذلك: سورة (الإسراء: 108) ، وسورة (الأنبياء: 87) ، وسورة (الزخرف: 13) ...إلخ .

([4]) انظر في هذا التعجب: الزمخشري ، الكشاف ، الجزء الثاني: 666 ، وابن عطية ، المحرر الوجيز:1167 ، والرازي ، مفاتيح الغيب ، الجزء الحادي والعشرين: 59 ، 60 ، ومحيي الدين شيخ زاده: الحاشية على تفسير البيضاوي ، الجزء الخامس: 429 ، والبقاعي: نظم الدرر، الجزء الحادي عشر: 513 ، وأبي السعود ، إرشاد العقل السليم ، الجزء الخامس: 195، والألوسي: روح المعاني ، الجزء الخامس عشر: 169، وأخيرًا ابن عاشور: التحرير والتنوير ، الجزء الخامس عشر: 210 .

وفي النقطة **الثانية**– مناقشة بنية الإضافة لدال (سبحان)، نجد أن الطرح النحوي يقول: (سبحان): مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره(أُسَبِّحُ)، وهو مضاف، و(رب) مضاف إليه، و (رب) مضاف، و (الياء) مضاف إليه، و(هل) حرف استفهام معناه النفي والإنكار، و(كنتُ) فعل ماض ناقص، و(التاء) اسمها، و(إلا) أداة حصر، و(بشرًا) خبر (كنتُ) أو حال، و(رسولًا) نعت أو خبر ثان ل(كنتُ) [1].

ودال(سبحان) من الدوال التي يجب إضافتها لفظًا ومعنى، فلا يستعمل مفردًا، كما أنه من الأسماء التي تضاف إلى ظاهر (سبحان الله، سبحان ربي)، ومضمر (سبحانه – سبحانك) [2].

وكما مر في الإعراب، فإن دال (سبحان) مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره (أُسَبِّحُ). وهو من ضرب المؤكد لعامله*، وهو مصدر عامل؛ لأن دال (رب) منصوب على التعظيم في الأصل؛ فأصل الجملة (أُسَبِّحُ ربي). فلما كانت دلالة

---

[1] انظر: محيي الدين الدرويش ، المجلد الخامس: 504 ، وبهجت عبد الواحد صالح ، الإعراب المفصل ، المجلد السادس: 324 . وقد اكتفى بهجت صالح بإعراب (بشرًا رسولًا) خبرين (لكنتُ)، ومحمود سليمان ياقوت ، إعراب القرآن الكريم ، المجلد: 2668 . وقد اكتفى ياقوت بإعراب (رسولًا) صفة ، ولم يقل ب(خبريتها) ، كما لم يقل بوجه (الحال) في إعراب (بشرًا) .

[2] انظر: ابن هشام ، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ، الجزء الثالث: 111، 112. وابن عقيل ، شرح ابن عقيل ، المجلد الثاني ، الجزء الثالث: 51 . وكذلك الأشموني ، حاشية الصبان ، الجزء الثاني: 378 . ومن العجيب أن كل هذه المصادر، لم تذكر دال (سبحان) رغم شهرته ، واكتفت بدوال معينة ، مثل: (كلا وكلتا وعند ولدى وسوى وقصارى...) . وقد وضعنا دال (سبحان) مع تلك الدوال لتشابهه معهم في التعامل ؛ إذ لا يمكن أن يأتي مفردًا ، وإنما ينبغي أن يضاف إلى اسم أو ضمير .

* للمفعول المطلق ثلاث حالات: مؤكد لعامله / أي لفعله (ضَرَبْتُ ضَرْبًا)، أو مبين لنوعه (سِرْتُ سَيْرَ زَيْدٍ)، أو مبين لعدده (ضَرَبْتُ ضَرْبَتَيْنِ) . انظر: ابن عقيل ، المجلد الأول ، الجزء الثاني: 169 .

التسبيح هنا مسوقة للتعجب مما طلبه الكفار، ورد المصدر للتكثير من التسبيح.

فإن قيل: تحت أي ضرب من الإضافة ينتمي هذا التركيب الإضافي (سبحان ربي)؟ قلتُ: دال (سبحان) مصدر عامل، والمصدر أصل، والفعل والوصف مشتقان منه على أصح المذاهب النحوية [*]، فإذا كان الوصف العامل المشتق من الفعل يقع تحت ضرب الإضافة اللفظية / غير المحضة، مثل اسم الفاعل (هذا ضاربُ زيدٍ غدًا) إذا أردت الاستقبال، وكذلك الحال، واسم المفعول (مررتُ بِرَجُلٍ معمورِ الدار)، والصفة المشبهة (مررتُ برجلٍ حسنِ الوجه)، فإنه من باب أولى أن يقع المصدر العامل المضاف إلى معموله تحت ضرب الإضافة اللفظية كذلك ([1]).

فإن قيل: إذا كان دال (سبحان) معرفة، كما مر، فهل تضاف المعرفة إلى معرفة؟ قلتُ: نعم تضاف كما في قول عنترة: ([2])

الشَّاتِمَيْ عِرْضِي وَلَمْ أَشْتُمْهُمَا والنَّاذِرَيْنِ إِذَا لَمْ أَلْقَهُمَا دَمِي

فالشَّاتِمَيْ: نعت مجرور ب(الياء) نيابة عن الكسرة؛ لأنه مثنى. والموصوف: ابني ضمضم المذكور في بيت متقدم على بيت الشاهد، وهو قوله:

وَلَقَدْ خَشِيْتُ بَأَنْ أَمُوتَ وَلَمْ تَدُرْ لِلْحَرْبِ دَائِرَةٌ عَلى ابْنَيْ ضَمْضَمِ

---

[*] وهذا هو رأي الزجاجي . انظر: الإيضاح في علل النحو ، تحقيق الدكتور مازن المبارك ، دا ر النفائس ، بيروت – لبنان ، الطبعة الثالثة 1399هـ – 1979م: 56 . وثمة أراء بين البصريين والكوفيين ، فيما إذا كان المصدر هو الأصل أم الفعل . انظر: السابق: 56 – 63 ، وكذلك: ابن عقيل ، شرح ابن عقيل ، المجلد الأول ، الجزء الثاني: 171.

[1] انظر: الأشموني ، حاشية الصبان ، الجزء الثاني: 363 .

[2] انظر: الخطيب التبريزي ، شرح ديوان عنترة ، قدم له ووضع هوامشه وفهارسه مجيد طراد ، دار الكتاب العربي ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى 1412هـ – 1992م ، بيت رقم 84 : 186 .

والشاتمي مضاف (وهو معرف بأل)، و(عرض) مضاف إليه، و(عرض) مضاف و(الياء) مضاف إليه ([1]). ومن هنا تمت الإضافة بين المعرفتين.

فإن قيل: إذا كانت الإضافة غير المحضة / اللفظية لا تفيد تخصيصًا ولا تعريفًا، وإنما تفيد التخفيف ([2])؛ أي التخفيف من التنوين في الاسم المفرد، ومن (الياء) في المثنى والجمع، فماذا تفيد هنا، ودال (سبحان) اسم علم معرفة، لا يُنَوَّنُ حتى ولو بدون إضافة، ولا يُثَنَّى ولا يُجْمع؟

قلتُ: تفيد الترابط والتلازم والاختصاص والقصر بين مدلول (التسبيح) والمضاف إليه. وكأننا نشم فائدة الإضافة المحضة في حالة الإضافة إلى النكرة، لكن الأمر يختلف من حيث طبيعة المضاف والمضاف إليه؛ إذ إنهما في الإضافة المحضة يكونان نكرة، وهنا يكونان معرفة.

ونقول بهذا الطرح؛ لأن هذا الدال لا يضاف إلا إلى اسم الجلالة (الله) جل في علاه، وإلى دال (رب)، وما يعود إليهما من ضمائر، ولا ينصرف إلى غير ذلك.

أما النقطة **الثالثة**، فإن علة المجيء بالربوبية في دال (رب) دون الألوهية (الله)، تكمن في أن إرسال الحق سبحانه وتعالى إلى المخاطَب/ الكفار نبيًا يُعدَّ في حد ذاته من نعم الربوبية على هؤلاء؛ إذ بسبب خلقه لهم يريد أن يرحمهم، ويخرجهم من عبادة غيره إلى عبادته، على يد نبي مرسل من بين ظهرانيهم، يعرفهم ويعرفونه، يخاطبهم ويخاطبونه، وليس بوساطة ملك؛ درءًا للحجة .

كما يشير مدلول الربوبية هنا إلى إرادة الرب العلي في تربية حبيبه ونبيه ومصطفاه ﷺ وتدريبه على مثل تلك السخافات والمجادلات التي سيتعرض لها، وبخاصة أن سورة (الإسراء) مكية، وما يزال الطريق طويلًا، فثمة الهجرة، والمرحلة المدنية

---

[1] انظر: ابن هشام ، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ، الجزء الثالث: 225 ، 226 . وقد تم حذف نون المضاف للإضافة . ومثيله قوله: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (البقرة: 46) . فدال (ملاقوا) اسم فاعل عامل ؛ لأنه يدل على الاستقبال ، أضيف إلى المنصوب على التعظيم (رب) ، حُذِفَتْ منه النون للإضافة .

[2] انظر في إفادة الإضافة اللفظية / غير المحضة: المصادر النحوية السابقة .

بما فيها من مواجهة العقبات والمشكلات من أهل الكتاب. فكان الإتيان بدال (رب) لأجل تلك المعاني أوجب وأبلغ.

وأخيرًا، فإن سورة (الإسراء) من السور التي هيمن عليها مفهوم الربوبية بوجه عام؛ لاعتبارات خاصة بمعاني تلك السورة الكريمة.

ثم إن علة إضافة الربوبية إلى (الياء) العائدة إلى الحبيب المصطفىﷺ تتمثل في تلطف الحق سبحانه وتعالى بحبيبه ﷺ، في ألا يحزن مما طالبوه من الإتيان به؛ إذ كل هذه حجج ليس أكثر. وإن شئت اقرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ*وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ (يونس: 96، 97).

كما تشير هذه الإضافة إلى تشريف سيدنا النبي ﷺ وعلو مكانته عند ربه جل في علاه. وهنا تحضر لفتة تتمثل في عدم إضافة (رب)إلى ضمير المتكلم الجمع (نا)؛ لعدم إيمان المخاطَب / القوم بالرب العلي إلهًا لهم؛ لذا انتفى الجمع بينهم وبين النبي ﷺ في الضمير (نا)، وتم الإفراد.

وترد النقطة **الأخيرة** لتتناول جماليات بنية الخطابفي تركيب: ﴿هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾. ويتضح أن بنية الخطاب هنا اعتمدت على أسلوب القصر بأداتيه: النفي(هل) والاستثناء (إلا) ([1]).

أما (هل) فهي اسم استفهام يدل على إنكار وقوع الشيء، بما يعني النفي([2])، يعني: ما كنت إلا بشرًا رسولًا، كما تجمع (هل) الاستفهام مع النفي. ومعنى هذا، أن (هل) تؤدي دلالتين في الوقت نفسه: دلالة الاستفهام التي تنسحب على المخاطَب لتكون إجابته حجة عليه، ودلالة النفي من قِبَلِ المتكلم .

---

[1] انظر في طرق القصر وأنواعه: عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز: 328 – 358 ، والسكاكي ، مفتاح العلوم: 288 – 293 ، والقزويني ، الإيضاح في علوم البلاغة ، المجلد الأول ، الجزء الثالث: 4 – 47 .

[2] انظر: ابن هشام ، مغني اللبيب: 388 ، ومن معاني (هل) كذلك: (قد) مثل قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾ (الإنسان: 1) . وانظر في معاني (هل) كذلك: الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، الجزء الرابع: 433 ، 434 .

وإذا كان الجواب من قِبَلِ المخاطَب هو (نعم): أنت لم تكن إلا بشرًا رسولًا، ففيه تسفيه لهم؛ إذ كيف تقرون بهذا، وتطلبون مني ما لم أستطع فعله. وإذا كان النفي من قبل المتكلم فإنه يعني – مع أداة الاستثناء – نفي كونه غير بشر ورسول؛ مما يخرج قدرته عن الإتيان بما يطالبونه به.

والقصر هنا قصر موصوف على صفة قصرًا إضافيًا؛ أي قصر النبيﷺ على البشرية والرسالة، لا يتعدى ذلك بأن يكون ملكًا أو غيره، فيُطَالَبُ بما لا يستطيع.

وفي الترتيب الذي ورد عليه دالا (بشرًا، رسولًا) نكتة: إن نبوة الحبيب المصطفى ﷺ معروفة، قبل كونه بشرًا مخلوقًا، لقوله تعالى:﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (الصف: 6).

كما ترد معرفة أهل الكتاب بسيدنا المصطفى ﷺ في قول مولانا سبحانه: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: 146). وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الأعراف: 156، 157).

وفي العهد القديم، وفي سفر إشعياء (الإصحاح العاشر)، وردت بعض صفات سيدنا النبي ﷺ على هذا النحو:" ويخرج قَضِيْبٌ من جذع يَسَّى ويَنْبُتُ غصنٌ من أصوله. ويحل عليه روح الرب روح الحكمة والفهم روح المشورة والقوة روح المعرفة ومخافة الرب. ولذته تكون في مخافة الرب فلا يقضي بحسب نظر عينيه ولا يحكم بحسب سمع أذنيه. بل يقضي بالعدل للمساكين ويحكم بالإنصاف لبائسي الأرض

ويضرب الأرض بقصيب فمه ويميت المنافق بنفخة شفتيه. ويكون البِرُّ منطقة متنيه الأمانة منطقة حقويه " (1- 5) ([1]).

وفي العهد الجديد في إنجيل يوحنا (الإصحاح الرابع عشر) يرد التبشير بسيدنا النبي ﷺ على هذا النحو:" إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي. وأنا أطلب من الأب فيعطيكم معزيًا آخر ليمكث معكم إلى الأبد ".

وفي الإنجيل نفسه (الإصحاح السادس عشر):"إن لي أمورًا كثيرة أيضًا لأقول لكم ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن. وأما متَى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آنية"([2]).

فإذا كان ذلك كذلك، فهلَّا ورد دال (رسولًا) قبل دال (بشرًا)؟ ويكون تأخير دال (رسولًا) من أجل مراعاة الفاصلة، كما يحلو لبعض الدارسين؟ * قلتُ: لا؛ ويعود هذا النفي إلى سببين: **الأول** طبيعة المخاطَب. فإذا كانت نبوة النبي محمد ﷺ ثابتة عند(الله) سبحانه وتعالى قبل الخلق، وثابتة عند الأنبياء بما أُوحِيَ إليهم من ذلك في

---

[1] انظر: الكتاب المقدس ، دار الكتاب المقدس بمصر ، طبعة العيد المئوي 1883م – 1983م: ص 1005. وقد ترجمت هذه النسخة من اللغات الأصلية . والقضيب: الغصن ، ويَسَّى: الإله الموجود الثابت . والمعنى أنه كأنما الرسل والأنبياء يمثلون شجرة الألوهية على الأرض، ويخرج منها هذا الغصن/النبي ﷺ الموصوف بتلك الصفات. ولا يخفى على عاقل تشابه تلك الصفات مع ما ورد في القرآن الكريم من صفاته ﷺ ، وانظر كذلك: سفر التكوين ، (الإصحاح الحادي والعشرين: 21) ، وفي (فاران) التي سكنها سيدنا إسماعيل انظر: سفر التثنية (الإصحاح الثالث والثلاثين: 2) . وسفر حبقوق ، (الإصحاح الثالث: 3) . مما يؤكد معرفتهم به ﷺ .

[2] انظر في النصين: الكتاب المقدس: ص 175 ، ص 178 ، ويتضح من النصين أن المعزي وروح القدس هو النبي ﷺ ، وأن ما ورد من صفات هي تمامًا كما وردت في القرآن الكريم كذلك ، فعليك بالتأمل . ويطول بنا المقام لو عددنا تلك النصوص ، ولكن تكفي الإشارة .

* الفاصلة قبل هذا الموضع دال (قبيلًا) ، وبعده (رسولًا) .

كتبهم، ومن ثم ثابتة عند أممهم، فلم تكن ثابتة عند المشركين [*]، وإنما الذي ثبت عندهم هو بشريته أولًا، فلقد عرفوه بشرًا قبل أن يعرفوه رسولًا.

وهذا المعنى هو الذي ورد بعد موضع الشاهد مباشرة في قول (الله)سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ (الإسراء: 94).

السبب **الآخر**: هو أن ما ساقوه له من اقتراحات (وقالوا لن نؤمن لك...) إلى آخر الآيات هو تحد لبشريته، وليس لنبوته، إذ لو آمنوا به نبيًا، ما طالبوه بهذا؛ لذا كان ورود دال (بشرًا) قبل دال (رسولًا) من البيان والبلاغة بمكان، ولو تم عكس ذلك (هل كنت إلا رسولًا بشرًا) لتعجبوا؛ لأنهم لم يؤمنوا به رسولًا، وإنما آمنوا بوجوده بشرًا.

ومجاراة لعقل القوم ومنطقهم دارت الآية الخامسة والتسعين في إطار البشرية كذلك ﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ (الإسراء: 95). ولكن لما كان مَنْ في الأرض بشر، أرسلنا إليهم بشرًا [*].

وقد ورد دال (سبحان) مضافًا إلى (كاف) الخطاب العائد إلى (رب) في قوله وتعالى: ﴿قَالُوا **سُبْحَانَكَ** لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾البقرة: 32)([1]).

---

[*] المخاطَب هنا هم كفار مكة . انظر: النيسابوري ، أسباب النزول: 300 – 302 . وكذلك السيوطي ، أسباب النزول : 165 ، 166 .

[*] أبعد هذا الإعجاز إعجاز؟ . أما الاختلاف الإعرابي في دالي:(بشرًا ، رسولًا) ، فسنرجئه إلى موضع آخر.

[1] وانظر كذلك: سورة (آل عمران: 191) ، وسورة (الأعراف: 143) . جدير بالذكر أن دال(سبحان) لم يرد مضافًا إلى ضمير الغائب (الهاء) في إطار الربوبية ، بل ورد في إطار الألوهية في أربعة عشر موضعًا . وقد قلنا من قبل: إن هذه المواضع وما يشابهها يكمن الفرق بينها في الإظهار والإضمار ، بما يتناسب مع جماليات اللغة ؛ لذا يكفي ما قدمناه .

وفي إطار التراكيب الإضافية المشهورة يرد دال (لدن) في القرآن الكريم. وهذا الدال لا يأتي إلا مع (رب) العزة سبحانه وتعالى، فقد يأتي مضافًا إلى اسم من أسماء (الله) الحسنى، وقد يرد مضافًا الى بعض الضمائر العائدة إليه سبحانه وتعالى.

وفي إضافته إلى الأسماء الحسنى يرد قوله تعالى: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ **لَدُنْ** حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ (هود:1)، وقوله سبحانه: ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ **لَدُنْ** حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ (النمل: 6).

وفي إضافته إلى ضمير الجمع المتكلم (لدنَّا) يرد قول (الله) تبارك وتعالى: ﴿ وَحَنَانًا مِنْ **لَدُنَّا** وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا﴾ (مريم: 13). فإن قيل: أين دال (رب) الذي يعود إليه ضمير المتكلم الجمع (نا) في دال (لدُنَّا). قلتُ: في خطاب سيدنا زكريا عليه السلام مع (رب) العزة سبحانه وتعالى في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ (مريم: 10).

ويرد كذلك في قول (الله) سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ **لَدُنَّا** وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (القصص: 57). فإن قلتَ: إذا كان الضمير في الآية الكريمة السابقة قد عاد إلى (رب) العزة سبحانه وتعالى - كما بينتَ – فكيف يعود هنا إلى دال (رب) تبارك وتعالى؟

قلتُ: توحيد الربوبية مفهوم من تمكين الحرم الآمن، والرزق الكامن في الثمرات. وإن شئت اقرأ قول (الله) سبحانه وتعالى: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ (قريش: 1- 4).

وبخاصة أن هـذا القـول: المتمثل فـي قـولـه سبحانه وتعالى: ﴿إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِـنْ أَرْضِنَا﴾ هـو قـول قريش، كمـا هـو مفهـوم مـن الآيـة الكريمة.

وفي إضافـة هـذا الـدال إلى ضمير المخـاطب المفـرد (ك) يـرد قـول (ربنا) عز وجل: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ (آل عمران: 8) ([1]).

المبحث السادس: دال (رب - إله) في موقع التوابع

التوابع: مفرد تابع، والتابع هو: الاسم المشارك لما قبله في إعرابه مطلقًا؛ فيدخل في ذلك سائر التوابع، وخبر المبتدأ، وحال المنصوب. ويخرج بقوله (مطلقًا) الخبر وحال المنصوب؛ فإنهما لا يشاركان ما قبلهما في إعرابه مطلقًا، بل في بعض أحواله، بخلاف التابع؛ فإنه يشارك ما قبله في سائر أحواله من الإعراب ([2]).

ولما كانت تلك التوابع تبدأ بالنعت، ثم التوكيد، ثم العطف، وأخيرًا البدل، حسب قول ابن مالك: ([3])

يَتْبَعُ فِي الإِعْرَابِ الْأَسْمَاءَ الْأُوَلْ نَعْتٌ، وَتَوْكِيدٌ، وَعَطْفٌ، وَبَدَلْ

---

[1] وانظر:(آل عمران: 38) ، (النساء: 75) ، (الإسراء: 80) ، و(الكهف: 10) ، و(مريم: 5) . أما إضافة هذا الدال إلى المفرد الغائب (ه) في(النساء: 40) ، و(الكهف: 2) ، فقد ورد مع اسم الجلالة (الله) ، وليس (رب) . وثمة دال (عند) وغيره من الدوال الأخرى التي ترد في منطقة الإضافة ، لكن نكتفي بما قدمناه وأوسعناه شرحًا وتحليلًا .

[2] انظر: ابن عقيل ، شرح ابن عقيل ، المجلد الثاني ، الجزء الثالث: 190 . ولدال (التابع) تعريفات أخرى في مصادر النحو ، يُرجى الرجوع إليها ، لكننا نكتفي بمصدر واحد ؛ لأجل التقعيد النحوي فحسب .

[3] انظر: السابق ، المجلد نفسه ، الجزء نفسه: الصفحة نفسها . جدير بالذكر أن دالي (رب ، إله) لا يأتيان في منطقة التوكيد ؛ لذا فإن عملية الدراسة تتناول التوابع الثلاثة: النعت والعطف والبدل .

أولًا: (النعت). وفي النعت يقول ابن السراج: " النعت ينقسم بأقسام المنعوت في معرفته ونكرته؛ فنعت المعرفة معرفة، ونعت النكرة نكرة، والنعت يتبع المنعوت في رفعه ونصبه وخفضه، وأصل الصفة أن يقع للنكرة دون المعرفة؛ لأن المعرفة كان حقها أن تستغني بنفسها، وإنما عرض لها ضرب من التنكير فاحتيج إلى الصفة، فأما النكرات فهي المستحقة للصفات لتقرب من المعارف، وتقع بها حينئذ الفائدة. والصفة: كل ما فرَّق بين موصوفين مشتركين في اللفظ"([1]).

ويقول ابن عقيل: " والنعت: هو التابع المكَمِّلُ متبوعَهُ: ببيان صفة من صفاته، نحو: (مررتُ برجل كريم)، أو من صفات ما تعلق به – وهو سببه – نحو: (مررت برجل كريم أبوه) ([2]).

وكما هو متعارف عليه في كتب النحو، فإن النعت ينقسم إلى: مفرد، وهو ما ليس جملة ولا شبه جملة، وإنما لفظ واحد سواء أكان هذا اللفظ مفردًا، أم مثنىً، أم جمعًا، ونعت جملة: فعلية أو اسمية، بشرطين: أن يكون المنعوت نكرة، وأن تشمل الجملة ضميرًا يعود إلى المنعوت يربطها به، موافقًا للمنعوت في النوع والعدد، ونعت شبه جملة: ظرف وجار ومجرور ([3]).

وهنا، يخرج المثنى والجمع من النعت المفرد، إذ ما نقوم به من دراسة يرد في إطار الإفراد لدالي (رب، إله). ويخرج النعت الجملة بنوعيه. أما النعت شبه الجملة فقد ألمحنا إليه في مسألة التعلق، وسنشير إليه هنا أيضًا.

وبالتأمل في آيات الذكر الحكيم، يُدرك أن دال (رب) لا يرد في موقع النعت إلا لاسم الجلالة (الله) تعالى، سواء أكان اسم الجلالة (الله) في حالة الإظهار، أم الإضمار.

([1]) انظر: الأصول في النحو ، الجزء الثاني: 23 .

[2] انظر: شرح ابن عقيل ، المجلد الثاني ، الجزء الثالث : 191 .

[3] يُرجى الرجوع إلى مصادر النحو؛ إذ الهدف ليس عرض التقعيد النحوي ، بل إظهار التفاعل بين النحو والدلالة.

في حالة الإظهار مع الرفع يقول (الله) سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (التكوير: 29). وفي حالة الإظهار مع النصب يقول مولانا سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ (الطلاق: 1) وفي حالة الإظهار مع الجر يقول (رب العزة) سبحانه وتعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الفاتحة: 2) ([1]).

وفي حالة الإضمار يقول (الله) تبارك وتعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ (المؤمنون: 116).

وإذا جئنا إلى النموذج الأول (الإظهار مع الرفع) (التكوير: 29)، وجدنا أن دال (رب) يعرب صفة لاسم الجلالة (الله) سبحانه وتعالى ([2]). أما النموذج الثاني (الإظهار مع النصب) (الطلاق: 1)، فإن دال (رب) في (ربكم) يعرب نعتًا ([3]). وفي النموذج الأخير

([1]) وانظر كذلك: سورة (النمل: 8 ، 44) وقد يعرب دال (رب) بدلًا كذلك ، وسوة (القصص: 30) . وقد يعرب دال (رب) – إضافة إلى وجه النعت - خبرًا ثانيًا ، أو بدلًا ، وسورة (الصافات: 182)، وسورة (ص: 66) ، وسورة (الجاثية: 36) . وقد يعرب دال (رب) بدلًا كذلك . منعًا للإطالة وتكثير الهوامش ، يرجى الرجوع في تلك الأوجه الإعرابية الأخرى لدال (رب) في تلك المواضع إلى المصادر والمراجع التي نستعين بها في هذه الدراسة ، أو غيرها .

([2]) انظر: محيي الدين الدرويش ، إعراب القرآن الكريم وبيانه ، المجلد الثامن: 238 . وقد قال كذلك بوجه (البدل) . وبهذين الوجهين قال بهجت عبد الواحد صالح . انظر: الإعراب المفصل ، المجلد الثاني عشر: 365 ، وكذلك ذهب محمود سليمان ياقوت . انظر: إعراب القرآن الكريم ، المجلد العاشر: 5006 .

([3]) انظر: بهجت صالح ، الإعراب المفصل ، المجلد الثاني عشر: 48 ، كما قال بوجه (البدل). ومحمود سليمان ياقوت: إعراب القرآن الكريم ، المجلد العاشر: 4710 . وقد اكتفى الدكتور ياقوت بوجه (النعت) ، ولم يقل بوجه (البدل) . أما محيي الدين الدرويش ، فيبدو أنه قد نسي إعراب اسم الجلالة (الله) ، ودال (ربكم) . انظر: إعراب القرآن الكريم وبيانه ، المجلد السابع: 547 .

(الإظهار مع الجر): ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الفاتحة: 2)، نجد أن إعراب دال (رب) نعت ([1]).

يتضح مما سبق أن دال(رب) له وجهان من الإعراب: صفة أو بدل. هذا من حيث النحو التقعيدي. أما من حيث الدلالة، فلابد للصفة أن تعطي منتجًا دلاليًا غير ما يعطيه البدل، وإلا ما كانا تابعين مختلفين في النحو التقعيدي، وأصبحا تابعًا واحدًا. وكما قلتُ في غير موضع: إن السياق هو الذي يحدد الوجه الإعرابي المرجَّح للدال داخل البنية التكوينية لأي تركيب لغوي.

ومن ثم، نجدنا مضطرين - قبل اختيار النماذج والشروع في عملية التحليل - إلى مناقشة عنصرين: **الأول** نحوي، و**الآخر**: دلالي. أما العنصر النحوي، فيتمثل في الفرق بين الصفة والبدل من حيث المعنى الدلالي، لا النحو التقعيدي. ويتبلور العنصر الدلالي في إظهار سمات الألوهية الخاصة بالمتبوع اسم الجلالة (الله) جل في علاه، وسمات الربوبية الخاصة بالتابع (رب).

وكما هو واضح، فإن تناول هذين العنصرين بالمناقشة سيفيدنا في دراسة دال (رب) في منطقة البدلية. لذا، سنشفع دراسة النعت بالبدل - مرجئين العطف بعدهما - مخالفة لترتيب التقعيد النحوي؛ بهدف إظهار الفرق الدلالي بين التابعين.

وفيما يخص العنصر **الأول**، فإن تناول الصفة والبدل من الناحية النحوية سيكون من وجهين: مفهومهما والغرض منهما، ثم طبيعتهما الصرفية.

([1]) انظر: النحاس ، إعراب القرآن: 12 ، والعُكْبَرِي ، التبيان في إعراب القرآن ، القسم الأول: 5 ، والدرويش: إعراب القرآن الكريم وبيانه ، المجلد الأول: 29 . وبهجت صالح: الإعراب المفصل ، المجلد الأول: 9 ، ومحمود ياقوت: إعراب القرآن الكريم ، المجلد الأول: 21 . ومحمد حسن عثمان ، إعراب القرآن وبيان معانيه ، المجلد الأول: 30 . وفي حين اكتفى النحاس وعثمان بوجه (النعت) فحسب، ذهب الباقون إلى الوجهين:الصفة والبدل .

وفي الوجه الأول، يعرف الزمخشري الصفة بقوله: " هي الاسم الدال على بعض أحوال الذات، والذي تساق له الصفة هو التفرقة بين المشتركَيْن في الاسم، ويقال إنها للتخصيص في النكرات، وللتوضيح في المعارف " ([1]).

وفضلًا عن غرض مجيء الصفة للتخصيص في النكرة، وللتوضيح في المعرفة يقول الزمخشري:" وقد تجيء – أي الصفة – مسوقة لمجرد الثناء والتعظيم، كالأوصاف الجارية على القديم سبحانه، أو لما يُضاد ذلك من الذم والتحقير" ([2]).

كما يعرف ابن الحاجب النعت بقوله: " النعت تابع يدل على معنى في متبوعه مطلقًا " ([3]). وفي غرض الصفة يقول: " وفائدته – أي الوصف- تخصيص، أو توضيح. وقد يكون لمجرد الثناء أو الذم، أو التأكيد " ([4]).

ويعرف ابن عقيل النعت بقوله:" هو التابع المكَمِّلُ متبوعَهُ: ببيان صفة من صفاته نحو: (مررتُ برجل كريم)، أو من صفات ما تعلق به – وهو سببه – نحو: (مررت برجل كريم أبوه) ([5]).

وفي أغراض النعت يقول ابن عقيل:"والنعت يكون للتخصيص، وللمدح، وللذم، وللترحم، وللتأكيد " ([6]).

([1]) انظر: ابن يعيش ، شرح المفصل ، الجزء الثاني: 232 .

([2]) انظر: شرح المفصل ، الجزء الثاني: 233 .

([3]) انظر: الرضي ، شرح الرضي للكافية ، الجزء الثاني : 283 .

([4]) انظر: السابق ، الجزء نفسه: 287 .

[5] انظر: شرح ابن عقيل ، المجلد الثاني ، الجزء الثالث: 191 . سبق الاستشهاد بهذا ، لكن نذكره في سياق التفرقة بين النعت والبدل بهدف الإيضاح .

[6] انظر: شرح ابن عقيل ، المجلد الثاني ، الجزء الثالث: 191 ، 192 .

ويعرف السيوطي الصفة:" تابع مكمل لمتبوعه لدلالته على معنى فيه أو في متعلق به"([1]).وفي غرض النعت يقول السيوطي:"ويرد مدحًا (الحمد لله رب العالمين، وذمًا، وترحُّمًا، وتوضيحًا، وتخصيصًا، وتوكيدًا، وغير ذلك كالتعميم، والتفضيل"([2]).

أما الصفة من حيث بنائها الصرفي، إما أن تكون مشتقة كاسم الفاعل، واسم المفعول، والصفة المشبهة، أو مصدرًا ([3]).

وفي انبناء الصفة صرفيًا يقول الرضي:" ولا فرق بين أن يكون مشتقًا–أي الوصف- أو غيره، إذا وضعه لغرض المعنى "([4])، مما يدل على ورود الصفة مصدرًا.

وقد ترد الصفة مشتقًا لفظًا، مثل اسم الفاعل، واسم المفعول، والصفة المشبهة باسم الفاعل، وأفعل التفضيل، وكذلك المؤول بالمشتق كاسم الإشارة، وكذلك (ذو) بمعنى صاحب، و(ذو) الموصولة، والمنتسب، مثل مررت برجل قريشيٍّ ([5]).

وكذلك ترد الصفة مصدرًا، لقول ابن مالك: ([6])

ونعتوا بمصدر كثيرا فالتزموا الإفراد والتذكيرا

وإذا أردنا أن ننظر في البدل عند النحويين أنفسهم، وجدنا ابن الحاجب يعرفه بقوله:" تابع مقصود بما نُسِبَ إلى المتبوع دونه"([7]). ويعرفه ابن عقيل بقوله: " التابع

---

[1] انظر: همع الهوامع ، الجزء الخامس: 171 .

[2] انظر: السابق ، الجزء نفسه: الصفحة نفسها . وأعتقد أن هذا يكفي في المفهوم والغرض .

([3]) انظر: ابن يعيش ، شرح المفصل ، الجزء الثاني: 234 ، 236 .

([4]) انظر: شرح الرضي على الكافية ، الجزء الثاني : 289 .

([5]) انظر: ابن عقيل ، شرح ابن عقيل ، المجلد الثاني ، الجزء الثالث: 195 .

([6]) انظر: السابق ، المجلد نفسه ، الجزء نفسه: 200 ، 201 .

([7]) انظر: شرح الرضي على الكافية ، الجزء الثاني: 379 .أما الزمخشري، فلم يعرف البدل في كتابه المفصل، وإنما بدأ بأنواعه مباشرة . انظر: شرح المفصل ، الجزء الثاني: 285 .

المقصود بالنسبة بلا واسطة "[1]. ويعرفه السيوطي بقوله: " هو التابع المقصود بالحكم بلا واسطة " [2].

وإذا أردنا أن نرصد وجه الاختلاف بين النعت والبدل فيما ذكرناه، وفيما لم نذكره، اتضح لنا الآتي: **أولًا** أن الصفة ليست المقصودة بالنسبة/أي بالحكم. أما البدل، فهو المقصود بالحكم.

ثانيًا: أن الصفة ترد مكملة للموصوف.أما البدل فلا. **ثالثًا**: أن الصفة ترد للأغراض التي ذُكرت. وهي أغراض لها علاقة بالموصوف، كالمدح والثناء والتعظيم مثلًا. أما البدل فلا يرد لأجل تلك الأغراض.

رابعًا: أن البدل له استقلالية عن المبدل منه. أما الصفة فلأنها تكمل الموصوف، فلا استقلالية لها. لذا فالارتباط بين النعت والمنعوت أقوى من الارتباط بين البدل والمبدل منه.

خامسًا: أن الموصوف هو المقصود بالحكم، أما المبدل منه فلا، وإنما يرد بوصفه تمهيدًا للبدل.

سادسًا: أن النعت لابد أن يوافق المنعوت تعريفًا وتنكيرًا، أما البدل فلا يشترط فيه ذلك، فقد يرد المبدل منه معرفة والبدل نكرة، كما في قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا **بِالنَّاصِيَةِ** * **نَاصِيَةٍ** كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ (العلق:15، 16). أو العكس، مثل قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى **صِرَاطٍ** مُسْتَقِيمٍ * **صِرَاطِ** اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ (الشورى: 52، 53).

([1]) انظر: شرح ابن عقيل ، المجلد الثاني ، الجزء الثالث: 247 .

([2]) انظر: همع الهوامع ، الجزء الخامس: 212 . أما أنواع البدل فهي: بدل كل من كل (المطابق) ، بدل بعض من كل ، بدل اشتمال ، بدل الغلط (البداءة) . ينظر في ذلك ، واختلاف أسماء تلك الأنواع من نحوي لآخر ، المصادر السابقة . وكما قلتُ من قبل: إن هذين التابعين يدور حولهما قواعد تقعيدية كثيرة ، لكننا ركزنا على المطلوب فيما يفيدنا في تلك الدراسة .

سابعًا: أن الصفة منها ما هو حقيقي، ومنها ما هو سببي. أما البدل فلا؛ فلا يبدل من الاسم إلا ما كان مطابقًا أو بعضًا من كل، أو اشتمالًا، أو غلطًا.

ثامنًا: يجري البدل في المُظْهَر والمُضْمر، أما النعت فلا؛ إ ذ هو قائم على المُظهر فحسب.

أخيرًا: قد يكون النعت جملة تصف المفرد. أما البدل فلا تُبَدَّل الجملة من المفرد ([1]).

وإذا كان هذا هو العنصر الأول / النحوي، فإن العنصر **الآخر** الدلالي يتبلور في إظهار سمات الألوهية الخاصة بالمتبوع اسم الجلالة (الله) جل في علاه، وسمات الربوبية الخاصة بالتابع (رب).

سبق أن قلنا: إن هناك نوعين من التوحيد: توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية. وتوحيد الألوهية يعني: إفراد (الله) تعالى بأفعال العباد التي يفعلونها على وجه التقرب المشروع؛ كالدعاء، والنَّذْر، والنحر، والرجاء، والخوف، والتوكل، والرغبة، والرهبة والإنابة؛ وهذا النوع من التوحيد هو موضوع دعوة الرسل من أولهم إلى آخرهم ([2]).

أما توحيد الربوبية فيعني:" إفراد (الله) تعالى بأفعاله؛ بأن يُعْتَقَدَ أنه وحده الخالق لجميع المخلوقات، وأنه الرازق لجميع الدواب والآدميين، وغيرهم، وأنه مالك الملك، والمدبر لشئون العالم كله؛ يُولي ويعزل، يُعز ويُذل، القادر على كل شيء؛ يصرف الليل والنهار، يحي ويميت ([3]).

([1]) انظر في تلك الأوجه الخلافية بين التابعين كلًا من: منصور بن صلاح بن رويجح الرحيلي ، المعنى وتعددالتوجيه النحوي (دراسة في كتاب شرح مشكلات الحماسة لابن جني) ، رسالة ماجستير ، كلية اللغة العربية ، قسم النحو والصرف ، جامعة أم القرى ، المملكة العربية السعودية ، 1435هـ – 2014م: 88 – 91 ، وكذلك: موسى سالم إبراهيم أبو جليدان ، التوجيه النحوي لتداخل التوابع في القرآن الكريم ، رسالة دكتوراة ، كلية الآداب ، قسم النحو والصرف ، الجامعة الإسلامية ، غزة فلسطين ، محرم 1439هـ – أكتوبر 2017م: 147 – 150 .

([2]) انظر: صالح بن فوزان الفوزان ، عقيدة التوحيد: 42 .

([3]) انظر: السابق: 22 .

وقد فطر (الله) جميع الخلق على الإقرار بربوبيته؛ حتى إن المشركين الذين جعلوا لله شريكًا في العبادة يقرون بتفرده بالربوبية [1].

ومن الطبيعي أن للألوهية سمات وللربوبية سمات. ولما كان إيمان المرء لا يكتمل إلا بإيمانه بنوعي التوحيد، كان عليه أن يؤمن بسمات الألوهية وسمات الربوبية. ومن هنا كانت سمات الربوبية مكملة ومتممة لسمات الألوهية، فيتم الإيمان ب(الله) سبحانه: معبودًا واحدًا لا شريك له، وربًا واحدًا للكون لا رب سواه.

وإذا أخذنا قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الفاتحة: 2) نموذجًا تطبيقيًا للدراسة؛ ألفينا أن دال (رب) قد حمل وجهي الإعراب: الصفة والبدل عند النحويين.

وإذا تأملنا دال (رب) - وفق العنصرين السابقين - وجدنا أن إعرابها لا يخرج عن **النعت**؛ للأسباب الآتية: **أولًا** أن اسم الجلالة (الله) هو المقصود بالحكم؛ إذ (الحمد) فعل من أفعال العباد، لا ينبغي التوجه به – في إطار العبادة – إلا إلى (الله) سبحانه وتعالى.

ثانيًا: أن دال (رب) تَمَّمَ وكَمَّلَ سمات المعبود الخالق جل في علاه، لتنضم سمات الربوبية إلى سمات الألوهية. ولما كان لا يصح أن يُوَجَّه (الحمد) إلى أحدهما دون الآخر لعدم اكتمال الإيمان والحال هكذا، ورد الاثنان (الله – رب).

ثالثًا: أن المتبوع (الله) معرفة / علم، والتابع معرفة / معرفًا بالإضافة إلى دال (العالمين).

رابعًا: أن دال (رب) قد حمل معاني المدح الثناء والتعظيم (لله) تبارك وتعالى؛ إذ هو لا غيره رب العالمين.

---

(1) انظر: السابق نفسه: 23 . واقرأ في الآيات الدالة على ذلك: سورة (المؤمنون: 86– 89) . وعلى كل حال ، فإن توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية من المسائل العقَدَيَّة التي دار حولها نقاش كثير.

خامسًا: أن (رب) مصدر بمعنى التربية [1]. ويصح الوصف بالمصدر، كما ورد عند الزمخشري وابن الحاجب وابن مالك. فإن قيل: الوصف بالمصدر مؤول بأحد ثلاثة تأويلات: **أولهما** أن يُطلق المصدر الدال على الحدث ويُراد به المشتق الدال على الذات **ثانيهما:** أنه على تقدير مضاف. **آخرهما**: أن يوصف بالمصدر على المبالغة [2]، فما التأويل الذي يتناسب مع هذا الموضع؟ قلتُ: ثمة تأويلان؛ الأول والثالث؛ إذ دال (رب) يعني مُرَبِّي / صفة مشبهة أو اسم فاعل (مُرَبِّي العالمين)، الذي ربَّاهم ونشَّأهم وهذَّبهم وخلقهم على الكمال الأكمل. **والآخر:** أن دال (رب) ورد مصدرًا للمبالغة، كما سنرى بعد قليل.

سادسًا: أن المنعوت (الله) والنعت (رب) قد وردا مفردين مذكرين، كما ورد في بيت ابن مالك السابق. وهو الشرط المسوق في كون النعت مصدرًا. **سابعًا:** أن النعت قد بُنِيَ على منعوت مُظْهَر غير مضمر.

ثامنًا: أن النعت (رب) ليس له استقلالية بعيدًا عن المنعوت (الله)؛ لأنه كما قلنا: لا يصح الإيمان إلا بالجمع بينهما في عقيدة العبد ويقينه.

والآن ننظر ماذا قالت التفاسير. يقول الماوردي بعد أن تناول اشتقاق (رب):" فعلى هذا، أن صفة الله تعالى بأنه رب، لأنه مالك أو سيد، فذلك صفة من صفات ذاته، وإن قيل لأنه مدبر لخلقه، ومربيهم، فذلك صفة من صفات فعله"[3].

ويقول الزمخشري في دال (رب):" ويجوز أن يكون وصفًا للمبالغة كما وُصِفَ بالعدل"[4].

---

[1] انظر: الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن: 336 . وأبي الأعلى المودودي، المصطلحات الأربعة في القرآن: 34. وانظر كذلك: عودة خليل أبو عودة ، التطور الدلالي: 121 – 127 .

[2] انظر: ابن عقيل ، شرح ابن عقيل ، المجلد الثاني ، الجزء الثالث: 201 .

[3] انظر: النكت والعيون ، الجزء الأول: 54 .

[4] انظر: الكشاف ، الجزء الأول: 20 . وقد ذهب الزمخشري كذلك إلى دلالة المدح في دال (رب) .

ويقول البيضاوي:"(الرب) في الأصل مصدر بمعنى التربية، وهو تبليغ الشيء إلى كماله شيئًا فشيئًا، ثم وُصِفَ به للمبالغة كالصوم والعدل " ([1]).

ويقول أبو حيان الأندلسي:" و(رب) مصدر وصف به على أحد وجوه الوصف بالمصدر، أو اسم فاعل حذفت ألفه فأصله (رابٌّ)، كما قالوا: رجل بار وبر"([2]).

ويقول أبو السعود: " (رب العالمين) بالجر على أنه صفة لله، فإن إضافته حقيقية مفيدة للتعريف على كل حال ضرورة تعين إرادة الاستمرار...و(الرب) في الأصل مصدر بمعنى التربية، وهي تبليغ الشيء إلى كماله شيئًا فشيئًا، وُصِفَ به الفاعل للمبالغة كالعدل.وقيل: صفة مشبهة من ربه يربه مثل نمه ينمه بعد جعله لازما بنقله إلى فعل بالضم كما هو المشهور. سمي به المالك لأنه يحفظ ما يملكه ويربيه" ([3]).

وأخيرًا يقول ابن عاشور: " (رب العالمين) وصف لاسم الجلالة، فإنه بعد أن أسند الحمد لاسم ذاته تعالى تنبيهًا على الاستحقاق الذاتي، عقَّب بالوصف وهو الرب ليكون الحمد متعلقًا به أيضًا؛ لأن وصف المتعلَّق متعلَّق أيضًا، فلذلك لم يقل: الحمد لرب العالمين؛ ليؤذن باستحقاقه الوصفي أيضًا للحمد كما استحقه بذاته" ([4]).

بعدما قدمنا هذا، هل يبقى شيء لم نقدمه على أن إعراب دال (رب) صفة وليس بدلًا؟ أعتقد: لا. ومع ذلك ساق علماؤنا الأفاضل وجه البدلية في إعراب دال (رب)، ولا أدري على أي أساس تم هذا [*].

([1]) انظر: تفسير البيضاوي ، الجزء الأول: 66 .

([2]) انظر: البحر المحيط ، الجزء الأول: 132 . وكذلك ذهب العُكْبَرِي . انظر: التبيان في إعراب القرآن: 5 .

([3]) انظر: إرشاد العقل السليم ، الجزء الأول: 13 .

([4]) انظر: التحرير والتنوير ، الجزء الأول : 166 . وانظر كذلك: الألوسي ، روح المعاني ، الجزء الأول: 76 ، 77 .

[*] لذا ، أقول: إننا في حاجة إلى وضع إعراب للقرآن الكريم يراعي الجانب الدلالي ، لا النحوي التقعيدي .

وفي الآية ذاتها يقول أحد الباحثين: " فجمهور النحاة والمفسرين على إعراب دال (رب) بدلًا أو نعتًا على الخفض، وما ذلك إلا للاختلاف القائم بين هؤلاء حول (رب) أهي وصف أم مصدر، فمن عدها صفة ساغ أن يعربها نعتًا، ومن عدها مصدرًا كساها حلية البدلية لجموده؛ ولأنها تصلح لهذا وذاك بلا خلاف عند أهل اللغة، كان الاتفاق على جواز إعرابها صفة أو بدلًا، والنعت بالمصدر منصوص عليه بشروط عند النحاة. فالنعت في الآية للتوضيح والثناء، والبدل لتقوية الحكم السابق وتأكيده بتعيين المراد، وإيضاحه، ورفع الاحتمال عنه، وهذا كله ينسجم مع مراد العزيز الجليل، وإليه ينصرف التأويل " ([1]).

وهذا الطرح في حاجة إلى مراجعة من وجوه: **الأول** أن الباحث لم يرجح وجهًا من الأوجه الإعرابية، وإنما سلَّم بالوجهين، تبعًا لما طرحه علماء اللغة. وكما قلنا من قبل: لا يمكن أن يتشابه االمنتج الدلالي للنعت مع البدل.

الثاني: أنه قال (فمن عدها صفة ساغ أن يعربها نعتًا)، فما الفرق بين الصفة والنعت؟ **الثالث**: أنه قال: (ومن عدها مصدرًا كساها حلية البدلية لجموده). ثم عاد وساق إمكانية الوصف بالمصدر.

الأخير: أن ما ساقه في حيثيات البدل من التأكيد، والأيضاح، ورفع الاحتمال، الذي يعني التخصيص، كل هذا من أغراض النعت وليس البدل. وإن يكن البدل يشترك في بعض هذه الأغراض.

ولذا، فإني أرى – والله بالحقيقة عليم – أن دال (رب) عندما يرد بعد اسم الجلالة (الله) يعرب نعتًا، ولا أرى أن ثمة مسوغًا لوجه البدلية.

يؤكد ذلك، أننا إذا سقنا مثالًا آخر، نجد اختلاف النحويين في إعرابه يسير على ما سار عليه في النموذج السابق. فمثلًا قول (الله) سبحانه وتعالى: ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ (البقرة: 282، 283)، تجد أن الدرويش قال بوجه البدل فحسب ([2])، وكذلك

([1]) انظر: موسى سالم إبراهيم، التوجيه النحوي لتداخل التوابع في القرآن الكريم: 153 ، 154 .

([2]) انظر: إعراب القرآن الكريم وبيانه ، المجلد الأول: 375 .

محمد حسن عثمان ([1]). بينما قال بهجت صالح بالبدلية والنعت([2])، وأخيرًا ذهب ياقوت إلى وجه الصفة فحسب ([3]). ومع تدقيق النظر، وإعمال التأمل والتروي، يدرك أن الصفة هي الوجه الصحيح.

ثانيًا: البدل

تناولنا فيما مضى وقوع دال (رب) في منطقة النعت. والآن نتأمله في منطقة **(البدل)** يعرف ابن الحاجب البدل بقوله:" تابع مقصود بما نُسِبَ إلى المتبوع دونه"([4]). ويعرفه ابن عقيل بقوله: " التابع المقصود بالنسبة بلا واسطة "([5]). ويعرفه السيوطي بقوله: " هو التابع المقصود بالحكم بلا واسطة " ([6]).

وفي الأغراض التي يساق البدل من أجلها يقول الزمخشري: " وهو – أي البدل - الذي يُعتمد بالحديث، وإنما يُذكرُ الأولُ لنحوٍ مِنَ التَّوْطِئَةِ، وليُفاد بمجموعهما فضلُ تأكيدٍ وتبيين، لا يكون في الإفراد...وقولهم (إنه في حكم تنحية الأول / المبدل منه) إيذانٌ منهم باستقلاله بنفسه، ومفارقتِه التأكيدَ والصفةَ في كونهما تَتِمَّتَينِ لما يَتْبَعَانِه، لا أن يعنوا إهدارَ الأول واطِّراحَه " ([7]).

([1]) انظر: إعراب القرآن الكريم وبيان معانيه ، المجلد الأول: 737 .

([2]) انظر: الإعراب المفصل ، المجلد الأول: 403 ، 404 .

([3]) انظر: إعراب القرآن الكريم ، المجلد الأول: 523 . وانظر في الخلاف الموجود بين النحويين في إعراب دال (رب) في المواضع الآتية: سورة (المائدة: 28) ، وسورة (الأنعام: 45 ، 162) ، وسورة (الإعراف: 54 ، 189) وسورة (يونس: 10) ، وسورة (المؤمنون: 116) وسورة (النمل: 8 ، 44 ، 26) وسورة (القصص: 30) ، و(الصافات: 126، 181)، و(ص:66) ، و(الزمر: 57) ، و(غافر: 64 ، 65) و(الجاثية: 36)، و(الحشر: 16) ، و(التكوير:29) .

([4]) انظر: شرح الرضي على الكافية ، الجزء الثاني: 379 .

([5]) انظر: شرح ابن عقيل ، المجلد الثاني ، الجزء الثالث: 247 .

([6]) انظر: همع الهوامع ، الجزء الخامس: 212 . أما أنواع البدل فهي: بدل كل من كل (المطابق) ، بدل بعض من كل ، بدل اشتمال ، بدل الغلط (البداءة) . ينظر في ذلك ، واختلاف أسماء تلك الأنواع: المصادر السابقة .

([7]) انظر: شرح المفصل ، الجزء الثاني: 262 .

ويقول عباس حسن: " الغرض الأصيل هو – في الغالب – تقرير الحكم السابق وتقويته بتعيين المراد، وإيضاحه ورفع الاحتمال عنه؛ لأن هذا الحكم يُنسب أولًا للمتبوع، فيكون ذكر المتبوع تمهيدًا للتابع الذي سيجيء، وتوجيهًا للنفس لاستقباله بشوق ولهفة. فإذا استقبلته وعرفته استقبلت معه الحكم وعرفته أيضًا؛ فكأن الحكم قد ذُكِرَ مرتين؛ وفي هذا تقوية للحكم وتوكيد. ولأجل تحقيق هذا الغرض لا يصح أن يتحد لفظ البدل والمبدل منه إلا إذا أفاد الثاني زيادة بيان وإيضاح؛ فلا يصح في مثل: يا سعد سعد أنت زعيم موفق إعراب كلمة سعد الثانية بدلًا "([1]).

والسبب في استقلال البدل، هو نية تكرار العامل، ولكن لما دل عليه الأول، لم يذكر في الثاني؛ فإذا قلتُ: رأيتُ أخاك زيدًا، كان الكلام على نية: رأيتُ أخاك رأيتُ زيدًا. وفي هذا مخالفة للنعت؛ لأن النعت ليس فيه نية تكرير العامل. فعندما أقولُ: رأيتُ رجلًا طويلًا، لا يستقيم أن يكون التركيب على نية: رأيتُ رجلًا رأيتُ طويلًا؛ لأن النعت متمم لمنعوته ([2]).

والآن ندخل عالم التطبيق. يقول (الله) تعالى: ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ (الأعراف: 121، 122) [*]. وإذا تأملنا إعراب دال (رب) في صدر الآية الثانية، ألفينا أنها بدل من (رب) في الآية الأولى([3]). ويقول سبحانه وتعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ

([1]) انظر: النحو الوافي ، الجزء الثالث: 665 .

([2]) انظر: شرح المفصل ، الجزء الثاني: 262 .

[*] وانظر: سورة (الشعراء: 48) . وهذا الموضع قد يعرب فيه دال (رب) عطف بيان . انظر: الدرويش إعراب القرآن الكريم وبيانه، المجلد الخامس: 405 ، وبهجت صالح ، الإعراب المفصل ، المجلد الثامن: 189 ، ومحمود ياقوت ، إعراب القرآن الكريم ، المجلد السابع: 3321 .وسنناقش هذا في عطف البيان، إن شاء (الله) عز وجل .

([3]) انظر: العكبري ، التبيان في إعراب القرآن: 588 ، وبهجت عبد الواحد صالح ، الإعراب المفصل الجزء الرابع: 58 . وقد قالا بوجه (البدل) فقط . أما محيي الدين الدرويش ، فقد قال بوجه (البدل) و(النعت) . انظر: إعراب القرآن الكريم وبيانه ، المجلد الثالث: 23 . وتبع الدرويشَ سليمان

الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (الصافات: 180) * . وبالتأمل يدرك أن دال (رب) يعرب بدلًا من (ربك) ([1]).

وإذا نظرنا إلى آراء النحويين في هامش الصفحة السابقة، نجد أن الدرويش وياقوت ذهبا إلى أعراب دال (رب) في موضع (الأعراف) بدلًا أونعتًا، في حين اقتصرا على وجه البدلية في موضع (الصَّافَّات). فهل علاقة (رب موسى وهارون) ب(رب العالمين) تختلف عن علاقة (رب العزة) ب(ربك)؛ كي تختلف الأوجه الإعرابية إلى هذا الحد؟

والآن، نذهب إلى الموضع الأول، وهو قوله تعالى: ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ (الأعراف: 121، 122). من المعلوم أن المخاطِب هنا هم المؤمنون من السحرة، والمخاطَب فرعون وملؤه.

ياقوت . انظر: إعراب القرآن الكريم: 1662 . وقد أعرب ابن هشام دال (رب) بدلًا أو عطف بيان . انظر: مغني اللبيب:628.ومع وجاهة هذا الوجه الإعرابي، لم يذكره أحد من النحويين و المفسرين .

ومرة أخرى يعود الدرويش لموضوع فواصل الآي ، فيقول:" وقدموا –أي المؤمنون من السحرة – موسى على هارون – وإن كان هارون أسن منه – لأمرين: أولهما ارتفاعه عليه بالرتبة ، ولأنه وقع فاصلة ، ومراعاة الفواصل تكاد تكون مطردة في القرآن " . انظر: إعراب القرآن الكريم وبيانه ، المجلد الثالث: 23 . وإذا كان ذلك كذلك ، فماذا نقول في قوله تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ (طه: 70)؟ . والمدهش أن الدرويش لم يقل شيئًا في فاصلة هذه الآية . انظر: إعراب القرآن الكريم وبيانه ، المجلد الرابع: 698 . وكما قلتُ من قبل: هذا البحث في حاجة إلى دراسة مستفيضة تُمَثِّلُ الدلالة عمودها الفقري .

* وانظر: سورة (الصافات: 5) ، وسورة (الزخرف: 82)

([1]) انظر: محيي الدين الدرويش ، إعراب القرآن الكريم وبيانه ، المجلد السادس: 433 . وبهجت عبد الواحد صالح، الإعراب المفصل، الجزء العاشر: 80 . ومحمود سليمان ياقوت . انظر: إعراب القرآن الكريم: 3968 . وقد قال ثلاثتهم بوجه (البدل) فقط . أما الزجاج، فقد طرح أوجهًا عدة ، منها البدل.انظر:معاني القرآن وإعرابه، الجزء الرابع: 317.وقد اعتمد النحاس ما اعتمده الزجاج. انظر: إعراب القرآن: 857 .

ونوع البدل هنا هو البدل المطابق؛ ف(رب) العالمين هو (رب) موسى وهارون. فإن قيل: إذا كان ذلك كذلك، فما الذي أضافه البدل؟ وهل كان من الممكن أن يُؤَدَّى المعنى بالاكتفاء بالآية الأولى: ﴿آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؟

قلتُ: ما كان للمنتج الدلالي أن يتطابق -إذا اكتفينا بالآية الأولى - مع المنتج الدلالي مع مجيء بنية البدل. ويتضح ذلك من خلال النقاط الآتية: **أولًا** إذا تم الاكتفاء بالآية الأولى﴿آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، قد يقال: قد يكون (ربُ العالمين) غير (رب موسى وهارون) ومن ثم تُنْسَفُ دعوة سيدنا موسى وسيدنا هارون. وإن ذكرت الآية الثانية فحسب (أمنا برب موسى وهارون)، فقد يقال: إن (رب موسى وهارون) ليس هو (رب العالمين) ومن ثم نصل إلى النتيجة نفسها، وهي التكذيب بدعوة سيدنا موسى.

ومن هنا، كان انبناء الخطاب على بنية (البدل) من الآليات الأسلوبية التي حاصرت المخاطَب فرعون وملأه دلاليًا ومن ثم فكريًا، وأغلقت عليه سبل التشكيك في دعوة سيدنا موسى عليه السلام؛ لأن (رب العالمين) الذي ورد في دين إدريس ونوح وإبراهيم وكل الأنبياء الذين سبقوا سيدنا موسى – وبخاصة أن مصر كانت قد مرت بالتوحيد من قبل في عهد سيدنا يوسف عليه السلام – هو هو (رب موسى وهارون) الذي أرسلهما إلى فرعون وملئه. وهذه هي الزيادة في البيان والإيضاح، الذي حمله الثاني/ البدل للأول / لمبدل منه، الذي ورد عند عباس حسن.

ثانيًا: أن ذكر (رب العالمين) في منطقة المبدل منه، وذكر (رب موسى وهارون) في منطقة البدل له وجاهته من ناحيتين:

الأولى الترتيب الزمني، وهو ما يتماشى مع عقيدة التوحيد التي كانت معروفة عند أهل مصر في ذاك الزمان؛ إذ – كما قلنا – ورد ذكر الرب في الكتب السماوية السابقة لدى أنبياء (الله)، ثم ورد ذكر (رب موسى وهارون) للدعوة الآنية في زمن فرعون موسى عليه السلام.

الناحية **الأخرى**، أن التركيب الإضافي (رب العالمين) أشمل، والتركيب الإضافي مع العطف (رب موسى وهارون) أخص؛ إذ موسى وهارون من العالمين. وكأن بنية البدل عمدت إلى التفصيل بعد الإجمال.

ثالثًا: أن انبناء الخطاب على بنية البدل، جعل المبدل منه (رب العالمين) توطئة وتمهيدًا للبدل، كما ورد عند الزمخشري؛ ولأنه ليس هناك خلاف بين الناس على الإيمان ب(رب العالمين) - وإن أنكر القوم هذا، فهذا على مستوى الظاهر، أما الباطن فلا؛ فهم يعرفون الحقيقة كمعرفتهم لأنفسهم، بدليل استغاثتهم بسيدنا موسى عليه السلام، كما في قول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ*وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (الأعراف: 133، 134) – اعتمدت منطقة المبدل منه على المتفق عليه، ليمثل نواة أساسية لما سيرد في منطقة البدل؛ ليُفاد بمجموعهما – كما قال الزمخشري - فضلُ تأكيدٍ وتبيين، لا يكون في الإفراد.

رابعًا: أن هذه التوطئة والتمهيد في منطقة المبدل منه، كأنها بمثابة سؤال: ومَنْ رب العالمين الذي آمنتم به؟ * لتكون الإجابة – كما قال عباس حسن - تقريرًا للحكم السابق – وهو الإيمان برب العالمين، بعد إضافته إلى موسى وهارون - وتقويته

---

* طرح هذا السؤال من قبل ب(ما) في قوله تعالى على لسان فرعون: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (الشعراء: 23) . وقيل: إن السؤال ورد ب(ما) للاستفهام عن الصفات والأفعال وليس الذات ، ومن ثم وردت الإجابة هكذا: ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ * قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ* قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (الشعراء: 24 - 28) . انظر هذه الدراسة: 146 . وطرحنا السؤال هنا – افتراضًا - ب(من) لاستفهام فرعون عن (الذات) ، فكانت الإجابة: (رب موسى وهارون) .

بتعيين المراد، وإيضاحه ورفع الاحتمال عنه بأن (رب العالمين) هو (رب موسى وهارون)، وليس غيره. ومن ثم تستقبل النفوس المفطورة على الخير هذا الحكم استقبال المؤمن الراضي الذي لا يشوبه شك في دعوة سيدنا موسى عليه السلام.

أخيرًا: أن من خصائص (البدل) أنه يدل على اتساع الدلالة مع اقتصار اللفظ. وهذا هو المقصود من إعمال العامل في البدل مع عدم تكريره. وكأن التعبير كان هكذا: (آمنا برب العالمين، آمنا برب موسى وهارون)، فجاء البدل ليحذف العامل، وتخرج الصياغة على أبهى ما يراد لها [*].

وفيما يخص ما ساقه محيي الدين الدرويش من مسألة ورود اسم سيدنا موسى قبل سيدنا هارون، وأن هذا لمراعاة الفواصل [*]، فإننا أكدنا من قبل على غير هذا. مؤمنين بأن الصياغة ترد خدمًا للدلالة.أما الجانب الصوتي، فيرد في المرتبة الثانية.

وعليه، فإن التأمل الواعي، والتأني الفكري يقول: إن تقديم سيدنا موسى هنا وتأخير سيدنا هارون ورد في سياق خدمة الدلالة أولا. ولا يتضح هذا إلا بموازنة هذا الموضع بالموضع الآخر في قوله تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ (طه: 70).

والرأي عندي – والله أعلى وأعلم - أن في سورة (طه) ورد دعاء سيدنا موسى عليه السلام ربه سبحانه وتعالى بأن يشد عضده بأخيه: ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴾ (طه: 29 - 32). هذا أمر.

الأمر الآخر: أن سورة (طه) ضمت موضوع العصا، وتدريب سيدنا موسى عليها ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا

---

[*] وبعد هذا الطرح ، لا أدري كيف قال بعض النحويين بوجه الصفة في إعراب دال (رب) !!! . أما بخصوص ورود دال (رب) دون اسم الجلالة (الله) ، أو دال (إله) ، فقد نوهنا إليه كثيرًا ، وبخاصة في قصة سيدنا موسى عليه السلام .

[*] لم يكن الدرويش بدعًا في ذلك ، فقد قال السكاكي من قبل بمراعاة الفواصل بين هذين التركيبين اللذين وردا في سورة (طه) وسوة (الشعراء) . انظر: مفتاح العلوم: 239 .

مَآرِبُ أُخْرَى * قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى * فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى * قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾ (طه:17 – 21). وعند المواجهة خاف سيدنا موسى من حال عصي السحرة: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى * قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى * فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى * قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى * وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ (طه: 65 – 69).

ومن ثم، كانت أسبقية سيدنا هارون لسيدنا موسى من باب شد الأزر من ناحية، استجابة له عليه السلام، وطمأنة لقلبه، وبخاصة أن سيدنا هارون عليه السلام كان أسن من سيدنا موسى عليه السلام، كما قال محيي الدين الدرويش نفسه.

أما في سورة الأعراف، فقد انتفى الأمران؛ فلم يذكر شد الأزر، ولم يذكر الخوف، بل ذكر: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ (الأعراف: 117). فورد تقديم سيدنا موسى عليه السلام على سيدنا هارون عليه السلام، وهو الأولى؛ إذ هو – أي سيدنا موسى عليه السلام - المخصوص بالبعث.

يؤكد لك هذا، أن المعني بالخطاب من جانب فرعون في حالة الإفراد كان على الدوام سيدنا موسى عليه السلام، سواء تقدم على سيدنا هارون عليه السلام، أو تأخر عنه.

ففي موضع (الأعراف)، وهو قول (الله) سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: 123) عاد الضمير في الجار والمجرور(به) إلى سيدنا موسى عليه السلام، وفي موضع (طه)، وهو قول (ربنا) تبارك وتعالى: ﴿ قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ (طه: 71)، عاد الضمير

في الجار والمجرور (له) كذلك إلى سيدنا موسى عليه السلام، رغم تقدم ذكر سيدنا هارون عليه السلام عليه عليه السلام ([1]).

ومن ثم، فإن المسألة – وهو ما أُشَدِّدُ عليه دائمًا - ليست مسألة صوت، وإنما مسألة دلالة. علمنا الله وإياكم، وغفر لنا ولكم.

وكما حدث تداخل بين (النعت) و(البدل) حدث تداخل بين (البدل) و(النعت) وغيرهما من الرتب النحوية الأخرى. ففي قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (الأنعام: 102) [*]. يعرب النحاس (ذلكم)في موضع رفع بالابتداء، و(الله ربكم) على البدل، و(خالق كل شيء)خبر الابتداء ويجوز أن يكون (ربكم) الخبر، و(خالق) خبرًا ثانيًا، أو على إضمار مبتدأ ([2]).

أما العكبري فيرى أن: (ذلكم) مبتدأ، ثم يقول وفي الخبر أوجه: **أحدها** أن (الله) خبر أول و(ربكم) خبر ثان، وجملة (لا إله إلا هو خبر) ثالث، و(خالق كل شيء) خبر رابع . **والثاني**: أن الخبر (الله) وما بعده إبدال منه، **والثالث**: أن (الله) بدل من (ذلكم)، والخبر ما بعده ([3]).

وإلى الوجه الأول عند العكبري ذهب محيي الدين الدرويش ([4]). في حين يرى بهجت عبد الواحد صالح أن (ذلكم): مبتدأ أول، واسم الجلالة (الله) مبتدأ ثان، و(ربكم) خبر لاسم الجلالة (الله)، ويجوز أن يكون (ربكم) بدلًا من اسم الجلالة (الله)، وجملة

([1]) انظر في الموضعين على سبيل المثال:الإمام الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، المجلد الثالث: 482، والمجلد الخامس: 207 .

[*] وانظر في دال (رب) بدلًا من اسم الجلالة (الله) ، سورة (البقرة: 282 ، 283) .

([2]) انظر: إعراب القرآن : 279 .

([3]) انظر: التبيان في إعراب القرآن: 527 .

([4]) انظر: إعراب القرآن الكريم وبيانه ، المجلد الثاني: 424 .

(الله ربكم) خبر للإشارة (ذلكم)، وجملة التوحيد خبر ثان للمبتدأ الأول (ذلكم)، و(خالق) خبر ثالث للإشارة (ذلكم) ([1]).

وأخيرًا يرى محمود سليمان ياقوت أن: (ذلكم) مبتدأ، واسم الجلالة (الله) خبر أول و(ربكم) خبر ثان، وجملة التوحيد خبر ثالث، وخالق خبر رابع. وهو يوافق الدرويش.

كما يرى ياقوت إمكانية إعراب (ربكم) بدل من اسم الجلالة (الله)، وهو يوافق في ذلك رأي بهجت عبد الواحد صالح، كما يرى – كذلك - إمكانية إعراب اسم الجلالة (الله) بدل من الإشارة (ذلكم) ([2]).

وعلى هذا النحو، بدا دال(ربكم) في ثلاثة أوجه إعرابية: خبر لاسم الإشارة (ذلكم) أو خبر ثان للإشارة (ذلكم)، أو خبر لاسم الجلالة (الله)، أو بدل من الإشارة (ذلكم)، أو بدل من اسم الجلالة (الله).

	النحاس	العكبري	الدرويش	صالح	ياقوت
(ربكم)	بدل من الإشارة خبر للإشارة	خبر أول للإشارة - خبر ثان للإشارة – بدل من (الله)	خبر ثان للإشارة	خبر (لله) بدل من (الله)	خبر ثان للإشارة بدل من (الله)

والعجيب أن الدرويش يصدر إعراب هذا الخطاب بقوله: " الكلام مستأنف، وهو وما بعده سرد لتقرير نعته سبحانه بهذه الأوصاف السامية "([3]). وعندما يدخل إلى عملية الإعراب لا يعرب دالًا واحدًا من دوال التركيب صفة (لله) سبحانه وتعالى.

والآن نذهب إلى التفسير. يقول الزمخشري:"﴿ذلكم﴾ إشارة إلى الموصوف مما تقدم من الصفات، وهو مبتدأ، وما بعده اخبار مترادفة ﴿ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

([1]) انظر: الإعراب المفصل ، المجلد الثالث: 289 ، 290 .

([2]) انظر: إعراب القرآن الكريم ، المجلد الثالث: 1462 .

([3]) انظر: إعراب القرآن الكريم وبيانه ، المجلد الثاني: 424 .

خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي ذلكم الجامع لهذه الصفات ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ مسبب عن مضمون الجملة على معنى:أن من استجمعت له هذه الصفات كان هو الحقيق بالعبادة فاعبدوه، ولا تعبدوا من دونه من بعض خلقه. ثم قال: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ يعني وهو مع تلك الصفات مالك لكل شيء من الأرزاق والآجال، رقيب على الأعمال"([1]).

واضح من كلام الزمخشري، أن مضمون الآية الكريمة، وما سبقها من آيات يسير في إطار الإخبار عن الصفات. ومع ذلك لم يعرب الزمخشري دالًا واحدًا من دوال الآية الكريمة صفة (لله) جل في علاه.

وإذا عدت إلى الوجه الثالث في هذه الآية عند الرازي يجد أنه يتناول مسألة الصفات لله سبحانه وتعالى ([2]). أما الإمام القرطبي، فقد نقل إعراب النحاس بالكلمة الواحدة ([3]).

وبعد أن ذكر أبو السعود ما ساقه الزمخشري، قال:" وقيل: الخبر هو الأول – أي اسم الجلالة (الله)، والبواقي أبدال، وقيل: الاسم الجليل بدل من الإشارة / المبتدأ، والبواقي أخبار، وقيل: يقدر لكل من الأخبار الثلاثة مبتدأ، وقيل: يجعل الكل بمنزلة اسم واحد "([4]).

أما البيضاوي فيقول:" ﴿ذلكم﴾ إشارة إلى الموصوف مما تقدم من الصفات، وهو مبتدأ، ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أخبار مترادفة. ويجوز أن يكون البعض بدلًا أو صفة والبعض خبرًا "([5]).

([1]) انظر: الكشاف ، الجزء الثاني: 51 .

([2]) انظر: مفاتيح الغيب ، الجزء الثالث عشر: 127 .

([3]) انظر: الجامع لأحكام القرآن ، الجزء الثامن: 482 .

([4]) انظر: إرشاد العقل السليم ، الجزء الثالث: 169 .

([5]) انظر: محيي الدين شيخ زاده ، الحاشية على تفسير البيضاوي ، الجزء الرابع: 112 . وأخرنا البيضاوي بعد أبي السعود لقوله بالصفة في بعض دوال الخطاب ، إضافة إلى رأي ابن عاشور الذي يليه .

وقد ورد رأي ابن عاشور على هذا النحو: " والمشار إليه – اسم الجلالة (الله) – هو الموصوف بالصفات المضمنة بالأخبار المتقدمة، ولذلك استغنى عن اتْباع اسم الإشارة ببيان أو بدل. وقوله (ربكم) صفة لاسم الجلالة، وجملة (لا إله إلا هو) حال من (ربكم)، وقوله (خالق كل شيء) صفة ل(ربكم)، أو لاسم الجلالة (الله) وإنما لم نجعله خبرًا؛ لأن الإخبار قد تقدم بنظائره في قوله (وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ) – وهو التركيب الوارد في الآية السابقة على هذه الآية " ([1]).

وإذا ضممنا مضمون كلام الزمخشري الذي يتناول الحديث عن الصفات إلى الوجه الثالث عند الرازي إلى ما طرحه كل من البيضاوي وابن عاشور، تبين ترجيح وجه الصفة لدال (رب) على جميع الأوجه الأخرى، والتي منها (البدل).

وحجتي في عدم إعراب دال (رب) بدلًا من اسم الجلالة (الله)، أن اسم الجلالة يدل بنفسه على الذات العليا. أما دال (رب) فإنه لا يدل على الذات العليا إلا إذا أضيف إلى ما يشير إلى ذلك: (رب السموات والأرض، ربكم، رب العالمين)، فلا يمكن جعل ما يحتاج إلى الإضافة ليبين مراده بدلًا ممن يبين مراده دون إضافة إو غيرها

أما وقوع دال **(إلـه)** في منطقة البدل، فيرد في قوله (الله) سبحانه وتعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ **إِلَهًا** وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (البقرة: 133).

والطرح النحوي يقول:إن دال (إله) بدل أو حال من (إلهك) ([2]). ولغلبة وجه البدل سندرسه بوصفه بدلًا.

([1]) انظر: التحرير والتنوير ، الجزء السابع: 412 .

([2]) انظر: النحاس ، إعراب القرآن: 67 ، العكبري ، التبيان في إعراب القرآن ، القسم الأول: 119 ، ومحيي الدين الدرويش ، إعراب القرآن الكريم وبيانه ، المجلد الأول: 178 . وقد أضاف الدرويش إلى وجهي البدل والحال وجه المنصوب على الاختصاص . وانظر كذلك: بهجت عبد الواحد صالح ، الإعراب المفصل ، المجلد الأول: 170، ومحمود سليمان ياقوت ، إعراب القرآن الكريم ، المجلد

أما التفاسير، فقد قال البغوي:"﴿إِلَهًا وَاحِدًا﴾ نصب على البدلية من قوله﴿إِلَهَكَ﴾، وقيل: نعبد إلهًا واحدًا﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ " ([1]). ويقول الزمخشري:" ﴿إِلَهًا وَاحِدًا﴾ بدل من (إله آبائك)، كقوله تعالى: ﴿بِالنَّاصِيَةِ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ﴾ (العلق: 15، 16)، أو على الاختصاص، أي نريد ب(إله آبائك) (إلهًا واحدًا) " ([2]).

ويقول ابن عطية:" و﴿إله﴾ بدل من ﴿إِلَهَكَ﴾، وكرره لفائدة الصفة بالوحدانية. وقيل ﴿إِلَهًا﴾ حال، وهذا قول حسن؛ لأن الغرض إثبات حال الوحدانية "([3]).

ويقول البيضاوي:" ﴿إِلَهًا وَاحِدًا﴾ بدل من (إله آبائك)، كقوله: ﴿بِالنَّاصِيَةِ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ﴾(العلق: 15، 16). وفائدته التصريح بالتوحيد، ونفي التوهم الناشيء من تكرير المضاف لتعذر العطف على المجرور والتأكيد، أو نصب على الاختصاص"([4]).

ويقول أبو حيان الأندلسي: " ﴿إِلَهًا وَاحِدًا﴾ يجوز أن يكون بدلًا، وهو بدل نكرة موصوفة من معرفة، ويجوز أن يكون حالًا، ويكون حالًا موطئة نحو: رأيتك رجلًا صالحًا، فالمقصود إنما هو الوصف، وجيء باسم الذات توطئة للوصف، وجوَّز

الأول: 226 ، لكنه لم يقل بوجه (الحال) ، ومحمد حسن عثمان ، إعراب القرآن وبيان معانيه ، المجلد الأول: 316 ، لكنه لم يقل بوجه (الحال) .

وفي وجه (الحال) يندرج (الحال) تحت ضرب الحال الثابتة ، أي غير المنتقلة ، وهو الوصف الثابت غير المتغير. كما تندرج تلك الحال الثابتة كذلك تحت ضرب الحال المؤكدة ؛ لأن الوصف الثابت له ثلاثة أشكال . انظر: ابن يعيش ، شرح المفصل ، الجزء الثاني: 22، والرضي ، شرح الرضي على الكافية ، الجزء الثاني: 11، وابن هشام ، أوضح المسالك ، الجزء الثاني: 297 ، وابن عقيل ، شرح ابن عقيل ، المجلد الأول ، الجزء الثاني: 244 . وهو ما سنتعرف عليه من خلال الطرح التفسيري .

([1]) انظر: معالم التنزيل: 67 .

([2]) انظر: الكشاف ، الجزء الأول: 193 .

([3]) انظر:المحرر الوجيز:136، 137.وقد نقل الرازي عن الزمخشري .مفاتيح الغيب، الجزء الرابع: 85.

([4]) انظر: محيي الدين شيخ زاده ، الحاشية على تفسير البيضاوي ، الجزء الثاني: 322 ، 323 .

الزمخشري أن ينتصب على الاختصاص أي: يريد بإلهك إلهًا واحدًا، وقد نص النحويون على أن المنصوب على الاختصاص لا يكون نكرة ولا مبهمًا، وفائدة هذه الحال أو البدل هو التنصيص على أن معبودهم واحد فرد، إذ قد توهم إضافة الشيء إلى كثيرين تعداد ذلك المضاف، فنهض بهذه الحال أو البدل على نفي ذلك الإبهام " ([1]).

ويقول الإمام البقاعي:" ولما تقدم ذكر الإله في إضافتين، بيّنوا أن المراد به فيهما واحد؛ تحقيقًا للبراءة من الشرك، وتسجيلًا على أهل الكتاب بتحتم بطلان قولهم، فقالوا: ﴿إِلَهًا وَاحِدًا﴾ " ([2]).

ويقول العلامة ابن عاشور: " وقوله ﴿إِلَهًا وَاحِدًا﴾ توضيح لصفة الإله الذي يعبدونه، فقوله (إلهًا) حال من (إلهك)، ووقوع إلهًا حالًا من إلهك مع أنه مرادف له في لفظه ومعناه إنما هو باعتبار إجراء الوصف عليه ب(واحدًا)، فالحال في الحقيقة هو ذلك الوصف، وإنما أعيد لفظ (إلهًا) ولم يقتصر على وصف (واحدًا) لزيادة الإيضاح؛ لأن المقام مقام إطناب، ففي الإعادة تنويه بالمعاد وتوكيد لما قبله "([3]).

([1])انظر:البحر المحيط، الجزء الأول:574.ويتضح من كلام أبي حيان رفضه لوجه النصب على الاختصاص.وقوله:إضافة الشيء إلى كثيرين، أي إضافة دال(إله)إلى الضمير(ك)في (إلهك) ، وإضافته إلى دال (آبائك) في (إله آبائك) . ولما كان يمكن أن يتوهم المغايرة، جاء البدل أو الحال لينفي التوهم.

([2]) انظر: نظم الدرر ، الجزء الثاني: 182 . أما أبو السعود فقد نقل كلام أبي حيان ، مع القول بوجه النصب على الاختصاص . انظر: إرشاد العقل السليم ، الجزء الأول: 164 ، 165 . وقد ذهب الألوسي إلى كل الأوجه السابقة ، انظر: روح المعاني ، الجزء الأول: 391 .

([3]) انظر: التحرير والتنوير ، الجزء الأول: 734 . وقد ذكر العلامة ابن عاشور ما طرحه الزمخشري من وجه البدلية ، ووجه النصب على الاختصاص بغرض المدح؛ فالاختصاص يجيء من الاسم الظاهر ومن ضمير الغائب

وليس لنا تعليق على ما أفاض (الله) سبحانه وتعالى به على هؤلاء العلماء الإجلاء، المفسرين العظام، إلا توضيح أن الاسم المخصوص لا يكون إلا معرفة وغير مبهم. وهذا ما ورد عند ابن عقيل ([1])، وابن هشام ([2])، وعباس حسن ([3]).

وربما يكون وصف الاسم النكرة (إلهًا) ب(واحدًا)، جعله يدخل في إطار المعرفة، قياسًا على إمكانية الابتداء بالنكرة إذا وُصِفَتْ. ومن ثم سيق وجه النصب على الاختصاص بغرض المدح.

ثالثًا:العطف

ينقسم (العطف) في النحو التقعيدي إلى ضربين: عطف بيان وعطف نسق. أما عطف البيان، فهو – كما يقول الزمخشري -: " اسم غير صفة يكشف عن المراد كشفها، وينزل من المتبوع منزلة الكلمة المستعمَلة من الغريبة إذا تُرجمت بها " ([4]).

ثم يفصل ابن يعيش كلام صاحب الكتاب بقوله: " عطف البيان مجراه مجرى النعت؛ يوتَى به لإيضاح ما يجري عليه، وإزالة الاشتراك الكائن فيه، فهو من تمامه، كما أن النعت من تمام المنعوت " ([5]).

ولما كان ثمّ تشابه بين النعت وعطف البيان، فإنهما يتشابهان في النقاط الآتية: **أولًا** اتباع المتبوع في الرفع والنصب والجر. **ثانيًا**: فيهما بيان وإيضاح للمتبوع.**ثالثًا**: أن العامل يكون في المتبوع والتابع معًا. **رابعًا**: امتناع التابعين أن يجريا على المضمر.

ولكنهما يختلفان في النقاط الآتية:**أولًا** أن النعت يكون بالمشتق أو ما ينزل منزلته، أما عطف البيان فيكون بالجوامد، يعني الاسم غير المشتق. **ثانيًا**: أن عطف البيان

([1]) انظر: شرح ابن عقيل ، المجلد الثاني ، الجزء الثالث: هامش 297 . والحقيقة أن الكلام ليس لابن عقيل ، وإنما للشيخ محيي الدين عبد الحميد .

([2]) انظر: أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ، الجزء الرابع: 72 .

([3]) انظر:النحو الوافي، الجزء الرابع: 119. حتى الأمثلة التي ساقها الخليل في هذا الإطار ترد كلها في إطار المعرفة. انظر: الجمل: 66 ، 67 .

([4]) انظر : شرح المفصل ، الجزء الثاني: 271 .

([5]) انظر : السابق ، الجزء نفسه: 271 ، 272 .

لا يكون إلا في المعارف. أما النعت فيكون في المعارف والنكرات. **ثالثًا:** أن النعت حكمه أن يكون أعم من المنعوت، ولا يكون أخص منه. ولا يلزم ذلك في عطف البيان. **رابعًا:** أن النعت يجوز فيه القطع، فينتصب بإضمار فعل، أو يرتفع بإضمار مبتدأ، ولا يجوز ذلك في عطف البيان ([1]).

وكما كان ثمة تشابه واختلاف بين عطف البيان والنعت، وقع هذا التشابه والاختلاف كذلك بين عطف البيان والبدل. أما من حيث التشابه، فهما يتشابهان في النقاط الآتية: **أولًا** أن كليهما يبينان المتبوع. **ثانيًا:** أنهما يردان بالجوامد لا المشتقات. **ثالثًا:** أن يكون لفظهما لفظ الاسم الأول على جهة التأكيد ([2]).

ويرد الاختلاف بينهما في النقاط الآتية: **أولًا** أن عطف البيان في التقدير من جملة واحدة، أما البدل فهو في تقدير جملة أخرى. والمراد بهذا أن العامل في البدل يكرر، أما في عطف البيان فلا يكرر.

ثانيًا: أن عطف البيان يجري على ما قبله في تعريفه، وليس كذلك البدل؛ لأنه يجوز أن تُبَدَّلَ النكرة بالمعرفة والعكس. **ثالثًا:** أن البدل يجوز أن يرد في المضمر والمظهر، أما عطف البيان ففي المظهر فحسب

رابعًا: أن البدل قد يكون غير المبدل منه، مثل بدل بعض من كل والاشتمال، أما عطف البيان لا يكون غير المتبوع.

أخيرًا: أن المقصود بالحكم في البدل هو الاسم الثاني/ التابع/ أي البدل، أما المقصود بالحكم في عطف البيان فهو الاسم الأول/ المتبوع ([3]).

([1]) انظر : شرح المفصل ، الجزء الثاني: 272 ، 273 .

([2]) انظر: ابن يعيش ، شرح المفصل ، الجزء الثاني: 274 .

([3]) انظر : السابق ، الجزء نفسه : 274 ، 275 .

أما ابن عقيل فيعلق على أبيات ابن مالك في (العطف) بتعريفه لعطف البيان بقوله: " هو التابع الجامد، المُشْبِهُ للصفة: في إيضاح متبوعه، وعدم استقلاله"([1]). وفي تعليق الشيخ محيي الدين عبد الحميد على تعريف الشارح يقول: " عبارة الشارح في هذا الموضع قاصرة. والتحقيق أن عطف البيان يأتي لأغراض كثيرة، وأن أشهرها أربعة: **الأول:** توضيح متبوعه، وهذا يكون في المعارف، **والثاني**: تخصيص متبوعه، وهذا يكون في النكرات عند من جوَّز مجيء عطف البيان في النكرات. **والثالث:** المدح، **والأخير**: التأكيد" ([2]).

وفي علاقة عطف البيان بالصفة يقول ابن عقيل: ولما كان عطف البيان مُشْبِهًا للصفة، لزم فيه موافقة المتبوع كالنعت؛ فيوافقه في إعرابه، وتعريفه أو تنكيره، وتذكيره أو تأنيثه، وإفراده أو تثنيته أو جمعه "([3]).

هذا، وقد جوَّز ابن مالك أن يكون عطف البيان ومتبوعه معرفتين أو نكرتين:

وقدْ يكونانِ مُنَكَّرَيْنِ كَمَا يَكُونَانِ مُعَرَّفَيْنِ

وهنا يقول ابن عقيل:" ذهب أكثر النحويين إلى امتناع كون عطف البيان ومتبوعه نكرتين، وذهب قوم – منهم المصنف – إلى جواز ذلك؛ فيكونان منكرين كما يكونان معرفين، قيل: ومن تنكيرهما قول (الله) سبحانه وتعالى: ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ (النور: 35)، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ﴾ (إبراهيم: 16)؛ فزيتونة: عطف بيان لشجرة، وصديد: عطف بيان لماء "([4]).

وفي علاقة عطف البيان بالبدل يقول ابن عقيل شارحًا أبيات ابن مالك:" كل ما جاز أن يكون عطف بيان، جاز أن يكون بدلًا، نحو:(ضربت أبا عبد الله زيدًا).

([1]) انظر : شرح ابن عقيل ، المجلد الثاني ، الجزء الثالث: 218 .

([2]) انظر : شرح ابن عقيل ، المجلد الثاني ، الجزء الثالث : هامش الصفحة 218 .

([3]) انظر : السابق ، المجلد نفسه ، الجزء نفسه : 220 .

([4]) انظر : السابق نفسه ، المجلد نفسه ، الجزء نفسه: الصفحة نفسها.

واستثنى المصنف من ذلك مسألتين، يتعين فيهما كون التابع عطف بيان. **الأولى**: أن يكون التابع مفردًا، معرفة، مُعْرَبًا؛ والمتبوع منادى نحـو (يـا غلام يعمرا) فيتعين أن يكـون (يعمرا) عطف بيـان، ولا يجـوز أن يكـون بدلًا؛ لأن البدل عـلى نية تكرار العامل.

الثانية: أن يكون التابع خاليًا من (ال) والمتبوع ب(ال) وقد أضيفت إليه صفة ب(ال)، نحو: (أنا الضاربُ الرجلِ زيدٍ) فيتعين كون زيد عطف بيان، ولا يجوز كونه بدلًا من الرجل؛ لأن البدل على نية تكرار العامل"([1]).

ويعرف عباس حسن عطف البيان بقوله:" تابع جامد–غالبًا – يخالف متبوعه في لفظه، ويوافقه في معناه المراد منه الذات، مع توضيح الذات إن كان المتبوع معرفة، وتخصيصها إن كان نكرة "([2]).

والآن نذهب إلى عالم التطبيق. في وقوع دال (رب) في منطقة عطف البيان يقول الله تعالى ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ (الشعراء: 47، 48). وبالتأمل يدرك أن دال (رب) في صدر الآية الثانية يعرب عطف بيان([3]).

([1]) انظر: شرح ابن عقيل ، المجلد الثاني ، الجزء الثالث : 221 ، 222 . وانظر كذلك في الفروق بين عطف البيان والبدل، ابن هشام ، مغني اللبيب: 507 -510 .

([2]) انظر : النحو الوافي ، الجزء الثالث: 541 . ومسألة مخالفة المتبوع في اللفظ ، رد عليها ابن هشام في مغني اللبيب ، وأجاز الوجهين: المخالفة والاتفاق . انظر: مغني اللبيب: 509 . وانظر في التفرقة بين عطف البيان والبدل المطابق ، عباس حسن ، النحو الوافي : 546 – 554 .أعتقد أن هذا يكفي في الجانب التنظيري لإيضاح القاعدة ، في تعريف عطف البيان والفرق بينه وبين البدل المطابق . وقبل أن نذهب إلى عطف النسق ، ندخل عالم التطبيق في عطف البيان .

([3]) انظر: محيي الدين الدرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه، المجلد الخامس: 405، وبهجت عبد الواحد صالح، الإعراب المفصل ، المجلد الثامن: 189، ومحمود سليمان ياقوت، إعراب القرآن الكريم ، المجلد السابع: 3321 . غير أن الدرويش ساق وجه (البدل) . وهو ما جعلنا نضع هذا الشاهد في هامش: 241 في منطقة البدل ، ووعدناكم أننا سنناقش هذا النموذج في (عطف البيان) لوروده عند النحويين الثلاثة ، ومن ثم رجحانه .

وفي قوله سبحانه وتعالى: ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ (الأعراف: 121، 122) أعرب ابن هشام دال (رب) عطف بيان أو نعتًا ([1]).

وفي قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ (المؤمنون: 116) أعرب محمود سليمان ياقوت دال (رب) عطف بيان ([2]).

وإذا دخلنا إلى الموضع الأول بوصفه نموذجًا لدراسة (عطف البيان)، وهو قوله تعالى: ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ (الشعراء: 47، 48)، ألفينا أن النحويين أنفسهم قدموا وجه (البدل) و (النعت) في إعراب دال (رب) في موضع سورة (الأعراف:121، 122)، رغم تشابه بنية الخطاب في الموضعين. وهذا ما سنحاول مناقشته الآن.

الحقيقة أننا حاولنا التدقيق في الموضعين، فوجدنا أن التشابه بينهما يصل إلى ذروته، وفي الوقت نفسه، قدم علماؤنا الأفاضل أوجه مختلفة لإعراب دال (رب) في الموضعين؛ غلب وجه البدلية في موضع سورة (الأعراف) - كما قدمنا - وغلب وجه عطف البيان على الموضع الأخير – سورة (الشعراء). وكان علينا أن نزيد التدقيق لمحاولة فهم المسوغات التي دفعت النحويين إلى الاتفاق على إعراب دال (رب) في الموضع الثاني (عطف بيان).

وفي مسيرة هذه المحاولة التدقيقية عنت لنا – بفضل (الله) سبحانه وتعالى - نقاط عدة للتفرقة بين الموضعين: **الأول** أن في موضع سورة (الأعراف) كانت السيطرة للسحرة؛ فهم أصحاب المبادرة وأطراف الحديث معهم، وصوتهم هو المرتفع: ﴿قَالُوا

([1]) وانظر كذلك: مغني اللبيب: 628 .

([2])انظر:إعراب القرآن الكريم، المجلد السابع:3159.وكذلك قدم وجه(البدل)من الضمير(هو).أما الدرويش، فقد أعرب دال (رب) صفة ثالثة (لله).انظر:إعراب القرآن الكريم وبيانه، المجلد الخامس: 235. وأعرب بهجت صالح(رب)خبرًا للضمير(هو).انظر:الإعراب المفصل، المجلد السابع: 439 .

يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾(الأعراف: 115). أما صوت سيدنا موسى فقد جاء خافتًا تاليًا لصوت السحرة: ﴿قَالَ أَلْقُوا﴾ (الأعراف: 116).

أما في موضع سورة (الشعراء) فكانت السيطرة لسيدنا موسى عليه السلام، وهو صاحب المبادرة، وصوته هو المرتفع، والثقة معه: ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ (الشعراء: 43).

الثاني: أن الموضع الأول – الذي سيطر عليه السحرة مع فرعون، وعلت فيه نبرة صوتهم، بدا تأثير السحرة في المشهد، بأن سحروا أعين الناس: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ (الأعراف: 116). أما في الموضع الآخر– سورة (الشعراء)، فلم يبد أثر لتأثير السحرة: ﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾(الشعراء: 44).

الثالث: أن الموضع الأول يضم الإيحاء إلى سيدنا موسى عليه السلام بإلقاء العصا: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ (الأعراف: 117)، مما يدل على رائحة خوف أو توجس لديه عليه السلام؛ وبخاصة بعد أن سحر السحرة أعين الناس واسترهبوهم؛ مما دل على عظيم هذا الضرب من السحر. أما الموضع الآخر فقد خلا من الإيحاء: ﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ (الشعراء: 45).

الرابع: أن الموضع الأول ضم في ثناياه ظهور الحق واندحار الباطل، مما اتبعه خزي السحرة:﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾ (الأعراف: 118، 119). أما موضع سورة (الشعراء) فلم تضم أحداثه هذا المشهد، بل ورد سجود السحرة مباشرة.

الخامس: أن مشهد سجود السحرة بُنِيَ في الموضع الأول على العطف ب(الواو): ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ (الأعراف: 120). أما في الموضع الأخير فقد بُنِيَ مشهد

السجـود على العطـف ب(الفاء): ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ (الشعراء: 46).
الأخير: أن سورة (الأعراف) نزلت قبل سورة (الشعراء) ([1]).

وإذا تأملنا هذه النقاط أدركنا أن الموضع الأول كان في حاجة إلى تأكيد إيمان السحرة وصدق دعوة سيدنا موسى عليه السلام؛ بعدما انتفش فرعون وسحرته، من خلال ما بدا من علو نبرتهم، وأخذهم بزمام المبادرة، وخفوت صوت سيدنا موسى عليه السلام. ثم عند انقلاب المشهد رأسًا على عقب، كان - من انبهار السحرة، ورؤيتهم رأي العين جلاء الحق- وقوع دال (رب) في منطقة البدلية من البلاغة بمكان؛ إذ بُنِي على تكرير العامل. وكأن السحرة قالوا: (آمنا برب العالمين. آمنا برب موسى وهارون)، ممـا أدخـل السـعادة والثقة في نصـر (الله) على قلب سيدنا موسى عليه السلام.

ولما انتفت تلك العناصر من المشهد في الموضع الآخر – سورة (الشعراء)، مما أدى إلى تبديل الأمور، غدا دال (رب) في صدر الآية الثانية عطف بيان، لا يحتاج إلى تكرير العامل، بل أصبح وكأنه صفة أو بيان وإيضاح – كما ورد عند النحويين في مفهوم عطف البيان – لدال (رب) في الآية الأولى، بعدما تمت معرفته وتأكيده في موضع سورة (الأعراف)، وبخـاصة أن موضع سورة (الأعراف) نزل قبل موضع سورة (الشعراء) [*].

أما وقوع دال (**إله**) في موقع عطف البيان، فيرد في قول (الله) تعالى: ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾ (الناس: 3). وبالتأمل في الطرح النحوي، نجد أن النحاس يعرب دال (إله) نعتًا أو بدلًا من دال (رب) ([2])، ويعربها محيي الدين الدرويش بدلًا أو صفة أو عطف بيان

([1]) انظر: الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، الجزء الأول: 193 .

[*] ليس ثم مشـهدان في الوقع ، بل مشـهد واحد ، لكننا نتعامل مع القرآن من خلال مواضع آياته ، وترتيب نزولها.

([2]) انظر: إعراب القرآن: 1382 .

من دال (رب) ([1])، كما يعربها بهجت عبد الواحد صالح عطف بيان ([2])، وأخيرًا يعربها محمود سليمان ياقوت بدلًا أو عطف بيان أو صفة ([3]).

وكما كان ثمة اختلاف بين النحويين في إعراب دال (رب)، بدا هذا الاختلاف كذلك بين المفسرين في إعرابها والتعليق عليها. فمن المفسرين من أعرب دالي (ملك وإله) عطف بيان فحسب ([4]). ومنهم من أضاف إلى عطف البيان وجه (النعت) ([5]). ومنهم من أضاف إلى عطف البيان وجه (البدل) ([6]).

وإذا تأملنا في غلبة أحد تلك الأوجه الإعرابية على الأوجه الأخرى، نجد أن عطف البيان هو المتغلب، عند النحويين – باستثناء النحاس - وكذلك المفسرين. إذ ورد (عطف البيان) إحدى عشرة مرة، بينما ورد وجه (البدل) أربع مرات، وورد وجه (الصفة) أربع مرات كذلك.

وهذه الغلبة لوجه (عطف البيان) هو الذي دفعنا إلى دراسة دال (إله) في (العطف) من حيث وقوع دالي (رب، إله) في منطقة التوابع.

والآن، ننظر في علاقة دال (إله) بدال (رب) الذي ورد في مستهل السورة الكريمة في قول (الله) سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ

([1]) انظر: إعراب القرآن الكريم وبيانه ، المجلد الثامن: 456 .

([2]) انظر: الإعراب المفصل ، المجلد الثاني عشر: 530 .

([3]) انظر: إعراب القرآن الكريم ، المجلد العاشر: 5200 .

([4]) انظر: الكشاف، الجزء الرابع: 818 . والرازي، مفاتيح الغيب، المجلد الثاني والثلاثين: 196 . ومحيي الدين شيخ زاده ، الحاشية على تفسير البيضاوي ، ج8: 737 . والبقاعي ، نظم الدرر ، ج22: 426 . والبقاعي لا يقدم إعرابًا للدوال، وإنما فُهِمَ هذا الوجه النحوي من قوله عن دال (إله): إنه جُعِلَ غاية البيان . وأبي السعود، إرشاد العقل السليم ، الجزء التاسع: 216.وابن عاشور، التحرير والتنوير، الجزء الثلاثين: 633 .

([5]) انظر: أبي حيان الأندلسي ، البحر المحيط ، الجز الثامن: 535

([6]) انظر: الألوسي ، روح المعاني ، الجزء الثلاثين: 285 .

النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ﴾ (الناس:1- 3). إن التأمل في العلاقة بين الدالين يعطينا النتائج الآتية:

أولًا أن المقصود بالحكم هو الدال الأول (رب)، ومن ثم ورد دالا (ملك، إله) تبيينًا وتوضيحًا للدال الأول، مما يقربه من النعت ويبعده عن البدل.

ثانيًا:أن التابع والمتبوع قد وردا في إطار التعريف؛ فكل منهما معرف بالإضافة. والنعت يرد في التعريف والتنكير، وكذلك البدل.

ثالثًا: أن التابع والمتبوع وردا في إطار المظَهر وليس المضمَر، مما يقربه من النعت ويبعده عن البدل.

أخيرًا أن التابع والمتبوع يختلفان في اللفظ ويدلان على ذات واحدة – كما ورد عند عباس حسن، مما يخرجه عن الاثنين؛ لأن حكم النعت أن يكون أعم من المنعوت، كما أن البدل يمكن أن يكون بعضًا من المبدل منه.

وبتأمل النتيجتين: الثانية والرابعة، اللتين تدلان على خروج دال (إله) من عبادءة النعت والبدل واختلافه عنهما، ندرك سبب إعراب دال (إله) عطف بيان، وسيطرة هذا الوجه عند النحويين المفسرين على حد سواء.

وكان لابد أن يعضد هذا الجانب اللغوي – النحوي جانب دلالي. وهنا يقول الزمخشري في كشافه:" وأما (إله الناس) فخاص لا شركة فيه، فجُعِلَ غاية للبيان. فإن قلتَ: فهلا اكتفى بإظهار المضاف إليه الذي هو الناس مرة واحدة؟ قلتُ: لأن عطف البيان للبيان، فكان مظنة للإظهار دون الإضمار"[1].

ويقول الرازي:" وُصِفَ أولًا بأنه رب الناس، ثم الرب قد يكون ملكًا وقد لا يكون، فلا جرم بيَّنه بقوله (ملك الناس)، ثم الملك قد يكون إلهًا

---

[1] انظر: الكشاف ، الجزء الرابع: 818 .

وقد لا يكون، فلا جرم بيَّنه بقوله (إله الناس)؛ لأن الإله خاص به، وهو سبحانه لا يشركه فيه غيره"([1]).

وليسمح لي القارئ الكريم أن أضع هذا الجدول بين يديه؛ بغية إيضاح سمات التشابه والاختلاف بين التوابع الثلاثة: (الصفة، والبدل، وعطف البيان)؛ كي يتسنى له التأمل في صحة ما طرحنا من تأويل: *

السمة	عطف البيان - الصفة	عطف البيان - البدل
أوجه التشابه	1-اتباع المتبوع في الإعراب2-بيان المتبوع وإيضاحه 3-العامل في المتبوع والتابع معًا	1-كلاهما يبينان المتبوع 2-يردان بالجوامد لا المشتقات 3-يردان بلفظ المتبوع على جهة التأكيد

([1]) انظر: مفاتيح الغيب ، المجلد الثاني والثلاثين: 196 . وإذا تأملتَ وجدتَ أن الخصوصية التي ذُكِرتْ عند كل من: الزمخشري والإمام الرازي ، هي نفسها التي وردت في النتيجة الرابعة ، وأخرجت دال (إله) من عبادءة النعت . ومنعًا للإطالة ، انظر كذلك كلًا من: محيي الدين شيخ زاده ، الحاشية على تفسير البيضاوي ، الجزء الثامن: 737 . والإمام البقاعي ، نظم الدرر ، الجزء الثاني والعشرين: 426 . وشيخ الإسلام أبي السعود ، إرشاد العقل السليم ، الجزء التاسع: 216 . وأخيرًا ابن عاشور ، التحرير والتنوير ، الجزء الثلاثين: 633 . .

على هذا النحو ، ورد الجانب الدلالي متسقًا مع الجانب اللغوي – النحوي الإعرابي . وهو ما جعل دال (إله) يرتدي عباءة (عطف البيان) عند النحويين والمفسرين على حد سواء . وأعتقد أن هذا يكفي في بنية عطف البيان .

* إذا كان هذا الجدول يبين التشابه والاختلاف بين عطف البيان من ناحية ، والنعت والبدل من ناحية أخرى ، فيمكن للقارئ الكريم أن يستنتج – من خلال الجدول نفسه - أوجه التشابه والاختلاف بين النعت والبدل كذلك .

	4-لا يجريان على المضمر 5- لايستقلان	4-يخالفان المتبوع لفظًا، ويتفقان معنًى
أوجه الاختلاف	1-عطف البيان بالجوامد - النعت بالمشتق أو ما ينزل منزلته 2-عطف البيان لا يكون إلا في المعارف – إلا عند ابن مالك - النعت في المعارف والنكرات 3-عطف البيان هو نفس التابع - النعت يكون أعم من المنعوت 4-عطف البيان لا يجوز فيه القطع - النعت يجوز فيه القطع	1-في عطف البيان لا يكرر العامل – أما البدل فيكرر. 2-عطف البيان يجري على ما قبله في تعريفه. أما البدل فيمكن أن يبدل النكرة من المعرفة والعكس. 3-عطف البيان يرد في المظهر، البدل يرد في المظهر والمضمر 4-عطف البيان لا يكون غير المتبوع، أما البدل فقد يكون بعض المتبوع أو مما يشتمل عليه 5-في عطف البيان المتبوع هو المقصود بالحكم، وفي البدل المقصود بالحكم هو التابع.

أما الضرب الأخير من العطف، فهو**(عطف النسق)**. وقد سماه الزمخشري العطف ب(الحرف). والعطف من عبارات البصريين، والنسق من عبارات الكوفيين. ومعنى العطف الاشتراك في تأثير العامل، وقيل له نسق لمساواته الأول في الإعراب([1])

ويعرف ابن عقيل عطف النسق بقوله: " عطف النسق هو: التابع، المتوسط بينه وبين متبوعه أحد الحروف التي سنذكرها ". ثم يتناول حروف العطف قائلًا: " حروف العطف قسمين: ما يُشَرِّكُ المعطوفَ مع المعطوف عليه مطلقًا، أي: لفظًا

[1] انطر: ابن يعيش ، شرح المفصل ، الجزء الثاني: 276 .

وحكمًا، وهي: الواو، وثم، والفاء، وحتى، وأم، وأو، وإمَّا. والثاني: ما يُشَرِّك لفظًا فقط، وهي: بل، ولا، ولكن "([1]).

وإذا فتشنا عن حروف (العطف) التي تتوسط المعطوف والمعطوف عليه في دالي (رب، إله)، نجد أنها تتمثل في (الواو) فحسب. و(الواو) لمطلق الجمع عند البصريين؛ فيعطف بها: اللاحق، والسابق، والمصاحب. وعند الكوفيين أنها للترتيب، ويعطف ب(الواو) عندما لا يُكْتَفَى بالمعطوف عليه، نحو (اختصم زيد وعمرو)، فلو قلتَ: (اختصم زيد) لم يَجُزْ، ومثله: (اصطفَّ هذا وابني، وتشارك زيد وعمرو) ([2]).

ويعلق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد على مسألة عدم الاكتفاء بالمعطوف عليه بقوله: " إنما يكون ذلك عندما يكون الحكم مما لا يقوم إلا بمتعدد، مثل الاشتراك والاصطفاف والاختصام في أمثلة الشارح. ومما اختصت به (الواو) أنها تعطف عاملا قد حُذِفَ وبقي معموله " ([3]).

وإذا ذهبنا إلى علامة العربية عبد القاهر الجرجاني، وجدناه يقول عن (الواو) العاطفة:" وليس (للواو) معنى سوى الإشراك في الحكم الذي يقتضيه الإعراب الذي اتْبَعْتَ فيه الثانيَ الأولَ. فإن قلتَ: (جاءني زيد وعمرو) لم تُفِد بالواو أكثر من إشراك عمرو في المجيء الذي أثبته لزيد، والجمع بينه وبينه، ولا يُتصور إشراك بين شيئين حتى يكون هناك معنى يقع ذلك الإشراك فيه "([4]).

---

[1] انظر: شرح ابن عقيل ، المجلد الثاني ، الجزء الثالث: 224 ، 225 . وبعد ذلك شرع ابن عقيل في شرح معاني حروف العطف ، حسبما وردت في نظم ابن مالك . انظر: السابق: 226 - 236 . وانظر في معاني تلك الحروف كذلك: المبرد، المقتضب، الجزء الأول: 148 - 150، وابن السراج ، الأصول في النحو ، الجزء الثاني: 55 – 60 .

[2] انظر: شرح ابن عقيل ، المجلد الثاني ، الجزء الثالث: 226 ، 227 .

[3] انظر: السابق ، المجلد نفسه ، الجزء نفسه: هامش 227 .

[4] انظر: دلائل الإعجاز: 224 .

ثم يلفت علامة العربية الانتباه إلى مشكلة في العطف ب(الواو)، ويستطرد فيقول:" وإذا كان ذلك كذلك، ولم يكن معنا في قولنا: (زيد قائم وعمرو قاعد) معنى تزعم أن (الواو) أشركت بين هاتين الجملتين فيه، ثبت إشكال المسألة " ([1]).

والمسألة / المشكلة التي يقصدها العلامة تتمثل في انتفاء حكم يشترك فيه المعطوف والمعطوف عليه، مثل المثال الذي ساقه (زيد قائم وعمرو قاعد)؛ لأن القيام غير القعود.

وبعبقريته الفذة يفتش عبد القاهر عن الرابط بين المعطوف والمعطوف عليه في حالة عدم وجود حكم الإشراك، فيقول: " ثم إن الذي يوجبه النظر والتأمل أن يُقال في ذلك: إنَّا وإنْ كنَّا إذا قلنا: (زيد قائم وعمرو قاعد)، فإنَّا لا نرى ههنا حكمًا نزعم أن (الواو) جاءت للجمع بين الجملتين فيه، فإنا نرى أمرًا آخر نحصُل معه على معنى الجمع. وذلك أنَّا لا نقول: (زيد قائم وعمرو قاعد)، حتى يكون عمرو بسبب من زيد، وحتى يكونا كالنظيرين والشريكين، وبحيث إذا عرف السامع حال الأول عناه أن يعرف حال الثاني. يدلك على ذلك أنك إن جئتَ فعطفتَ على الأول شيئًا ليس منه بسبب، ولا هو مما يُذْكَرُ بذِكْرِهِ ويتَّصل حديثُه بحديثِه، لـم يَسْتَقِمْ. فـلو قـلتَ: (خرجتُ اليوم مِـنْ داري)، ثم قلتَ:(وأحسن الذي يقول بيت كذا)، قلتَ ما يُضْحَكُ منه "([2]).

وفي تناول الإمام الزركشي لأنواع (الواو) من حيث العاملة وغير العاملة، ساق معناها الأول في غير العاملة بقوله: (الأول: وهو أصلها – العاطفة تُشرك في الإعراب والحكم. وهي لمطلق الجمع على الصحيح، ولا تدل على أن الثاني بعد الأول، بل قد

---

[1] انظر: السابق: الصفحة نفسها .

[2] انظر: دلائل الإعجاز: 224 ، 225 . لله در هذا الشيخ !!!! .

يكون كذلك، وقد يكون قبله، وقد يكون معه" ([1]). وضرب لذلك أمثلة من آيات القرآن الكريم. والآن ندخل عالمنا المفضل الأثيري، وهو عالم التطبيق.

إذا جئنا إلى الدال الأول وهو دال **(رب)** وجدناه يقع في منطقة المعطوف مع اختلاف الدال الذي يشغل منطقة المعطوف عليه؛ فإحيانًا يُعطف دال (رب) على اسم يشغل منطقة المعطوف عليه، وذلك مثل قوله تعالى:﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ (البقرة: 139)([2]). وأحيانًا أخرى يُعطفُ على ضمير مستتر، مثل قوله تعالى:﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ (المائدة: 24).

وإذا دخلنا إلى الموضع الأول – سورة البقرة- وجدنا أن دال (رَبُّكُمْ) معطوف على دال (رَبُّنَا) وقد توسط حرف العطف (الواو) المعطوفين. فإن قيل: إذا كان دال (ربكم) معطوفًا على دال (ربنا) مرفوع وعلامة رفعه الضمة؛ إذ المعطوف عليه (خبر) للضمير (هو)، فما الحكم المشترك بين المعطوف والمعطوف عليه؟

قلتُ: الحكم هو دخول المعطوف (ربكم) في حيز المعطوف عليه (ربنا)، ثم تعلق الاثنين باسم الجلالة (الله). ومن ثم وقع الاشتراك لغويًا في الإعراب، ودلاليًا في التعلق باسم الجلالة (الله)؛ لأن (الله) سبحانه وتعالى ربنا/ أي رب المسلمين، وربكم / أي رب أهل الكتاب.

فإن قيل: العطف في قوله: (لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ) له ما يبرره؛ إذ اختلاف الأعمال، وتنوعها والإخلاص فيها، إضافة إلى اختلاف الأشخاص، يحتم أن ينفرد كل طرف بما يخصه من أعمال؛ ومن ثم ورد (لَنَا أَعْمَالُنَا) الخاصة بالمسلمين، ثم

---

[1] انطر: البرهان في علوم القرآن ، الجزء الرابع: 436 . ومن المعروف أن (الواو) لها معاني أخرى كثيرة لكن ما يهمنا هنا يتمثل في معنى (العطف) .

[2] وانطر كذلك على سبيل المثال: سورة (آل عمران: 51) ، وسورة (المائدة: 72 ، 117) ، وسورة (هود: 56) ، وسورة (مريم: 36) ، وسورة (غافر: 27) ، وسورة (الزخرف: 64) ، وسورة (الدخان: 20) ، وأخيرا سورة (الرحمن: 17) .

(لَكُمْ أَعْمَالُكُمْ) الخاصة بأهل الكتاب. لكن ما فائدة العطف في (ربنا وربكم) ما دام الرب واحدًا وهو (الله) سبحانه وتعالى، فهلا كفت (نا) في (ربنا) الطرفين؟

قلتُ: لا. صحيح الرب واحد، لكن درجة الإيمان به، والإقرار بإلوهيته وربوبيته، وإفراده وتوحيده، وإخلاص العبادة له دون غيره ليست واحدة. ففي حين يفرد المسلمون (الله) سبحانه وتعالى بالعبادة، ويقرون بربوبيه، نجد أهل الكتاب يفترون على (الله) جل في علاه: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ (النساء: 171).

وليس ذلك فحسب، بل اقرأ قوله جل ذكره: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ * اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (التوبة: 30، 31) إلى غير هذه الآيات، وتلك الافتراءات. فلما وقع الاختلاف، لزم التغاير، وسُوّغ العطف.

وإن شئتَ رَطِّبْ لسانَك، وعَطِّرْ فمَك، وهرولْ إلى خاتمة الآية واقرأ: ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾. وبالتأمل يدرك أنه لم يقل هنا (ونحن وأنتم) قياسًا على السابق؛ لأن إخلاص العبادة (لله) يخص المسلمين، وهم واثقون منه، لكنهم لم يثقوا في إخلاص القوم.

يعني يمكن القول: إن بنية العطف هنا عالجت مسألتين: الأولى عمومية، تمثلت في اشتراك المسلمين مع أهل الكتاب في أن (الله) ربهم. الأخرى: خصوصية، تمثلت في اختلاف موقفهم من (الواحد) جل في علاه، ومن ثم اختلاف مفهوم العبادة عند الفريقين. علمنا (الله) وإياكم، ونفع بنا وبكم.

أما الموضع الآخر، فيتمثل في قوله سبحانه وتعالى:﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ (المائدة: 24). وبتأمل الموقع الإعرابي لدال (رب) نجد أنه معطوف على الضمير المستتر للفعل (اذْهَبْ)([1]).

وفي النحو التقعيدي يقول ابن مالك:

وَإِنْ عَلَى ضَمِيرِ رَفْعٍ مُتَّصِلْ عَطَفْتَ فَافْصِلْ بِالضَّمِيرِ الْمُنْفَصِلْ

ويقول ابن عقيل: " والضمير المرفوع المستتر في ذلك كالمتصل، ومنه قول الله تعالى ﴿اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ (البقرة: 35، الأعراف: 19) ف(زوجك) معطوف على الضمير المستتر في (اسكن) وصح ذلك للفصل بالضمير المنفصل – وهو (أنت)"([2]).

فإن قيل: ما وجه الاشتراك بين دال (رب) والضمير المستتر (أنت) القابع في منطقة الفاعليه من الفعل (اذهب)؟ قلتُ: وجه الاشتراك هو حكم الذهاب على منطق القوم ووقاحتهم، وفساد عقيدتهم، في الاستهزاء بنبيهم عليه السلام. ولاسيما أنهم كانوا يتحدثون عن (الله) بحديثهم عن البشر.

وهنا رأيان: أحدهما يقول بعدم كفر القوم. يقول أبو عبيدة: " (فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا) مجازها:اذهب أنت وربك فقاتل، وليقاتل ربك أي ليعنك؛ ولا يذهب الله"([3]).

ويقول ابن عاشور: " وقيل: أرادوا بهذا الكلام الاستخفاف بموسى، وهذا بعيد؛ لأنهم ما كانوا يشكُّون في رسالته، ولو أرادوا الاستخفاف لكفروا وليس في كلام موسى

---

[1] انظر: الزجاج ، معاني القرآن وإعرابه: 164 ، والنحاس: إعراب القرآن: 229 ، ومحيي الدين الدرويش ، إعراب القرآن الكريم وبيانه ، المجلد الثاني: 207 ، ومحمود سليمان ياقوت ، إعراب القرآن الكريم ، المجلد الثالث: 1197 . غير أن بهجت عبد الواحد صالح قال بعطف دال (رب) على الضمير المنفصل (أنت) . انظر: الإعراب المفصل ، المجلد الثالث: 45 . وربما سها في ذلك .

[2] انظر: شرح ابن عقيل ، المجلد الثاني ، الجزء الثالث: 236 – 238 . وانظر كذلك: ابن يعيش ، شرح المفصل، الجزء الثاني: 280 .

[3] انظر: مجاز القرآن ، الجزء الأول: 160 .

الواقع جوابًا عن مقالتهم إلا وصفهم بالفاسقين، والفسق يطلق على المعصية الكبيرة فإن عصيان أمر الله في الجهاد كبيرة "([1]).

أما الرأي الآخر فيقول بكفر القوم. يقول الزمخشري:"﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ﴾ يحتمل أن لا يقصدوا حقيقة الذهاب ولكن كما تقول: كلمته فذهب يجيبني، تريد معنى الإرادة والقصد للجواب، كأنهم قالوا: أريد قتالهم. والظاهر أنهم قالوا ذلك استهانة بالله ورسوله وقلة مبالاة بهما واستهزاء، وقصدوا ذهابهما حقيقة بجهلهم وجفاهم وقسوة قلوبهم التي عبدوا بها العجل وسألوا بها رؤية الله عز وجل جهرة. والدليل عليه مقابلة ذهابهما بقعودهم. ويحكى أن موسى وهارون عليهما السلام خرا لوجوههما قدامهم لشدة ما ورد عليهما، فهموا برجمهما. ولأمر ما قرن الله اليهود بالمشركين وقدمهم عليهم في قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (المائدة: 82) ([2]).

ودارت كل التفاسير حول هذين الرأيين. ولما كان من المعلوم أن الرأي الأول عند المفسر – وكذلك أي عالم – يعد وجهة نظره، وأن ما يسوقه من آراء بعد ذلك يعد من قبيل ذكر الآخرين، فإن من قال بالرأي الثاني – أي كُفْر القوم مع ذكر الرأي الأول ابن عطية ([3])، وكذلك الرازي ([4])، والقرطبي ([5])، والبيضاوي ([6])، وأبو حيان

---

[1] انظر: التحرير والتنوير ، الجزء السادس: 166 .

[2] انظر: الكشاف ، الجزء الأول: 608 ، 609 .

[3] انظر: المحرر الوجيز: 530 .

[4] انظر: مفاتيح الغيب ، الجزء الحادي عشر: 204 ، 205 .

[5] انظر: الجامع لأحكام القرآن ، الجزء السابع: 399 ، 400 .

[6] انظر: محيي الدين شيخ ، الحاشية على تفسير البيضاوي ، الجزء الثالث: 506 ، 507 .

الأندلسي [1]، والبقاعي [2]، وأبو السعود [3]، وأخيرًا الألوسي [4]. كل هؤلاء قالوا بالرأي الثاني الذي يعني كفر القوم. وإن كانوا قد أوردوا الآراء الأخرى، فهذا من باب حصر ما قيل في المسألة.

فإن قيل: أين رأي شيخ المفسرين الإمام الطبري؟ قلتُ: أبقيتُ عليه في آخر الطرح؛ لأنني كدت أن أطير به من سعادتي.يقول الإمام الطبري ردًا على مجاز أبي عبيدة قبله، وعلى ما طرحه ابن عاشور بعده: " وكان بعضهم يقول في ذلك [*]: ليس معنى الكلام: اذهب أنت وليذهب معك ربك فقاتلا. ولكن معناه: اذهب أنت يا موسى وليُعِنك ربك؛ وذلك أن الله لا يجوز عليه الذهاب. وهذا إنما كان يحتاج إلى طلب المخرج له لو كان الخبر عن قوم مؤمنين، فأما قوم أهل خلاف على الله عز ذكره ورسوله، فلا وجه لطلب المخرج لكلامهم فيما قالوا في الله عز وجل، وافتروا عليه، إلا بما يشبهُ كفرَهم وضلالتَهم " [5].

وحتى بعيدًا عن هذا، لِمَ لا يكون هذا القول هو قول الكفار منهم، وهم الذين صنعوا العجل وعبدوه وسيدنا موسى وسيدنا هارون عليهما السلام بين ظهرانيهم. وهذا ما حدا ببعض المفسرين إلى وصف من قال هذه المقالة لسيدنا موسى عليه السلام وإضفاء الذهاب على (الله) عز وجل عن ذلك بالمجسمة والمشبهة [6].

---

[1] انظر: البحر المحيط ، الجزء الثالث: 471 .

[2] انظر: نظم الدرر ، الجزء السادس: 77 .

[3] انظر: إرشاد العقل السليم ، الجزء الثالث: 25 .

[4] انظر: روح المعاني ، الجزء السادس: 108 .

[*] أي في هذا الموضع ، والمقصود ببعضهم هو أبو عبيدة فيما ذهب إليه من مجاز .

[5] انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، طبعة هجر، الجزء الثامن: 303 . رحم الله هذا العبقري .

[6] انظر في التجسيم: الرازي ، مفاتيح الغيب ، الجزء الحادي عشر: 204 ، وشيخ زاده ، الحاشية على تفسير البيضاوي ، الجزء الثالث: 506 ، والبقاعي ، نظم الدرر، الجزء السادس: 77. وانظر في التشبيه: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ، الجزء السابع: 399 . وأبي حيان الأندلسي ، البحر

أما دال **(إله)**، فيرد في منطقة المعطوف ب(الواو) كذلك في قوله: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (البقرة: 133) ([1]).

إن التأمل النحوي في دال (إله) يعطيك أنه معطوف على دال (إلهك) منصوب على التعظيم. فإن قيل: ما حكم الإشراك بين المعطوف والمعطوف عليه؟ قلتُ: العبادة في الفعل (نعبد). فإن قيل: ما دام (إله) يعقوب هو (إله) آبائه من قبل، فهلَّا اكتفى بذكر دال (إلهك) في منطقة المعطوف عليه؟ قلتُ: لا؛ لأن سوق الأنبياء السابقين يؤكد على وحدة الملة، وعدم تشرذمها مع اختلاف الأنبياء. وهذا المعنى هو الوارد في قوله تعالى - بعد أن ذكر الأنبياء بداية من الآية (48) من سورة الأنبياء -: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: 92) ([2]).

فإن قيل: إذا كان من المعروف أن الأنبياء الذين ذُكِرُوا في الآية وهم:(سيدنا إبراهيم، وسيدنا إسماعيل، وسيدنا إسحاق) هم آباء سيدنا يعقوب عليه السلام، فهلَّا اكتفى بدال (آبائك)؟ قلتُ: لا؛ لأن نسب سيدنا يعقوب يمتد إلى ما قبل سيدنا إبراهيم، ومن المعروف أن المرحلة من سيدنا صالح إلى سيدنا إبراهيم وسيدنا لوط سادها الكفر [*]، وإنما عادت مسألة بعث الأنبياء مرة أخرى بسيدنا إبراهيم الذي

المحيط ، الجزء الثالث: 471 . ولو اطلعتَ على بعض نصوص التوراة رأيت هذه الصفاقة في التعامل مع (الله) عز وجل ، لكننا في غنى عن توثيق هذا الكفر ؛ لأنه ورد في القرآن الكريم . لذا قلنا: إن (الواو) أفادت المشاركة في الحكم ، وفق منطق هؤلاء الكفرة .

[1] وانظر كذلك: سورة (العنكبوت: 46) .

[2] وانظر كذلك: سورة (المؤمنون: 52) .

[*] وإن كانت بعض الآراء تقول: من هؤلاء السابقين على سيدنا إبراهيم من كان يعبد (الله) ، ومنهم من كفر به . انظر في تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (الشعراء: 77) كلًا من: البغوي ، معالم التنزيل: 941 ، وشيخ زاده ، الحاشية على تفسير البيضاوي، الجزء السادس: 343 ، والبقاعي ، نظم الدرر ، الجزء الرابع عشر: 51 ، وأبي السعود ، إرشاد العقل

لقب بأبي الأنبياء؛ لذا كان البدء بذكر سيدنا إبراهيم بوصفه الأب الأول لسيدنا يعقوب، نفيًا لما يمكن أن يُتَوَهم من عبادة إله الآباء – الكفار منهم - الذين جاؤوا قبل سيدنا إبراهيم. كما دل التعدد – كما قلنا – على وحدة الملة.

ولو اكتفت الآية بدال(آبائك) لتقول المتقولون ودخلوا من الباب الذي ذكرتُه لكَ، وهو امتداد النسب إلى ما قبل سيدنا إبراهيم *.

ولدرء التوهم بأن يكون (إلهك) / أي سيدنا يعقوب غير (إله) آبائك، جيء به مرة أخرى موصوفًا (إلهًا واحدًا) على سبيل التأكيد على الوحدانية وعدم التغاير. وهنا يقول الزمخشري: "﴿إلهًا واحدًا﴾ بدل من إله آبائك، كقوله تعالى: ﴿ بالناصية ناصية كاذبة﴾ (العلق: 15، 16) أو على الاختصاص، أي نريد بإله آبائك إلهًا واحدًا"([1]).

ومن ذِكْرِ المعطوف (إله)، والبدء بسيدنا إبراهيم في عملية الإضافة، وذِكْرِ الأنبياء، والتأكيد على الواحدانية: (معبودًا وملة)...إلخ، تأسست البلاغة، وأنارت وجه كل قارئ للقرآن الكريم، متأملًا معانيه، مدركًا حقيقة إعجازه. علمنا الله وإياكم *.

السليم ، الجزء السادس: 248، والألوسي ، روح المعاني ، الجزء التاسع عشر: 95 ، وأخيرًا ابن عاشور ، التحرير والتنوير ، المجلد التاسع عشر: 141 ، 142 . ومن اللغويين ، انظر: الفراء: معاني القرآن ، الجزء الثاني: 280 . والزجاج: معاني القرآن وإعرابه ، الجزء الرابع: 93 . والنحاس : إعراب القرآن: 681 . والعكبري: التبيان في إعراب القرآن ، القسم الثاني: 997 .

* ويسمى هذا فن الاحتراس ، أو التكميل . وهو أحد أنواع الإطناب المنتمي لعلم المعاني . ومعناه: أن يوتى في كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفعه . انظر: القزويني ، الإيضاح في علوم البلاغة ، المجلد الأول ، الجزء الثالث: 208 . وهذا ما أفادته بنية العطف و(إله) ، ثم الإضافة في (آبائك) ، ثم تحديد الأباء . لدفع توهم غير المقصود.

[1] انظر: الكشاف ، الجزء الأول: 193 .

* الآية مليئة بالجماليات البلاغية التي تسهم في عملية الإعجاز ، لكننا قلنا – مرارًا وتكرارًا –: إننا لا ندرس بلاغة الخطاب في الآيات على عواهنها ، وإنما فيما يخص عنصر الدراسة فحسب ،

المبحث السابع: دال (رب – إله) في موقع النداء

يعرف عباس حسن النداء بقوله:" هو توجيه الدعوة إلى المخاطَب، وتنبيهه للإصغاء، وسماع ما يريده المتكلم " [1]. ويُسمى الاسم الذي يرد في بنية النداء المنادَى. فما طبيعة هذا الاسم؟

يجيب ابن عقيل بقوله: " لا يخلو المنادَى من أن يكون مندوبًا، أو غيره، فإن كان غير مندوب: فإما أن يكون بعيدًا، أو في حكم البعيد – كالنائم والساهي – أو قريبًا، فإن كان بعيدًا أو في حكمه فله من حروف النداء:(يا، وأي، وآ، وهَيَا)، وإن كان قريبًا فله الهمزة . وإن كان مندوبًا – وهو المُتَفَجَّعُ عليه، أو المُتَوَجَّعُ منه – فله (وآ) و(يا) أيضًا عند عدم التباسه بغير المندوب، فإن التبس تعينت(وآ)، وامتنعت(يا)"[2].

وأما من حيث اللفظ وإعرابه، فإن الاسم المنادى لا يكون إلا مفردًا *.وهذا الاسم المفرد إما أن يكون معرفة، أو نكرة مقصودة. وفي هذه الحال يُبْنَى المنادى على ما كان يُرفعُ به؛ فإن كان يُرفع بالضمة بُنِيَ على الضمة مثل (يَا زيدُ) و(يَا رَجُلُ)، وإن كان يُرفعُ ب(الألف) أو ب(الواو) فكذلك، نحو (يَا زيدانِ) و(يَا زيدون)، ويكون في محل نصب على المفعولية؛ لأن المنادى مفعول به في المعنى، وناصبه فعل مضمر نابت (يا) منابه فأصل (يا زيدُ): أَدْعُو زيدًا، فحذف (أدعو) ونابت (يا)منابه [3].

لذا أرجو ألَّا أُتَّهمُ بالخلل ، أو ترك ما يفيد . وأعتقد أن هذا يكفي في دراسة بنية (العطف) . أما التابع الرابع وهو (التوكيد) فلم يرد دالا (رب – إله) في بنيته بلفظهما ، وإنما وردا بالضمائر العائدة إليهما وهذا ما وضحناه في قسم الضمير المؤكد . انظر:هذه الدراسة: 120 – 129 .

[1] انطر: النحو الوافي ، الجزء الرابع: 1 .

[2] انطر: شرح ابن عقيل ، المجلد الثاني ، الجزء الثالث: 255 ، 256 . وانظر كذلك ، ابن هشام ، مغني اللبيب ، الجزء الأول: 413 ، 414 .

* المفرد هنا ، يعني اللفظ الواحد ، وإن كان مثنى أو جمعًا ، أي ما ليس جملة ولا شبه جملة .

[3] انطر: شرح ابن عقيل ، المجلد الثاني ، الجزء الثالث: 258 .

أما إذا كان الاسم المنادى نكرة غير مقصودة، أو مضافًا، أو مُشَبَّهًا بالمضاف نُصِبَ. ومثال الأول: (يَا رَجُلًا خُذْ بِيَدِي)، ومثال الثاني: (يَا غُلامَ زيدٍ)، والأخير: (يَا طالِعًا جبلًا يَا حَسَنًا وَجْهُه ([1]).

وإذا دخلنا إلى عالم التطبيق، ألفينا أن دال (رب) – وهو الاسم المنادى محل الدراسة – لا يرد – من حيث النوع - إلا مضافًا، وإضافته إما أن تكون إلى (ياء) المتكلم المحذوفة (ربِّ)، إذا كان المنادِي / المخاطِب مفردًا، أو إلى (نا) الجمع (رَبَّنَا)، إذا كان المنادِي / المخاطِب مثنى أو جمعًا. ولما كان من هذا الضرب، وَجَبَ نصبُه.

ومن حيث الأداة، فلكونه بعيدًا* لا يرد معه من أدوات النداء إلا (يَا). وترد (يَا) على صورتين: إما أن تكون محذوفة، ويبقى أثرها، أو مذكورة، كما سنرى بعد قليل.

وثم ملمح لغوي آخر يخص بنية الخطاب القرآني في منطقة (النداء). يتمثل هذا الملمح في أنه أحيانًا يتصدر الفعل (قال) بنية الخطاب، وأحيانًا يحذف منها. كما سندرس في قسم التطبيق.

ووفق ما سبق، فإننا بإزاء ثلاث صور لبنية الخطاب في منطقة (النداء): تتمثل الصورة **الأولى** في تأسيس بنية الخطاب على حذف الفعل (قال)، وحذف أداة النداء (يا). وترد الصورة **الثانية** معتمدة على ذكر الفعل، وحذف الأداة. أما الصورة **الأخيرة** فتُبْنَى فيها بنية الخطاب على ذكر الفعل وذكر الأداة.

وفي الصورة **الأولى** يرد قول (الله) عز وجل: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ (آل عمران: 8) ([2]).

---

[1] انظر: السابق ، المجلد نفسه ، الجزء نفسه: 259 ، 260 . وفي تفاصيل النداء يرجى الرجوع إلى ابن السراج ، الأصول في النحو ، الجزء الأول: 329 – 354 . وانظر في نصب المنادى المضاف: الخليل ابن أحمد ، الجمل: 77.

* المقصود بالبعد هنا هو علو المكانة ، والتقديس والعظمة ؛ لأن الخالق أقرب للإنسان من حبل الوريد . وإن شئت: اقرأ قول (الله) سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ (ق: 16) .

[2] وانظر كذلك:(البقرة: 127 ، 128 ، 129 ، 285 ، 286) ، و(آل عمران: 9 ، 53 ، 191) وغيرها .

والمخاطِب في هذه الآية هم (الراسخون في العلم)، الذين وُصِفُوا بأولي الألباب، المفهوم من قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (آل عمران: 7). ومن ثم ورد الضمير (نا) المتكلم، الدال على الجمع في منطقة الإضافة من دال (رب).

وبالتأمل الأعرابي لدال (رب) نجد أنه منادَى منصوب بالفتحة لأنه مضاف؛ و(نا) ضمير متكلم جمع مبني في محل جر مضاف إليه ([1]).

والجملة مقول قول محذوف ([2])، أي تم حذف الفعل (قالوا، أو يقولون)، إضافة إلى حذف أداة النداء (يا). ولننظر ماذا تقول التفاسير المتعددة للقرآن الكريم.

يقول القرطبي في حذف (القول):" (رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا) في الكلام حذف تقديره: يقولون وهذا حكاية عن الراسخين ويجوز أن يكون المعنى قُل يا محمد"([3]).

ويقول أبو حيان الأندلسي:" (رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا) ويحتمل أن يكون هذا من جملة المقول أي يقولون...ويحتمل أن يكون تعالى علمهم هذا الدعاء والتقدير: قولوا ربنا " ([4]).

---

[1] انظر: محيي الدين الدرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه ، المجلد الأول: 396 ، وبهجت عبد الواحد صالح، الإعراب المفصل ، المجلد الثاني: 11 ، ومحمود سليمان ياقوت ، إعراب القرآن الكريم ، المجلد الثاني: 546 ، ومحمد حسن عثمان ، إعراب القرآن الكريم وبيان معانيه ، المجلد الثاني: 16.

[2] انظر: محيي الدين الدرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه ، المجلد الأول: 396 .

[3] انظر: الجامع لأحكام القرآن ، الجزء الخامس: 30 .

[4] انظر: البحر المحيط ، الجزء الثاني: 402 .

ويقول أبو السعود:" (رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا) من تمام مقالة الراسخين؛ أي لا تزغ قلوبنا عن نهج الحق إلى اتباع المتشابه بتأويل لا ترتضيه"([1]). والسؤال: ما البلاغة الكامنة خلف هذا الحذف؟

إذا بدأنا ببلاغة حذف (القول) فلنا فيها رأيان: **الأول** – كما قال المفسرون – أن مضمون الآية يندرج تحت مقول القول السابق في قوله تعالى: ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ **يَقُولُونَ** آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾. وإذا كان ذلك كذلك، فلا داعي – إذن- لتكرير فعل القول.

الآخر: أن النداء المعقود في هذه الآية بُنِيَ على الاستئناف، وهو الانتقال من إيمانهم بكل ما جاء من عند ربهم، إلى ما يَتَقَوَّوْا به على هذا الإيمان، المتمثل في ترجيهم نقاء قلوبهم من الزيغ، بعد التثبت على الإيمان والهداية، وإحاطتهم بالرحمة الربانية التي تمنعهم من الانزلاق فيما انزلق فيه غيرهم من زائغي القلوب.

ولما كان هذا المعنى جديدًا، مع أهميته لدى المخاطِب / المنادِي، حُذِفَ القول والأداة؛ للتركيز والتكثيف الدلالي على المنادَى / المخاطَب / رَبَّنَا، ومضمون النداء (لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ)، وهو ما يُسَمَّى الإيجاز بالحذف ([2]).

وهذه الأهمية التي حازها مضمون النداء يمكن تلمسها في قول ابن عاشور:" دعاء عُلِّمَهُ النبيء ﷺ، تعليمًا للأمة: لأن الموقع المحكي موقع عبرة ومثار لهواجس الخوف من سوء المصير إلى حال الذين في قلوبهم زيغ "([3]).

وكأن تلك الأهمية وهذا التوجس، وبخاصة من راسخين في العلم، صرف المتكلم وشغله عن ذكر أداة النداء (يا)؛ وذلك لشدة تعلقه بمضمون النداء، وسرعته في

---

[1] انظر: إرشاد العقل السليم ، الجزء الثاني: 9 .

[2] انظر في بلاغة حذف الأداة (يا): فاضل السامرائي ، معاني النحو ، الجزء الرابع: 322 – 325 .

[3] انظر: التحرير والتنوير ، الجزء الثالث: 169 .

ترجيه الحصول على الرحمة من واهبها، التي يعطيها لمن كُتِبَتْ له السعادة في الدارين.

كما أنَّ ثم ملمحًا صوتيًا أسهم في إبراز دلالة الرغبة في تلبية دعاء الراسخين في العلم بالثبات، تمثل هذا الملمح في وقوع الفعل الرباعي (أزاغ) معتل الوسط في صيغة المضارع بمنطقة الجزم من (لا) الدعائية، مما أدى إلى حذف حرف المد (الياء) لالتقاء الساكنين نتيجة الجزم (تُزِيْغُ تُزِغْ)، وحذف حرف المد أدى إلى تقليل الهواء الذي يعني تقليل الصوت، الذي يشير بطبيعة الحال إلى قِصَرِ الوقت.

أضف إلى ما سبق، أن طبيعة المخاطِب أدت دورًا مهمًا في حذف أداة النداء (يا)؛ إذ هم من الراسخين في العلم؛ مما أهلهم إلى قرب منزلتهم من ربهم، حتى إذا ما نادوه رفعوا كل ما يمكن أن يحجبهم عنه، حتى وإن تمثل لغويًا في أداة النداء (يا). يؤكد تلك المنزلة إضافتهم إلى دال (رب) في الضمير (نا)؛ التي تشير إلى تشريفهم وعلو درجة إيمانهم. فهم قريبون من ربهم، وربهم قريب منهم.

ولأهمية مضمون النداء في حياة المنادي، أسس هذا المضمون على الأليات الأسلوبية الآتية *: **أولًا** أن معاني الرجاء والدعاء والإلحاح وردت بالأداة (لا) الدالة على الدعاء[1]، التي تدخل على زمن المضارع فتجزمه، وتخلصه إلى المستقبل[2] (لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا)، بما يتوافق مع رغبة الراسخين في العلم في تحصين أنفسهم من آفة زيغ القلوب بعد هدايتها، حتى يلقوا ربهم سبحانه وتعالى.

ثانيًا: سعادة العابد المُحِب وتلذذه في حديثه مع المعبود المحبوب، وذلك من خلال تنوع حقل الضمائر بين المخاطِب والمخاطَب. فبعد ذكر المعبود (رب) في مستهل النداء بدال (رب) في (ربنا)، في الإظهار، ترد ضمائره بجوار المنادِى على هذا النحو:

لا تزغ (أنتَ) ← قلوب(نَا)، هدي(تَ) ← (نَا)، هب (أنتَ) ← ل(نَا)

---

* فضلًا عما سقناه من جماليات أسلوبية في منطقة النداء.

[1] انظر: ابن هشام مغني اللبيب: 273.

[2] انظر: السابق: 271.

ثالثًا: انبناء خاتمة الآية الكريمة ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ على الملامح اللغوية الآتية: التأكيد ب(إِنَّ)، وضمير (الكاف) الواقع في منطقة اسمها، العائد إلى الرب جل في علاه؛لاختصاصه بعطاء الرحمة، ثم التأكيد مرة أخرى بالضمير المنفصل – أَنْتَ - ثم تعريف (الوهاب)، وانبنائه - صرفيًا - على صيغة المبالغة (فَعَّال) ([1]).

وفي هنا يقول ابن عاشور:" والقصر في قوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ للمبالغة، لأجل كمال الصفة فيه تعالى؛ لأن هبات الناس بالنسبة لما أفاض (الله) من الخيرات شيء لا يُعبأ به. وفي هذه الجملة تأكيد بإن والجملة الاسمية، وبطريق القصر([2]).

ورأي ابن عاشور في أن انبناء اسم (الوهاب) على وزن (فَعَّال) يُعَدُّ مبالغة في كمال الصفة في (الله) تعالى في حاجة إلى مراجعة؛ لأن صفات (الله) عز وجل كاملة فيه سبحانه وتعالى، في أي عباءة صرفية ترتديها. وإنما تكمن المبالغة هنا في كثرة من يُوْهَبُون الرحمة، أي من جهة الخلق، لا من جهة الخالق. أليس هو القائل: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (الاعراف: 156) ؟!! ([3]).

وفي العلاقة اللغوية بين المنادي والمنادى لطيفة: تتمثل في تكرير المنادَى ثماني مرات مرة بدال (رب) في (ربنا)، ومرة باسمه الأحسن (الوَهَّاب)، وثلاث مرات في صيغة الضمائر المتصلة: (التاء) في (هديتَنا)، والكاف في (لدنك) و(إنك)، ومرتين بصيغة الضمير المستتر (أنت): (لا تزغ، هب)، ومرة في صيغة الضمير المنفصل المؤكِّد (أَنْتَ).

على الجانب الآخر، ورد المنادِي أربع مرات في صيغة ضمير المتكلم الجمع(نا): (ربنا، قلوبنا، هديتنا، لنا). ومن الملحوظ أن نسبة تردد المنادَى جاءت مضاعفة لنسبة تردد المنادِي. وهذا المؤشر الإحصائي يعطينا مدلولات ثلاثة: **الأول** توافق المنطقية اللغوية مع المنطقية الواقعية؛ إذ المنادَى هو المقصود، وهو المتوجه إليه، وهو من

---

[1] انظر في خواتم الآيات التي توسس على هذا التركيب اللغوي: كتابنا (خواتم الآيات): 215 – 235.

[2] انظر: التحرير والتنوير ، الجزء الثالث: 171 .

[3] انظر هذا بالتفصيل: كتابنا (خواتم الآيات): 59 ، 60 .

بيده العطاء، وهو هو، وليس غيره...إلخ. **الثاني**: أن تنوع النداء ما بين الاسم، والضمير، والاسم الأحسن، لهو إيعاز للمناجين ربهم بأن يتلمسوا الرجاء، ويطلبوا العطاء بكل سبيل يُوَصِّلُ إلى المولى عز وجل.

الأخير: أن غلبة نسبة تردد المنادَى بضمير الحضور، سواء أكان على مستوى الضمير المتصل أم المنفصل، يجعل المنادِي وكأنه يتنعم بالحضرة الإلهية، ويتلهف ويتشوق للنعم الربانية؛ لِمَ لَا، وقد مُحِيَتْ كلُّ الوساطات المادية – بحذف (قال) و(يا) – وهام العبد المناجي في رحاب خالقه، يسأله ما يريد، وبخاصة أن المنادِي من الراسخين في العلم !!!.

فإن قيل: إذا كان هذا مفهومًا، فَلِمَ ورد النداء ب(رب) دون اسم الجلالة (الله)، أو دال (إله)؟ قلتُ: ماذا يطلب الراسخون في العلم؟ يطلبون عدم زيغ القلوب، والرحمة ولما كان عدم زيغ القلوب يعني إصلاحها وتنقيتها للعبادة، وتهذيب الطبع، وتربية النفس، وتدريبها على مواصلة العبادة، وتمام الإيمان والإخلاص فيه، مما يشير إلى التربية والتهذيب التي هي من معاني الربوبية، كان سوق دال (رب) أبلغ وأوجه. وما قيل هنا، يُقال في الرحمة التي هي من سمات الربوبية كذلك. كما أن الربوبية تعني التلطف بالمنادي، فالرب سبحانه وتعالى يُعطي في الدنيا المؤمن وغير المؤمن *.

وفي هذه الصورة كذلك، أحيانًا يرد دال (رب) مضافًا إلى ضمير المتكلم المفرد (ي) كما في قول (الله) تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ

* وهذه المعاني الكامنة في دال (رب) هي التي جعلت هذا الدال مسيطرًا على جُلِّ بنية النداء في القرآن الكريم.

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (يوسف:101) ([1]). ودائمًا تحذف (ياء) المتكلم، ويعوض عنها بالكسرة (رَبِّ).

وترد الصورة **الثانية**، القائمة على ذكر الفعل (قال) وحذف الأداة في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (البقرة: 126) ([2]).

في هذه الصورة الندائية تم ذكر الفعل (قال)، وحذف أداة النداء (يا). والجانب الإعرابي يقول: (إذ) ظرف لما مضى من الزمن مبني على السكون في محل نصب مفعول به لفعل محذوف تقديره (اذكر). وهذا الإعراب هو الغالب على (إذ) المذكورة في أوائل القصص في القرآن، واختاره الزمخشري وابن عطية وغيرهما من المعربين ([3]).

([1]) وانظر كذلك: سورة (إبراهيم: 36 ، 37 ، 38 ، 40) ، وسورة (مريم: 6) ، وسورة (طه: 84) . والاختلاف بين هذه المواضع وسابقتها يكمن في اختلاف الضمير المضاف إليه فحسب ؛ لذا نكتفي بما قدمناه ، تاركين للقارئ الكريم تأمل بقية المواضع في هذه الصورة .

([2]) وانظر كذلك: سورة (البقرة: 260) ، وسورة (آل عمران: 35، 36 ، 38 ، 40 ، 41 ، 47) ، وسورة (المائدة: 25) ، وسورة (الأعراف: 143 ، 151 ، 155)، وسورة (هود: 45 ، 47) ، و (يوسف:33) ، و(مريم: 4) وغيرها .

([3]) انظر: العكبري ، التبيان في إعراب القرآن: 46 ، ومحيي الدين الدرويش ، إعراب القرآن الكريم وبيانه ، المجلد الأول: 83 . وإعراب (إذ) الذي ورد في هذين المصدرين ورد في قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: 30) . ولما لم يكررا إعراب (إذ) في موضع الشاهد ، أثبتناه هنا . أما في موضع الشاهد ، فانظر: الزجاج ، معاني القرآن وإعرابه ، الجزء الأول: 207 ، والفعل المقدر عند الزجاج ورد بصيغة الجمع (اذكروا) . وانظر كذلك: بهجت عبد الواحد صالح ، الإعراب المفصل ، المجلد الأول: 159 ، ومحمود سليمان ياقوت، إعراب القرآن الكريم، المجلد الأول: 214، وحسن عثمان، إعراب القرآن وبيان معانيه، المجلد الأول: 300.

و(قال إبراهيم) فعل وفاعل، و(رب) منادى مضاف - حُذِفَ منه حرف الياء - منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة للتخفيف، والياء المحذوفة ضمير متصل مبني على السكون في محل جر مضاف إليه.

والواضح أن مثل هذه المواضع بنيت على أكثر من خطاب: خطاب (إلهي – نبوي) إذا كان تقدير الفعل المحذوف بصيغة المفرد (اذكر)، ويكون المخاطَب في تلك الحال هو سيدنا النبي ﷺ، أو خطاب (إلهي – بشري) إذا كان الفعل المحذوف مقدر بصيغة الجمع (اذكروا) – كما ورد عند الزجاج، ويكون المخاطَب فيه كل من يقرأ القرآن الكريم.

ثم يرد الخطاب الآخر معتمدًا بنية النداء (قال إبراهيم رب)، ويكون المخاطِب فيه سيدنا إبراهيم عليه السلام، والمخاطَب (رب) العزة سبحانه وتعالى.

والآن وصلنا إلى علة ذكر (قال)، في أن هذا التركيب الندائي وقع في زمن مضى، أريد به الإخبار عن حدث ما. لذا وقع في منطقة مقول القول، أي المحكي. ولمَّا لم يكن بداية خطاب، ورد الفعل (قال).

فإن قيل: إن الرجوع إلى إعراب (الواو) يطلعك على أنها استئنافية، مما يجعل مضمون ما بعدها كلامًا جديدًا، فكيف التوفيق؟ قلتُ: الاستئناف يخص الآية كلها وعلاقتها بما قبلها، أما التركيب الندائي (رب) بمضمون النداء ورد بعد جملة، حُذِفَ فعلها (اذكر، اذكروا).

وللتوضيح اقرأ معي الآية التي تلي هذا الموضع، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (البقرة: 127). فلما كان رفع القواعد شيئًا، ودعـــاء (الـرب) سبحانه وتعالى بقبوله شيئًا آخر، ليس من جنسه، حُذِفَ الفعل (قــال)، وحُذِفَت الأداة (يا) في خطاب

النداء (ربنا تقبل منا). وكلما كان مضمون الدعاء جديدًا، تكرر النداء مع حذف الفعل والأداة ([1]).

والإتيان ب(رب) دون اسم الجلالة (الله)، أو دال (إله) مفهوم من مضمون الدعاء (اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا)، و(وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ)؛ إذ عطاء الأمن، والرزق من الثمرات، سيصيب المؤمن وغيره. ولما كان من سمات الربوبية العطاء في الدنيا للمؤمن وغيره، كانت المتعة لغير المؤمن (وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا) *.

أما الصورة **الأخيرة**، المؤسسة على ذكر الفعل (قال) وذكر أداة النداء (يَا)، فترد في قوله تعالى:﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ (الفرقان: 30)، وقوله عز وجل: ﴿وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الزخرف: 88).

في هذه الصورة ذُكِرَ الفعل (قال) والفاعل (الرسول)، والأداة (يا)، ثم المنادَى (رب) المنصوب بالفتحة؛ لأنه مضاف إلى (ياء) المتكلم المحذوفة للتخفيف.

والمتأمل في السياق الذي وردت فيه الآية الكريمة يدرك علة ذكر الفعل (قال) وأداة النداء (يا). لقد وردت الآية الكريمة في سياق حكي سيقع في الآخرة. يقول (الله) سبحانه وتعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا * يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ (الفرقان: 27 - 29).

قيل: نزلت هذه الآيات في عقبة بن معيط، الذي ارتد عن الإسلام بعد نطقه للشهادة، والفلان الذي اتخذه خليلًا هو أُبي بن خلف وقيل العكس ([2]).

([1]) انظر: ابن عاشور ، التحرير والتنوير ، الجزء الأول: 719 ، 720 .

* ومضمون الدعاء هو الوارد بتمامه في سورة (قريش) . الآية الكريمة ملأى بآليات أسلوبية رفيعة المستوى ، فثم الإشارة (هذا) ، وتنكير (بلد) ؛ إذ لم تكن تظهر ملامح لهذا المكان بعد...إلخ . لكننا نركز على البنية الدلالية للتركيب الندائي . كما سنترك بقية النماذج التي أشرنا إليها في الهامش في الصورة ذاتها لتأمل القارئ .

([2]) انظر: النيسابوري ، أسباب النزول: 343 ، 344 . والسيوطي ، أسباب النزول: 192 .

وتحكي لنا الآيات ندم هذا الكافر وعضه على يديه في الآخرة عندما يدرك الحقيقة، ثم ترد الآية موضع الشاهد بوصفها أحد العناصر المهمة المكونة لهذا المشهد. وهنا يقول الزمخشري: " الرسول: محمد ﷺ وقومه قريش، حكى الله عنه شكواه قومه إليه. وفي هذه الحكاية تعظيم للشكاية، وتخويف لقومه؛ لأن الأنبياء كانوا إذا التجؤوا إليه وشكوا إليه قومهم: حلَّ بهم العذاب ولم يُنظروا "([1]).

ودال (مهجورًا) الذي ورد على لسان سيدنا النبي ﷺ يعني: إعراض الكفار عنه فصار مهجورًا، أو أنهم قالوا فيه هجرًا أي قبيحًا، أو أنهم جعلوه هجرًا من الكلام، أي الكلام الذي فيه من العبث والهذيان ([2]).

وعلى كل حال، لك أن تتخيل هذا المشهد المعقود: (رب) العزة سبحانه وتعالى، والرسول ﷺ، والكفار في موقف مذلة وندم. وهنا يشتكي الرسول ﷺ قومه من اتخاذهم القرآن مهجورًا.

وكما طرح الزمخشري، فإن المشهد المحكي يدل على تعظيم الشكاية. ولعظم ما فعله قوم النبي ﷺ، ولكرامة النبي ﷺ ومنزلته عند ربه، ولمكانة القرآن الكريم عند المولى عز وجل، كان لابد أن تضم البنية اللغوية لهذه الشكاية كل ما يقوي تلك الشكاية. ومن هنا ذكرت هذه الأركان: الفعل (قال)، والفاعل (الرسول)، والأداة (يا). وحتى الإشارة (هذا) التي تظهر رفعه القرآن وعظمته واستحضاره في هذا الموقف.

أضف إلى هذا أن السياق ليس سياق اقتضاب، بل إطناب وتوضيح لموقف هؤلاء الكفرة، وكلما طال الحديث في المشهد، زادت الندامة، واشتد الكرب على هؤلاء.

([1]) انظر: الكشاف ، الجزء الثالث: 269 .

([2]) انظر: الماوردي ، النكت والعيون ، الجزء الرابع: 143 . ومن المفسرين من قال: مهجورًا ، أي سحرًا ، وغير ذلك مما وصف به المشركون القرآن الكريم .

وهذا المشهد يُرى مثله في واقعنا الدنيوي، فأنت عندما تتناول مشكلة ما في مجلس ما، وتريد أن تقيم الحجة على خصمك، لابد أنك تلتزم الهدوء في الكلام، مستدعيًا كل أركانه، مطنبًا غير مُوجِزٍ في عَرْضِكَ؛ فالحجة إذا كانت مع من لم يحسن الكلام تضيع. وربما أقامها عليك خصمك بمعسول كلامه، وبيان خطابه، وكمال أركانه. فما بالنا والمتحدث هو سيد العرب والعجم ﷺ، والقاضي هو (رب) العزة !!!.

والإتيان بدال (رب) له من الحلاوة ما له، وعليه من الطلاة ما عليه. والحلاوة والطلاوة تأتيانه من جهتين: المخاطِب، والمحكي عنهم / الكفار. أما من جهة المخاطِب وهو النبي ﷺ، فدال (رب) يشير إلى التلطف به ﷺ، وهو الذي رباه وأدبه وهذبه، حتى صبر على هؤلاء، واتجه إليه هو سبحانه وتعالى بالشكاية.

وأما من جهة المحكي عنهم، فدال (رب) يدل على تبكيتهم؛ إذ كيف تنعموا بنعمه، وعاشوا في خيره، ورزقهم مالًا وبنين، وعبدوا غيره !!!. أليس هذا هو أبي بن خلف الذي استهزأ بإحياء الموتى، فنزل قوله تعالى:﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ *وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾(يسن:77–79)([1])؟!!!.

ومن نعم الربوبية على هؤلاء نزول القرآن الكريم، الذي فيه ذكرهم: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (الأنبياء: 10)، فإذا بهم يكفرون به، ويصفونه

وعلى هذا كان ذكر دال (رب) فيه ما فيه من الخزي، والإبهات، والتبكيت، والزجر، لهؤلاء، مما يزيد من أوار الندم والحزن، لكن هيهات!!! *.

([1]) انظر: النيسابوري ، أسباب النزول: 379 . والسيوطي ، أسباب النزول: 219 .

* والموضع الآخر في هذه الصورة: ﴿وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الزخرف: 88) ، هو موضع حكي لشكاية النبي ﷺ قومه لربه جل وعلا، لذلك يقال فيه ما قيل في الموضع الذي درسنا بنية خطابه ، فتأمل !!! .

المبحث الثامن: دال (رب – إله) في موقع الاستثناء

الاستثناء: الاستفعال، من ثَنَاهُ عن الأمر يَثْنِيه إذا صرفه عنه، فالاستثناء صرف اللفظ عن عمومه بإخراج المستثنى من أن يتناوله الأول، وحقيقته تخصيص صفة عامة، فكل استثناء تخصيص، وليس كل تخصيص استثناء. فإذا قلتَ: قام القوم إلا زيدًا تُبَيِنُ بقولك: (إلا زيدًا) أنه لم يكن داخلًا تحت الصدر ([1]).

ويتضح من هذا التعريف أن التركيب اللغوي الذي يُبْنَى على الاستثناء يتألف من ثلاثة عناصر: (المستثنى منه) اللفظ العام، وأداة الاستثناء (إلا وأخواتها)، والمستثنى. كما يتضح من التعريف أن المقصود بالحكم هو الاسم الواقع بعد أداة الاستثناء، الذي يُسْمى (المستثنى)؛ إذ هو المُخْرَجُ من الأول (المستثنى منه).

وأدوات الاستثناء منها ما يكون حرفًا مثل (إلا)، ومنها ما يكون اسمًا مثل (سُوَى، سِوَى، سَوَاءٌ، غير)، ومنا ما يكون فعلًا مثل (ليس، لا يكون). ومنها ما يكون فعلًا وحرفًا (عدا، خلا، حاشا) ([2]). وقد ذكر الزمخشري في مفصله أداة أخرى هي (لا سِيَّمَا) ([3]). هذا على المستوى الشكلي للتركيب المبني على بنية الاستثناء. وما ورد من هذه الأدوات مقترنًا بدال (رب) أو الضمائر التي تعود إليه عز وجل، هي (إلا) *.

([1]) انظر: ابن يعيش ، شرح المفصل ، الجزء الثاني: 46 .

([2]) انظر: ابن عقيل ، شرح ابن عقيل ، الجزء الثاني: 225 .

([3]) انظر: ابن يعيش ، شرح المفصل ، الجزء الثاني: 64 ، 65 .

* جير بالذكر أن دال (إله) لا يرد في منطقة الاستثناء . أما قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ (المائدة: 73) فإعراب دال (إله) الواقع بعد أداة الحصر (إلا) هنا إما أن يكون خبرًا للمبتدأ (إله) المجرور لفظًا، المرفوع محلًا . انظر: بهجت عبد الواحد صالح ، الإعراب المفصل، المجلد الثالث: 112 . أو أن يكون (بدلًا) على أساس إعراب دال (إله) الأول مبتدأ ، والخبر محذوف . انظر: محيي الدين الدرويش ، إعراب القرآن الكريم وبيانه ، المجلد الثاني: 274 ، ومحمود سليمان ياقوت ، إعراب القرآن الكريم ، المجلد الثالث : 1276 .

أما على المستوى الدلالي، فإن الاستثناء ينقسم من حيث جملته وأركان الاستثناء إلى: متصل ومنقطع. والمتصل هو ما يكون المستثنى بعضًا من المستثنى منه. والمنقطع هو ما لا يكون المستثنى بعضًا من المستثنى منه ([1]).

كما ينقسم الاستثناء المتصل إلى مثبت تام، ومنفي تام، ومنفي ناقص (وهو ما يُسمى بالمفرَّغ). والمثبت التام هو ما لم تتقدم جملته أداة نفي مع حضور عناصر الاستثناء (المستثنى منه وأداة الاستثناء والمستثنى). أما المنفي التام، فهو ما تصدرت جملته أداة نفي مع حضور العناصر السابقة. والمنفي الناقص أوالمفرغ هو ما تصدرت جملته أداة نفي، مع حذف المستثنى منه.

أما إعراب الاسم المستثنى، فَيُنْصَب مطلقًا في الضرب الأول (المثبت التام)، ويُنْصَب أو يُعْرَب بدلًا من المستثنى منه في الضرب الثاني (المنفي التام)، ويُعْرَب على حسب موقعه في الجملة في الضرب الثالث (المنفي الناقص/ المفرغ).

أما الاستثناء المنقطع، فهو ما لا يكون فيه المستثنى من جنس المستثنى منه([2]). وهذا هو المفهوم من تعريف الزمخشري السابق: فالاستثناء صرف اللفظ عن عمومه بإخراج المستثنى من أن يتناوله الأول. فلما كان المستثنى – في هذا الضرب - مما لا يتناوله المستثنى منه، ولم يشترك معه في صفة ما، حتى وإن جرى عليه الاختصاص، سُمِيَ استثناءً منقطعًا. ومن هنا يمكن أن نفهم أن دال (منقطع) يعني انقطاع المستثنى وانفصاله، حتى وإن لم يتغاير عن المستثنى منه في الجنس.

ووقوع دال (رب) في منطقة الاستثناء قد يرد بلفظه، أو ببعض الضمائر التي تعود إليه. في الصورة الأولى يرد قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (الشعراء: 77).وفي

([1]) انظر: ابن عقيل ، شرح ابن عقيل ، المجلد الأول ، الجزء الثاني: 212 .

([2]) وقد لا يكون كذلك ، يعني قد يكون المستثنى من جنس المستثنى منه ، ويكون الاستثناء منقطعًا . مثل: حضر الطلاب إلا البواب . فإنه استثناء منقطع ؛ لأن البواب ليس من الطلاب . وعليه فإن الاستثناء المنقطع ما كان فيه المستثنى ليس بعضًا من المستثنى منه .انظر:السامرائي، معاني النحو الجزء الثاني:247 وهوامشها . وانظر في الاستثناء ، سيبويه ، الكتاب ، الجزء الثاني: 310 – 349 والمبرد ، المقتضب ، الجزء الرابع: 389 - 429 ، وابن السراج ، الأصول في النحو ، الجزء الأول: 290 - 306 .

الصورة الأخرى – الضمير – يرد قول (الله): ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ (الاسراء: 67) *.

وفي الصورة نفسها يرد قوله تعالى: ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ (الإسراء: 23) .

وإذا دخلنا الموضع الأول، الذي يرد فيه دال (رب) بلفظه في منطقة الاستثناء، وهو قول ربنا عز وجل: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (الشعراء: 77)، نجد الفراء يقول:" وقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾، أي كل آلهة لكم فلا أعبدها إلا رب العالمين فإني أعبده، ونصبه / أي (رب) بالاستثناء، كأنه قال: هم عدو غير معبود إلا رب العالمين فإني أعبده. وإنما قالوا / يقصد قال: (فإنهم عدو لي) أي لو عبدتهم كانوا لي يوم القيامة ضِدًّا وعدوًّا "([1]).

ويقول الزجاج:" قال النحويون: إنه استثناء ليس من الأول، أي لكن (رَبُّ) العالمين. ويجوز أن يكونوا عبدوا مع (الله) الأصنام وغيرها، فقال لهم: إن جميع ما عبدتم

---

* أما وقوع الضمير (نحن) بعد (إلا) في قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا﴾ (الإسراء: 58)، فإن إعرابه مبتدأ . انظر: محيي الدين الدرويش ، إعراب القرآن الكريم وبيانه ، المجلد الرابع: 379 ، وبهجت عبد الواحد صالح ، الإعراب المفصل ، المجلد السادس: 292 ، ومحمود سليمان ياقوت ، إعراب القرآن الكريم ، المجلد السادس: 2638 . أم الضمائر التي ترد بعدالأداة (إلا) في كلمة الشهادة ، سواء أكانت (أنا) ، مثل قوله سبحانه وتعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ (النحل:2) . أم الضمير (أنت) ، كما في قوله جل وعلا: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ﴾ (الأنبياء:87) ، أم الضمير (هو) ، وذلك في قوله سبحانه: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ (البقرة: 163) ، فإنها تعرب مع (إلا) بدلًا . انظر: الكتاب الأول: 352 ، 353.

([1]) انظر: معاني القرآن ، الجزء الثاني: 280 .

عدو لي إلا (رب) العالمين؛ لأنهم سوَّوْا آلهتهم ب(الله) فأعلمهم أنه قد تبرأ مما يعبدون إلا (الله) فإنه لم يتبرأ من عبادته"([1]).

ويقول العكبري: "﴿إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ فيها وجهان: أحدهما – هو استثناء من غير الجنس؛ لأنه لم يدخل تحت الأعداء. والآخر – هو من الجنس؛ لأن آباءهم قد كان منهم من يعبد الله وغير الله. والله أعلم " ([2]).

ويفهم مما ساقه الأفذاذ السابقون أن دال (رب) يُعربُ مستثنى منصوبًا، والاستثناء منقطع، أو متصل ([3]).

وكما ذهب علماؤنا اللغويون إلى كون هذا الاستثناء منقطعًا، ذهبت بعض كتب التفاسير كذلك([4]). ومن تلك الكتب من طرحت الوجهين: المنقطع والمتصل([5]).

([1]) انظر: معاني القرآن وإعرابه ، الجزء الرابع: 93 . أما النحاس ، فقد نقل ما طرحه كل من الفراء والزجاج . انظر: إعراب القرآن: 681 .

([2]) انظر: التبيان في إعراب القرآن ، القسم الثاني: 997 . ومن المفسرين الذين قالوا بعبادة بعض من قوم سيدنا إبراهيم الرب العلي وأشركوا معه غيره من الأصنام ، كما سلكت قريش . انظر: البغوي ، معالم التنزيل: 941 ، وشيخ زاده: الحاشية على تفسير البيضاوي ، الجزء السادس: 343 والبقاعي: نظم الدرر ، الجزء الرابع عشر: 51 ، وأبو السعود: إرشاد العقل السليم ، الجزء السادس: 248، والألوسي: روح المعاني ، الجزء التاسع عشر: 95 ، وأخيرًا ابن عاشور: التحرير والتنوير ، الجزء التاسع عشر: 141 ، 142 .

([3]) لم يقل النحويون المعاصرون إلا بوجه المنقطع فحسب ، انظر: محيي الدين الدرويش ، إعراب القرآن الكريم وبيانه ، المجلد الخامس: 416 . وبهجت عبد الواحد صالح ، الإعراب المفصل ، المجلد الثامن: 204 . ومحمود سليمان ياقوت ، إعراب القرآن الكريم ، المجلد السابع: 3333 .

([4]) انظر: البغوي ، معالم التنزيل: 941، والزمخشري: الكشاف ، الجزء الثالث: 309 ، والرازي: مفاتيح الغيب، الجزء الرابع والعشرين: 143 ، وأبو السعود: إرشاد العقل السليم ، الجزء السادس: 248 .

([5]) انظر: ابن عطية ، المحرر الوجيز: 1402، وطرح ابن عطيه وجه الاستثناء المتصل ، يعني إقراره بعبادة بعض قوم سيدنا إبراهيم للرب العلي والإشراك معه . رغم قوله: " قالت فرقة: هو استثناء متصل ؛ لأن في الآباء الأقدمين مَنْ قَدْ عبد من دون الله تبارك وتعالى " وأعتقد – والله أعلى وأعلم

أما وجه الاستثناء المنقطع فهو بَيِّن؛ لعدم صحة استثناء دال (رب) من الآلهة. وأما من قالوا بعبادة قوم سيدنا إبراهيم للرب العلي، وساقوا وجه الاستثناء المتصل، فهذا فاسد؛ لأن (الرب) وإن عُبِدَ من بعض هؤلاء، فليس من جنس الآلهة، وليس بعضًا منهم؛ ولأنه ليس من جنس المستثنى منه، ولا بعضًا منه، فالاستثناء منقطع.

إذا كان الاستثناء في هذا التركيب (حضر الطلاب إلا البواب) استثناء منقطعًا؛ لكون (البواب)/ المستثنى ليس بعضًا من المستثنى منه، رغم كونه من جنسه [1]، فما بالنا بدال (رب) الذي ليس من جنس الآلهة، وليس بعضًا منهم؟ !!!.

أما التعبير بدال (رب) فله ما يبرره من جهتين: **الأولى** أنه كان من الدوال الشائعة في حياة القوم، ولك أن تنظر في محاجة سيدنا إبراهيم مع النمرود في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: 258).

– أنه كان يقصد (مَنْ قَدْ عبد الله تبارك وتعالى). والبيضاوي، تفسير البيضاوي، الجزء السادس: 343، والألوسي: روح المعاني، الجزء التاسع عشر: 95. وطرح الألوسي لوجه الاستثناء المتصل اعتمد فيه على ما قاله الزجاج: (ويجوز أن يكونوا عبدوا مع (الله) الأصنام وغيرها)، وهو ما بيناه من قبل. وابن عاشور: التحرير والتنوير، الجزء التاسع عشر: 141، 142.

[1] انظر: فاضل السامرائي، معاني النحو، الجزء الثاني: 247. وهنا يقول السامرائي: " ولا يشترط في الاستثناء المنقطع أن يكون جنسه مغايرًا لجنس المستثنى منه، بل كان المنقطع ما كان فيه المستثنى ليس بعضًا من المستثنى منه، سواء أكانت المغايرة بالجنس أم بالنوع، أم بغيرهما " انظر: معاني النحو، الجزء الثاني: 247. والحاصل أن الآية الكريمة بُنِيَتْ على الاستثناء المنقطع، سواء عُبِدَ (الله) مِنْ هؤلاء أم لَمْ يُعْبَدْ. لذا، فإن القول بأن ثمة احتمالًا أن يكون الاستثناء متصلًا في حاجة إلى مراجعه. وأعتقد أن هذا الفهم هو الذي دفع النحويين المعاصرين إلى اختيار وجه الاستثناء المنقطع فحسب.

الأخرى: أن سيدنا إبراهيم ساق في الآيات اللاحقة ما يلتحق بنعم الربوبية: ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ*وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ*وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ*وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ*وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ (الشعراء:78–82). وحتى في الدعاء قال عليه السلام: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (الشعراء: 83). لذا كان ورود دال (رب) من البلاغة بمكان.

وفي الصورة الأخرى – الضمير – يرد قول (الله) تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ (الاسراء: 67). فإن قيل: لِمَ قلتَ: إن (إياه) تعود إلى دال (رب)؟ قلتُ: لقوله تعالى: في الآية السابقة: ﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ (الإسراء: 66).

إن التأمل الإعرابي للضمير (إيا) يقول: إنه ضمير منفصل مبني على السكون في محل نصب مستثنى ب(إلا)، والهاء حرف للغائب لا محل له من الإعراب. أما نوع الاستثناء، فقد تعدد؛ فمن اللغويين من قال: استثناء منقطع فحسب [1].

ومنهم من قال بالضربين: المنقطع والمتصل[2]. ومنهم من لم يحدد نوعًا من النوعين[3].

وإذا تأملنا الآية الكريمة، عرفنا أن المستثنى منه هو الموصول (مَنْ) القابع في منطقة الفاعلية من الفعل (ضل)، وهو المفعول به المحذوف للفعل (تدعون) للتخفيف. وأيًّا ما كان عود الاسم الموصول؛ سواء أكان مَلَكًا، أم جنًّا، أم بشرًا، أم صنمًا...إلخ، فإننا لا يمكن أن نقول: إن بنية الخطاب قد أُقِيمتْ على الاستثناء المتصل أبدًا؛ وذلك لما قدمتُه من قبل؛ لأنه لا علاقة على الإطلاق بين مُعاد الموصول

---

[1] انظر: بهجت عبد الواحد صالح ، الإعراب المفصل ، المجلد السادس: 302 .

[2] انظر: العكبري ، التبيان في إعراب القرآن ، القسم الثاني: 827 ، وكذلك محيي الدين الدرويش إعراب القرآن الكريم وبيانه ، المجلد الرابع: 388 .

[3] انظر: محمود سليمان ياقوت ، إعراب القرآن الكريم ، المجلد السادس: 2647 .

والرب العلي؛ ف(رب العزة) – الذي يمثله هنا الضمير (إيا) لا من جنس المستثنى منه / معاد الموصول، ولا هو بعضًا منه. لذا فالاستثناء منقطع فحسب [*] .

وأما في قوله تعالى: ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ (الإسراء: 23) ، فإن إعراب (إيَّا) مفعـول به؛ لكون الاستثناء مفرغًا، أي ناقصًا منفيًا ([1]).

وإضافة إلى هذا الوجه الإعرابي، يطرح بهجت عبد الواحد صالح وجه الاستثناء المنصوب، على تقدير حذف مفعول (تعبدوا). يقول صالح: " (إلا) أداة استثناء، ويجوز أن تكون أداة حصر. (إياه) ضمير منفصل مبني على السكون في محل نصب مستثنى ب(إلا)، والهاء حرف للغائب. ويكون مفعول (ألَّا تعبدوا) محذوفًا تقديره: ألَّا تعبدوا أحدًا إلا إياه، أي ألَّا تعبدوا غيره. وإذا جعلت (إلَّا) أداة حصر كانت (إياه)

---

[*] أما التفاسير ، فقد اكتفى الزمخشري بوجه الاستثناء المنقطع . انظر: الكشاف ، الجزء الثاني: 652 . وكذلك أبو السـعود . انظر: إرشـاد العقل السـليم ، الجزء الخامس: 185، وكذلك ابن عاشور ، انظر: التحرير والتنوير، الجزء الخامس عشر: 160 . أما أبو حيان فقد قال بالضربين قائلًا: والظاهر أن (إلا إياه) اسـتثناء منقطع ؛ لأنه لم يندرج في قوله (مَنْ تدعون) ؛ إذ المعنى: ضلت آلهتهم: أي معبوداتهم وهم لا يعبدون الله . وقيل: هو استثناء متصل ، وهذا على معنى ضل من يلجؤون إليه وهم كانوا يلجؤون في بعض أمورهم إلى معبوداتهم . وفي هذه الحالة لا يلجؤون إلا إلى الله " . انظر: البحر المحيط ، الجزء السادس: 57 . وهل كونهم كانوا يلجؤون إلى معبوداتهم ، ولا يلجؤون هنا إلا إلى الله، جعل الله بعضًا من معبوداتهم ؛ كي يكون الاستثناء متصلًا؟! طبعا: لا . وقال الألوسي بالضربين .انظـــــر: روح المعاني، الجزء الخامس عشر: 115. والذي أعتقده وأميل إليه، كما قلتُ.

([1]) انظر: محيي الدين الدرويش ، إعراب القرآن الكريم وبيانه ، المجلد الرابع: 338 ، ومحمود سليمان ياقوت ، إعراب القرآن الكريم ، المجلد السادس: 2607 .

ضميرًا منفصلًا في محل نصب مفعول (تعبدوا)، أي ألَّا تعبدوا إلاه. والوجه الأول/ أي الاستثناء أوجه ([1]).

وهذا الطرح في حاجة إلى مراجعة لعلتين، تترتب الأخرى على الأولى: **الأولى** أن الآية الكريمة بُنيت على الحذف في منطقة المفعول به ل(تعبدوا)، ومن شأن الحذف اتساع المعنى وانفتاح الدلالة، مما يضع المفعول به في دائرة لغة الغياب؛ ليشمل كل معبود آخر غير (الله) عز وجل – سواء أكان من الملائكة، أم الجن، أم البشر، أم المخلوقات الحية الأخرى، أم الجماد...إلخ - من الممكن أن يعبده الإنسان. لكن عندما قدر بهجت المفعول به في دال(أحدًا)قيد الدلالة في المعبود من الإنسان فحسب؛ لأن دال(أحد) لا يُطلق إلا على الإنسان، وهو ما ينافي الواقع، فَلِمَ التقييد؟.

أما العلة **الأخرى**: أنه لما كان الحذف – في هذا الموضع - ينطوي على بلاغة، جاءت بنية الخطاب مؤسسة على الاستثناء المفرغ. ومن ثم كان إعراب (إياه) مفعولًا به ل(تعبدوا)، موافقًا للقاعدة النحوية، ومتناسقًا مع بلاغة الحذف.

وفي رأيي، أن الدوال التي تعود إلى الخالق المعبود الواحد الأحد عز وجل، سواء أكانت اسم الجلالة (الله)، أم دال (رب)، أم دال (إله)، إضافة إلى الضمائر التي تعود إليها كذلك، إذا وقعت في منطقة الاستثناء بعد أي أداة استثناء لا تكون إلا استثناء منقطعًا، فإن قيل: لماذا؟ قلتُ: ما الدال اللغوي الذي يصح أن يكون في موقع المستثنى منه، بحيث يرد اسم الجلالة (الله) أو دال (رب)، أو دال (إله) أو أحد الضمائر التي تعود إليهم مستثنى؟ لا يوجد.

لأنه لو وُجِدَ لا يخلو من أن يكون مثنى أو جمعًا، وبذلك يخرج من دائرة الإله الحق، ويهوم في ضلالات المعبودات. لذا، لا يصح أن يكون مستثنى منه للمعبود الحق.

([1]) انظر: الإعراب المفصل ، المجلد السادس: 259 .

المبحث التاسع: دال (رب – إله) في موقع القسم

القسم هو: " جملة فعلية واسمية، تُؤكَّد بها جملة موجبة أو منفية، ومن شأن الجملتين أن تتنزلا منزلةَ جملة واحدة كجملتي الشرط والجزاء، ويجوز حذف الثانية ها هنا عند الدلالة جَوَازَ ذلك ثَمَّهْ. فالجملة المؤكَّد بها هي القَسَم، والمؤكَّدةُ هي المُقْسَمُ عليها، والاسم الذي يُلْصَقُ بِهِ القَسَمُ ليُعَظَّم به ويُفَخَّم هو المُقْسَمُ به " [1].

أما حروف القسم، فهي متعددة [2]، يهمنا هنا (الواو)؛ لكونها هي التي ترد مع دال (رب).

وأما الحروف التي ترد في جواب القسم، فهي (اللام)، و(إن)، وحرف النفي[3].

ومن حيث طبيعة الجملة المؤكَّدة، فقد ترد – كما طرح الزمخشري - موجبة أو منفية. ومن حيث موقعها من الجملة المؤكِّدة / القسم، أحيانًا ترد بعدها، أوقبلها.

أما حرف القسم (الواو)، فأحيانًا يُسبقُ بحرف نفي، وأحيانًا لا يُسبقُ. وكل هذا سنراه في عالم التطبيق، إن شاء (الله) عز وجل.

---

(1) انظر: ابن يعيش ، شرح المفصل ، الجزء الخامس: 244 . وانظر في بنية القسم، سيبويه ، الكتاب ، الجزء الثالث: 496 – 504 ، والمبرد: المقتضب ، الجزء الثاني: 315 - 338 .

(2) انظر: سيبويه ، الكتاب ، الجزء الثالث: 496 ، وابن السراج ، الأصول في النحو ، الجزء الأول: 430 ، وابن يعيش ، شرح المفصل ، الجزء الخامس:251 . ابن هشام ، أوضح المسالك ، الجزء الثالث: 48. وابن هشام ، مغني اللبيب: 400 ، ومن مصادر البلاغة: السكاكي ، مفتاح العلوم: 98 والزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، الجزء الرابع: 435 . وبنية القسم من التشعب بمكان ، لكن التركيز هنا على (الواو) ؛ لكونها محل الدراسة .

(3) انظر: ابن يعيش ، شرح المفصل ، الجزء الخامس: 253 .

في وقوع دال (رب) في منطقة القسم / المُقْسَمُ به، يقول (الله) سبحانه وتعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (النساء: 65) ([1]).

وإذا تأملنا الآية الكريمة، وجدنا بنية القسم ماثلة في قوله تعالى: (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ). والملحوظ، أن حرف القسم (الواو) قد سبق بحرف نفي (لا)، والجملة المؤكَّدة وردت منفية (لا يؤمنون...إلى آخر الآية الكريمة)، وأنها وردت بعد القسم (فلا وربك).

وفي الطرح النحوي يقول العكبري: " (فَلَا وَرَبِّكَ) فيها وجهان: أحدهما – أن (لا) الأولى زائدة، والتقدير: فَوَرَبِّكَ (لا يؤمنون). وقيل: الثانية / أي (لا) زائدة، والقسم مُعْتَرِض بين النفي والمنفي / أي (فلا يؤمنون). الوجه الآخر – أن (لا) نفي لشيء محذوف، تقديره: فلا يفعلون، ثم قال: وربك لا يؤمنون " ([2]).

ويقول محيي الدين الدرويش: " (الفاء) استئنافية، و(لا) مزيدة * لتأكيد القسم، و(الواو) حرف قسم وجر *، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف تقديره: أقسم، و(لا يؤمنون)، (لا) نافية، و(يؤمنون) فعل مضارع مرفوع، و(الواو) فاعل، وجملة (لا يؤمنون) لا محل لها؛ لأنها جواب قسم" ([3]).

([1]) انظر:(الأنعام:30)، و(يونس:53) ، و(الحجر:92)، و(مريم:68)، و(سبأ:3)، و(الأحقاف:34)، و (الذاريات:23).

([2]) انظر: التبيان في إعراب القرآن ، القسم الأول: 369 .

* انظر في (لا) المزيدة ، الداخلة في الكلام لمجرد تقويته وتأكيده ، ابن هشام ، مغنى اللبيب: 274 .

* وهي عند النحاس بدل من (الباء) . انظر: إعراب القرآن: 192 .

([3]) انظر: إعراب القرآن الكريم وبيانه ، المجلد الثاني: 51 . وانظر كذلك: بهجت عبد الواحد صالح الإعراب المفصل ، المجلد الثاني: 313 ، 314 ، ومحمود سليمان ياقوت ، إعراب القرآن الكريم ، المجلد الثاني: 970 ، 971 . والجدير بالذكر شيئان: **الأول** ، أن ما أورده الدرويش تعليقًا على رأيه

وإذا نظرنا في التفاسير المتعددة لكتاب (الله) عز وجل، نجد البغوي يقول – بعد أن نقل عن الطبري رأيه -: " ويجوز أن تكون (لا) في قوله (فلا) صلة، كما في قوله (فلا أقسم - الواقعة: 75) ([1]).

ويقول الزمخشري:"﴿فَلَا وَرَبِّكَ﴾ معناه (فوربك)، كقوله سبحانه وتعالى ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ﴾ (الحجر: 92) و(لا) مزيدة لتأكيد معنى القسم، كما زيدت في قوله سبحانه وتعالى: ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ﴾ (الحديد: 29) لتأكيد وجود العلم ([2]).

ويقول ابن عطية – بعد أن نقل كلام الطبري -: " إنما قُدِّمَ (لا) على القسم اهتمامًا بالنفي، وإظهارًا لقوته، ثم كررها بعده تأكيدًا للتَّهَمُّم، وكان يصح إسقاط (لا)

في قوله: " والفائدة منها تأكيد تعظيم المقسم به ...وتستوجب ما فوقه" فهو كلام الشيخ محمد عليان المرزوقي في تعليقه على طرح الزمخشري. انظر: الزمخشري ، الكشاف ، الجزء الأول: هامش 517 . وقد ساق الدرويش ثلاثة آراء للعلماء في (لا) ، الرأي الأول هو مزيج من كلام الطبري (ليس الأمر كما يزعمون أنهم يؤمنون بما أنزل إليك). انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، المجلد الثاني: 498 ، 499، وكلام العكبري (أَنَّ (لا) رد لكلام تقديره: فلا يفعلون)، كما طرحنا . والرأي الأخير (أن (لا) الثانية زائدة...) فهو النقطة الثانية في الوجه الأول عند العكبري ، كما أوضحنا منذ قليل .

أما الشيء الآخر الجدير بالذكر ، أن النحاس نصب الفعل (يحكموك) ب(حتى) ، فيما نصبه الدرويش ب(أن) مضمرة بعد (حتى) ، وتابعه في ذلك يهجت عبد الواحد صالح ، وسليمان ياقوت .

([1]) انظر: معالم التنزيل: 316 . ويقصد البغوي بالصلة ، أي (لام) الابتداء ، وهي (اللام) الداخلة على جملة اسمية من مبتدأ وخبر ، (أنا أقسم) ثم حذف المبتدأ فاتصلت (اللام) بخبره ، تقديره: (فلأقسم) باللام فقط . وقال أبو حيان: والأولى عندي: أنها (لام) أُشْبِعَتْ فتحتُها ، فتولدت منها (ألف) . انظر: محيي الدين الدرويش ، إعراب القرآن الكريم وبيانه ، المجلد السابع: 412 ، وانظر في (لام) الابتداء ، ابن هشام ، مغني اللبيب: 251– 255.

([2]) انظر: الكشاف ، الجزء الأول: 517 ، 518 .

الثانية، ويبقى أكثر الاهتمام بتقديم الأولى، وكان يصح إسقاط الأولى ويبقى معنى النفي، ويذهب معنى الاهتمام " ([1]).

ويقول ابن عاشور:" وأصل الكلام: فوربك لا يؤمنون، والعرب تأتي بحرف النفي قبل القسم إذا كان جواب القسم منفيًا للتعجيل بإفادة أن ما بعد حرف العطف قسم على النفي لما تضمنته الجملة المعطوف عليها، فتقديم النفي للاهتمام بالنفي. ويكثر أن يأتوا مع حرف النفي بعد العاطف بحرف نفي مثله في الجواب ليحصل مع الاهتمام التأكيد، كما في هذه الآية...وليست (لا) هذه هي التي ترد مع فعل القسم مزيدة والكلام معها على الإثبات، نحو (لا أقسم) وفي غير القسم نحو (لئلا يعلم أهل الكتاب؛ لأن تلك ليس الكلام معها على النفي، وهذه الكلام معها نفي، فهي تأكيد له على ما اختاره أكثر المحققين خلافًا لصاحب الكشاف (يقصد الزمخشري)، ولا يلزم أن تكون مواقع الحرف الواحد متحدة في المواقع المتقاربة.

وقد نُفِي عن هؤلاء المنافقين أن يكونوا مؤمنين كما يزعمون في حال يظنهم الناس مؤمنين، ولا يشعر الناس بكفرهم، فلذلك احتاج الخبر للتأكيد بالقسم وبالتوكيد

([1]) انظر: المحرر الوجيز: 452 . وإذا كنا قد قلنا: إن الرأي الأول الذي ساقة الدرويش كان مزيجًا من رأي الطبري والعكبري ، وأن الرأي الأخير هو كلام العكبري ، فإن الرأي الثاني هو هذا الذي طرحه ابن عطية . ولا أدري لماذا لم يوثق الدرويش ما طرحه من آراء غيره ، رغم إقراره – للإنصاف – أن هذه الآراء لغيره ، وليست له؟!! . وحول تلك المعاني ل(لا) دارت أراء . انظر: الرازي ، مفاتيح الغيب الجزء العاشر: 168 . أما القرطبي فقد نقل كلام الطبري وابن عطية . انظر: الجامع لاحكام القرآن الجزء السادس: 440، ونقل البيضاوي كلام الزمخشري ، انظر:شيخ زاده ، الحاشية على تفسير البيضاوي ، ج3: 354 .وقد نقل أبو حيان رأي الطبري وابن عطية والزمخشري ورأي العكبري في زيادة (لا) الثانية .انظر:البحر المحيط، ج3: 296 ، 297 . ولم يخرج أبو السعود عن ذلك . انظر: إرشاد العقل السليم ، الجز ءالثاني: 197 ، وكذلك الألوسي . انظر: روح المعاني ، الجزء الخامس: 70 ، 71 . وانظر في دلالات (لا) التي تقع قبل القسم:السامرائي ، معاني النحو ، الجزء الرابع: 169 – 175 .

اللفظي؛ لأنه كشف لباطن حالهم. والمقسم عليه هو: الغاية، وما عطف عليها بثَمَّ، معًا، فإن هم حكموا غير الرسول فيما شجر بينهم فهم غير مؤمنين " ([1]).

والملحوظ ان ابن عاشور يخالف الزمخشري في أمرين: **الأول** أن (لا) ليست مزيدة؛ لأنها لم تأت مع جواب مثبت، بينما قال الزمخشري أنها مزيدة، رغم مجيئها مع جواب منفي، ثم ساق أمثلة مجيئها – في حالة كونها مزيدة - مع جواب مثبت، فإصبح القياس غير صحيح. الأمر **الآخر** – وهو مبني على الأمر الأول -: أن (لا) لتأكيد النفي، وليست لتأكيد معنى القسم.

وعلى الجانب الآخر، يوافق ابن عاشور ابن عطية في أن تقديم (لا) على القسم للاهتمام بالنفي، وأن تكريرها يرد لتأكيد الاهتمام به.

وأنا أوافق ابن عطية وابن عاشور في هذا الطرح؛ لأن القسم ليس بحاجة إلى تأكيد وبخاصة إذا كان المقسم به هو (رب) العزة سبحانه وتعالى، وإنما جواب القسم / المقسم عليه هو الذي في حاجة إلى تأكيد.

وإذا رجعنا إلى الآية وقرأناها مرة أخرى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ وجدنا أن دلالة القسم تسلطت على نفي صفات ثلاثة عن هؤلاء: كونهم مؤمنين حتى يحكموا رسول (الله) ﷺ، عدم وجود حرج في أنفسهم من حكمه، والتسليم بهذا الحكم. وهذا ما جعل ابن عاشور يقول بأن المقسم عليه هو الغاية...إلخ ([2]).

ولم يبق لنا إلا أن نعرج على بلاغة دال (رب) بوصفه المقْسَم به في بنية القسم هذه بدلًا من اسم الجلالة (الله)، أو دال (إله).

إن التأمل الدقيق للسياق الذي وردت فيه الآية الكريمة، وما سبقها من آيات، يطلعك على أنها تمس جانبًا مهمًا في عقيد من نزلت فيهم الآية. تتمثل تلك العقيدة

([1]) انظر: التحرير والتنوير ، الجزء الخامس: 110 ، 111 .

([2])وفي سبب النزول انظر:النيسابوري، أسباب النزول:167 ، 168، والسيوطي، أسباب النزول:82 .

في أنه لا يكتمل إيمان هؤلاء حتى يحكموا رسول (الله) ﷺ في كل ما شجر بينهم من خلاف وليس ذلك فحسب، بل لا يجدوا حرجًا في حكمه، ويسلموا تسليمًا.

ثم نعود فنقول: من الذي ربَّى النبي ﷺ وأدبه، وهذبه، ووهبه الحكمة، والفطنة، والفصل الحق، والقول السديد...إلخ؟ إنه (ربه) جل في علاه، الواصف له بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: 4).

وكأن الإتيان بدال (رب) الذي يحمل مفهوم الربوبية ونعمها تبكيت لهم، بأنكم كيف تؤمنون ب(الله) سبحانه وتعالى (ربًا)، وتوقنون بأنه هو الذي ربى النبي ﷺ وتزيغون عنه؟ .

ثم تأتي إضافة دال (رب) إلى (كاف) الخطاب (ربك) تنويهًا وتعظيمًا لشان النبي ﷺ. وكأنه قيل: إن ربك الذي ربَّاك واصطفاك رسولًا، يقسم بذاته على عدم إيمان هؤلاء إذا هم حكموا غيرك. أي عظمة وأي مرتبة هذه؟!!!.

وأحيانًا يحذف جواب القسم إذا دل عليه دليل، كما في قول (الله) سبحانه وتعالى:﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (الأنعام: 30). فقوله (وربنا) قسم سبقته الأداة (بلى) وهي حرف جواب لإثبان النفي في جملة (أليس هذا بالحق)؛ لذا تم حذف الجواب المقدر: بلى وربنا هذا حق.

وأحيانًا أخرى يرد جواب القسم مؤسسًا على التركيب الاسمي المؤكد ب(إنَّ) و(اللام) مثل قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ (يونس: 53). فكما ترى جواب القسم (إنه لحق).

وأحيانا ثالثة يرد جواب القسم في إطار زمني مؤسس على صيغة المضارع، مؤكَّدًا ب(اللام) و(النون)، كما في قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الحجر: 92)، فكما هو واضح، وقع جواب الشرط في قوله (لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ) ([1]).

وبهذا القسم من الدراسة، تمت دراسة دالي (رب، إله) في التركيب الاسمي، ونرجو من (الله) تعالى ألا نكون قد نسينا شيئًا، أو تعجلنا في دراسة عنصر ما. والآن إلى دراسة دال (رب، إله) في التركيب الزمني.

الفصل الثاني: دال (رب -إله) في التركيب الزمني

([1]) انظر في أنواع جواب القسم ، عباس حسن ، النحو الوافي ، الجزء ، الجزء الرابع: 482 – 485 وعلى كل حال تحتاج هذه الآيات الكريمة بما تتضمنه من مواضع بنية القسم تحليلًا مستقلًا ، لكن أعتقد أن ما قدمناه يكفي للتدليل على بلاغة الإتيان بدال (رب) في منطقة القسم ، تاركين – منعًا للإطالة - بقية الصور لتأمل القارئ.وكما قلتُ من قبل: إن دال (إله) لا يرد في منطقة القسم .

لما كان التركيب الزمني يتألف من الفعل والفاعل والمفعول به في حالة الفعل المتعدي وكذلك ما يتعلق بالفعل من جار ومجرور، بُنِيَ هذا الجزء من الدراسة على مناقشة دال (رب، إله) في تلك الرتب النحوية: الفاعل، المفعول به، ما يتعلق بالفعل. على أن تدرس هذه العناصر البِنَى اللغوية المكونة لبنية الخطاب القرآني بكل صورها؛ الواردة عليها في التقعيد النحوي، والخارجة عنها لدواع بلاغية.

المبحث الأول: دال (رب -إله) في موقع الفاعل

يعرف ابن السراج الفاعل بقوله:" الاسم الذي يرتفع بأنه فاعل هو الذي بنيته على الفعل الذي بني للفاعل، ويجعل الفعل حديثًا عنه مقدمًا قبله، كان فاعلًا في الحقيقة أو لم يكن، كقولك: جاء زيد ومات عمرو، وما أشبه ذلك. ومعنى قولي: بنيته على الفعل الذي بني للفاعل، أي ذكرت الفعل قبل الاسم؛ لأنك لو أتيت بالفعل بعد الاسم، لارتفع الاسم بالابتداء " ([1]).

ويعرف ابن عقيل الفاعل بقوله:" هو الاسم المسند إليه فِعْلٌ، على طريقة فَعَلَ، أو شِبْهُهُ ([2])، وحكمه الرفع ([3]) .

وكذلك يعرفه الإمام السيوطي بقوله:"الفاعل ما أسند إليه عامل مفرغ على جهة وقوعه منه أو قيامه به. على وقوعه منه، كضرب زيد.وقيامه به كمات زيد"([4]) .

([1]) انظر: الأصول في النحو ، الجزء الأول: 72 ، 73 .

([2]) المراد بشبه الفعل المذكور: اسم الفاعل ، والصفة المشبهة، والمصدر، واسم الفعل، والظرف ، والجار والمجرور، وأفعل التفضيل .

([3]) انظر: شرح ابن عقيل ، الجزء الثاني: 74 .

([4]) انظر: همع الهوامع ، الجزء الثاني: 253 .

وأخيرًا يقول الدكتور السامرائي عن الفاعل:" الفاعل لغة مَنْ أوجد الفعل، واصطلاحًا ما أسند إليه عامل مقدم عليه على جهة وقوعه منه، أو قيامه به"([1]).

والآن، ندخل إلى عالم التطبيق من خلال دراسة دالي (رب، إله) في منطقة الفاعلية، سواء أكان ذلك بلفظهما، أم بالضمائر التي تعود إليهما، وسواء أكان ذلك – كذلك- في منطقة الفاعلية الظاهرة أم الفاعلية المستترة.

1-دال (رب -إله) اسم في موقع الفاعل الظاهر

في منطقة الفاعل الظاهر يرد دال (رب) بلفظه في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الأعراف: 167) ([2]).

إن الطرح النحوي يقول: (الواو) استئنافية، و(إذ) ظرف منصوب على المفعولية بفعل مقدر معطوف على: (واسألهم)، والتقدير: واذكر وقت أن تأذن ربك، وهو

([1]) انظر: معاني النحو ، الجزء الثاني: 44 .

([2]) وانظر كذلك: سورة (البقرة: 30) ، وسورة (المائدة: 112)، وسورة(الأنعام: 158)، وسورة (الأعراف: 172) ، وسورة (الأنفال: 5 ، 12) ، وسورة (يونس: 99) ، (الحجر: 28) ، وسورة (الكهف: 49) ، وسورة (ص: 71) . وجدير بالذكر أن دال (إله) لا يرد في منطقة الفاعلية ، لا بلفظه ، ولا بضمير يعود إليه .

مضاف. (تأذن) * فعل ماض مبني على الفتح، وأُجْرِيَ مجرى فعل القسم. (رب) فاعل مرفوع، وجملة (تأذن ربك) في محل جر بالإضافة لوقوعها بعد (إذ) ([1]).

وقد ورد التركيب الزمني وفق القاعدة النحوية في مستواها العادي التوصيلي، أي (فعل + فاعل). وكون دال (رب) فاعلًا للفعل (تأذن) من الوضوح بمكان. وإنما تنصبُّ دراستنا هنا على إظهار الأثر الدلالي للفاعل، بوصفه المنتج الأساسي للدلالة الجزئية لكل تركيب داخل الآية الكريمة، والدلالة العامة للآية كلها. فكيف ذلك؟.

إذا تأملنا بنية الخطاب في الآية الكريمة، ألفيناها تتألف من التراكيب الآتية: (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ)، و(لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ)، و(يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ)، و(إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ)، وأخيرًا (وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ).

ومن حيث أطراف التخاطب؛ فثم المخاطِب (الله) سبحانه وتعالى في (وإِذْ) المنصوب بفعل محذوف (اذكر)، والمخاطَب سيدنا النبي ﷺ، البادي في ضمير (الكاف) في (ربك)، والمتحدَّث عنه، هم اليهود في الضمير(هم) في منطقة المجرور(عليهم)، والمفعول به في (يَسُومُهُمْ).

وبالدخول إلى النسيج اللغوي لكل تركيب، يتضح لنا ما طرحناه؛ ففي التركيب الأول (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ) بدا دال (رب) فاعلًا، ثم في التركيب الثاني (لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى

---

* معنى (تأذن): (تَأَلَّى) ، أي حلف وأقسم . وقيل: إن (تأذن) بمعنى (أَعْلَمَ) . الزجاج ، معاني القرآن وإعرابه ، الجزء الثاني: 387 . وقيل: (تأذن) بمعنى (أَذّنَ) ، أي (أَعْلَمَ) . العكبري ، التبيان في إعراب القرآن ، القسم الأول: 601 . وتَأَذَّنَ لَيَفْعَلَنَّ أي أَقْسَمَ . وتَأَذَّنْتُ لَأَفْعَلَنَّ كذا ، وكذا يُرادُ به إيجاب الفعل ، وقد آذَنَ وَتَأَذَّنَ بمعنى ، كما يَقُالُ: أَيْقَنَ وَتَيَقَّنَ . ويُقَالُ: تَأَذَّنَ الأميرُ في النَّاسِ إِذَا نَادَى فيهم ، يكونُ في التهديد والنهي ، أي تَقَدَّمَ وَأَعْلَمَ . ابن منظور: لسان العرب ، مادة (أذن) .

([1]) انظر: محيي الدين الدرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه ، المجلد الثالث: 69 ، وبهجت عبد الواحد صالح، الإعراب المفصل ، المجلد الرابع: 120 ، وكذلك محمود سليمان ياقوت ، إعراب القرآن الكريم ، المجلد الرابع : 1719 .

يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ) بدا كذلك في منطقة الفاعلية للفعل (لَيَبْعَثَنَّ)، المؤكَّد ب(اللام) و(نون) التوكيد الثقيلة ([1])؛ لأن هذا الفعل يعد جواب قسم للفعل (تأذن) ([2]).

فإن قيل: إذا كان ذلك كذلك، فكيف كان دال (رب) فاعلًا للفعل (يسوم) في التركيب الثالث (يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ)، والفاعل هو الضمير المستتر(هو) العائد إلى الموصول (مَنْ)، القابع – بدوره - في منطقة المفعولية للفعل (يبعث) في التركيب الثاني؟ قلتُ: المسألة جد سهلة. لنتأمل هذا المخطط:

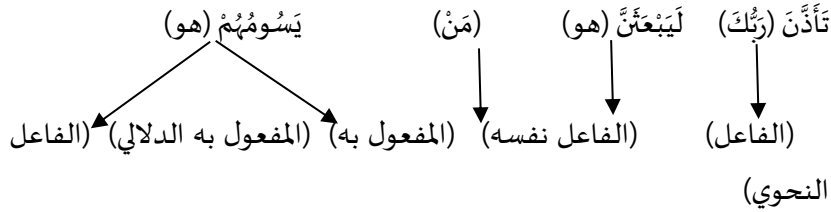

إذا تأملتَ هذا المخطط، وجدتَ أن الفاعل النحوي (هو)، ما هو إلا المفعول به الدلالي الموصول (مَنْ)، وهو بدوره مفعول به للفاعل (رب) في (يبعث)، المتصدر منطقة الفاعلية في بدء الخطاب (تَأَذَّنَ رَبُّكَ). ومعنى هذا أن فاعلية الفاعل النحوي (هو) المتمثلة في سوم / إذاقة المتحدَّث عنه / اليهود سوء العذاب مستمدة من فاعلية الفاعل الأصلي (رب).

وبمعنى آخر، أنه لولا إذن رب العالمين، وبعثه للفاعل النحوي (هو) في (يسوم) / المفعول به الدلالي، ما وُجِدَ هذا الفاعل النحوي من أساسه. ومن هنا فإن المنتِج الأصلي للدلالة، المتحكم في تلابيبها، الممسك بأطرافها هو الفاعل الأول (رب). وما الفاعل النحوي (هو) إلا أداة تنفيذ لإرادة الفاعل (رب).

([1]) انظر في تأكيد جواب القسم ، ابن يعيش ، شرح المفصل، الجزء الخامس:251، وعباس حسن ، النحو الوافي، الجزء ، الجزء الرابع: 482 – 485 .

([2]) انظر في إعراب هذا الفعل: بهجت عبد الواحد صالح ، الإعراب المفصل ، المجلد الرابع: 120 ، ومحمود سليمان ياقوت ، إعراب القرآن الكريم ، المجلد الرابع: 1720 .

والأمر نفسه نجده في التركيب (إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ)؛ إذ شغل الفاعل الأساسي (رب) منطقة الاسمية للناسخ المؤكِّد (إِنَّ)، كما شغل كذلك المنطقة نفسها في التركيب الأخير (وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)، فهو السريع العقاب، وهو هو الغفور الرحيم.

وإجمالًا، فإن دال (رب) هو الفاعل الأصلي ل(الإذن) و(البعث) و(السوم)، وهو الموصوف بسرعة العقاب والمغفرة والرحمة. فهل رأيت الآن كيف هيمن الفاعل (رب) على إنتاج الدلالة في كل تركيب، ثُمَّ على الآية كلها؟!!!.

لكن دعونا نقول: إن في سيطرة دال(رب) على المشهد في إنتاج الدلالة العامة للآية– بعد الدلالة الجزئية لكل تركيب داخلها – لطيفة، من شأنها إخافة المتحدَّث عنه: تتمثل هذه اللطيفة، في أن المتحدَّث عنه، لا يمكن له أن يَفْلِت من عذاب (رب) العزة، إذا أراد أن يعذبه؛ إذ كيف يتسنى له الاستعانة بغيره أو اللجوء إلى سواه بعد كل هذه الهيمنة اللغوية/الدلالية، التي ما هي إلا رمز للهيمنة والسيطرة الواقعية؟

وحتى مع كون الفاعل النحوي (هو) في (يَسُومُهُمْ) بشرًا، أي من جنس المتحدَّث عنه لا يمكن للمتحدَّث عنه أن يواجهه، أو يرد عذابه، مهما أوتي من قوى وحيل – نابعة من داخلة أو مستمدة من خارجه - في أي زمان و مكان، لسبب بسيط جدًا، وهو أن هذا الفاعل البشري ما هو إلا أداة تنفيذ لأمر الفاعل الدلالي (رب) الذي أَذِنَ وبَعَثَ فأنَّى للبشر مواجة (رب) البشر؟!!!.

وتكاد تكون التفاسير المتعددة كلها مجمعة حول الدلالة العامة للآية الكريمة، وإذا كان ثمة اختلاف بينها، فيكون هذا في بعض الدوال، من قبيل ذلك (تأذن)، فبالإضافة إلى ما طُرِحَ من مدلولات لهذا الدال، قيل في معناه: (قال) و(أمر) ([1])،

([1]) انظر: أبي عبيد ، مجاز القرآن ، الجزء الأول: 231 ، والطبري ، جامع البيان ، دار هجر ، الجزء العاشر: 530 . وأما في طبعة دار الرسالة ، فبمعنى (أَعْلَمَ) . انظر: المجلد الثالث: 516 ، والبغوي ، معالم التنزيل: 497 ، وابن عطية ، المحرر الوجيز: 756

ونادى[1] و(عزم) [2]، وقيل (حتم ووعد وأخبر) [3]. وقيل: (جزم وقضى) [4] وفي معنى (يَبْعَثَنَّ): (يُسَلِّطَنَّ) و(يُرْسِلَنَّ)[5]. وفي فاعل (يَسُومُهُمْ) قيل: هم (العرب) وأمة محمد ﷺ [6]، وقيل: (بُخْتَنَصَّر) [7]، وفي سوء العذاب قيل: الذلة وأخذ

---

[1] انظر: الماوردي ، النكت والعيون ، الجزء الثاني: 273 . وعندما قال الماوردي بمعنى (نادى) قال بمعنى (أقسم) ثم قال: قاله الزجاج ، والزجاج لم يقل ب(نادى) إنما قال ب(أقسم) ، والرازي ، مفاتيح الغيب ، المجلد الخامس عشر: 44 ، والقرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، الجزء التاسع: 369 .

[2] انظر: الزمخشري ، الكشاف ، الجزء الثاني: 167، وشيخ زاده ، الحاشية على تفسير البيضاوي ، الجزء الرابع:320.

[3] انظر: أبي حيان الأندلسي ، البحر المحيط ، الجزء الرابع: 412 . وأبي السعود ، إرشاد العقل السليم ، الجزء الثالث: 287 . مع إضافة (عَزَمَ) ، والعلامة ابن عاشور ، التحرير والتنوير ، الجزء التاسع: 155 .

[4] انظر: الألوسي ، روح المعاني ، الجزء التاسع: 94 .

[5] انظر: الزمخشري ، الكشاف ، الجزء الثاني: 167. وشيخ زاده ، الحاشية على تفسير البيضاوي الجز ءالرابع: 320 ، وأبي حيان الأندلسي ، البحر المحيط ، الجزء الرابع: 412 . وأبي السعود ، إرشاد العقل السليم ، الجزء الثالث: 287. والألوسي، روح المعاني، الجزء التاسع: 94، وابن عاشور، التحرير والتنوير ، الجزء التاسع: 155 .

[6] انظر: الطبري ، جامع البيان ، طبعة دار هجر ، الجزء العاشر: 530 . وأيضًا: طبعة مؤسسة الرسالة: المجلد الثالث: 516 ، والماوردي، النكت والعيون، الجزء الثاني: 273 ، والبغوي، معالم التنزيل: 497، والزمخشري، الكشاف ، الجزء الثاني: 167 ، وابن عطية ، المحرر الوجيز: 756، والقرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، الجزء التاسع: 369 . وشيخ زاده ، الحاشية على تفسير البيضاوي، ج4: 320، وأبي حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج4 الرابع:412 .وأبي السعود، إرشاد العقل السليم، الجزء الثالث: 287. والألوسي، روح المعاني، الجزء التاسع: 94 .

[7] انظر: القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، الجزء التاسع: 369 . وشيخ زاده، الحاشية على تفسير البيضاوي ، الجزء الرابع: 320 ، وأبي حيان الأندلسي ، البحر المحيط، الجزء الرابع: 412 . وأضاف أبو حيان (المجوس) ، وأبي السعود ، إرشاد العقل السليم ، الجزء الثالث: 287 .

الجزية ([1])، أو العذاب بمعناه الواسع المتعدد لكل الألوان؛ لمخالفة هؤلاء سيدنا موسى عليه السلام فيما جاء به من شريعة ([2]).

لعلني أطلتُ – وليعذرني القارئ الكريم في هذا - في عرض الأوجه التي تعددت فيها الدلالة للدال الواحد، بهدف مناقشة نقطة، أجدها من أهم النقاط في الحديث عن التراث والمعاصرة. وتتمثل هذه النقطة في أثر التراث بكل فروعه المعرفية المتعددة في مناهج النقد الأدبي الحديث.

ألم تتفق معي أيها القارئ الكريم، أن ما قدمه علماؤنا المفسرون من تعدد أوجه الدلالة للدال الواحد، هو ما تَغَنَّى به المنهج السيميولوجي، ورقص له – ولغيره من المناهج الحداثية – كثير مـن النقاد العرب إلا من رحم ربي، مثل الدكتور محمد عبد المطلب، الذي أظهر بجلاء أثر التراث النقدي في المناهج الحديثة من خلال ما قدمه في كتابه (قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني) [*] ؟

والألوسي ، روح المعاني ، الجـزء التاسـع: 94 ، وابن عاشور ، التحرير والتنوير ، الجزء التاسع: 155 .

([1]) انظر: معاني القرآن ، الجزء الأول: 398 ، والطبري ، جامع البيان ، ار هجر ، الجزء العاشر: 530 - 532 ، وطبعة مؤسسة الرسالة ، المجلد الثالث: 516 ، والماوردي، النكت والعيون ، الجزء الثاني: 273، والبغوي، معالم التنزيل: 497 . ولكن البغوي قال ب(الجزية) فحسب ، وابن عطية ، المحرر الوجيز: 756 ، والرازي ، مفاتيح الغيب ، المجلد الخامس عشر: 45 ، القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، الجزء التاسع: 370 . ومحيي الدين شيخ زاده ، الحاشية على تفسير البيضاوي ، الجزء الرابع: 320 ، وأبي حيان الأندلسي ، البحر المحيط ، الجزء الرابع: 412 . وأبي السعود ، إرشاد العقل السليم ، الجزء الثالث: 287 .

([2]) انظر: ابن عاشور ، التحرير والتنوير ، الجزء التاسع: 155 .

[*] للتأكد من ذلك ، يحسـن الرجوع إلى:فرديناند دي سـوسـور: علم اللغة العام ، وأوغدن ورتشـاردز: معنى المعنى ، وجيرار دولوا دال: السـيميائيات " نظرية العلامات " ، ورولان بارت: درس السيميولوجيا . ومن المراجع العربية ، سيزا قاسم ونصر حامد أبو زيد: مدخل إلى السميوطيقا .

وهل يمكن لنا أن نقول: إن اختلاف المفسرين في دلالة الدال المفرد، الذي من شأنه أن يؤدي إلى تعدد التأويلات حسب كل دلالة، هو ما ورد في نظرية التلقي من أفق توقعات القارئ، التي لا تعني إلا ثقافة القارئ المتلقي، وتمكنه من جماليات النص الذي يقوم بتحليله؟ أعتقد نعم.

أو أن نقول: إن هذا الطرح المتعدد والمتنوع من قبل المفسرين واللغويين على حد سواء، يدور في إطار ملء فراغات النص، وهو المبدأ الذي تميز به القارئ المتلقي في نظرية التلقي؟ نعم هو هذا [*].

وأخيرًا، شغل دال (رب) منطقة الفاعلية في أكثر من تركيب – كما قدمنا – في الآية الكريمة، دون اسم الجلالة (الله)، أو دال (إله)؛ لأننا – كما قلنا في أكثر من موضع في هذه الدراسة – أن دال (رب) كان هو المسيطر على البيئة الثقافية في عهد سيدنا موسى عليه السلام من ناحية، ولتذكير هؤلاء بنعم الربوبية التي لم تحظ بها أمة كما حظيت بها اليهود من ناحية أخرى. هذه النعم الماثلة في قوله سبحانه وتعالى قبل هذا الموضع: ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ

ولم نحدد صفحات معينة ؛ لأن الحديث عن العلامة اللغوية مبثوث في ثنايا تلك المصادر والمراجع .

[*] أحيل القارئ الكريم إلى المراجع الآتية في نظرية التلقي: روبرت هولب: نظرية التلقي ، تيري إيجلتون: مقدمة في نظرية الأدب ، رامان سلدن: النظرية الادبية المعاصرة . نيوتن: نظرية الأدب في القرن العشرين . ومن المراجع العربية: حامد أبو أحمد: الخطاب والقارئ . وانظر في كل هذا: كتابنا مناهج النقد الأدبي المعاصر . تنظيرًا وتطبيقًا: 149 – 158. وعلى كل حال ، هذا الدرس مهم للغاية، يحتاج إلى دراسة مستقلة، لا يقتصر في التراث على حقل التفسير فحسب ، بل يتناول كل العلوم المعرفية في تراثنا العربي ، من نقد وبلاغة ، وتفسير ، وكذلك الدراسات التي أقيمت حول الحديث الشريف ...إلخ . نسأل الله العظيم أن يوفقنا إلى القيام بهذه المهمة الشاقة والشيقة في الآن ذاته ؛ فهو ولي ذلك والقادر عليه .

طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ (الأعراف: 160، 161).

أما إضافة دال (رب) إلى (كاف) الخطاب العائد إلى سيدنا النبي ﷺ، فمن ناحية يعد تشريفًا لسيدنا النبي ﷺ، وتلطفًا به وتسرية لنفسه من ناحية أخرى، في أن (ربه) الذي رعاه وحفظه ورباه على الصبر وتحمل سخافة هؤلاء وغيرهم، لم يكن ليتركه، بل سينصره عليهم. أي أن الإتيان بدال (رب) كان من البلاغة بمكان في إيضاح السياق الثقافي للبيئتين: في عهد سيدنا موسى عليه السلام؛ إذ الآية قائمة على (اذكر) المقدر المحذوف، وإبان نزول القرآن على قلب سيدنا النبي ﷺ في بيئة العرب.

أما خاتمة الآية الكريمة فلم تُبْنَ على اسم واحد من أسماء الله الحسنى، أو حتى اسمين، كما هو معهود في خواتم الآيات القرآنية، وإنما بُنِيَتْ على تركيبين: اعتمد الأول منهما على بنية الفصل: (إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ)، واعتمد الآخر على بنية العطف: (وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)؛ ليناسب الأول (سَرِيعُ الْعِقَابِ) ما ورد في مضمون الآية من سوء العذاب للكفار من هؤلاء، ويفتح الآخر (غَفُورٌ رَحِيمٌ) باب المغفرة والرحمة أمام من يتوب منهم، ويرعوي، ويعود إلى رشده، ويتمسكم بشريعته.

وكما نرى، اعتمد التركيبان على وسائل التأكيد من حيث تصدرهما بالناسخ المؤكِّد (إنَّ)، و(اللام) الواقعه في جوابه، التي تسمى ب(اللام) المزحلقة، التي تزيد من معني التأكيد كذلك. وكل هذا يصب في تأكيد شدة العقاب، والمغفرة والرحمة.

وأحيانًا يرد دال (رب) في منطقة الفاعل الظاهر متحولًا عن الإضافة في اللغة ذات الوظيفة النفعية. ولنقرأ قول ربنا جل في علاه: ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (الأنعام: 80) ([1]).

2- دال (رب - إله) ضمير في موقع الفاعل الظاهر

بمراجعة الآيات القرآنية الكريمة للذكر الحكيم، يُدرك أن دال (رب) قد ورد في منطقة الفاعلية بالضمائر المتنوعة التي تعود إليه سبحانه وتعالى. وحسب ترتيب الضمائر في النحو التقعيدي، فقد ورد دال (رب) في صورة ضمير المتكلم المفرد (تُ) في قوله تعالى: ﴿وَمَا **خَلَقْتُ** الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات:56) ([2]).

إن تأمل هذه الآية الكريمة، يطعلنا على أنها لب الألباب، وركيزة الركائز في الشرائع الإلهية، والأديان السماوية التي شرف (الله) به الأرض من خلال اصطفائه لخير خلقه من الأنبياء والرسل. ولك أن تراجع آيات الذكر الحكيم في الحوار الذي دار بين كل نبي وأمته، وقد أجمل القرآن الكريم هذه الدعوة المباركة في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (النحل: 36) ([3]).

وإذا عدنا إلى السياق التي وردت فيه الآية الكريمة، ألفيناها وردت في سورة الذاريات التي بدأت بالقسم ببعض مخلوقات (الله) التي تظهر قدرته: الرياح، والسحاب، والفلك، والملائكة ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا * فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا * فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا

([1]) واقرأ كذلك قوله تعالى: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (الأعراف: 89) . وأصل التركيب في اللغة العادية (وسع علم ربي كل شيء) . وقد أوسعنا ذلك تحليلًا في موضع (طه: 98) . انظر: الكتاب الأول: 411 - 417 .

([2]) وانظر كذلك: سورة (مريم: 9) ، وسورة (ص: 75) ، وسورة (المدثر: 11) .

([3]) وانظر كذلك: سورة (المائدة:117) ، وسورة (المؤمنون: 32) ، وسورة (النمل: 45) ، وأخيرًا سورة (نوح: 3) .

* فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ (الذاريات:1- 4). ثم يرد جواب القسم مؤسسًا على (إنما) و(اللام):﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ (الذاريات: 5)، ثم ترد منطقة العطف بقوله: ﴿ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾(الذاريات: 6)، أي أن الحساب والثواب والعقاب لواجب لا محالة.

ويُعَدُّ هذا المدخل تمهيدًا مخيفًا ومفزعًا لكل من ينأى عن عبادة (الحق) جل في علاه لذا كان تناول الطائفة المارقة من البلاغة بمكان لمناسبة هذا المدخل: ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ * يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ * يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ * ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ (الذاريات: 10– 14).

ثم ترد الطائفة الْمُؤْمِنَةُ، الْمُؤَمَّنَةُ من الفزع: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ* آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ*كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ*وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ (الذاريات: 15 – 19).

ثم يتناول السياق أحداث قصة سيدنا إبراهيم، وسيدنا موسى، وسيدنا نوح؛ وكل هذا بهدف رصد أحوال تلك الأمم مع أنبيائهم، وكفرهم ب(الله) عز وجل، وما آل إليه مصيرهم، حتى إذا وصل السياق إلى قريش خاطب (الله) سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بقوله تبارك وتعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ﴾(الذاريات: 54)، لافتًا انتباهه إلى التذكرة التي لا تنفع إلا المؤمنين، ليرد قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الذاريات 55) ماكنًا في مكانه.

وبعد موضع الشاهد، يعرج السياق على موضوع الرزق ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ (الذاريات: 57، 58) ، ويختتم بالحديث عن الفئة الكافرة مرة أخرى ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ * فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ (الذاريات: 59، 60).

إن التأمل الدقيق، يطلعنا على أن هذه الآية الكريمة تعد بؤرة دلالية تتجمع حولها كل المضامين التي وردت في ثنايا السورة الكريمة. ويمكن توضيح ذلك في هذا الشكل:

هذا عن السياق الذي وردت فيه الآية الكريمة، وعن موقعها وأهمية هذا الموقع بالنسبة للمضامين التي وردت في هـذا السيـاق. وكيـف كـانت بدء على عود، وعود على بدء.

وأما البنية اللغوية للخطاب في هذه الآية الكريمة، فتتجلى في عناصر ثلاثة: انبناؤها على بنية القصر ب(ما) و(إلا)، وعود الضمير (تُ) إلى دال (رب)، وحيثية الإتيان بضمير المفرد المتكلم.

أما العنصر الأول – انبناء بنية الخطاب على القصر- فإن قيل: لماذا كان القصر، ولم تكن البنية (خلقتُ الجن والإنس ليعبدون)؟ قلتُ: البنية هنا قائمة على الأسلوب الخبري، والأسلوب الخبري يرتبط بحال المخاطَب / المتلقي؛ فإن كان المتلقي خاليَ الذهن، غير عارف بالخبر، وإذا عرفه لا ينكره، لم تضم بنية الخطاب أي أداة من أدوات التوكيد. والخطاب هنا لقريش ومَنْ سيأتي بعدها ممن لايعبدون (الله) إلى يوم القيامة. هذا أمر.

الأمر **الآخر**: أن الآية لو اعتمدت على الأسلوب الخبري (خلقتُ الجن والإنس ليعبدون)، يحتمل أن يكون الهدف من الخلق العبادة وغيرها؛ إذ ليس هناك ما يشير إلى اقتصار هدف الخلق على العبادة دون غيرها، وإن كانت العبادة من الأولويات.

ووفق هذا، يمكن أن يُخاطَب المؤمن بهذا الخطاب الإخباري على سبيل التذكرة؛ وذلك لانتفاء هذين السببين: فالمؤمن عندما يتلقى الخبر – وإن كان على سبيل النصيحة مثلا – لا ينكره، كما أنه يفهم أن كل حركات الإنسان وسكناته داخلة في إطار العبادة.

ولما كان المخاطَب/ المتلقي هم أمة كافرة تعبد الأصنام، اِحْتِيجَ أن تضم بنية الخطاب أدوات توكيد؛ لأن المخاطَب يُنكر – وإن كان خالي الذهن – الخبر أو يشك فيه.

فإن قيل: ألم يكن تصدر الجملة بأداة توكيد –أو حتى أكثر من أداة- يؤدي المعنى، كأن يكون التركيب مثلًا (لقد خلقتُ الجن والإنس ليعبدون)، أو (إني خلقتُ الجن والإنس ليعبدون)؟ قلتُ: إن تصدر البنية بأي أداة تأكيد لا يمكن له أن يؤدي الدلالة المنشودة من بنية التركيب التي وردت عليه. فإن قيل: لماذا؟ قلتُ: لانفتاح الدلالة فتشمل العبادة وغيرها، وليس هذا هو الهدف، وإنما الهدف هو اقتصار الخلق على العبادة، ليس إلا؛ لذا كانت بنية القصر.

فإن قيل: إذا كنا قد سلمنا بانبناء بنية الخطاب على أسلوب القصر، فهلَّا كان ذلك ب(إنما)، وتكون البنية هكذا: (إنما خلقتُ الجن والإنس ليعبدون)؟ قلتُ: لا. أو بمعنى آخر، ما الفرق بين القصر ب(إنما)، وب(ما) و(إلا)؟ هنا يتدخل شيخ البلاغة الأول بلا منازع.

في بلاغة القصر ب(إنما) يقول الشيخ عبد القاهر الجرجاني: " اعلم أن موضوع (إنما) على أن تجيء لخبر لا يجهله المخاطَب ولا يدفع صحته، أو لِمَا يُنَزَّلُ هذه المنزلة. تفسير ذلك أنك تقول للرجل: (إنما هو أخوك)، و(إنما هو صاحبك القديم): لا

تقوله لمن يجهل ذلك ويدفع صحته، ولكن لمن يعلمُه ويُقِرُّ بِهِ، إلا أنك تريد أنْ تُنَبِّهَهُ للذي يجب عليه من حق الأخ وحرمة الصاحب "([1]).

وفي بلاغة القصر بالنفي والاستثناء يقول:" وأما الخبر بالنفي والإثبات نحو: (ما هذا إلا كذا)، و(إن هذا إلا كذا)، فيكون للأمر ينكره المخاطَبُ ويشك فيه. فإن قلتَ: (ما هو إلا مصيب) أو: (ما هو إلا مخطئ)، قلتَه لمن يدفع أن يكون الأمر على ما قلتَ، وإذا رأيتَ شخصًا من بعيد فقلتَ: (ما هو إلا زيد)، لم تقله إلا وصاحبك يتوهم أنه ليس بزيد، وإنه إنسان آخر، ويَجِدُّ في الإنكار أن يكون (زيدًا) "([2]).

ولما كان المخاطَب من الضرب الآخر في الآية الكريمة، إذ هم كفار قريش، لقوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ (الذاريات: 54) *. اعتمدت بنية الخطاب على القصر ب(ما) و(إلا)؛ لإنكار المخاطب عبادة (الله) سبحانه وتعالى، أو حتى الشك في دعوة النبي ﷺ؛ إذ رموه بالسحر والجنون في قوله تعالى:﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ (الذاريات: 52).

فإن قلتَ: لقد قلتَ في غير موضع: إن الناس مفطورون على الإيمان بنعم الربوبية، وأن الرب هو المنعم، وإن من كفار قريش من كان يدرك الحقيقة مثل أبي جهل، وإن اليهود والنصارى كانوا يعرفون النبي ﷺ كما يعرفون أبناءهم، مما يعني إدراكهم للحقيقة، فكيف يُنَزِّلُون منزلة المنكر؟ قلتُ: من آمن ب(الرب) بوصفه المنعم قبل الإسلام لم يعبدوه ويوحدوه ويفردوه بالألوهية. وأما أبو جهل ومن على شاكلته فق أنكروا الحقيقة بلسانهم كبرًا وظلمًا وعلوًا، وأهل الكتاب أنكروا

([1]) انظر: دلائل الإعجاز: 330 .

([2]) انظر: دلائل الإعجاز : 332 .

* ومن شدة كفر المخاطَب ، أن سيدنا علي بن أبي طالب قال: لما نزلت: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ ، لم يبق منا أحد إلا أيقن بالهلكة إذ أُمِرَ النبي ﷺ أن يتول عنا ، فنزلت: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الذاريات: 55) ، فطابت أنفسنا . انظر: السيوطي ، أسباب النزول: 245 .

الحقيقة؛ لتمنيهم أن يكون النبي ﷺ من بين ظهرانيهم. ومن هنا نُزِّلُوا جميعًا منزلة المنكر.

وفي الخبر الذي هو معلوم، وجاء بالنفي والاستثناء يقول عبد القاهر: " وجملة الأمر أنك متى رأيت شيئًا هو من المعلوم الذي لا يُشَكُّ فيه قد جاء بالنفي، فذلك لتقدير معنى صار به في حكم المشكوك فيه. وضرب لذلك مثالًا بقول (الله) سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ * إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ (فاطر: 22، 23) " ([1]).

وهذا يعني، أنه حتى لو كان ثَمَّ فصيل من المخاطَب يعلم الحقيقة علم اليقين، وأنكرها برغبته، نُزِّلَ منزل المنكر بقلبه. ومن هنا وُضِعَ كل هؤلاء في سلة واحدة. لا فرق بين المنكر بقلبه والمنكر بلسانه؛ فالكل خارج عن نطاق عبادة (الله) سبحانه.

أما العنصر **الثاني**، فإن قيل: لماذا قلتَ بعود ضمير المتكلم (التاء) إلى دال (رب) وليس اسم الجلالة (الله) أو دال (إله)؟ قلتُ – والله بالحقيقة عليم -: لكثرة دوران الربوبية عند بدء الخليقة، يقول (الله) جل شأنه: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: 30)، ويقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ (الحجر: 28)، ويقول (الله) سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ (مريم: 9). هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى، أن الإنسان لا يُكَلَّفُ في بدء خلقه، سواء أكان سيدنا آدم عليه السلام، أم الطفل، حتى يبلغ، وإنما يأتي التكليف بالعبادة في مرحلة تالية. ومن هنا فإن عملية الخلق تتم في إطار نعم الربوبية، التي تعني التربية والتنشئة والرعاية. ومن ثم، فإذا جاءت عملية الخلق في إطار مفهوم الألوهية، فيكون هذا لتأويل دقيق. والله أعلى وأعلم.

([1]) انظر: دلائل الإعجاز: 333 ، 334 . و لعدم الإطالة ، انظر شرح المثال هناك .

وفي العنصر **الأخير**، إن قلتَ: لِمَ جاء بضمير المتكلم المفرد (تُ)؟ قلتُ: الضمير(تُ) هو الصورة المتصلة للضمير المنفصل (أنا). والاثنان يأتيان للتفرد والوحدانية.

أما نظرة التفسير إلى الآية الكريمة، فيهمنا منها أمـران: **الأول** لغـوي، و**الآخر** تأويلي أما الأمر اللغوي، فيقول ابن عاشور في عملية بنية القصر: " فالحصر المستفاد من قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ قصر علة خلق الله الإنسَ والجنَّ على إرادته أن يعبدوه، والظاهر أنه قصر إضافي، وأنه من قبيل قصر الموصوف على الصفة، وأنه قصر قلب باعتبار مفعول (يعبدون)، أي ليعبدوني وحدي، أي لا ليشركوا غيري في العبادة، فهو رد للإشراك، وليس هو قصرًا حقيقيًا، فإنَّا وإنْ لم نطلع على مقادير حكم الله تعالى من خلق الخلائق، لكنَّا نعلم أن الحكمة مـن خلقهم ليست مجرد أن يعبدوه؛ لأن حـكم الله تعـالى مـن أفعاله كثيرة لا نحيط بها "([1]).

وفيما يخص الجانب التأويلي، فبمراجعة جل التفاسير يلحظ أنها قد انحصرت فيما ذكره الإمام الطبري في الآية الكريمة، حيث قال:" اختلف أهل التأويل في تأويل قوله(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ) فقال بعضهم: معنى ذلك: وما خلقت السُّعداء من الجنّ والإنس إلا لعبادتي، والأشقياء منهم إلا لمعصيتي. وقال آخرون: بل معنى ذلك: وما خلقت الجنّ والإنس إلا ليذعنوا لي بالعبودية، ويعترفوا بها.

وأولى القولين في ذلك بالصواب القول الذي ذكرنا عن ابن عباس، وهو: ما خلقت الجنّ والإنس إلا لعبادتنا، والتذلل لأمرنا.

فإن قال قائل: فكيف كفروا، وقد خلقهم للتذلل لأمره؟ قيل: لإنهم قد تذللوا لقضائه الذي قضاه عليهم؛ لأن قضاءه جار عليهم، لا يقدرون من الامتناع منه إذا

([1]) انظر: التحرير والتنوير ، الجزء السابع والعشرين: 26 ، 27 .

نزل بهم، وإنما خالفه من كفر به في العمل بما أمره به، فأما التذلل لقضائه فإنه غير ممتنع منه " ([1]).

وقبل الإمام الطبري، ذهب الفراء إلى هذا الطرح، حيث قال: " وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ إلا ليوحدوني، وفي هذه خاصة يقول: وما خلقت أهل السعادة من الفريقين إلا ليوحدوني. وقال بعضهم: خلقهم ليفعلوا ففعل بعضهم وترك بعضٌ، وليس فيه لأهل القدر حجة، وقد فُسِّرَ "([2]).

وقد ذهب المفسرون مذاهب شتى في مسألة العموم والخصوص، وهل الحكمة من الخق هنا تتمثل في العبادة وحدها، أم في غيرها، وذكر الجن، وتقدمه على الإنس، ومسألة انقسام المخلوقين إلى سعداء التزموا بالعابدة، وأشقياء امتنعوا عنها...إلخ.

وما أراه، أن الآية عامة، فقد خلق (الله) سبحانه وتعالى الخلق:كل الخلق لعبادته؛ إضافة إلى الأسباب الأخرى من الخلق: كإظهار القدرة، والتفرد بالوحدانية...إلخ.

ولما اختلفت ماهية المخلوقين من حيث التكليف، انصرف بعضهم إلى العبادة، دون وضعهم في مسألة الاختيار، وهم كل مَنْ هو غير الجن والإنس؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (الأحزاب: 72).

أما التكليف فقد وقع على الجن والإنس. وعند وقوعه عليهم، أُرْفِقَ بالاختيار، وهو المفهوم من قوله سبحانه وتعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: 256).

لكن عندما نقول: إن (الله) خلق هؤلاء لكذا وهؤلاء لكذا مسبقًا، فنحن نضع بهذا – خلافًا للفراء – مندوحة لخرافات القدرية. لكن الأولى بالأسلوب أن نقول: إن

([1]) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، المجلد السابع : 124 ، 125 .

([2]) انظر: معاني القرآن ، الجزء الثالث: 89 .

الله خلق الخلق لعبادته، فمن التزم من المكلف منهم بالعبادة سَعِدَ في الدراين، ومن انحرف شقى في الدارين. هذا ما أؤمن به.

وفي ضمير المتكلم الجمع يرد قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ **أَنْزَلْنَا** إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ (النساء: 174).

وأخيرًا يتجلى مولانا عز وجل في ضمير المخاطب المفرد (تَ) في موقع الفاعلية في قوله سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا **خَلَقْتَ** هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (آل عمران: 191) * .

وأحيانًا يتولد الفاعل الضمير الظاهر في البنية التركيبية في اللغة الإبداعية من منطقة الإضافة في اللغة ذات الوظيفة النفعية. وذلك مثل قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ (غافر: 7).

3-دال (رب - إله) في موقع الفاعل المستتر

في آيات الذكر الحكيم تنوعت الضمائر التي تعود إلى دال (رب) * في منطقة الفاعل المستتر. وأول تلك الضمائر ضمير المتكلم المفرد (أنا)، وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَ عَذَابِي **أُصِيبُ** بِهِ مَنْ **أَشَاءُ** وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ **فَسَأَكْتُبُهَا** لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف: 156).

وفي ضمير الجمع (نحن)، يرد الزمن (نشاء) في قول (الله)تعالى:﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ **نَشَاءُ** إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾(الأنعام:83) ([1]).

---

* منعًا للإطالة ، ودرءًا للملل ، نترك بنية الخطاب المعتمدة في منطقة الفاعل على هذين الضميرين لتأمل القارئ المتلقي الكريم ، وليعذرنا قارئنا المحترم لتكرار هذه العبارة .

* جدير بالذكر أنه لا يوجد في منطقة الفاعل المستتر ضمائر تعود على دال (إله) .

([1]) وانظر في الزمن نفسه:سورة (يوسف: 56 ، 76 ، 110) ، وسورة (الأنبياء: 9) ، وسورة (الشورى: 52) ، وغيرها من المواضع الأخرى . وثم الزمن (ننزل) ، (نريد) ...إلخ .

وفي ضمير المخاطَب (أنتَ) يرد قوله تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ **أَتُهْلِكُنَا** بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ **تُضِلُّ** بِهَا مَنْ **تَشَاءُ وَتَهْدِي** مَنْ **تَشَاءُ** أَنْتَ وَلِيُّنَا **فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا** وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ (الأعراف: 155) ([1]).

وأخيرًا، يرد الضمير (هو) في منطقة الفاعل المستتر في قول (الله) سبحانه وتعالى: ﴿**يُرْسِلِ** السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ **وَيَجْعَلْ** لَكُمْ جَنَّاتٍ **وَيَجْعَلْ** لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ (نوح: 11، 12) ([2]).

وإذا تأملتَ الفاعل في الأمثلة كلها وجدتَه موجودًا، لكنه مستتر، وليس محذوفًا؛ لأنه أساسي في أداء المعنى داخل الجملة. أما الفاعل في الفعل المبني للمجهول، فيجب حذفه ([3]).

واستتار الفاعل وعدم ظهوره في الكلام، مع التسليم بفاعليته في أداء الدلالة داخل الجملة يعد نوعًا من الإيجاز، وفقًا لنواميس اللغة العربية التي نزل عليها القرآن الكريم

ولابد لهذا الاستتار من قرينتين: دلالية، متمثلة في سبق الاسم معاد الضمير. ولغوية، يعرف من خلالها نوع الضمير المستتر، ما إذا كان متكلمًا أو مخاطِبًا أو غائبًا. وهذه القرينة تعرف من صيغة الفعل ذاته.

وإذا أخذنا ضمير المخاطَب المستتر (أَنْتَ) نموذجًا لهذا الطرح، في قوله تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ **أَتُهْلِكُنَا** بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ **تُضِلُّ** بِهَا مَنْ

([1]) وانظر كذلك : سورة (نوح: 26) .

([2]) وانظر كذلك : سورة (يونس: 3) . وعلى كل حال ، هذه المنطقة من الغنى بمكان في مجيء الضمائر المتنوعة العائدة إلى اسم الجلالة (الله) سبحانه وتعالى ، وكذلك دال (رب) ، وإنما نسوق هذه النماذج لمجرد الاستشهاد .

([3]) انظر في الفرق بين النوعين: عباس حسن ، النحو الوافي ، الجزء الثاني: 69 ، 70 .

تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ (الأعراف: 155). وجدنا القرينتين.

وقد تمثلت القرينة الأولى في سبق دال (رب) بلفظه في خطاب سيدنا موسى عليه السلام:(قَالَ رَبِّ)، وليس ذلك فحسب، بل وفي منطقة الفاعلية القائمة على ضمير (تَ)في الأزمنة الماضية(شِئْتَ، أَهْلَكْتَهُمْ)، مما سوَّغَ مجيئه مستترًا في الأزمة المضارعة (أَتُهْلِكُنَا، تُضِلُّ، تَشَاءُ، تَهْدِي، تَشَاءُ)، وكذلك أزمنة الرجاء والدعاء (فَاغْفِرْ، ارْحَمْنَا).

أما القرينة اللغوية، فتتمثل في بدء صيغة المضارع بحرف (التاء)، كما ورد في الأفعال الخمسة السابقة. وأما أفعال الطلب، فلكونها لابد أن ترد في إطار التخاطب، تدل صيغتها مباشرة على أن الضمير المستتر هو ضمير المخاطَب (أَنْتَ)*.

والآن نعود إلى عملية التحليل، وليكن موضع التخاطب الذي اتخذناه نموذجًا في الطرح الأخير. قلنا من قبل: إن فاعلية الفاعل لا تقتصر على التركيب التي ترد فيه، بل يمتد تأثير تلك الفاعلية لينسحب على تراكيب الآية كلها، وهذا من قبيل الإعجاز اللغوي في الذكر الحكيم.

وبالتأمل في الآية الكريمة، يُدْرَكُ أَنَّ ثم فواعل خمسة أسهمت في إنتاج الدلالة العامة للآية الكريمة: أربعة منها ظاهرة، وواحد مخفي. من الأربعة الظاهرة: ثلاثة فرعية، وواحد أساسي. ويمكن وضع ذلك في الشكل الآتي:

الفاعل الأول (اخْتَارَ ← مُوسَى)

الفاعل الثاني (أَخَذَتْهُمُ ← الرَّجْفَةُ)

الفاعل الثالث (فَعَلَ ← السُّفَهَاءُ)

---

* بطبيعة الحال ، يرد كل هذا في إطار المفرد ، أما الخطاب في إطار المثنى والجمع فيختلف ؛ إذ يظهر الفاعل ولا يُسْتَتَر. ويكون في تلك الحال (ألف الاثنين) في المثنى و(واو) الجماعة في الجمع ، سواء أكانت صيغة الزمن في الماضي ، أم الحال ، أم الاستقبال (الأمر) . فاعرفه .

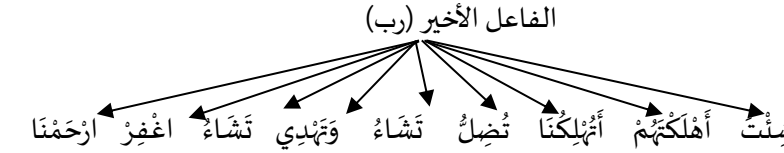

وإذا حاولنا فهم فاعلية كل فاعل ومدى تأثيره في إنتاج الدلالة، وعلاقة كل فاعل من الفواعل الثلاثة الأولى بالفاعل الأخير، وجدنا الآتي:

أن الفاعل الأول (سيدنا موسى عليه السلام) ورد في تركيب يُعَدُّ تمهيدًا للحدث الأكبر(الميقات)؛ لأن دوره قد اقتصر على اختيار سبعين رجلًا من قومه، وهو الحدث الأصغر. وفي هذه البنية ظهرت فاعلية الفاعل الأول ومهارته في انتقاء هؤلاء السبعين.

أما علاقته بالفاعل الأساسي (رب) فيعد أحد نواتج تأثيره؛ لأن الفاعل الأساسي (رب) هو الذي أرسل الفاعل الفرعي (سيدنا موسى عليه السلام): ﴿ وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ (الذاريات: 38). بعد أن اصطفاه نبيًا.

أما الفاعل الثاني (الرجفة)، فهو من التعقيد بمكان؛ لصلته بالفاعل الثالث (السفهاء) من ناحية، والفاعل الأساسي (رب) من ناحية أخرى. أما صلته بالفاعل الثالث (السفهاء)، فإنه يعد نتيجة لتأثيره؛ إذ فِعْلُ (السفهاء) من القوم هو الذي ولَّدَ الفاعل الثاني (الرجفة) وتسبب فيه.

لكن هناك أمر دقيق يجب الالتفات إليه، هو أنه رغم سببية الفاعل الثالث (السفهاء) في توليد الفاعل الثاني (الرجفة)، فإن صدور الفاعل الثاني (الرجفة) كان من الفاعل الأساسي (رب)؛ لأن الرجفة لم تُرْسِلْ نَفْسَها، رغم وجود سببها المتمثل في سفه بعض القوم.

أما الفاعل الثالث (السفهاء)، فهو نفسه يعد أثرًا لفاعلية الفاعل الرابع (الخفي) المُبَطَّن، الذي لا يطفو على السطح، يتمثل هذا الفاعل الخفي في كل ما أدى إلى اتصاف هؤلاء بالسفه، سواء أكان هذا متمثلًا في شياطين الإنس، أم شياطين الجن، أم الكبر والتعالى والجحود والنكران...إلخ.

ولما كان الفاعل الثالث (السفه) على هذا النحو من القبح، لم يصدر عن تأثير الفاعل الأساسي (رب)؛ لأن الرب لا يصدر عنه إلا كل خير. ويتضح هذا من قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (آل عمران: 26)، إذ لم يأت – وفق النسق اللغوي للآية الكريمة القائم على بنية التقابل – ب(بيدك الشر) مقابلًا ل(بيدك الخير).

فإن قيل: إذا كان الفاعل الثالث (السفهاء) هو المسبب للفاعل الثاني (الرجفة)، وهو نفسه ناتج عن فاعلية فاعل آخر مخفي، فما علاقته بالفاعل الأساسي (رب)؟ قلتُ: هنا تأويل دقيق أعاننا (الله) على إيضاحه. إذا كان (السفه) قد نتج عن الفاعل المُبَطَّن، وتَسَبَّبَ في الفاعل الثاني (الرجفة)، فإنه وقع وفق قضاء وقدر الفاعل الأساسي (رب)، ولم يخرج عنه. فإن قيل: ولماذا وهو من القبح بمكان؟ قلت: لحكمة الفاعل الأساسي (رب)، في إعطاء درس لهؤلاء في إظهار نتيجة البعد عن عبادته، وأن الاتصاف بالسيء من الأفعال والأخلاق لبعض الأفراد يعم الجمع، ومن ثم ينبغي على الجمع أن يشد على يد الفرد الشاذ، الخارج عن المنهج القويم. ويمكن وضع شكل توضيحي يظهر تلك العلاقات على النحو الآتي:

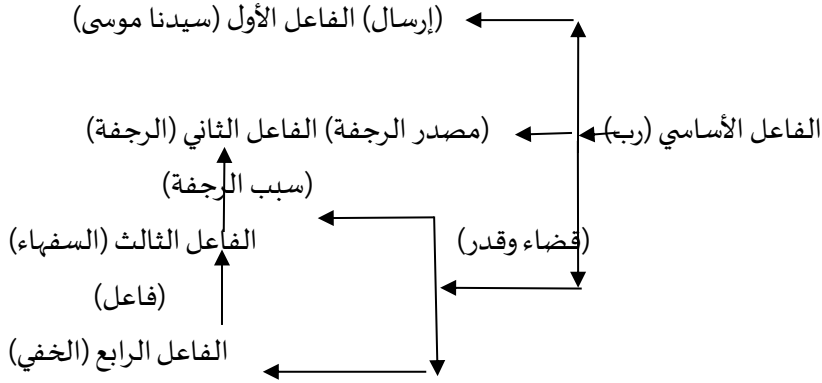

على هذا النحو، بدا أن الفاعل الأساسي (رب) هو المنتج الفعلي لدلالة الآية الكريمة وذلك بإرساله الفاعل الأول (سيدنا موسى عليه السلام)، واحتوائه لكل

الفواعل أثناء (الميقات) / الحدث الأكبر. ثم ما انبثق من أزمنة، سواء الناتجة عن سفه بعض القوم أو الدعوية في طلب المغفرة والرحمة. ولا يخفي على الأريب أن العامل اللغوي الأساسي في كل هذا، هو ورود دال (رب) في منطقة الفاعلية المستترة.

وما طرحناه هنا، هو ما يدور حوله مفهوم (نحو النص)؛ إذ يتناول الظاهرة اللغوية محاولًا تفسيرها من خلال السياق الذي ترد فيه، ويعرج على الدوال ومواقعها النحوية، وما تقوم به من وظائف، وما ينتج عن التفاعل الدلالي بين أجزاء النص: الصغرى والكبري، وإحالة الضمائر، والسبك، والتماسك النصي...إلخ.

كما لا يفوتنا أن ننوه إلى أن ما قمنا به من تحليل هو ما يتناوله المنهج البنيوي، الذي ينظر إلى العمل الأدبي بوصفه كلًا مكونًا من أجزاء تربط بينها علاقات. يتضح ذلك عندما رصدنا علاقة كل تركيب بما حوله، وتماسك الآية الكريمة من خلال فاعلية الفواعل التي ضمتها، وإظهار ارتباط كل هذا بالفاعل الأساسي دال (رب).

ومن حيث العلاقة بين الداخل والخارج في دراسة العمل الأدبي، يقر البنيويون الماركسيون بضرورة العلاقة بين الداخل اللغوي، والخارج الاجتماعي، وهو ما طرحه لوسيان جولدمان عندما أضفى الجانب الاجتماعي على المنهج البنيوي.

وهذا ما أوضحناه – أيضًا - من خلال التفاعلات اللغوية داخل النص الأدبي / الآية القرآنية هنا وبين الخارج -السياق الاجتماعي الذي وردت فيه الآية الكريمة، المتمثل في الأحداث التي دارت بين سيدنا موسى والقوم.

وإذا كانت البنيوية قد تناولت محوري الاستبدال والتعاقب، فقد لحظنا ذلك في دال (السفه)، الذي تم اختياره وانتقاؤه من بين البدائل اللغوية الأخرى؛ ليعبر عن أخلاق القوم، ثم وضعه في محور التعاقب في منطقة الفاعل، متأثرًا بلغة الغياب – وهوأحد المبادئ البنيوية كذلك - بفاعل محذوف تم استنطاقه من النص.

لكن - كما آليت على نفسي - لم أرد أن أدخل القارئ في متاهات المناهج الحداثية، وما بها من مصطلحات ربما يصعب تناولها على القارئ الحديث، أو أنها من الممكن أن تصيب عملية التحليل بنوع من الصعوبة أو العتمة الدلالية، فتغلق عليه

محاولة فهم النص المدروس؛ لذا نكتفي بالإشارة، تاركين الدراسات التفصيلية لفرصة مواتية.

4-دال (رب - إله) في موقع الفاعل المستتر للمشتقات

المشتقات العاملة في القرآن الكريم من الكثرة بمكان ([1])، لكن ما نريد دراسته هنا هو عمل المشتقات حال كون المعمول (الفاعل) دال (رب) عز وجل.

وأول ما يقابلنا من تلك المشتقات هو اسم الفاعل، الذي يعرفه ابن السراج بقوله: " اسم الفاعل الذي يعمل عمل الفعل هو الذي يجري على فعله ويطرد القياس فيه ويجوز أن تنعت به اسمًا قبله نكرة، كما تنعت بالفعل الذي اشتق منه ذلك الاسم. ويُذكر ويُؤنث، وتدخله الألف واللام، ويُجمع بالواو والنون "([2]).

([1]) بمراجعة المصادر النحوية ، يدرك أن المشتقات اللغوية (اسم الفاعل ، اسم المفعول ، صيغ المبالغة ، الصفة المشبهة) تعمل عمل فعلها في حالتين: الأولى إذا كانت مُقترنة ب(ال) تعمل مطلقًا ، وإذا كانت مجردة منها تعمل بشروط نذكرها في موضعها .وجدير بالذكر أن هذه المشتقات تعمل عمل فعلها في حالة الإفراد والتثنية والجمع، وكذلك التذكير والتأنيث . انظر في ذلك على سبيل المثال:سيبويه، الكتاب، الجزء الأول: 108 – 118 ، 164 – 175 ، وابن السراج ، الأصول في النحو الجزء الأول: 122 – 147 ، وابن يعيش ، شرح المفصل ، الجزء الرابع: 94 ، والرضي ، شرح الرضي على الكافية ، الجزء الثالث: 415 – 445 ، وابن عقيل ، شرح ابن عقيل ، الجزء الثالث: 116 .

وما يعمل من هذه المشتقات في هذا الكتاب هو:(اسم الفاعل ، وصيغ المبالغة ، واسم المفعول) ، لكننا سنرجئ تناول اسم المفعول إلى العنصر السادس (الفاعل المحذوف) ؛ لكون الفاعل يحذف معه . وجدير بالذكر أن دال (إله) لا يرد في إطار الفاعل المستتر للمشتقات .

([2]) انظر: الأصول ، الجزء الأول: 122. وانظر في اسم الفاعل: المبرد ، المقتضب ، الجزء الرابع: 148–157.

ويعرف الزمخشري اسم الفاعل بقوله: " هو ما يجري على (يَفْعَلُ) من فعله ك(ضارب)، و(مُكْرِمٌ)، و(مُنْطَلِقٌ)، و(مُسْتَخْرِجٌ)، و(مُدَحْرِجٌ)، ويعمل عمل الفعل في التقديم والتأخير والإظهار والإضمار " ([1]).

وتعليقًا على هذا يقول ابن يعيش: " اعلم ان اسم الفاعل الذي يعمل عمل الفعل هو الجاري مجرى الفعل في اللفظ والمعنى؛ أما اللفظ فلأنه جار عليه في حركاته وسكناته، ويطرد فيه "([2]).

ويعرف عباس حسن اسم الفاعل بقوله:"اسم مشتق يدل على معنى مجرد، حادث وعلى فاعله). فلابد أن يشتمل على أمرين معًا؛ هما: المعنى المجرد الحادث، وفاعله " ([3]).

وفي شروط عمل اسم الفاعل يقول سيبويه:" هذا باب من اسم الفاعل الذي جرى مجرى الفعل المضارع في المفعول في المعنى، فإذا أردت فيه من المعنى ما أردت في يَفْعَلُ كان نكرة منونًا، وذلك قولك: (هذا ضاربٌ زيدًا غدًا). فمعناه وعمله مثل هذا يضرب زيدًا غدًا. فإذا حدَّثْتَ عن فِعْلٍ حين وقوعه غير منقطع كان كذلك. وتقول: (هذا ضاربٌ عبدَ اللهِ الساعةَ)، فمعناه وعمله مثل (هذا يضرب زيدًا الساعة). وكان زيدٌ ضاربًا أباك. فإنما تحدث أيضًا عن اتصال فعل في حال وقوعه. وكان موافقًا زيدًا، فمعناه وعمله كقولك: (كان يضرب أباك)، ويوافق زيدًا. فهذا جرى مجرى الفعل المضارع في العمل والمعنى منونًا " ([4]).

([1]) انظر : شرح المفصل ، الجزء الرابع: 84 . والرضي ، الشرح على الكافية ، الجزء الثالث: 413 .

([2]) انظر: شرح المفصل ، الجزء الرابع: 84 . وابن عقيل ، شرح ابن عقيل ، الجزء الثالث: 106.

([3]) انظر: النحو الوافي ، الجزء الثالث: 238 . حادث: أي عارض يطرأ ويزول ؛ فليس له صفة الثبوت والدوام ، ولا ما يشابههما . انظر السابق: الصفحة نفسها . وجدير بالذكر أن اسم الفاعل يُشتق من الفعل الثلاثي على وزن (فاعل) ، ومن غير الثلاثي على وزن مضارعه مع إبدال (ياء) المضارعة ميمًا مضمومة ، وكسر ما قبل الآخر . انظر: الرضي ، شرح الرضي على الكافية ، الجزء الثالث: 413 .

([4]) انظر: الكتاب ، الجزء الأول: 164 .

ويُفهم من كلام سيبويه أن اسم الفاعل يعمل عمل فعله المضارع إذا كان دالًا على الحال أو الاستقبال، ويكون نكرة منونة.

وفي حذف التنوين من الاسم المفرد، و(النون) من الاسم الجمع، يقول سيبويه:" واعلم أن العرب يَسْتَخِفُّونَ فيحذفون التنوين والنون، ولا يتغير من المعنى شيء، ويَنْجَرُّ المفعول لكف التنوين من الاسم، فصار عمله فيه الجر، ودخل في الاسم معاقبًا للتنوين "([1]).

وفي شروط عمل اسم الفاعل يقول ابن يعيش: " فاسم الفاعل إذا أريد به الحال أو الاستقبال، يعمل عمل الفعل إذا كان منونًا، أو فيه الألف واللام...وقد يحذف التنوين من اسم الفاعل تخفيفًا، وإذا زال التنوين عَاقَبَتْهُ الإضافة، والمعنى معنى ثبات التنوين، ولذلك لا يكون إلا نكرة " ([2]).

أما شروط عمل اسم الفاعل من حيث موقعه هو، فيقول ابن مالك:

وَوَلِيَ استفهامًا، أو حَرْفَ نِدَا، أو نفيًا، أو جَا صِفَةً، أو مُسْنَدَا

وهذا يعني أن اسم الفاعل لا يعمل عمل فعله المضارع إلا إذا جاء معتمدًا على استفهام، أو نداء، أو نفي، أو صفة، أو مسند ([3]).

([1]) انظر: السابق ، الجزء نفسه: 165 ، 166 .

([2]) انظر: شرح المفصل ، الجزء الرابع: 84 . وابن السراج ، الأصول في النحو ، الجزء الأول: 125 - 129 ، و ابن عقيل ، شرح ابن عقيل ، المجلد الثاني ، الجزء الثالث: 106 . وكذلك: عباس حسن ، النحو الوافي ، الجزء الثالث: 246 ، 247 .

([3]) انظر: ابن عقيل ، شرح ابن عقيل ، المجلد الثاني ، الجزء الثالث: 107 . وأجاز الكسائي إعمال اسم الفاعل للفعل الماضي . وساق مثالًا لهذا قوله تعالى: ﴿وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ (الكهف: 18) ، ف(ذراعيه) منصوب ب(باسط) ، وهو ماض ، وخرَّجَه غيره على أنه حكاية حال ماضية . انظر: ابن يعيش ، شرح المفصل ، الجزء الرابع: 100 ، وكذلك: ابن عقيل ، شرح ابن عقيل ، المجلد الثاني ، الجزء الثالث: 107 . ويعلق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد على معنى حكاية الحال بقوله: " ومعنى حكاية الحال: أن يقدر المتكلم نفسه موجودًا في وقت حصول الحادثة فيتكلم على ما يقتضيه ، والدليل على صحة ذلك في الآية الكريمة قوله سبحانه (ونقلبهم)

وفي إطار اسم الفاعل من الفعل الثلاثي، يرد دال (رب) فاعلًا مستترًا، كما في قول (الله) سبحانه و تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ (الدخان: 15)([1]).

وفي اسم الفاعل من الفعل غير الثلاثي يرد قول (رب العزة) سبحانه وتعالى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ﴾ (الدخان: 16) ([2]).

وفيما يخص اسم الفاعل، نجد أن دال (كاشفو) خبر للناسخ (إِنَّ) في (إِنَّا)، مرفوع وعلامة رفعه الواو؛ لأنه – نحويًا – جمع مذكر سالم. أما دلاليًا، ف(الواو) هنا دلالة على العظمة، وليس الجمع. وحذفت النون للإضافة.

. ولا يخفى عليك أن المراد بالمتكلم الذي يفرض نفسه غير (الله) تعالى" . انظر: السابق ، هامش الصفحة نفسها . وإلى هذا ذهب العكبري ، حيث يقول: " باسط خبر المبتدأ (كلهم) ، وذراعيه منصوب به ، وإنما عمل اسم الفاعل هنا وإن كان للماضي ، لأنه حال محكية . انظر: التبيان في إعراب القرآن، القسم الثاني: 841. ومن النحويين المعاصرين ، انظر: محيي الدين الدرويش ، إعراب القرآن الكريم وبيانه ، المجلد الرابع: 454 ، 455 ، وقد ساق الرأي المعارض للبصريين . وانظر كذلك: بهجت عبد الواحد صالح الإعراب المفصل ، المجلد السادس: 361 . ومحمود سليمان ياقوت ، إعراب القرآن الكريم ، المجلد السادس: 2700 . وانظر في موقع اسم الفاعل الذي يؤهله لعمل فعله المضارع: عباس حسن: النحو الوافي ، الجزء الثالث: 249 – 251 . وأعتقد أن اسم الفاعل (مرسلو) في قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ﴾ (القمر: 27) يندرج تحت هذا الطرح (حال محكية) ؛ لأن اسم الفاعل هنا مستوفي الشروط ، إلا في موضوع (الزمن: الحال والاستقبال) ؛ لأن الإرسال تم منذ زمن . والناقة في الأصل مفعول به ل(مرسلو) أضيف إلى عامله.

([1]) وانظر: سورة (ص: 71) وسورة (النجم:32) . وغيرها من المواضع القرآنية الكثيرة ، لكننا نضرب أمثلة .

([2]) وانظر كذلك: سورة (الذاريات: 47) ، وسورة (البروج: 20) . وهناك دوال عديدة تندرج تحت هذا الطرح ، منا على سبيل المثال دال (مُهْلِك) . انظر: سورة (الأنعام: 131) ، وسورة (القصص: 59) . وغيرها .

والأمر نفسه في دال (منتقمون)؛ فهو خبر للناسخ (إنَّ) في (إنَّا)، مرفوع وعلامة رفعه الواو؛ لأنه – نحويًا – جمع مذكر سالم. أما دلاليًا، ف(الواو) هنا دلالة على العظمة وليس الجمع.

ووفق المنطلقات النحوية التقعيدية السابقة، إذا تأملنا دالي (كاشف، منتقم) ألفينا الآتي: أنهما يدلان على الاستقبال. أما دلالة (كاشف) على الاستقبال، فمبنية على قوله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ (الدخان: 10). والارتقاب يعني الانتظار، أي وقوع الحدث مستقبلًا. وهذا الدخان قيل: هو دخان يوم القيامة، وقيل: نتيجة لدعاء النبي ﷺ في الدنيا ([1]).

وأما دلالة (منتقم) على الاسقبال؛ فلأنه قيل في يوم البطشة الكبرى: أنه يوم بدر، الذي وقع فيما بعد، أو يوم القيامة ([2]).

ومن حيث الاقتران (بال) أو عدمه، فقد ورد الدالان غير مقترنين ب(ال)؛ لذا أضيف الأول إلى دال (العذاب)، وجاءت (نون) الجمع عوضًا عن تنوين المفرد([3]). ولكونهما جُرِّدَا من (ال) والتنوين، وردا نكرتين.

أما في شروط عملهما، فقد وردا خبرين للناسخ (إنَّ)، كما طرحنا في مكانه. ومن هنا كان اسم الفاعل في الدالين عاملًا عمل فعله، فرفع فاعلًا مستترًا، تقديره (نحن)، وجاء مضافًا إلى مفعوله في دال (كاشف)، ورفع فاعلًا مستترًا تقديره (نحن) كذلك، ولم ينصب مفعولًا به، أو يُضافُ إليه في الموضع الثاني – دال (منتقم)؛ لسبق المفعول به في الآيات السابقة وهم المشركون.

وهنا يمكن القول: إن التركيب الأول كان على هذا النحو: (إنَّا سنكشفُ العذابَ)، وفي التركيب الأخير: (إنَّا سننتقم). فإن قيل: إذا كان ذلك كذلك، فَلِمَ عَدَلَ عن الزمن إلى الاسم؟.

([1]) انظر: الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، المجلد السادس: 544 .

([2]) انظر: السابق ، المجلد نفسه: 546 . والسيوطي، أسباب النزول: 230.

([3]) انظر: بهجت عبد الواحد صالح ، الإعراب المفصل ، المجلد العاشر: 498 في 495 .

قلتُ: تكفَّلَ عبقري العربية الأول بعبء الجواب عنا، فقال:"موضوع الاسم على أن يثبت به المعنى للشيء من غير أن يقتضي تجدده شيئًا بعد شيء. وأما الفعل فموضوعه على أنه يقتضي تجدد المعنى المثبت به شيئًا بعد شيء" ([1]).

فإن قيل: هلَّا أوضحت لنا تطبيق عملية (ثبات المعنى) وعدم تجدده في استخدام اسم الفاعل (كاشف، منتقم) بدلًا من سنكشف، سننتقم؟ قلتُ: نعم.

بداية، ينبغي أن نثبت شيئًا. هو أنه عندما تتعلق المسألة بخطاب (الله) سبحانه وتعالى، وإخباره لنا عن حدث ما، فالمعنى ثابت، سواء أكان التعبير بالفعل أم بالاسم، وأنه واقع حتمًا، لا شك ولا جدال في ذلك. وإنما المعني بذلك هو المخاطَب. وما نحن بصدده الآن شاهد على ذلك. فإن قيل: كيف؟

قلتُ: المخاطَب هنا – أو المتحدَّث عنه – هم المشركون، فلو قال (الله) سبحانه وتعالى: (إنَّا سنكشفُ العذابَ)، أو (إنَّا سننتقمُ) ربما توهموا – وهم مشركون – باحتمالية حدوث هذا أو عدمه؛ لاحتياج الزمن إلى تجدد؛ لأن التجدد يعني التوقف عن فعل الحدث ثم البدء فيه من جديد. وفي اللحظة بين التوقف والبدء ربما تطرأ أمور تَحُوْل دون تجدد الحدث. هذا على مستوى فهم المتحدَّث عنه.

أما التعبير باسم الفاعل، فإنه يعني القطع: القطع في كشف العذاب، مما يبعث على طمأنة المتحدَّث عنه، ربما يتوب منهم مَنْ يعود إلى رشده، وإلا فيعد الكشف حجة عليهم. والقطع في الانتقام، بعدم الدخول في مسألة التجدد من عدمه، مما يبعث على إخافة المتحدَّث عنه، ربما – كذلك – يعودوا إلى رشدهم ويعبدوا (الله) جل في علاه. غفر (الله) لنا إن أسأنا فهم مراده.

([1]) انظر: عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز: 174 ، 175 . وقد ضرب الشيخ مثالًا لذلك قوله تعالى: ﴿وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ (الكهف: 18) ، الذي تم تناوله في هامش الصفحة قبل السابقة . اللهم اجمعني بسيدي رسول الله ﷺ ، وكل صحابته الكرام ، وبكل مَنْ أحب ، وبهذا العالم الفذ في الآخرة .

فإن قيل: لِمَ قلتَ بعود الضمير المستتر (نحن) الواقع في منطقة الفاعل لاسم الفاعل (كاشف) و(منتقم) على دال (رب)؟ قلتُ: لسبقه في الآيات السابقة في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ (الدخان: 12).

فإن قيل – ثانية-: وما العلة في اعتماد بنية النداء على دال (رب)، ولم يكن اسم الجلالة (الله) أو دال (إله)؟ قلتُ: المنادِي في بنية النداء مشركون، أي أنهم لا يؤمنون بتوحيد الألوهية، فكان من الطبيعي أن ينادوا بالربوبية التي تشمل نعمها الكافر والمؤمن؛ ولأن الحق سبحانه وتعالى إذا كشف عنهم العذاب فسيكون ذلك بربوبيته.

ومن الملحوظ أن اسم الفاعل (مُنْتَقِم) قد اشْتُقَّ من الفاعل الخماسي(اِنْتَقَمَ). وإذا وضعنا ذلك في إطار القاعدة التي تقول: إن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، استطعنا أن نفهم أن اشتقاق اسم الفاعل من الفعل الخماسي من شأنه أن يزرع الخوف والرهبة في قلب المتحدَّث عنه؛ إذ كيف لهم بدفع هذا الانتقام الذي ورد على هذا النحو من الشدة والقوة؟ !!!.أضف إلى ذلك فاعل الانتقام، وهو(الرب) العلي.

وفي صيغ المبالغة يرد قول (الله) تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ (البروج: 16) ([1]). وبعد أن ساق ابن مالك أوزان المبالغة (فَعَّالٌ، مِفْعَالٌ، فَعُولٌ، فَعِيلٌ، فَعِلٌ)، يعلق ابن عقيل بقوله: " يصاغ للكثرة: (فَعَّالٌ، مِفْعَالٌ، فَعُولٌ، فَعِيلٌ، فَعِلٌ)؛ فيعمل عمل الفعل على حد اسم الفاعل، وإعمال الثلاثة الأول أكثر من إعمال فَعِيلٍ وفَعِلٍ، وإعمال فَعِيلٍ أكثر من إعمال فَعِلٍ " ([2]).

([1]) وانظر في مادة (وهب) (وَهَّاب):سورة (آل عمران: 8)، وسورة (ص: 35) ، وفي مادة (غفر) (غَفَّار): سورة (نوح: 10) . وفي مادة (توب) (توَّاب): سورة (النصر: 3) . وهكذا في بقية المواد اللغوية ، التي تشتق منها صيغ المبالغة.

([2]) انظر: شرح ابن عقيل ، المجلد الثاني ، الجزء الثالث: 111 . وابن السراج ، الأصول في النحو الجزء الأول: 123 ، 124 . وانظر في عمل صيغ المبالغة، سيبويه ، الكتاب ، لجزء الأول: 110 – 118. والمبرد ، المقتضب ، الجزءالثاني: 112 – 117 .

وفي إعمال (فَعِيلٍ) يورد ابن عقيل اسم من أسماء (الله) الحسنى (سميع)، فيقول: " ومن إعمال (فَعِيلٍ) قول بعض العرب: (إن الله سميعٌ دُعَاءَ مَنْ دَعَاهُ)، ف(دعاءَ) منصوب ب(سميع) ([1]).

وفي جريان صيغ المبالغة على الباري عز وجل يقول الإمام الزركشي في برهانه: " نقل عن الشيخ برهان الدين الرشيدي أن صفات الله التي هي صيغة المبالغة كغفار ورحيم وغفور ومنان كلها مجاز، إذ هي موضوعة للمبالغة؛ ولا مبالغة فيها؛ لأن المبالغة هي أن تثبت للشيء أكثر مما له، وصفات الله متناهية في الكمال، لا يمكن المبالغة فيها، والمبالغة تكون في صفات تقبل الزيادة والنقصان، وصفات الله تعالى منزهة عن ذلك.

وذكر هذا للشيخ ابن الحسن السبكي فاستحسنه، وقال: إنه صحيح إذا قلنا: إنها صفات. فإن قلنا: أعلام زال ذلك ([2]).

ثم يضيف الزركشي رأيه قائلًا: " قلتُ: والتحقيق أن صيغ المبالغة على قسمين: أحدهما، ما تحصل المبالغة فيه بحسب زيادة الفعل، والثاني: بحسب تعدد المفعولات. ولا شك أن تعددها لا يوجب للفعل زيادة، إذ الفعل الواحد قد يقع على جماعة متعددين.

وعلى هذا التقسيم، يجب تنزيل جميع أسماء (الله) تعالى، التي وردت على صيغة المبالغة كالرحمن والغفور والتواب ونحوها، ولا يبقى إشكال حينئذ. وقال الزمخشري في سورة الحجرات: المبالغة في التواب للدلالة على كثرة من يتوب إليه من عبادة، أو لأنه ما من ذنب يقترفه المقترف إلا كان معفوًا عنه بالتوبة، أو لأنه بليغ في قبول التوبة، نُزِّل صاحبها منزلة من لم يذنب قط لسعة كرمه ([3]).

([1]) انظر: شرح ابن عقيل ، المجلد الثاني ، الجزء الثالث: 114 .

([2]) انظر: البرهان في علوم القرآن ، الجزء الثاني: 507 .

([3]) انظر: البرهان في علوم القرآن ، الجزء الثاني:507 ، 508 . وانظر فيما قاله الزمحشري: الكشاف الجزء الرابع: 364 .

والحاصل، أن وصف الباري بصيغ المبالغة يسلك طريقين: **أولًا** تكون هذه المبالغة من ناحية مَنْ يقع عليه هذه الصفات، وهو كثرة المغفور لهم في المغفرة، وكثرة المرحومين في الرحمة...إلخ، يعني كما قال الزركشي:تحصل المبالغة من ناحية تعدد المفعولات ([1]).

ثانيًا: لما كانت صيغ المبالغة تتصف بالزيادة والنقصان، وكان ذلك محالًا مع (الله) سبحانه وتعالى، في الاتصاف به، لزم أن تنقل هذه الصيغ من نوع المبالغة إلى الصفة المشبهة التي تدل على الثبوت والدوام ([2]).

ومن هنا، يُنْظَرُ إلى اتصاف الباري بصيغ المبالغة على هذا الأساس؛ في أن تغير الاسم من صيغة إلى صيغة أخرى، تأتي مناسبته في هذا الموضع أو ذاك، من جهة المُخَاطَبين، الذين تدركهم مدلولات هذه الأسماء، مثل الرحمة والمغفرة...إلخ.

وإذا عدنا إلى قوله تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ ألفينا أن دال (فَعَّالٌ) مُنَوَّنٌ، دالٌ على الحال والاستقبال؛ إذ فعل (الله) لما يريد لا يتوقف عند زمن معين، ويُعرَب خبرًا للضمير (هو) المبتدأ، الوارد في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾ (البروج: 14)، أو خبرًا لمبتدأ محذوف، تقديره (هو) ([3]).

([1]) انظر: البرهان في علوم القرآن ، الجزء الثاني: 508 .

([2]) انظر في دلالة الصفة المشبهة على الثبوت: عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز: 175 . وانظر في هذا الموضوع: كتابنا خواتم الآيات التي تشمل أسماء الله الحسنى في القرآن الكريم . دراسة أسلوبية: 59 ، 60 . وانظر في عمل الصفة المشبهة: سيبويه ، الكتاب ، الجزء الأول: 194 – 205 .

([3]) انظر: النحاس، إعراب القرآن: 1302. ويجوِّز النحاس أن يكون بدلًا " . وانظر كذلك: محيي الدين الدرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه ، المجلد الثامن: 273 . وبهجت عبد الواحد صالح: الإعراب المفصل ، المجلد الثاني عشر: 403 . ومحمود سليمان ياقوت: إعراب القرآن الكريم ، المجلد العاشر: 5052 . وقد جعله الزمخشري خبرًا لمبتدأ محذوف . انظر: الكشاف ، الجزء الرابع: 720 .

والحاص من كل هذا، أن دال(فَعَّال) يعمل عمل فعله؛ ومن ثم يرفع فاعلًا مستترًا، تقديره (هو) يعود إلى (الرب) العلي في قول (الله) سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ (البروج: 12).

وعملية تفكيك الدال تطلعنا على ما طرحناه من رفع الفاعل؛ فأصل التعبير هكذا: (يفعل (هو) لما يريد)، فلما تحولت بنية الكلمة من الزمنية إلى الاسمية، متلفعة بصيغة المبالغة، تم حذف الفاعل.

فإن قيل: ولِمَ التحول؟ قلتُ: لما طُرِحَ من قبل في ثبوت المعنى، وعدم الحاجة إلى تجدده. أما لماذا صيغة المبالغة؟ قلتُ: لبث الروع في قلب المخاطَب / كفار مكة، وبخاصة أن السورة الكريمة تتناول ما فُعِلَ بأصحاب الأخدود من المؤمنين، وما وُعِدَ الفاعل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ (البروج: 10). وكذلك ما ورد من حديث الجنود.

ويرد كل هذا في إطار إنذار أهل مكة ومن حولها، بل وكل الكفار والمشركين إلى يوم أن يرث (الله) سبحانه وتعالى الأرض ومن عليها. وزيادة في عملية التخويف والترهيب، حُذِفَ مفعول (يريد) في قوله: ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾، وهو وإن كان ورد في الموصول (ما) فقد ورد في موصول مشترك دليلًا على إبهامه، واتساعه، وشموليته، التي لا يدري المخالفون كيف سَتُلِمُّ بهم !!.

وأخيرًا، فإن قيل: لماذا ساق دال (رب) في قوله: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ (البروج: 12)، ولم يكن اسم الجلالة (الله) أو دال (إله)؟ قلتُ: مما سيق في أصحاب الأخدود أنهم قوم من بني إسرائيل [1]، إضافة إلى فرعون، وقوم ثمود. وكل هؤلاء غرقوا في نعم الربوبية ، فكان المجيء بدال (رب) أبلغ.

([1]) انظر: الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، الجزء الرابع والعشرين: 272 ، 273 . وفي طبعة مؤسسة الرسالة ، المجلد السابع: 493 أنهم كانوا أهل كتاب من بقايا المجوس .

وكأنه قيل: إن الرب الذي أنعم عليكم بكل خيرات الدنيا، وأرسل إليكم رسلًا يخرجونكم من الظلمات إلى النور، وأمهلكم، حتى اغتررتم، هو هو صاحب البطش الشديد للمخالفين والكافرين منكم.

5- دال (رب - إله) في موقع الفاعل المجرور بحرف الجر الزائد

لم يرد دال (رب) في منطقة الفاعل المجرور بحرف الجر الزائد إلا مع الزمن(كفى) يقول الله سبحانه: ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ (الإسراء 17) ([1]).

التأمل الإعرابي يقول: (الواو) استئنافية، و(كفى): فعل ماض مبني على الفتح المقدر على الألف للتعذر، ب(ربك): الباء حرف جر زائد *، ربك: اسم مجرور للتعظيم لفظًا مرفوع محلًا؛ لأنه فاعل (كفى)، والكاف ضمير مبني في محل جر مضاف إليه، (بذنوب عباده) جـار ومجـرور متعلق ب(خبيرًا بصيرًا)، و(خبيرًا بصيرًا): تمييزان أو حالان ([2]).

([1]) وانظر كذلك: سورة (الإسراء: 65) ، وسورة (الفرقان: 31) .

* الزيادة نحوية، أما من ناحية الدلالة، فليس زائدًا؛إذ لا يمكن أن تتطابق الدلالة في الحالين .

([2]) انظر: محيي الدين الدرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه ، المجلد الرابع: 334 . وبهجت عبد الواحد صالح، الإعراب المفصل ، المجلد السادس: 254 ، ومحمود سليمان ياقوت ، إعراب القرآن الكريم ، المجلد السادس: 2603 . يقول الزجاج في قوله تعالى: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ (النساء: 45):"أي الله ناصركم عليهم . ومعنى (الباء) التوكيد . المعنى وكفى الله وليًا وكفى الله نصيرًا إلا أن (الباء) دخلت في اسم الفاعل ، لأن معنى الكلام الأمر ، المعنى اكتفوا بالله " . انظر: معاني القرآن وإعرابه ، الجزء الثاني: 57 . وقد تابعه في ذلك العكبري لكن في قوله تعالى: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ (النساء: 6)، حيث قال في فاعل (كفى): في فاعل كفى وجهان: أحدهما– هو اسم الله ، و(الباء) زائدة دخلت لتدل على معنى الأمر؛ إذ التقدير: اكتف بالله . والآخر– أن الفاعل مضمر، والتقدير: كفى الاكتفاء بالله ، فبالله على هذا في موضع نصب مفعولًا به ، وحسيبًا حال ، وقيل: تمييز" . انظر: التبيان في إعراب القرآن ، القسم الأول: 332 .

وإذا كان هذا هو الطرح اللغوي – وبخاصة في مسألة دلالة (الباء)، ننظر ماذا قالت التفاسير المتعددة لكتاب (الله) عز وجل. يقول الفراء: " ﴿كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ (الإسراء: 14)، وكل ما في القرآن من قوله: ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ﴾ (الإسراء: 17)، ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ﴾ فلو ألقيت الباء كان الحرف مرفوعًا. وإنما يجوز دخول الباء في المرفوع إذا كان يُمدحُ به صاحبه؛ ألا ترى أنك تقول: كفاك به ونهاك به، وأكرم به رجلًا، وبئس به رجلًا ونعم به رجلًا، وطاب بطعامك طعامًا، وجاد بثوبك ثوبًا ، ولو لم يكن مدحًا أو ذمًا لم يجز دخولها؛ ألا ترى أن الذي يقول: قام أخوك أو قعد أخوك لا يجوز لـه أن يقـول: قـام بأخيك ولا قعـد بأخيك، إلا أن يريـد قيام به غيره وقعد به "[1].

وما طرحه الفراء طرحه الإمام الطبري، حيث يقول:"﴿وكفى بربك﴾ يا محمد ﴿بذنوب عباده خبيرًا﴾. يقول: وحسبك يا محمد بالله خابرًا بذنوب خلقه عالمًا، فإنه لا يخفى عليه شيء من أفعال مشركي قومك هؤلاء، ولا أفعال غيرهم من خلقه، هو بجميع ذلك عالم خابر بصير. يقول: يبصر ذلك كله فلا يغيب عنه منه شيء، ولا يعزب عنه مثقال ذرّة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر[2].

وقوله(وكَفَى بِرَبِّكَ) أدخلت (الباء) في قوله(بِرَبِّكَ) وهو في محلّ رفع، لأن معنى الكلام: وكفاك ربك، وحسبك ربك بذنوب عباده خبيرًا، دلالة على المدح، وكذلك تفعل العرب في كلّ كلام كان بمعنى المدح أو الذمّ، تدخل في الاسم الباء والاسم المدخلة عليه الباء في موضع رفع؛ لتدلّ بدخولها على المدح أو الذمّ كقولهم: أكرم به رجلًا، وناهيك به رجًلا، وجاد بثوبك ثوبًا، وطاب بطعامكم طعامًا، وما أشبه ذلك من الكلام ولو أسقطت (الباء) مما دخلت فيه من هذه الأسماء رفعت، لأنها في محلّ

---

(1) انظر: معـاني القـرآن ، الجـزء الثاني: 119، 120. ومـا طـرحه الفراء نقله الـرازي . انظر: مفـاتيح الغيب ، الجزء العشرين: 178 . وانظـر في دخـول (الباء) على فاعـل (كفى) ، ومفعوله: ابن هشام ، مغني اللبيب ، الجزء الأول: 116 .

(2) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، المجلد الخامس: 18 .

رفع. فأما إذا لم يكن في الكلام مدح أو ذمّ، فلا يدخلون في الاسم الباء؛ لا يجوز أن يقال: قام بأخيك، وأنت تريد: قام أخوك، إلا أن تريد: قام رجل آخر به، وذلك معنى غير المعنى الأوّل"([1]).

ويقول الزمخشري: ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ على أن الذنوب هي أسباب الهلكة لا غير، (كفى) هنا. وأنه عالم بها ومعاقب عليها "([2]).

ويقول ابن عطية:"والباء في قوله تعالى(بربك)زائدة، والتقدير:كفى ربك، وهذه (الباء) إنما تجيء في مدح أو ذم، وكأنها تعطي معنى: اكتفِ بربك، أي: ما أكفاه في هذا " ([3]).

وأخيرًا يقول ابن عاشور:" وفي ذكر (كفى) إيماء إلى أن النبي ﷺ غير محتاج إلى من ينتصر له غير ربه فهو كافيه وحسبه؛ أو إلى أنه في غنية عن الهم في شأنهم، فهذا إما تسلية له عن أذاهم، وإما صرف له عن التوجع لهم. وفي خطاب النبي ﷺ بذلك تعريض بالوعيد لسامعيه من الكفار"([4]).

والآن نحن إزاء مفهومين لكفي وعلة دخول (الباء) على فاعلها: ما ورد عند الزجاج وتابعه فيه العكبري من مفهوم دلالة الأمر، وما ساقه ابن عطية كذلك، ونفي هذا باقتصار الأمر على علم الرب العلي بذنوب هؤلاء ومعاقبته لهم عليها.

وأنا أميل إلى الرأي الثاني – وكذلك ما ورد من دلالة المدح هنا -؛ إذ ما دلالة الأمر في هذا الموضع ﴿ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾؟ ومن ثم، ينبغي أن تدرس التراكيب اللغوية حسب السياق الذي ترد فيه.

([1]) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، الجزء الرابع عشر: 535 . وجدير بالذكر أن هذا النص غير موجود بطبعة مؤسسة الرسالة .

([2]) انظر: الزمخشري ، الكشاف ، الجزء الثاني: 630 .

([3]) انظر: المحرر الوجيز: 1134 . والمفسرون فيما بعد ذلك ، لم يجلبوا جديدًا ، إلى أن وصلنا إلى العلامة الطاهر ابن عاشور .

([4]) انظر: التحرير والتنوير ، الجزء الخامس عشر: 57 .

كما أنه من الواضح أن دخول (الباء) على فاعل الفعل (كفى) من شأنه أن يفيد التأكيد، هذا التأكيد الذي يدخل الطمأنينة على قلب النبي ﷺ. فإن قيل: إذا كان الخطاب للنبي ﷺ فهل هو في حاجة إلى تأكيد؟ قلتُ: لا. إنما التأكيد هنا يخص السامعين؛ لزجرهم وإخافتهم. وهو ما طرحه ابن عاشور، وأنا معه في هذا.

أما المجيء بدال (رب) في منطقة الفاعل للفعل (كفى) دون اسم الجلالة (الله)، ودال (إله) فللطائف: **الأولى** أن دال (رب) هو المهيمن على السورة – سورة الإسراء - كلها.

الثانية - وهي متعلقة بالأولى – أن هيمنة دال (رب) على سورة الإسراء - بخاصة - يرد وفق أهداف السورة والمضامين التي وردت فيها، والمبدوءة برحلة الإسراء؛ للتسرية عن حزن النبي ﷺ بعد الأحداث التي وقعت: من وفاة السيدة خديجة رضي (الله) عنا تعالى وأرضاها، وعمه الذي حماه، ورفض الطائف للدعوة الإسلامية. ولما كانت عملية التسري والتسلي من لطائف الرب العلي، وقعت المناسبة وانبثق الإعجاز.

الأخيرة: أنه لما كان من معاني الرب التربية والتهذيب، وكان هذا من متطلبات الدعوة وما سيواجهه النبي ﷺ من سخافات القوم؛ سواء كفار مكة، أو أهل الكتاب بعد الهجرة، أن يتصبر ويحتسب تارة، ويواجه بعضهم أخرى، كان المجيء بدال(رب)أولى.

أما إضافة (كاف) الخطاب العائد إلى النبي ﷺ إلى دال (رب)–في بنية الالتفات- فيفيد تشريف النبي ﷺ، وإظهار مكانته عند ربه جل في علاه. مما يوقع الخوف في قلوب معارضيه. وهذا المظهر اللغوي من الكثرة بمكان في القرآن الكريم.

وفي تقديم (خبيرًا) على (بصيرًا) يقول أبو السعود: وتقديم الخبير لتقدم متعلقه من الاعتقادات والنيات التي هي مبادي الأعمال الظاهرة، أو لعمومه، حيث يتعلق بغير المبصرات أيضًا، وفيه إشارة إلى أن البعث – في قوله(نبعث

رسولًا) - والأمر – في قوله (أمرنا مترفيهم) - وما يتلوهما من فسقهم ليس لتحصيل العلم بما صدر عنهم من الذنوب، فإن ذلك حاصل قبل ذلك، وإنما هو لقطع الأعذار وإلزام الحجة من كل وجه " ([1]).

6-دال (رب - إله) في موقع الفاعل المحذوف

بداية، يجب التعرف على الفرق بين الفاعل المستتر والفاعل المحذوف. الفاعل المستتر هو الذي يُعرب ويظهر أثره في الكلام مباشرة. أما الفاعل المحذوف، فلا يُعرب ولا يظهر أثره في الكلام مباشرة، وإنما يحتاج إلى تأمل. الفاعل المستتر يرد استتاره نتيجة لسبقه على التركيب الذي يرد فيه. أما الفاعل المحذوف فلا؛ لأنه لا يرد في الكلام من أساسه. الفاعل المستتر يُقدر بضمير؛ لعلة سبقه. أما الفاعل المحذوف فلا يقدر بضمير، وإنما يُنَوَّل باسمه.

وفي بلاغة الحذف - عمومًا - يقول علامة العربية عبد القاهر الجرجاني: " هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة، أزيد للإفادة، وتَجِدُكَ أنطقَ ما تكون إذا لم تَنْطِق، وأتمَّ ما تكون بيانًا إذا لم تُبِنْ "([2]).

وفي الحالات التي تقتضي حذف المسند إليه يقول السكاكي: " أما الحالة التي تقتضي طي ذكر المسند إليه فهي: إذا كان السامع مستحضرًا له، عارفًا منك القصد إليه عند ذكر المسند. والترك راجع إما لضيق المقام، وإما للاحتراز عن العبث بناء على الظاهر وإما التخييل أن في تركه تعويلًا على شهادة العقل، وفي ذكره تعويلًا

([1]) انظر: إرشاد العقل السليم ، الجزء الخامس: 163 . وانظر: الألوسي ، روح المعاني ، الجزء الخامس عشر: 45 . وابن عاشور: التحرير والتنوير ، الجزء الخامس عشر: 57 . وانظر في ذلك بالتفصيل: كتابنا (خواتم الآيات التي تشمل أسماء الله الحسنى في القرآن الكريم . دراسة أسلوبية): 104 – 126 . أما الموضعان: سورة (الإسراء: 65) ، وسورة (الفرقان: 31)، فنترك تأملهما للقارئ .

([2]) انظر: دلائل الإعجاز: 146 .

على شهادة اللفظ من حيث الظاهر، وكم بين الشهادتين، وإما لإيهام أن في تركه تطهيرًا للسان عنه، أو تطهيرًا له عن لسانك، وإما للقصد إلى عدم التصريح ليكون لك سبيل إلى الإنكار إن مست إليه الحاجة، وإما لأن الخبر لا يصلح إلا له حقيقة أو ادعاء، وإما لأن الاستعمال وارد على تركه أو ترك نظائره، وإما لأغراض سوى ما ذُكِرَ، مناسبة في باب الاعتبار بحسب المقامات لا يهتدي إلى أمثالها إلا العقل السليم، والطبع المستقيم، وقلما ملك الحكم هناك شيء غيرهما " ([1]).

وإذا ذهبنا إلى الجانب التطبيقي، ألفينا أن كثيرًا من آيات الذكر الحكيم اعتمدت هذا المظهر اللغوي في منطقة الفاعل. لنأخذ مثالًا لذلك وليكن قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾ (الحاقة: 19)([2]).

والشاهد في هذه الآية الكريمة هو الزمن (أُوتِيَ). وفيه يقول الجانب الإعرابي: فعل ماض مبني للمجهول، وكتابه مفعول به ثانٍ، والأول – أي المفعول به الأول - نائب الفاعل المستتر([3]).

وإذا أردنا أن نجري عملية تفكيك لهذا التركيب؛ بهدف إعادته إلى أصله اللغوي، قبل الدخول إلى اللغة الفنية، وجدناه على هذا النحو:

(آتَى) ← (الرب) ← (مَنْ) ← (كتاب)

([1]) انظر: مفتاح العلوم: 176. والقزويني ، الإيضاح في علوم البلاغة ، المجلد الأول ، الجزء الثاني: 4 ، 5 .

([2]) وانظر على سبيل المثال ، لا الحصر: سورة (البقرة: 25 ، 136) ، وسورة (الأنعام: 44 ، 51 ، 56) .

([3]) انظر: محيي الدين الدرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه، المجلد الثامن: 53، وبهجت عبد الواحد صالح، الإعراب المفصل ، المجلد الثاني عشر: 146 ، ومحمود سليمان ياقوت: إعراب القرآن الكريم ، المجلد العاشر: 4795 . وقد أعرب الدرويش وياقوت (كتابه) مفعولًا به ثانيًا . في حين أعربه صالح مفعولًا به فحسب . وأنا مع صالح ؛ لأن التركيب الجديد لم يوجد به مفعولان ؛ لدخول المفعول الأول في منطقة نائب الفاعل . فكيف يشغل دال واحد رتبتين نحويتين (نائب فاعل ، ومفعولًا به أول) ، كي يصبح دال (كتاب) مفعولًا به ثانيًا؟

فعل ← فاعل ← مفعول به أول ← مفعول به ثان

وبالتأمل، يدرك أنه قد حدثت أكثر من عملية لغوية: **الأولى** حذف الفاعل، **والثانية**: بناء الفعل للمجهول، **والثالثة** شغل المفعول به الأول منطقة نائب الفاعل **والأخيرة**: شغل المفعول به الثاني منطقة المفعول به الأول.

وهنا تُطرح ثلاثة أسئلة: **الأول** لِمَ قلتَ: إن الفاعل المحذوف يعود على دال(رب)؟ **الثاني**: إذا كان ذلك كذلك، فلماذا دال (رب) دون اسم الجلالة (الله)، أو دال (إله)؟. أما **الأخير**: ما بلاغة الحذف؟.

أما جواب السؤال الأول، فلسبق دال (رب) في قوله تعالى في الموضع السابق: ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ (الحاقة: 17).

أما لماذا دال (رب)؟ فنقول وبالله التوفيق: إن الكتاب المأخوذ في الآخرة يشمل نِعَمَ المُنْعِمِ، وإعطاء المؤمن حق تلك النعم، وجحود الكافر لها. فمن آمن بالمنعم (الرب) إلهًا فاز ونجا، ومن آمن به ربًا منعمًا فحسب، وأشرك معه غيره، أو كفر بعبادته خاب وخسر. ومن ثم، لما كان من مشتملات الكتاب التذكير بالنعم؛ مما يُسعد المؤمن بها، المراعي حقها، ويُحزن الكافر الجاحد لها، كان دال (رب) أولى.

وفيما يخص بلاغةالحذف، فللحذف هنا علل ثلاثة: تتمثل **الأولى** – كما طرح السكاكي– في كون السامع مستحضرًا للفاعل (الرب العلي)، عارفًا منك القصد إليه عند ذكر المسند (أُوتِيَ)؛ لأنه ما من بشر إلا ويعرف مَنِ الفاعل في هذا اليوم. أما العلة **الثانية**، فتتمل في التركيز – ليس على الفاعل لأنه معروف، ولا على الزمن نفسه (أُوتِيَ)؛ لأنه واقع، ولا على (مَنْ)؛ لأنه حاضر – على جهة أخذ الكتاب: أهي اليمين أم الشمال، ونتيجة ذلك.

ولذا، أُسِّسَتْ بنية الخطاب في الموضعين على أسلوب الشرط: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾ (الحاقة: 19)، و﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ﴾ (الحاقة: 25).

وعلينا أن نقرأ في ذلك كذلك قول (الله) عز وجل: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ (الإسراء: 71)، وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ (الانشقاق: 7 - 9)، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ * فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا * وَيَصْلَى سَعِيرًا﴾ (الانشقاق: 10 – 12).

ولذا، فإن دالي (اليمين، الشمال) اللذين وردا في منطقة الجر بالحرف يتعلقان - من الناحية الإعرابية - بالزمن (أوتي)؛ إذ الدلالة متسلطة عليهما، ومنهما تنبثق النتائج الواردة بعد كل تركيب؛ إما الفوز بالجنة أو التردي في هوة النار. أعاذنا (الله) وإياكم.

أما العلة **الأخيرة**، فقد تساير ما طرحه السكاكي متمثلًا في ضيق المقام؛ لأن مشهد تطاير الكتب من المشاهد الصعبة في هذا اليوم. وهذا المشهد نفسه يتكون من مشاهد جزئية سريعة الوقع والشدة على بني الإنسان؛ لذا قال سبحانه وتعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ (عبس: 34 – 37).

ولسرعة وقع هذا اليوم بأحداثة على بني البشر، جاءت (هاء) السكت – وهي جانب صوتي – التي تدل على قلة الهواء المتدفق، المعبر بدوره عن قصر النَّفَس، لتصوير سرعة الأحداث، وتعاقبها، ووطأتها على بني البشر.

فكان طبيعيًا - والحال هكذا، والفاعل معروف - أن يتم حذف المسند إليه، وتسليط الدلالة وتركيزها وتكثيفها على ما يشغل الإنسان من تطاير الكتب، وجهة الأخذ، ومآل العباد.

وفي علة أخرى للحذف يقول ابن عاشور: " ودل قوله ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ على كلام محذوف للإيجاز، تقديره: فَيُؤْتَى كلُّ أحد كتابَ أعماله، فأما من أوتي كتابه إلخ، على طريقة قول (الله) سبحانه وتعالى: ﴿أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ

فَانْفَلَقَ﴾ (الشعراء:63)"[1]. وربما يتوافق هذا الحذف مع ما طرحناه من حذف المسندإليه؛ لإظاهر سرعة المشاهد وتلاحقها في هذا اليوم المشهود.

وفي إطار بنية الحذف، يرد حذف الفاعل لاسم المفعول العامل. وقبل أن نتناول ذلك، نعرج على تعريف اسم المفعول أولًا. وهنا يعرف الزمخشري اسم المفعول بقوله:" هو الجاري على(يُفْعَلُ) من فعله، نحو (مضروب) و(مُكْرَم). ويعمل عمل الفعل، وأمره على نحوٍ من أمر اسم الفاعل في إعمال مثناه ومجموعه، واشتراط الزمانين، والاعتماد " [2].

ولما كان اسم المفعول يعمل عمل فعله المبني للمجهول، فهو يرفع نائب فاعل، إذا كان فعله متعديًا لمفعول واحد، ويرفع نائب فاعل وينصب مفعولًا به، إذا كان فعله متعديًا لمفعولين. وفي كل هذا يتم حذف الفاعل [3].

---

[1] انظر:التحرير والتنوير، الجزء التاسع والعشرين: 130.وكما قلنا من قبل: نترك بقية المواضع لتأمل القارئ .

[2] انظر: شرح المفصل ، الجزء الرابع: 104 . ويقصد بالزمانين: الحال والاستقبال ، وبالاعتماد أي شروط عمل اسم الفاعل ، وهي المتمثلة في ابنائه على استفهام ، أو نفي ، أو صفة (صفة ، حال) ، أو إسناد . وانظر كذلك: الرضي ، شرح الرضي على الكافية ، الجزء الثالث: 427 – 430 ، وابن عقيل ، شرح ابن عقيل ، المجلد الثاني ، الجزء الثالث: 121 ، 122 . وكذلك عباس حسن ، النحو الوافي ، الجزء الثالث: 271 – 280 . ويشتق اسم المفعول من الفعل الثلاثي المبني للمجهول على وزن (مفعول) ، ومن غير الثلاثي على وزن مضارعه مع إبدال (ياء) المضارعة ميمًا مضمومة ، وفتح الحرف قبل الأخير . انظر في ذلك: الرضي ، شرح الرضي على الكافية ، الجزء الثالث: 427 .

[3] انظر: ابن يعيش ، شرح المفصل ، الجزء الرابع: 104 ، 105 ، والرضي ، شرح الرضي على الكافية الجزء الثالث: 428 – 429 ، وابن عقيل ، شرح ابن عقيل ، المجلد الثاني ، الجزء الثالث: 121 ، 122 . وغيرها من المصادر النحوية الأخرى .

ويشتق اسم المفعول من الفعل المتعدي مطلقًا. فإن كان لازمًا وتعدى بحرف الجر، جاء منه اسم المفعول مسندًا إلى الجار والمجرور؛ فنقول في (سرت إلى البلد): (مَسِيرٌ إليه)، وفي عَدلت عن الطريق: (معدولٌ عنه) ([1]).

وفي اسم المفعول من الفعل الثلاثي يرد قوله تعالى:﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ (الإسراء: 58) ([2]). إن التأمل الصرفي يقول: إن دال (مسطورًا) اسم مفعول من الفعل الثلاثي المبني للمجهول (سُطِرَ). ومن الناحية الإعرابية، فهو خبر الناسخ (كان)، أي أنه مسند. ومعنى ذلك أنه يعمل عمل فعله؛ فيرفع نائب فاعل وينصب مفعولًا به؛ لكون فعله متعديًا.

وإذا عدنا إلى عملية التفكيك، نجد أن هذا الدال يعد تركيبًا لغويًا قائمًا بذاته، مر بمراحل عدة: نحوية وبلاغية، على هذا النحو: (سَطَرَ اللهُ ذلك * في الكتابِ)، ثم بُنِيَ الفعل للمجهول، وتم حذف الفاعل، ووقعت الإشارة في محل رفع نائب الفاعل (سُطِرَ ذلك في الكتابِ)، ثم استُدْعِيَ الناسخ (كان)، جاذبًا الإشارة (ذلك) إلى منطقة اسمه، وتحويل الفعل المبني للمجهول إلى اسم مفعول (مسطورًا)، مع تقديم الجار والمجرور (في الكتاب) عليه، ووضعه هو في منطقة خبر الناسخ (كان)، شاغلًا منطقة الفاصلة؛ ليخرج على هذا النحو البلاغي المعجز: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾.

إن تلك التحولات النحو – صرفية، التي منحتنا هذا المنجز الأخير للتركيب اللغوي تجبرنا على مناقشة الوجه البلاغي لتلك التحولات.

([1]) انظر: الرضي، شرح الرضي على الكافية، الجزء الثالث: 428، 429.

([2]) وانظر في اسم المفعول (مشكورًا)، سورة (الإسراء: 19)، وسورة (الإنسان: 22). وانظر في اسم المفعول (مفعولًا) سورة (الإسراء: 108).

* يعود اسم الإشارة على المضمون الذي ورد في صدر الآية الكريمة، وهو إهلاك القرى الفاسدة وتعذيبها.

وأول ما يواجهنا هو الناسخ (كان) الذي يدل على الأزمنة الثلاثة (ماض، حاضر، مستقبل)، أي يعطى معنى الأزلية [1]، إذا جاء مع (الله) عز وجل. وفي دلالة (كان) على معنى الأزلية يقول السيوطي: " تختص (كان) بمرادفة لم يزل كثيرًا، أي أنها تأتي دالة على الدوام، وإن كان الأصل فيها أن يدل على حصول ما دخلت عليه فيما مضى مع انقطاعه عند قوم. وعليه الأكثر...ومن الدالة على الدوام الواردة في صفات الله تعالى نحو: وكان الله سميعًا بصيرًا، أي لم يزل متصفًا بذلك " [2]. ومن معانيها أيضًا أنها تدل على التأكيد [3]. وهذا يعني أن مضمون صدر الآية قديم وثابت ومستقر، على مدار الأزمنة كلها.

ثم يرد الإشارة (ذلك) في منطقة اسم الناسخ. واسم الإشارة هنا مسند إليه؛ إذ إنه مبتدأ في الأصل قبل دخول الناسخ على التركيب(ذلك مسطور). وجيء به إشارة؛ لتعيين المشار إليه، وتمييزه، ووجوب الالتفات إليه بما فيه من زجر وإخافة [4].

ثم ترد بنية التقديم، بتقديم الجار والمجرور (في الكتاب) على الخبر(مسطور). فإن قيل: ما فائدة التقديم هنا؟ قلتُ: كون أن المضمون الوارد في صدر الآية، المتمثل في إهلاك القرى، أو تعذيبها مسطورًا، فهذا مما لا شك فيه.

لكن المهم هو مكان التسطير؛ أفي عقول البشر، أم في أوراق الشجر، أم في ألواح من صنع البشر...إلخ؟. ولما كان مدار الاهتمام هو مكان هذا التسطير؛ لمعرفته

---

(1) انظر: الأصفهاني ، المفردات في غريب القرآن: 572 ، والرضي، شرح الرضي على الكافية ، الجزء الرابع: 189.

(2) انظر: همع الهوامع ، الجزء الثاني: 99 . وفي دلالة (كان) إذا جاءت مقترنة بصفات (الله) سبحانه وتعالى وأفعاله ، كلام كثير . يرجى الرجوع إلى الزركشي، البرهان في علوم القرآن، الجزء الرابع: 121 -127. والسامرائي ، معاني النحو ، الجزء الأول: 209 – 221 .

(3) انظر: الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، الجزء الرابع: 311 .

(4) انظر في ورود المسند إليه في الطابع الإشاري ، السكاكي ، مفتاح العلوم: 183 ، 184 . والقزويني الإيضاح في علوم البلاغة ، المجلد الأول ، الجزء الثاني: 18 – 21 . وإذا تأملت المشار إليه في صدر الآية تبين لك ذلك .

والاضـــطلاع عليه، بهدف الحذر منه، أوالبعد عن الوقوع فيه، ورد التقديم (في الكتاب) [*]؛ لدرء التوهم إلى فهم غير ذلك [*].

ثم ورد اسم المفعول (مسطورًا) مستقرًا في مكانه البلاغي، مشاركًا في إنتاج الدلالة القرآنية على أبهى ما يكون، مسهمًا بعد ذلك – وليس قبله – في روعة الجمال الصوتي لآيات الذكر الحكيم [*].

وإذا جئنا إلى اسم المفعول من الفعل غيرالثلاثي في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ﴾ (المعارج: 35) ([1])، ألفينا أنه قد اشْتُقَّ من الفعل الرباعي المبني للمجهول في الماضي (أُكْرِمَ) وفي المضارع (يُكْرَمُ).

---

[*] والمراد بالكتاب: الصـحف الأولى على قول العجاج . انظر: أبي عبيدة ، مجاز القرآن ، الجزء الأول: 383 ، وكذلك الجزء الثاني – في موضع سورة (الأحزاب): 134 . أو اللوح المحفوظ . انظر: الطبري ، جامع البيان ، طبعة دار هجر ، الجزء الرابع عشـر: 634 ، وكذلك طبعة مؤسـسـة الرسـالة ، المجلد الخامس: 42 . أو (أم الكتاب) . انظر: الطبري ، جامع البيان ، طبعة دار هجر ، الجزء الرابع عشر: 634 .

[*] وبسبب هذا الإيضاح لبلاغة التقديم ، لـم يقتنع عبـــد القاهـر بقـولهم عـن التقديم: (قدم للعناية أو للاهتمام) ، دون بيان سبب هذه العناية وذلك الاهتمام . انظر: دلائل الإعجاز : 107 ، 108 .

[*] وهذا ما يجعلني دائمًا غير مقتنع بمسـألة أن هذا الدال أو ذاك أُخِّرَ لأجل الفاصـلة ؛ إذا لابد أن تتوفر دوافع دلالية قبل هذا الجانب الصـوتي ، ثم لتوافق تلك الدوافع وإجراء بنية التقديم مع الجانب الصـوتي ينهال الإعجاز . وانظر في العلاقة الدلالية بين الناسخ (كان) وخبرها كلًا من: ابن يعيش ، شـرح المفصـل ، الجزء الرابع: 344 ، 345 . والرضـي ، شـرح الرضـي على الكافية ، الجزء الرابع: 182 .

([1]) انظر في الاسم نفسه: سورة (يسن: 27) ، وسورة (الذاريات: 24) . وانظر في اسم المفعول (مُخْلَص) سورة (مريم: 51) ، وسورة (الصافات: 40 ، 74 ، 128 ، 160 ، 169) كما توجد أسماء أخرى مثل: (المرسَل) ، و(المنذَر) وردت في إطـار الجمـع . انظـر في الاسـم الأول عـلى سبيـل المثـال: سـورة (الحجر: 57) وغيرها ، والآخر (يونس: 73) وغيرها .

ومن الملحوظ أن اسم المفعول (مكرمون) يعرب خبرًا ثانيًا للإشارة (أُولَئِكَ)[1]، أي مسندًا. ولكونه جُرِّدَ من (ال) ورد نكرة، وقد جاءت (نون) الجمع عوضًا عن تنوين المفرد [2]. ومن حيث الدلالة على الاستقبال؛ فلأن كرم (الرب) العلي لهؤلاء لا يكون إلا في الآخرة.

وعلى هذا، فقد رفع اسم المفعول (مكرمون) فاعلًا محذوفًا تقديره (هو)، ونائبَ فاعل ظاهر في ضمير (واو) الجماعة. فأصل التركيب هكذا: (يُكْرِمُ الربُّ هؤلاءِ في جناته). ثم بني الفعل للمجهول وحُذِفَ الفاعل، وبَقِيَ المفعول به (هؤلاء): (يُكْرَمُ هؤلاء)، ثم تحول المفعول به إلى ضمير (واو) الجماعة، وأصبح الفعل (يُكْرَمُون)، ثم تحول الزمن إلى اسم مفعول (مُكْرَمُون).

وهذه التحولات لا تحوطها إلا لغة هي بالفعل أصل اللغات كلها [*]. وقد ذكر الإمام القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ

---

(1) انظر: النحاس ، إعراب القرآن: 1200 ، ولم يبن النحاس ما إذا كان الخبر كامنًا في الجار والمجرور (في جنات) وحدها أم في (مكرمون) معها . وإنما قال: (في جنات مكرمون) خبر . والعكبري ، التبيان في إعراب القرآن ، القسم الثاني: 1240 ، وقد قال العكبري بخبرية (الجار والمجرور ومكرمون) . ومحيي الدين الدرويش ، إعراب القرآن الكريم وبيانه ، المجلد الثامن: 70 . وذهب الدرويش إلى ما ذهب إليه العكبري من أن (مكرمون) خبر ثان للإشارة . وبهجت عبد الواحد صالح ، الإعراب المفصل ، المجلد الثاني عشر: 172 . وقد ذهب صالح إلى أن الخبر هو (مكرمون) والجار والمجرور متعلق به . وكذلك محمود سليمان ياقوت ، إعراب القرآن الكريم ، المجلد العاشر: 4819 . وقد ذهب محمود سليمان ياقوت إلى الاحتمالين: خبرية (الجار والمجرور) مع (مكرمون) أو تعلقه به ، والاكتفاء بخبرية (مكرمون) .

(2) انظر: بهجت عبد الواحد صالح ، الإعراب المفصل ، المجلد الثاني عشر: 172 .

* هناك كتاب بهذا الاسم (اللغة العربية أصل اللغات كلها) للمؤلف: عبد الرحمن أحمد البوريني ، دار الحسن للنشر والتوزيع ، عمان – الأردن ، الطبعة الأولى 1419هـ - 1998م . عقد فيه مؤلفه مقارنة بين الجذر العربي للكلمة العربية ومعناها ، والكلمات الإنجليزية .

أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة: 31). أن آدم أول من تكلم بالعربية. ومن الملائكة سيدنا جبريل عليه السلام ([1]).

انظر كيف يُختصر تركيب زمني كامل: فعل + فاعل + مفعول به (يُكْرِمُ الربُّ هؤلاءِ) في اسم مفرد (مُكْرَمُون). لذا كانت هذه اللغة، وليس غيرها، هي لغة آخر كتاب سماوي مقدس، هو القرآن الكريم. ماذا أقول؟!!!!.

أما فيما يخص العدول عن الزمن إلى الاسم، فهو كما قال علامة العربية، ثبوت المعنى دون تجدده. ومن جهة المخاطَب / المتحدَّث عنه / المؤمنون هنا، يمثل لهم - التعبير بالاسم - طمأنة ويقينًا بما أُعِدَّ لهم عند ربهم جل في علاه.

فإن قيل: لِمَ قلتَ أن الفاعل المحذوف لاسم المفعول هنا (هو) يعود إلى (الرب) العلي؟ قلتُ: لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ (المعارج: 27، 28). فلأنهم خافوا عذاب ربهم، وعملوا بمقتضى ذلك في الدنيا، أكرمهم ربهم بجناته في الآخرة.

7-. الحركة الأفقية للفاعل

يتألف التركيب الزمني من (فعل + فاعل) في الفعل اللازم، و(فعل + فاعل + مفعول به) في الفعل المتعدي. وفي التركيب الثاني قد يتحرك كل من الفاعل والمفعول به حركة أفقية.

أما حركة الأول، فتتم بتأخيره عن المفعول به وتقديم المفعول به عليه: (فعل + مفعول به + فاعل)، لكنه لا يتقدم على الفعل، وإلا أصبح التركيب تركيبًا اسميًا.

أما حركة المفعول به، فتتم بعد الفعل، بالتبادل مع الفاعل – كما أوضحنا – أو قبله: (مفعول به + فعل + فاعل)، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ* وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ (الضحى: 9، 10).

([1]) انظر: الجامع لأحكام القرآن ، الجزء الأول: 423 .

وبالتأمل في المواضع التي يرد فيها الفاعل متأخرًا عن المفعول به، وجدنا أن مسوغات هذا التأخير تتمثل في الآتي: **أولًا** أن يحتوي الفاعل على ضمير يعود إلى المفعول به ([1]). **ثانيًا**:إذا كان المفعول به ضميرًا ([2]). **الأخير** أن يرد الفاعل في أطار بنية الحصر بالأداة (إلا) والنفي، أو (إنما)([3]).كما توجد صور أخرى، سنعرض لها في حينها.

وفي الضـرب **الأول**، يرد قول (الله) عز وجل: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: 124).

وفي الضرب **الثاني** يرد قول (الله) تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ (الأعراف: 20) ([4]).

وفي الضرب **الأخير** يرد قول (الله) سبحانه وتعالى:﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ (الإسراء: 102).

([1]) انظر: ابن عقيل، شرح ابن عقيل ، المجلد الأول ، الجزء الثاني: 105، وانظر كذلك ، عباس حسن: النحو الوافي ، الجزء الثاني: 87 ، 88 .

([2]) انظر:السيوطي:همع الهوامع، الجزء الثاني:260.والسامرائي:معاني النحو، الجزء الثاني:56. وهناك مسوغات أخرى تتمثل في السياق.انظر:السامرائي ، معاني النحو، الجزء الثاني: 55 – 59 .

([3]) انظر: ابن عقيل ، شرح ابن عقيل ، المجلد الأول ، الجزء الثاني: 101. وانظر كذلك ، السيوطي، همع الهوامع، الجزء الثاني: 260 . وانظر ، عباس حسن: النحو الوافي ، الجزء الثاني : 88 .

([4]) وانظر كذلك: سورة (الأعراف: 22) ، وسورة (التوبة: 21) ، وسورة (يونس: 9) ، وسورة (هود: 111) ، وسورة (الكهف: 81) ، وسورة (الذاريات: 16) .

وأحيانًا أخرى، يفصل بين الفعل والفاعل جار ومجرور، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة: 131) ([1]).

ومن حيث الضمير، فأحيانًا يرد الضمير(هو) في منطقة الفاعل المؤخر عن المفعول في بنية الحصر، كما في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: 187) ([2]). والآن ندخل عالم التحليل.

إذا تأملنا الموضع الأول، وهو قول (الله) عز وجل: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: 124)، ألفينا أن الناحية الإعرابية تقول: إن (إبراهيم): مفعول به، و (رب): فاعل، و(الهاء) ضمير مبني في محل جر مضاف إليه يعود إلى (إبراهيم). ومن هنا ساغ تقديم المفعول به على الفاعل، كما طرح النحو التقعيدي.

والحقيقة أن علماء النحو عندما جمعوا القواعد النحوية بالاعتماد على المصادر اللغوية المتعددة، عمدوا إلى رصد الظاهرة اللغوية وتكرارها. ومن ثم وُضِعَت القواعد النحوية من هذا الباب. ولم يكن علماء النحو معنيين بفكرة تعليل تلك الظواهر اللغوية. وكان هذا كافيًا منهم، بل كان سعيًا مشكورًا؛ إذ لولا ذلك، لشق علينا دراسة هذا في العصور المتأخرة. وكان ينبغي أن تنهض علوم أخرى بالبحث وراء العلل التي تقف خلف تلك الظواهر اللغوية.

ومن العلوم التي نهضت بذلك علم البلاغة، وبخاصة قسم المعاني. فمن يتأمل في عناصر قسم المعاني يجده مؤسسًا على المنطلقات النحوية، بيد أنه ليس بهدف

([1]) وانظر كذلك: سورة (البقرة: 61 ، 68 ، 69 ، 70) ، وسورة (آل عمران: 195) ، وسورة (الأعراف: 134) ، وسورة (الإسراء: 39) ، وسورة (الشعراء:21) ، وسورة (سبأ: 50) ، وسورة (يسن: 27) ، وسورة (الفجر: 13) .

([2]) وانظر: سورة (المدثر: 31) .

الجمع وإظهار الظاهرة اللغوية، وإنما بهدف السعي وراء الكشف عن العلل البلاغية التي أنتجت تلك الظواهر اللغوية.

وفي الجانب البلاغي، مثَّل السياق عنصرًا مهمًا وكاشفًا عن علة ورود التركيب اللغوي على هذا النحو أو ذاك. حتى عرفت البلاغة بأنها مراعاة مقتضى الحال. وعلى كل حال هذا موضوع طويل، ليس مكان مناقشته هنا، وإنما أردنا التنويه؛ للدخول إلى عملية التحليل.

وإذا كان النحو التقعيدي يوجب تقديم المفعول به – في النموذج قيد الدراسة – على الفاعل لاشتمال الفاعل على ضمير يعود إلى المفعول به، ألا توجد مسوغات بلاغية تسهم في عملية التقديم هذه؟

إن من يتأمل المقطع القرآني – وهو الربع الأخير في الجزء الأول - بداية من هذه الآية الكريمة (124) حتى الآية (141) يدرك أن هذا المقطع القرآني يتناول بعضًا من جانب دعوة خليل (الله) إبراهيم عليه السلام، بداية من إمامته عليه السلام للناس، حتى:(تلك أمة قد خلت)، داخل في ثنايا ذلك محاجة أهل الكتاب للنبي ﷺ، والحديث عن ملة إبراهيم عليه السلام.

وقد ضم هذا المقطع ثماني عشرة آية، تكرر ذكر سيدنا إبراهيم فيها بلفظه إحدى عشرة مرة. أما في حقل الضمائر، فإذا بدأنا بضمير المتكلم المفرد، ألفيناه قد تكرر مرتين في موقع المضاف إليه (ذريتي) و(الياء) المحذوفة من (ربِّ)، ومرة في موقع الفاعل (أسلمتُ).

وفي ضمير المتكلم المثنى (سيدنا إبراهيم وسيدنا إسماعيل عليهما السلام)، تكرر خمس مرات في موقع الإضافة: ثلاث مرات في (ربنا)، ومرتين في (ذريتنا، مناسكنا)، وفي موقع المفعول به مرتين (اجعلنا، أرنا). وفي منطقة الجر مرتين (مِنَّا، علينا). وبذلك بلغت نسبة تردده في ضمير المتكلم (نا) تسع مرات .

وفي حقل المخاطَب تكرر ثلاث مرات: مرة في منطقة المفعول به لاسم الفاعل (جاعلك)، ومرتين في منطقة الفاعل (طهرا، أَسْلِمْ).

وفي حقل ضمائر الغائب ورد تسع مرات: مرتين في منطقة الإضافة في (ربه)، ومرتين في منطقة الفاعل (أتمهن، قال)، ومرة واحدة في منطقة المفعول به (اصطفيناه)، ومرة في منطقة اسم الناسخ (إن) في (إنه)، ومرة في منطقة الإضافة في (بنيه)، ومرتين في منطقة اسم (كان) المستتر في (وما كان من المشركين)، والظاهر بالاشتراك مع بقية الأنبياء - صلوت ربي وتسليماته عليهم جميعًا - في (كانوا).

وفضلًا عن عملية ترددسيدنا (إبراهيم) عليه السلام، سواء أكان بلفظه أم بالضمائر العائدة إليه، فإن السياق العام للآية، بل سياق سورة البقرة كله، يتناول محاجة أهل الكتاب، وبخاصة بني إسرائيل للنبي ﷺ وللمسلمين.

ولما كان سيدنا إبراهيم عليه السلام هو أبو الأنبياء، بل هو جد سيدنا يعقوب عليه السلام، الذي ينحدر أهل الكتاب من نسله، كان ذكر سيدنا إبراهيم عليه السلام أولى لمخاطبة هؤلاء؛ إذ لا خلاف عليه. ومع ذلك، ولتعنتهم وكفرهم بآيات الله، وتكذيبهم الأنبياء، بل وقتل بعضهم، حاججوا في سيدنا إبراهيم كذلك.

أما الفاعل فهو معروف، وهو (الرب) العلي، هو الذي اصطفى سيدنا إبراهيم عليه السلام، واصطفى الأنبياء والرسل من ذريته، وأرسلهم لهداية الناس.

ولما كان ذلك كذلك، كان تقديم سيدنا إبراهيم في منطقة المفعولية على دال(رب) في منطقة الفاعلية من البلاغة بمكان؛ إذ هو المعني بالحديث، وفيه المجادلة، ومن نسله الأنبياء، وهو رافع قواعد البيت...إلخ. أما الفاعل (رب)، فهو معروف؛ لذا فهو ليس بحاجة إلى تقديم.

وأما في التقديم والتأخير، فبعد أن أوضح علامة العربية عبد القاهر بلاغة هذا الباب [1]، لم يرقه ما ذهب إليه النحويون من قولهم: قُدِّمَ للعناية وللاهتمام، دون

---

[1] انظر: دلائل الإعجاز: 106 .

أن يبينوا علة هذه العناية وهذا الاهتمام [1]. ومن هنا شرع علامة العربية في سوق الأمثلة وإعمال السياق فيها [2].

وما ذهبنا إليه هنا من إظهار أثر السياق في عملية تقديم المفعول به على الفاعل، هو ما رمى إليه عبد القاهر الجرجاني، والسكاكي، والقزويني، وغيرهم من البلاغيين.

فإن قيل: لِمَ جاء بدال (رب) في منطقة الفاعل دون اسم الجلالة (الله)، أو دال (إله)؟ قلتُ: لأنه قال: (ابتلى)، والابتلاء يعني الاختبار [3]. والابتلاء كان ب(الكلمات) التي تعني خلالًا عشرة من السُّنَّةِ: خمس في الرأس وخمس في الجسد؛ فأما اللاتي في الرأس فالفرق* ، وقص الشارب، والاستنشاق، والمضمضة، والسواك. وأما اللاتي في الجسد، فالختان، وحلق العانة، وتقليم الأظافر، ونتف الرفغين، أي الإبطين، والاستنجاء [4].

وإضافة إلى ما ساقه الفراء، قيل في (الكلمات): هي شرائع الإسلام، أو مناسك الحج، أو الآيات التي بعد هذا الموضع (إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا) والتي بعدها. وقيل: بل هي الخلال الستُّ:الكوكب، والقمر، والشمس، والنار، والهجرة، والختان، فصبر

---

(1) انظر: دلائل الإعجاز: 108. وانظر في علة تقديم المفعول على الفاعل للعناية والاهتمام: سيبويه ، الكتاب ، الجزء الأول: 34 .

(2) وانظر كذلك: السكاكي ، مفتاح العلوم: 236 – 239 . والقزويني ، الإيضاح في علوم البلاغة ، المجلد الأول ، الجزء الثاني: 168 – 177 .

(3) انظر: أبي عبيدة ابن المثنى ، مجاز القرآن ، الجزء الأول: 54 ، والطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، طبعة دار هجر ، الجزء الثاني: 498 .

* أي فرق الشعر، وهو تفريقه في سوط الرأس، لا يُترك جملة واحدة ؛ ليكون ذلك أعون على تسريحه وتنظيفه .

(4) انظر: الفراء ، معاني القرآن ، الجزء الأول: 76 .

عليهنَّ، أو تسبيح سيدنا إبراهيم في الصباح وفي المساء، أو صلاة أربع ركعات في النهار [1].

وكانت نتيجة هذا الابتلاء، أن نحج سيدنا إبراهيم فيه (فَأَتَمَّهُنَّ)، أي: عَمِلَ بِهِنَّ وأَدَّاهُنَّ [2]. فلما كان ذلك كذلك قال له: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾.

ولما كان الابتلاء بكلمات جديدة في معناها على سيدنا إبراهيم عليه السلام، بما فيها من تكاليف وتعاليم، ربما تصعب على بني البشر، كان استدعاء الربوبية التي تعني التربية والتهذيب والتثبيت...إلخ لنبيٍّ اصطفاه (الله) عز وجل، وجعله خليله، وأبًا للأنبياء من البيان والبلاغة بمكان. ومن ثم كان اجتياز سيدنا إبراهيم لهذا الابتلاء بجدارة من نتيجة ربوبية (الله) له، ناهيك عما جاء فيما بعد من الابتلاء في حادثة الذبح. هذا أمر.

الأمر الآخر، أن مفهوم الربوبية كان هو المثار في تلك الآونة؛ لذا كانت مناجاة سيدنا إبراهيم (لله) عز وجل بدال (رب)، هي السائدة دائمًا. وإن شئت اقرأ بعد هذا الموضع قوله تعالى: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ (البقرة: 126)، وقوله عز وجل: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾ (البقرة: 127)، وقوله تبارك وتعالى: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾(البقرة: 128) وقوله سبحانه وتعالى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ (البقرة: 129) *.

وحتى في البنية نفسها – تقديم المفعول في صورة ضمير الغائب على الفاعل - ورد دال (رب) ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة: 131).

---

[1] انظر: الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، طبعة دار هجر ، الجزء الثاني: 498 – 508 . ومنعًا لسرد التفاسير والإطالة في ذلك ، فقد سارت كل التفاسير القرآنية لكتاب (الله) العزيز على هذا النحو .

[2] انظر: الفراء ، معاني القرآن ، الجزء الأول: 76 ، والطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، طبعة دار هجر ، الجزء الثاني: 509 . وفي طبعة مؤسسة الرسالة: (أَتَمَّهُنَّ) ، أي: (إكمالهُ إيَّاهُنَّ) . انظر: المجلد الأول: 373 .

* وثمة كثير غير تلك المواضع في القرآن الكريم . على القارئ الكريم مراجعتها في سورها .

وفي مجادلة النمرود مع سيدنا إبراهيم عليه السلام، نرى دال (رب) ماثلًا في قول (الله) سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (البقــرة: 258).

وكذلك في مجاراة القوم في منطقهم:﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (الأنعام: 76 – 78).

فإن طُرِحَ سؤال آخر: أَلَا كان من الممكن أن يرد الفاعل في البنية محل الدراسة مستترًا، ويُبْنَى الفعل للمجهول، وتكون بنية التركيب اللغوي على هذا النحو: (وإذ أُبْتُلِيَ إبراهيمُ بكلماتٍ)؟

قلتُ: لا؛ لأن خطاب الفاعل ماثل في المقطع القرآني كله، سواء أكان في منطقة الفاعل للفعل (قال)، أم بالضمير (نا) في (جعلنا)، و(عهدنا)...إلخ، أم في منطقة النداء ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ﴾، و ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ﴾ ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا﴾، أم في غيرها من المناطق والرتب النحوية الأخرى. فكيف يكون ماثلًا على هذا النحو، ويُسْتَتَرُ؟ فلما كان الحضور لا يتوافق إلا مع الظهور، كان ظهوره أبلغ. وعلوًا في درجة البلاغة ورد بلفظه (رب)، ولم يرد بالضمير المضمر.

ومن حيث سيطرة الفاعل وتأثيره في مضامين الربع القرآني كله، فهو من الوضوح بمكان؛ إذ مَنِ الذي اصطفى إبراهيم، ومَنْ أرسله، ومَنِ اختبره، ومَنْ أمره برفع القواعد، ومَنْ سيكفي النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (البقرة: 137)...إلخ.

وحتى في الآية الأخيرة من السياق في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (البقرة:141)، مَنِ المخاطِب؟ إنه (الله) (رب) العالمين. علمنا (الله) وإياكم.

والآن ننظر ماذا قالت التفاسير في بنية التقديم هذه. يقول ابن عطية: " وقُدِّمَ – أي (إبراهيم) - على الفاعل للاهتمام؛ إذ كون الرب مبتليًا معلوم، فإنما يهتم السامع بِمَن أُبْتُلِيَ، وكون الضمير المفعول متصلًا بالفاعل موجب تقديم المفعول، فإنما بُنِيَ الكلام على هذا الاهتمام "([1]).

وبعد أن ساق محيي الدين شيخ زاده كلام ابن عطية في أن التقديم للاهتمام، قال:" والمفعول لا يتشوق الذهن إلى بيانه ومعرفته، إنما يتشوق ويطلب معرفة المبتلى. وللإيجاز أيضًا، فإنه لو قدم الفاعل وقيل: (رب إبراهيم)، ثم ذكر إبراهيم منصوبًا على المفعولية لتكرر ذكر إبراهيم. والإيجاز مطلوب في الكلام " ([2]).

ويقول ابن عاشور:" وتقديم المفعول وهو لفظ إبراهيم؛ لأن المقصود تشريف إبراهيم بإضافة اسم رب إلى اسمه، مع مراعاة الإيجاز؛ فلذلك لم يقل: وإذ ابتلى الله إبراهيم " ([3]).

أما الزمخشري فقد ساق قراءة لأبي حنيفة عن ابن عباس رضي الله عنه برفع (إبراهيمُ)، ونصب (ربَّه) على أساس أن المعنى: أنه –أي إبراهيم - دعاه، أي دعا ربه، بكلمات من الدعاء فعل المختبر هل يجيبه إليهن أم لا؟ ([4]).

([1]) انظر: المحرر الوجيز: 130.

([2]) انظر: محيي الدين شيخ زاده ، الحاشية على تفسير البيضاوي ، الجزء الثاني: 270 .

([3]) انظر: التحرير والتنوير ، الجزء الأول: 702 .

([4]) انظر: الكشاف ، الجزء الأول: 182 ، 183 . ثم شرع في شرح موضوع الضمير . أما أبو حيان الأندلسي ، فقد ساق رأي ابن عطية والزمخشري . انظر: البحر المحيط ، الجزء الأول: 545 ، 546 .

وفي رأيي، أن القراءة المشهورة الواردة في المصحف أشد بلاغة، وأكثر ناصعة، وإن يكن في كل خير وبلاغة كذلك. والقول على بيِّنًا من خلال السياق [*].

المبحث الثاني: دال (رب - إله) في موقع المنصوب على التعظيم

بعد الفراغ من دراسة دالي (رب، إله) في موقع الفاعلية، من خلال العناصر السابقة، كان طبيعيًا، أن تُستكمل الدراسة بالتعريج على دراستهما في منطقة المنصوب على التعظيم([1])، وذلك لاستكمال الدراسة في التركيب الزمني. وسيُبنى هذا الجزء من الدراسة على قراءة دالي (رب، إله) في منطقة المنصوب على التعظيم، حالة كونهما اسمين ظاهرين، أو ضميرًا يعود إليهما.

المفعول به: هو ما وقع عليه فعل الفاعل([2]). لكن هذا التعريف، ينبغي إدخال بعض التعديلات عليه عند دراسة دالي (رب، إله) في موقع المنصوب على التعظيم؛ وذلك لاختلاف الدلالة معهما. فإن قلتُ: أعطيتُ محمدًا جائزةً. فإن محمدًا مفعول به ، لأنه لم يعطني شيئًا. وبذلك تنتهي الدلالة بانتهاء التركيب اللغوي.

أما إذا قلتُ: (اتقى المؤمنُ ربَّه) فإن الدلالة لم تنته وإن انتهت لغويًا؛ إذ لها مردود وتكملة، متمثلًا في حصول المتقِي على مكافأة من المتقَّى. كما سنبين.

1-دال (رب، إله) اسم في موقع المنصوب على التعظيم

لقد ورد دال (رب) في منطقة المنصوب على التعظيم بلفظه في القرآن الكريم في مواضع كثيرة. يكفينا أن نتناول موضعًا واحدًا من تلك المواضع بوصفه نموذجًا

---

[*] أرى أن نكتفي بهذا القدر من التحليل ، تاركين النماذج الأخرى لتأمل القارئ الكريم .

([1]) نقول: " المنصوب على التعظيم"، ولا نقول: (المفعول به) تأدبًا في الحديث مع (الله) عز وجل . انظر:الآثاري، ألفية الآثاري(كفاية الغلام في إعراب الكلام): 109. وقد ألمحنا إلى ذلك في الكتاب الأول.انظر: الكتاب الأول:383.

([2]) انظر:الرضي ، شرح الرضي على الكافية، الجزء الأول: 333 .وابن يعيش ، شرح المفصل، الجزء الأول: 308، والسيوطي ، همع الهوامع ، الجزء الثالث: 7 . والسامرائي ، معاني النحو ، الجزء الثاني: 84 .

تحليليًا، وليكن قول (الله) تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (الأنعام: 52)([1]).

إن محاولة التعرف على أطراف الخطاب في بنية هذه الآية الكريمة، يعطينا الآتي: مخاطِب / (الله) سبحانه وتعالى، ومخاطَب/ سيدنا النبي ﷺ، مُتَحَدَّثٌ عنه / الصحابةالكرام فقراء مكة من أمثال: بلال وعمار وصهيب وسلمان وغيرهم من فقراء المسلمين؛ إذ كانوا يجالسون النبي ﷺ، فجاء أشراف مكة من الكفار، وقالوا يا محمد إنَّا من أشراف مكة، وإذا أردت أن نجالسك فاطرد هؤلاء، فنزلت الآية الكريمة ([2]). أما الحدث ذاته فهو دعاء هؤلاء ربهم، ثم يرد النهي عن طردهم (ولا تطرد) ، نزولًا على رغبة الكفار من سادة قريش.

وبالتأمل في إعراب دال (رب) في الآية الكريمة، يدرك أنه منصوب على التعظيم، وهو مضاف، و(الهاء) ضمير مضاف إليه. ويتسق هذا الطرح مع التقعيد النحوي.

أما الجانب الدلالي، فله رأي آخر، متمثل في كون دال (رب) هو الفاعل الدلالي، وإن كان يشغل منطقة المنصوب على التعظيم. فإن قيل: كيف؟ قلتُ: إذا طُرِحَ سؤال: لماذا يدعو هؤلاء النفر من خيرة المسلمين ربهم؟ أجابت الآية الكريمة في قوله تعالى: (يُرِيدُونَ وَجْهَهُ).

إذن فدعاء المنصوب على التعظيم (ربهم) يعد بمثابة مرحلة تمهيدية، لطلب رضى المدعو (رب). وإذا أُسْتُجِيبَ لهؤلاء، فالمنصوب على التعظيم / المدعو / ربهم،

([1]) وانظر: سورة (النساء: 1) ، وسورة (آل عمران: 41) ، وسورة (الأعراف: 55 ، 205) ، وسورة (الحجر: 99)، وسورة (الإسراء: 46) ، وسورة (الكهف: 24) ، وسورة (النمل: 91)، وسورة (السجدة: 16) ، وسورة (الصافات: 84) ، وسورة (غافر: 49) ، وسورة (البينة: 8) ، وسورة (قريش: 3) . وغيرها من المواضع الأخرى .

([2]) انظر: النيسابوري، أسباب النزول: 219 – 221 . والسيوطي ، لباب النقول في أسباب النزول: 113 - 115.

هو الذي يعطي هؤلاء سؤلهم. ومن ثم تنتهي الدلالة النهائية للخطاب بوقوع المنصوب على التعظيم النحوي في منطقة الفاعل الدلالي؛ لأنه – في النهاية – هو الذي سيلبي الدعاء، ويهب العطاء، ويجيب السؤال. ويمكن توضيح ذلك في المخطط الآتي:

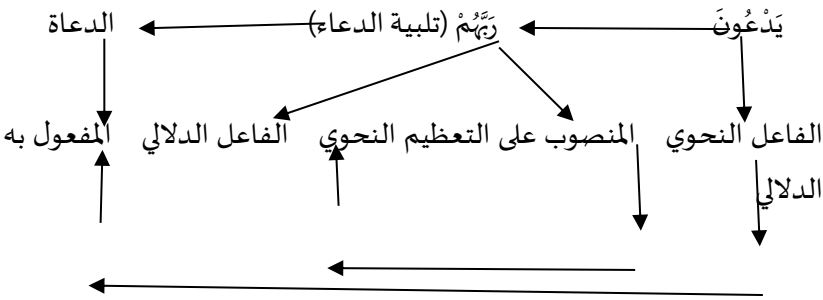

وكما هو واضح، تَتَخَلَّى الدوال اللغوية المكونة لبنية التركيب عن رُتَبِهَا النحوية؛ لتشغل رُتَبًا أخرى تُناطُ بها وظائف مغايرة في التركيب الدلالي؛ فيصبح الفاعل النحوي مفعولًا به دلاليًا، ويصبح المنصوب على التعظيم النحوي فاعلًا دلاليًا. وفي حدود علمي، لم تتوفر تلك الخصائص والسمات اللغوية البلاغية إلا في لغة القرآن الكريم.

وفي تلك الظاهرة اللغوية المعجزة–الفرق بين الرتبة النحوية والوظيفة الدلالية – قد ترد الرتبة النحوية أولًا، ثم يتوصل إلى الوظيفة الدلالية ثانيًا، مثلما حدث في هذا النموذج، حيث وردت الرتبة النحوية أولًا، المتمثلة في شغل الدعاة لمنطقة الفاعلية وشغل دال (رب) لمنطقة المنصوب على التعظيم، ثم تم التوصل إلى الوظيفة الدلالية – الفاعل الدلالي والمفعول به الدلالي بمواصلة القراءة في الآية نفسها ((يُرِيدُونَ وَجْهَهُ).

وأحيانًا ترد الرتبة النحوية للفاعل وللمنصوب على التعظيم أولًا، ثم تُسْتَكْشَفُ الوظيفة الدلالية في الآية اللاحقة، وذلك في قوله تعالى: ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ (قريش: 3، 4).

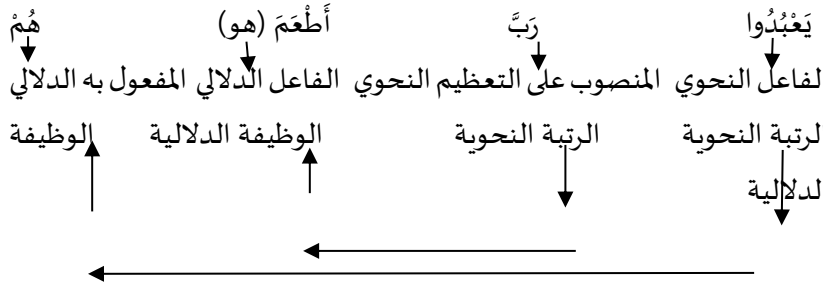

وأحيانًا أخرى تسبق الوظيفة الدلالية الرتبة النحوية؛ فيبدو المفعول به دلاليًا فاعلًا نحويًا، والفاعل الدلالي هو المنصوب على التعظيم النحوي، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ * جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ (البينة: 7، 8).

فالخيرية، وجنات عدن، والخلود فيها، ورضى (الله) مِمَّنْ حَصَلَ عليه (الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) / المفعول به الدلالي؛ لكونهم الآخذين مِنْ (ربهم)/الفاعل الدلالي (جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ). ولماذا حصلوا على ذلك؟ لأنهم خَشَوْا رَبَّهُم (خَشِيَ (هو) الفاعل النحوي ← رَبَّهُ / المنصوب على التعظيم النحوي).

وأحيانًا أخرى، ترد الرتبة النحوية للفاعل النحوي والمنصوب على التعظيم النحوي، ويُتَوَصَّل إلى الوظيفة الدلالية للاثنين بتأويل في آية آخرى. وذلك مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ **وَخَافُونِ** إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: 175). فـ(خافونِ): فعل، وفاعل، و(نون) الوقاية، والمنصوب على التعظيم (ي) محذوف للتخفيف. وقد حاز الفاعل والمنصوب على التعظيم الرتبة النحوية.

أما الوظيفة الدلالية، فقد فُسِّرَتْ في موضع آخر، وهو قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ (الرحمن: 46)؛ فـ(مَنْ) هو الآخذ / المفعول به الدلالي، و(الرب) هو المعطي / الفاعل الدلالي، و(الجنتان) هما نتيجة الخوف. وعلى هذا فقس.

ويقع في منطقة المنصوب على التعظيم الاسمُ المنادى؛ فقد قيل: إن الاسم المنادَى أصله مفعول به في المعنى، وناصبه فعل مضمر نابت (يا) منابه، فأصل (يا زيدُ): أَدْعُو زيدًا، فحذف (أدعو) ونابت (يا) منابه [1]. وإذا كان ذلك كذلك، علينا أن نسوق أمثلة على هذا الطرح في الجانب التطبيقي.

وإذا أمعنا النظر في بنية (النداء) في حد ذاتها، ألفيناها تتألف من مخاطِب / منادِي ومخاطَب / منادَى، وطلب شيء ما من المنادَى، المسمى بالرسالة. وطبيعيًا أنه في حالة إجابة المنادَى لطلب المنادي، تتبدل الرتب النحوية ومن ثم الوظائف الدلالية؛ فيتحول المنادِي / الفاعل النحوي إلى مفعول به؛ لكونه الحاصل على مضمون النداء ويتحول المنادَى إلى فاعل؛ لكونه ملبي طلب المنادِي. وإذا وقع الاختيار على أي بنية ندائية في آيات الذكر الحكيم تبين لنا ذلك.

لنأخذ مثلًا قول (الله) عز وجل: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (البقرة: 201). وحسب طرح ابن عقيل، يكون التركيب اللغوي في بنية النداء على هذا النحو: (ندعو ربنا)، فيكون الفاعل كامن في ضمير الجمع (الواو)، و(ربنا) / المنادَى منصوبًا على التعظيم، ومضمون الدعاء (آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) / الرسالة.

وإذا دققنا النظر في الزمنين: (آتِنَا، قِنَا) وجدنا تبادل الرتب النحوية؛ إذ الفاعل في الزمنين، هو المنصوب على التعظيم في بنية النداء (رب)، والمفعول به في الزمنين (نا) هو الفاعل في بنية النداء (واو الجماعة). وعند إجابة السُّؤْلِ، وحصول المنادي / الداعي / الفاعل النحوي على مضمون دعائه، تنتهي الدلالة ويكتمل المعنى. ويمكن توضيح هذه العملية اللغوية في هذا المخطط، على أن نكتفي بزمن واحد:

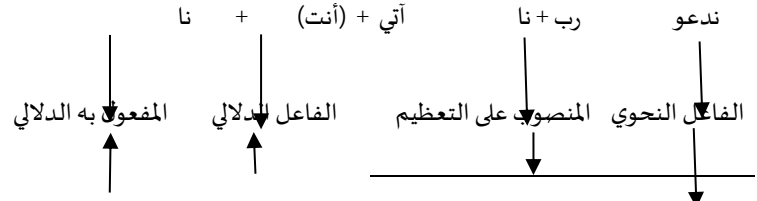

[1] انظر: شرح ابن عقيل ، المجلد الثاني ، الجزء الثالث: 258 .

وأما من حيث ورود دال (رب) دون اسم الجلالة (الله)، أو دال (إله)؛ فلأن الرب العلي يجيب الدعاء بسمات الربوبية، ويعطي الفيوضات بسمات الربوبية، ويجزل العطاء بسمات الربوبية. لكن ثم فرق كبير بين أن يكون الآخذ مؤمنًا، آمن ب(الرب) العلي إلهًا، فعبده دون غيره، وأن يكون الآخذ كافرًا، فيتنعم بنعم الربوبية في الدنيا، وفي الآخرة ما له من نصيب.

وإذا شئت اقرأ في الصنف الأول قول (الله) سبحانه وتعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (البقرة: 201، 202).

وفي الصنف الأخر، اقرأ قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ (البقرة: 200) * . وكذلك قوله عز وجل: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ (الشورى: 20).

وكما ورد دال (رب) بلفظه في منطقة المنصوب على التعظيم، ورد كذلك دال (**إله**) بلفظه في المنطقة نفسها، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (البقرة: 133) ([1]) .

---

* فإن قيل: السياق سياق حج ، فكيف لا يكون للحاج في الآخرة خلاق ، أي نصيب؟ قلتُ: هؤلاء هم الكفار من الجاهلية . انظر: الفراء ، معاني القرآن ، الجزء الأول:122 ، والطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، طبعة دار هجر ، الجزء الثالث: 542 .

([1]) وانظر كذلك قوله تعالى:﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(التوبة: 31).

ودال (إله) هنا منصوب على التعظيم للزمن (نعبد). أما الفاعل فهم أبناء سيدنا يعقوب عليه وعليهم السلام. وهنا تطرح أسئلة ثلاثة: **الأول** لماذا دال (إله)، ولم يكن اسم الجلالة (الله)، أو دال (رب)؟ **الثاني**: لماذا الإضافة إلى (الكاف) العائدة إلى سيدنا يعقوب عليه السلام؟ **الأخير**: هل ينطبق على هذا الموضع ما انطبق على سابقه في عملية الرتب النحوية والوظائف الدلالية؟.

أما إجابة السؤال الأول، فإن ورود دال (إله) دون دال (رب)؛ فلكون الحديث عن العبادة. فإن قيل: إذا كان السياق سياق عبادة، فَلِمَ لَمْ يكن اسم الجلالة (الله)؟ قلتُ: للرغبة في الإضافة، واسم الجلالة (الله) لا يضاف إلى ضمائر.

وترد إجابة السؤال **الثاني** – وهو متعلق بالأول بطبيعة الحال – في أن الإضافة إلى (كاف) الخطاب العائد إلى سيدنا يعقوب عليه السلام لها ثلاث وظائف: **الأولى** تتمثل في قصر العبادة وحصرها على (الله) سبحانه وتعالى؛ إذ لم يعبد سيدنا يعقوب إلا (الله) سبحانه وتعالى، ولم يدع الناس إلا إلى عبادة (الله) جل في علاه.

وتتمثل الوظيفة **الثانية** في أن من شأن الإضافة طمأنة سيدنا يعقوب عليه السلام في أن أبناءه سيسيرون على دربه، ولن يحيدوا عن منهجه، الذي هو منهج آبائه من الأنبياء والرسل. وهو المفهوم من بنية العطف (وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ).

فإن قيل: إذا كان نبي (الله) يعقوب عليه السلام، وكل آبائه من الأنبياء والرسل ما عبدوا غير (الله)، وما دعو إلا إليه، فَلِمَ لَمْ يرد اسم الجلالة (الله) – كما طرحنا منذ قليل؟ - قلتُ: زيادة في التأكيد، ودرءًا للتوهم أو تسلل أي ضرب من الشك – ليس من قبل المخاطِب / أبناء سيدنا يعقوب، ولا من قبل المخاطَب / سيدنا يعقوب عليه السلام، وإنما من قِبلِ مستمع الحوار، أو متلقي القرآن الكريم من ذوي القلوب المريضة في التغاير في المعبود.

أما الوظيفة **الأخيرة**، فتتمثل في تشريف سيدنا يعقوب عليه السلام وبيان مكانته عند خالقه جل وعلا، ولِمَ لا وهو صاحب ابتلاء فراق سيدنا يوسف عليه السلام!!!.

أما السؤال **الأخير**، فَنَعَمْ ينطبق هنا ما انطبق هناك؛ لأن العباد كل العباد – بما فيهم الأنبياء والرسل–في حاجة إلى عبادة (الله) سبحانه وتعالى؛لخلقه إياهم، ونعمه عليهم، وإماتتهم، وحسابهم في الآخرة، واستقرارهم في جنانه...إلخ. ومن هنا يصبح الفاعل/ أبناء سيدنا يعقوب مفعولًا به في الجانب الدلالي؛لكونهم الحاصلين على النعم والرضى الدنيوي والأخروي ، والمنصوب على التعظيم فاعلًا؛ لكونه المعطي.

2- دال (رب - إله) ضمير في موقع المنصوب على التعظيم

في تلك البنية من الخطاب القرآني، ورد دال (رب) في موقع المنصوب على التعظيم من خلال ضمير المتكلم المفرد المتصل (ي)، وذلك في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ **ادْعُونِي** أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (غافر: 60).

كما ورد في موقع المنصوب على التعظيم، من خلال ضمير المخاطَب المفرد المتصل (ك)، وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ **أَسْأَلَكَ** مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (هود: 47).

وهنا تُطرح أسئلة الثلاثة: **الأول** لِمَ كان دال (رب)، ولم يكن اسم الجلالة (الله)، أو دال (إله)؟ **الثاني**: لِمَ كان الضمير؟ **الأخير:** هل ينطبق هنا ما انطبق على النماذج السابقة من مسألة الرتب النحوية والوظيفة الدلالية؟

وفي جواب السؤال **الأول**، فإن دال (رب) يعني الربوبية، وسمات الربوبية تتوافق مع الدعاء والتضرع والتوجه إلى الحالق جل في علاه، سواء أكان ذلك في الموضع الأول (وَقَالَ رَبُّكُمُ **ادْعُونِي**)، أم في الموضع الأخير (قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ **أَسْأَلَكَ**).

أما ورود الضمير بدلًا من الاسم الظاهر، فإن هذا يتوافق مع نواميس اللغة العربية التي تقول بالإضمار بعد الإظهار. فإذا عدنا للموضع الأول (وَقَالَ رَبُّكُمُ **ادْعُونِي**)، وجدنا أن فاعل الزمن (قال) الذي ورد بلفظه في منطقة الإظهار (رب)، هو هو ضمير المتكلم المفرد (ي) المنصوب على التعظيم للزمن (ادعوني). وكان

طبيعيًا أن يرد مضمرًا، بعد أن ورد مظهرًا في منطقة الفاعلية السابقة، وبخاصة القرب المكاني للمنطقتين.

والأمر نفسه بالنسبة للموضع الثاني (قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ **أَسْأَلَكَ**)، حيث ورد دال (رب) بلفظه في منطقة الفاعلية من الزمن (قال)، فكان طبيعيًا أن يرد فيما بعد مضمرًا، وهو الذي بدا في منطقة الجر (بك)، والمنصوب على التعظيم (ك)؛ لأن السياق سياق خطاب من سيدنا نوح عليه السلام لرب العزة جل في علاه.

وفيما يخص السؤال **الأخير**، فَنَعَمْ ينطبق هنا ما انطبق على ما سبق. فإن قيل: كيف؟ قلتُ: هاكم. يقول الموضع الأول: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ **ادْعُونِي** أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾. الملحوظ أن الفاعل النحوي في الزمن (ادعوني) (واو) الجماعة في التركيب الأول (ادعوني) هو المفعول به الدلالي في التركيب الثاني (أَسْتَجِبْ لَكُمْ)، والمنصوب على التعظيم (ي) في التركيب الأول هو الفاعل في التركيب الثاني (أَسْتَجِبْ لَكُمْ).

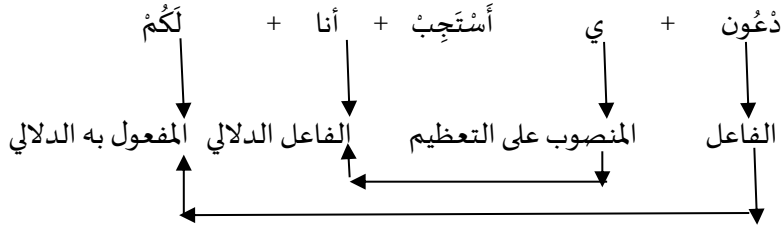

وزيادة في إيضاح الوظيفة الدلالية، ترد نتيجة استكبار الفاعل النحوي عن دعاء المنصوب على التعظيم النحوي في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾، ليصبح الفاعل النحوي المستكبر مفعولًا به في دخوله جهنم، والمنصوب على التعظيم يصبح فاعلًا؛ لكونه المُدْخِل.

وفي النموذج الثاني، يتبين الطرح نفسه، ففي قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ **أَسْأَلَكَ** مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، نلحظ أن فاعل (أَسْأَلَكَ) هو المفعول به الدلالي في (لي)، و(الياء) في (تَرْحَمْنِي). والمنصوب على التعظيم (الكاف) هو الفاعل الدلالي للزمن (تَغْفِرْ، تَرْحَمْ).

وأحيانًا يرد دال (رب) في منطقة المنصوب على التعظيم في ضمير (الكاف) بفعل المصدر المتمثل في المفعول المطلق، وذلك كما في دال (غفرانك) في قول (الله) تعالى: ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (البقرة: 285).

إن الطرح النحوي يقول: إن دال (غفرانك): مصدر / مفعول مطلق منصوب بإضمار عامله / أي فعله (اغفر غفرانك)، أو (نستغفرك غفرانك) ([1]). وهو من ضرب المؤكد لعامله.

ويعمل المصدر عمل فعله في موضعين: **الأول** أن يكون نائبًا مناب الفعل. وهذا في حال أن يكون المصدر مفعولًا مطلقًا. **الآخر:** أن يكون المصدر مقدرًا ب(أن والفعل) في حالة دلالته على المضي أو الاستقبال، أو ب(ما والفعل) إذا دل على الحال ([2]).

ويعمل المصدر في ثلاثة أحوال: أن يكون مضافًا، أومجردًا عن الإضافة و(ال) – وهو المنون – أومحلى ب(ال)، وإعمال المضاف أكثر من إعمال المنون، وإعمال المنون اكثر من إعمال المحلى ب(ال) ([3]).

([1]) انظر: الزجاج ، معاني القرآن وإعرابه ، الجزء الأول: 369 ، والنحاس ، إعراب القرآن: 119 ، والعكبري ، التبيان في إعراب القرآن ، القسم الأول: 234 ، ومحيي الدين الدرويش ، إعراب القرآن الكريم وبيانه ، المجلد الأول: 386 ، ومحمود سليمان ياقوت ، إعراب القرآن الكريم ، المجلد الأول: 528 ، ومحمد حسن عثمان ، إعراب القرآن وبيان معانيه ، المجلد الأول: 743 . غير أن عثمان قدم وجه المفعول به . وأما بهجت عبد الواحد صالح ، فلم يقدم إلا وجه المفعول به فحسب . انظر: الإعراب المفصل ، المجلد الأول: 408 .

([2]) انظر: ابن يعيش، شرح المفصل ، الجزء الرابع: 72 ، 73 ، 82 . وابن عقيل ، شرح ابن عقيل، المجلد الثاني، الجزء الثالث: 93 ، 94 . وعباس حسن، النحو الوافي، الجزء الثالث: 211 ، 212 . وانظر في عمل المصدر كذلك: سيبويه ، الكتاب ، الجزء الأول: 189 – 194 ، والمبرد ، المقتضب ، الجزء الأول: 151 – 159 ، والرضي ، شرح الرضي على الكافية ، الجزء الثالث: 402 – 412 .

([3]) انظر: ابن يعيش ، شرح المفصل ، الجزء الرابع: 74 . وابن عقيل ، شرح ابن عقيل ، المجلد الثاني الجزء الثالث: 94 .

وكما هو واضح، فإن المصدر (غفرانك) قد ناب مناب الفعل مؤكدًا له؛ إذ هو مفعول مطلق، وفي الوقت نفسه أضيف إلى ضمير (ك). ومن ثم فهو يعمل عمل فعله وحسب تقدير الفعل يكون عمل المصدر.

فإذا قدرنا الفعل في الدعاء (اغفر) ([1])، كان المصدر رافعًا لفاعل محذوف تقديره (أنت) عائد إلى دال (رب). وإذا قدرناه (نستغفرك)، كان المصدر رافعًا لفاعل محذوف تقديره (نحن)، وناصبًا للمنصوب على التعظيم (رب) المتمثل في ضمير (ك).

وأنا أرجح الوجه الأخير؛ لورود المصدر في سياق الدعاء الذي يعني الطلب والرجاء، وذلك في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة: 286).

فإن قيل: لماذا جعلتَ ضمير (الكاف) الواقع في منطقة المنصوب على التعظيم بفعل المصدر يعود إلى دال (رب)؟ قلتُ: لوروده في بنية الدعاء (ربنا) (غُفْرَانَكَ رَبَّنَا)، وكذلك في منطقة الخبر شبه الجملة المقدم في صورة ضمير (الكاف) كذلك: (وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ) ولسيطرته على سياق الدعاء في الآية اللاحقة، كما وضحنا.

فإن قيل: ولماذا جيء بدال (رب) هنا؟ قلتُ: لمناسبة مقام الدعاء والطلب والرجاء، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى؛ لأن إجابة الدعاء الذي يتجلى في فيض العطاء سيكون بنعم الربوبية. فهمنا (الله) وإياكم *.

3-دال (رب – إله) في موقع المنصوب على التعظيم للمشتقات

أوضحنا في منطقة الفاعل، أن دال (رب) يرد في منطقة الفاعل المحذوف للمشتقات المتنوعة. وأوضحنا كذلك شروط عمل تلك المشتقات.وقلنا في موضعه:

([1]) يقول الزجاجي:" غفرانك: تأويله: اغفر لنا ذنوبنا " . انظر: حروف المعاني ، القسم الثاني: 22 .

* جدير بالذكر أن دال (إله) ، لم يرد في منطقة المنصوب على التعظيم بصيغة الضمائر . فاعرفه .

إن هذه المشتقات إذا كانت مقترنة ب(ال) تعمل عمل فعلها مطلقًا، وإن كانت مجردة منها، عملت بشرط الاعتماد على النفي أو النداء أو الاستفهام أو الصفة أو المسند، ودلالتها على الحال والاستقبال.

والآن ننظر كيف تعمل عمل فعلها في نصب المنصوب على التعظيم / دال (رب)، وذلك من خلال آيات الذكر الحكيم. ومن الطبيعي أن أفعال تلك المشتقات ينبغي أن تكون أفعالًا متعدية كي تنصب مفعولًا به / المنصوب على التعظيم هنا. وهذا ما سنلحظه من خلال الآيات التي سنسوقها إن شاء (الله) تعالى.

والأفعال المتعدية على ضربين: إما متعدية بنفسها، أو لازمة متعدية بإحدى صور ثلاثة: الهمزة، أو التضعيف، أو حرف الجر. فمثال الأول قوله تعالى: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ﴾ (الأحقاف: 20)، وقوله تعالى: ﴿أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ﴾ (الأعراف:27). ومثال الثاني: الفعل (فَرِحَ) فتقول (فَرِحَ زيدٌ)، فإذا أردت التعدي ضعفتَ فقلتَ: (فرَّحته) أو (نزل)، (نزلَّته). ومثال الأخير – حرف الجر- (مررت بزيد)، و(نزلت على عمرو). فهذه الحروف إنما دخلت الاسم للتعدية، وإيصال معنى الفعل إلى الاسم؛ لأن الفعل قبلها لا يصل إلى الاسم بنفسه؛ لأنها أفعال ضَعُفَتْ عرفًا واستعمالًا، فوجب تقويتها بالحروف الجارة، فيكون لفظه مجرورًا، وموضعه منصوبًا بأنه مفعول به، ولذلك يجوز فيما عُطِفَ عليه وجهان: الجر والنصب، نحو قولك: (مررت بزيد وعمرٍو وعمرًا)، فالجر على اللفظ والنصب على الموضع.

واعلم أنه متى عديت الفعل بالهمزة، أو التضعيف، لم تجمع بين واحد منهما وحرف الجر؛ لأن الغرض تعدية الفعل، فبأي شيء حصل أغنى عن الآخر([1]). وسنتناول بلاغة ضربي التعدي من خلال الآيات التي سنسوقها إن شاء (الله) تعالى.

([1]) انظر: ابن يعيش، شرح المفصل، الجزء الرابع:299، 300.والرضي، شرح الكافية، الجزء الرابع: 135–137، وابن عقيل، الجزء الثاني:150–153، وابن هشام، أوضح المسالك، الجزء الثاني: 178 .

وإذا بدأنا بالمشتقات المشتقة من الفعل المتعدي بنفسه، ألفينا أن دال (رب) يرد في منطقة المنصوب على التعظيم لتلك المشتقات في صورتين: الاسم الظاهر المضاف إلى عامله ([1])، والضمير المستتر.

وفي الصورة **الأولى** يرد قول (الله) سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (البقرة: 46)، وكذلك سورة (هود: 29).

فإذا تأملتَ بنية (أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ) أدركتَ أن دال (رب) قد أضيف إلى اسم الفاعل (ملاقو). و(ملاقو) اسم فاعل من الفعل الرباعي (لاق)، وإنما ضُمَّ الحرف قبل الآخير (ق) لمناسبة (واو) الجمع، وإنما أصله المفرد (ملاقِي) وفق قاعدة الاشتقاق.

واسم الفاعل (ملاقو) هنا نكرة، حذفت منها النون للإضافة، بغرض التخفيف. ولذا لا يعمل إلا بالشروط المعروفة لعمل المشتقات، المتمثلة في الاعتماد على الاستفهام، أو النداء، أو النفي، أو المسند/ الخبر، أو الصفة. وشرط دلالته على الحال أو الاستقبال.

وبمراجعة اسم الفاعل (ملاقو) نجد أنه خبر للناسخ (أَنَّ). ومن حيث الدلالة فهو يدل على الاستقبال ([2])؛ إذ ملاقاة (الرب) لا تكون إلا بعد الموت. ومن هنا فإن دال (ملاقو) اسم فاعل عامل. فإن قيل:فما بالك بدال(الظن) في(يَظُنُّونَ)؟قلتُ:(الظن) هنا بمعنى (اليقين) ([3]).

([1]) انظر: ابن السراج ، الأصول في النحو ، الجزء الأول: 126، 127، وابن يعيش ، شرح المفصل ، الجزء الرابع: 85 ، 99 –101، وابن عقيل ، شرح ابن عقيل ، المجلد الثاني ، الجزء الثالث: 118 .

([2]) انظر: ابن عطية ، المحرر الوجيز: 83 ، والعكبري ، التبيان في إعراب القرآن ، القسم الأول: 59.

([3]) انظر:أبي عبيدة ، مجاز القرآن ، الجزء الأول: 39 ، 40 ، والزجاج ، معاني القرآن وإعرابه ، الجزء الأول: 126 . ومن التفسير ، انظر: الماوردي ، النكت والعيون ، الجزء الأول: 116 ، والزمخشري ، الكشاف ، الجزء الأول: 137 ، والألوسي ، روح المعاني ، الجزء الأول: 249 ، وابن

وكأن التركيب كان على هذا النحو (أنهم يلاقون ربهم) [1]؛ ولكون الفعل (لاق) متعديًا رفع فاعلًا (واو الجماعة) وأضيف إلى معموله / دال (رب) الواقع في منطقة المنصوب على التعظيم [2].

وأما ورود دال (رب) بدلًا من اسم الجلالة (الله) أو دال (إله)؛ لأن الخطاب لبني إسرائيل: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ (البقرة: 40). وكما قلنا في أكثر من موضع أن خطاب بني إسرائيل غالبًا ما يرد بدال (رب)؛ لشيوع هذا الدال في السياق الثقافي في تلك المرحلة من ناحية، ولتذكير بني إسرائيل بنعم الربوبية عليهم من ناحية أخرى. وهو المفهوم من قوله في الآية الكريمة (اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ)، التي تعني الجمع لا المفرد.

وفي الصورة **الأخرى** يرد دال (رب) في موقع المنصوب على التعظيم المحذوف لاسم الفاعل. فإذا أخذنا اسم الفاعل (المتقين) نموذجًا، فسنجد أنه يشتق منها الفعل الخماسي (اِتَّقَى). وهذا الفعل متعد، أي ينصب مفعولًا به. ولا تتم دلالة التركيب إلا بذكر المفعول به؛ فإذا قلتَ مثلًا: اتقى الإنسان، وسكتَ، فلابد أن تُسْأل: اتقى مَنْ؟.

عاشور ، التحرير والتنوير ، الجزء الأول: 480 ، 481 . وقد اخترنا بعض كتب التفاسير ؛ لاعتمادها على بعضها .

[1] انظر: النحاس ، إعراب القرآن: 39 .

[2] انظر: محمد حسن عثمان ، إعراب القرآن وبيان معانيه ، المجلد الأول: 118 . وانظر كذلك: محيي الدين الدرويش ، إعراب القرآن الكريم وبيانه ، المجلد الأول: 98 ، وبهجت عبد الواحد صالح الإعراب المفصل ، المجلد الأول: 58 ، ومحمود سليمان ياقوت ، إعراب القرآن الكريم ، المجلد الأول: 83 . وقد ذكرت محمد حسن عثمان في الصداره ؛ لقوله في عملية الإضافة: "من إضافة اسم الفاعل لمفعوله " ، أي دال (رب) المنصوب على التعظيم. بينما لم يذكر الآخرون هذا .

واسم الفاعل من الفعل (اِتَّقَى) هو (مُتَّقِي). وجدير بالذكر أن اسم الفاعل هذا، لم يرد في كتاب (الله) عز وجل نكرة، وإنما ورد بصيغة المعرف ب(ال)؛ ومن ثم فهو عامل في أي موضع من المواضع.

وإذا ذهبنا إلى كتاب (الله) عز وجل، وقرأنا قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ (الذاريات: 15) ([1]). وجدنا أن اسم الفاعل (المتقين) يعمل مطلقًا؛ لاقترانه ب(ال) الموصولة ([2]). ومن ثم فإذا عمدنا إلى عملية تفكيك بنية الخطاب، والرجوع بالتركيب اللغوي إلى وضعه التوصيلي، بعيدًا عن اللغة الإبداعية، فسيكون التركيب الأول هكذا: (إن الذين يتقون ربهم في جنات وعيون).فإن قيل: ولماذا قلتَ: إن المنصوب على التعظيم المحذوف يشغله دال (رب)؟ قلتُ: لقوله سبحانه وتعالى في الآية اللاحقة: ﴿آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ (الذاريات: 16). فلأنهم اتقوا ربهم، أخذوا ما آتاهم [*].

([1]) وانظر كذلك:سورة (الطور: 17) . وهذه مجرد أمثلة لا حصر .

([2]) انظر: سيبويه ، الكتاب، الجزء الأول: 181 ، 182، والمبرد ، المقتضب ، الجزء الثالث: 91 ، وابن السراج ، الأصول في النحو ، الجز ءالثاني: 223 ، وابن يعيش ، شرح المفصل ، الجزء الرابع: 84 ، وابن عقيل ، شرح ابن عقيل ، المجلد الثاني ، الجزء الثالث: 110. وكذلك: عباس حسن ، النحو الوافي ، الجزء الثالث: 254 .

[*] وهناك دوال أخرى كثيرة تسير وفق هذا الطرح ؛ منها مثلًا دال (المستغفرين) في قوله تعالى: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ (آل عمران: 17) . فدال (المستغفرين) اسم فاعل من الفعل السداسي (استغفر) ؛ ولأنه معرف ب(ال) فهو يعمل مطلقًا . فإن قيل: كيف نقدر المنصوب على التعظيم المحذوف؟ قلتُ: الاستغفار ورد مع اسم الجلالة (الله) ، ومع دال (رب) . أما **الأول** ففي قوله سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (البقرة: 199) . وانظر: سورة (آل عمران: 135) ، وسورة (النساء: 64) ، وسورة (المزمل: 20) . أما **الآخر** ففي قوله تعالى: ﴿ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ (هود: 3) وانظر كذلك: سورة (هود: 52 ، 90) ، وسورة (نوح: 10) .

وأما ورود دال (رب)، فهو من المناسبة بمكان؛ إذ يتضمن النعم التي وهبها (الرب) العلي لهؤلاء في الآخرة، جزاء على إحسانهم، وحسن عبادتهم له في الدنيا.

وفي إطار الفعل اللازم المتعدي إلى مفعوله بالصور السابقة: الهمزة، والتضعيف، وحرف الجر، نجد أن ثمة أفعالًا لازمة قد اشتق منها اسم فاعل نصب معموله بحرف الجر، سواء أكان ذلك من الفعل الثلاثي أو غير الثلاثي؛ فمن الثلاثي – على سبيل المثال – (تائب) ([1])، ومن الرباعي (مسلم)، و(مؤمن) ([2]) .

وبالتامل يدرك أن اسم الفاعل (مسلم) من الفعل الرباعي (أسلم)، وهو فعل يتعدى إلى معموله/ دال (رب) المنصوب عل التعظيم بحرف الجر(اللام). ولنقرأ قول (الله) سبحانه وتعالى، مخاطبًا سيدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة: 131).

وأما العدول عن الزمن إلى الاسم، فلكون الاسم يدل على ثبوت الدلالة ، وعدم الحاجة إلى تجددها، كما طرح عبدالقاهر الجرجاني من ذي قبل ([3]).

وكما ورد اسم الفاعل الذي يتعدى فعله إلى مفعوله بحرف الجر، وردت كذلك صيغ المبالغة التي تتعدى أفعالها إلى مفعولاتها بحرف الجر. ففي وزن (فعول) يرد قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾

ومن ثم فالأمر راجع لسياق الخطاب . وبالتأمل يدرك أن موضع سورة (آل عمران: 17) قد ورد في إطار دال (رب) لسبقه في الآية السابقة في قوله سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (آل عمران: 16) . وعلى هذا فقس .

([1]) انظر في اسم الفاعل (التائبون): سورة (التوبة: 112) ، وانظر في تعدي فعله (تاب) إلى معموله بحرف الجر (إلى) في إطار الربوبية: سورة (هود: 3 ، 52 ، 90) .

([2]) انظر: عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز: 174 ، 175 .

([3]) انظر في اسم الفاعل (المؤمنين) سورة (الأحزاب: 35) ، وانظر في تعدي فعله إلى معموله ب(الباء) في إطار الربوبية: سورة (آل عمران: 193) . وكل هذا على سبيل المثال ، لا الحصر .

(الإسراء: 27)([1]). ومن الواضح أن صيغة (كفور) تعمل عمل فعلها (كفر)؛ لوقوعها في منطقة المسند/خبر الناسخ (كان)، ودلالتها على الحال والاستقبال ([2]).

فإن قيل مع العلة في مجيء دال (رب) مع المبذرين؟ قلتُ: التبذير يكون من فرط النعمة وكثرتها؛ إذ لولا ذلك ما وجد المبذر ما يبذره. وكثرة النعم وسعة الرزق من عطاء الربوبية، الذي يشمل كل المخلوقات. ولما لم يُقَدِّرُ المبذر ذلك، ويستخدم نعم ربه في مواضعها المشروعة دون إفراط أو إمساك، اتساقًا مع قول (الله) سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ (الإسراء: 29)، فقد أوصله ذلك إلى الكفر بتلك النعم، بطاعتهم للشيطان فيما يغويهم به من مذمة التبذير.

وفي وزن (فَعِلٌ) يرد قوله تعالى:﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ (المؤمنون: 60). فدال (وَجِلَةٌ) صيغة مبالغة على وزن (فَعِلٌ)، والتاء للتأنيث، وهي عاملة عمل فعلها (توجل)؛ لوقوعها في منطقة خبر المبتدأ (قلوبهم)، ودلالتها على الحال والاستقبال.

والوجل يعني الخوف. والفعل (وجل) يتعدى إلى معموله بحرف الجر (من)؛ لقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ﴾ (الحجر: 52). أي أن التركيب اللغوي كان على هذا النحو: (وقلوبهم توجل من ربهم؛ لأنهم إليه راجعون). ومعنى هذا أن صيغة المبالغة (وجلة) رفعت فاعلًا مستترًا تقديره (هي) يعود على القلوب، وورد دال (رب) مع الجار ب(مِنْ) في منطقة المنصوب على التعظيم.

([1]) وانظر كذلك: سورة (الإسراء: 67) .

([2]) وقد فصلنا القول في عمل هذه الصيغة عند مجيئها مع اسم الجلالة (الله) سبحانه وتعالى ، وتناولنا فعلها (كفر) من حيث التعدي واللزوم . والكفر في هذه الآية هو كفر نعمة ؛ إذ إن المبذرين ليسوا كفار عقيدة . وإنما المبذر هو المسرف المفسد العائث . انظر: أبي عبيدة ، مجاز القرآن ، الجزء الأول: 374 . ويكمن الفرق بين هذا الموضع وموضع (هود: 9) ، في مجيء دال (رب) هنا . وهو ما نقوم بتحليله في المتن .

فإن قيل: ما علة ورود دال (رب) هنا؟ قلتُ: الآية وردت في سياق صفات المؤمنين، بداية من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ (المؤمنون:57). وقد ذُكِرَ دال (رب) في هذه الآيات الأربع أربع مرات، أي بمعدل مرة في كل آية. أي أن الهيمنة هنا لدال (رب). هذه واحدة.

الأخرى، أن السياق الخاص للآية يتناول إحدى صفات المؤمنين، المتمثلة في الإنفاق مما آتَوا، ولما كان الإنفاق متولدًا من نعم العطاء، وكان العطاء إحدى سمات الربوبية كان مجيء دال (رب) أبلغ. علمنا (الله) وإياكم.

4-الحركة الأفقية لدالي (رب - إله) في موقع المنصوب على التعظيم

إن التأمل في آيات الذكر الحكيم، يطلعنا على تحرك المنصوب على التعظيم أفقيًا ليرد قبل عامله / فعله. وفي هذا الإطار يرد دال (رب)مقدمًا على الفعل في قوله تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ (المدثر: 3).

من المعلوم أن بنية الخطاب هنا تتألف من مخاطِب هو الرب، ومخاطَب هو النبي ﷺ، وكل قارئي القرآن من المسلمين في شخص النبي ﷺ، ثم يلي ذلك الرسالة، المتمثلة في تعظيم (الرب) العلي، وذلك باختصاصه.

الطرح النحوي يقول: إن دال (رب) منصوب على التعظيم مقدمًا [1] لزمن الأمر (كَبِّرْ) *. ويدور التناول حول الحيثيات الآتية: علة ورود دال (رب)، ثم وظيفة الإضافة إلى (كاف) الخطاب العائدة إلى النبي ﷺ، وأخيرًا بلاغة التقديم.

---

[1] انطر: النحاس ، إعراب القرآن: 1219 ، والدرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه، المجلد الثامن: 125، وصالح: الإعراب المفصل ، المجلد الثاني عشر: 234 ، وياقوت ، إعراب القرآن الكريم ، المجلد العاشر: 4871 .

* ثم حديث طويل حول (الفاء) في قوله (فكبر) . يحسن الرجوع إلى المصادر والمراجع السابقة وغيرها ؛ منعًا للإطالة في شرحه .

أما ورود دال (رب) بدلًا من اسم الجلالة (الله)، أو دال (إله)، فله أسباب عدة: **أولها** أن اصطفاء الحق سبحانه وتعالى لنبيه الكريم ﷺ وإرساله لأمة جاهلة يعج بالشرك وعبادة الأوثان من صفات الربوبية التي تستوجب التعظيم.

ثانيها أن الدعوة تحتاج إلى تدريب وتربية وتنشئة من طراز خاص؛ لمواجهة صعابها ومخاطرها وتعنت المدعوين، وتحمل أذاهم...إلخ. ولما كانت كل تلك المعاني تخص مفهوم الربوبية، كان المجيء بدال (رب) أبلغ؛ إذ الرب العلي هو الذي ربَّى النبي ﷺ وهذبه ونشَّأه وحماه وعصمه...إلخ. وهذا المعنى هو ما دفع الإمام البقاعي أن يقول في (ربك):" أي المربي لك خاصة " ([1]).

ثالثها: أن سوق دال (رب) يبعث على الحفظ والصون والحماية للنبي ﷺ ومن ثم الطمأنة والتسرية والتلطف بهﷺ، وبخاصة أن هذا الخطاب كان في بدء الدعوة

أما الإضافة (الكاف) العائدة إلى حضرة النبي ﷺ فلم تبتعد كثيرًا عن عطاءات الربوبية، فهي تنويه إلى شأن هذا النبي الكريم ﷺ من ناحية، وإشارة إلى حفظ الرب له، وحمايته من هؤلاء، وأنه ناصره على أعدائه لا محالة من ناحية أخرى. وأعتقد أن هذا شأن تلك الصورة من الإضافة في آيات الذكر الحكيم.

أما بلاغة التقديم، فتتمثل في إفادة اختصاص الباري سبحانه وتعالى بالتعظيم والتكبير* وهنا يقول الزمخشري:"﴿وربك فكبر﴾ واختص ربك بالتكبير: وهو الوصف بالكبرياء"([2]).

---

[1] انظر: نظم الدرر ، الجزء الحادي والعشرين: 42 .

* هناك معاني كثيرة لدال (التكبير) سواء تمثلت تلك المعاني في (التعظيم) ، أو التكبير في الصلاة ، أو غيرها من المعاني السيميولوجية الأخرى . للتعرف على ذلك يحسن الرجوع إلى كتب التفاسير المتعددة للقرآن الكريم ؛ منعًا للإطالة .

[2] انظر: الكشاف ، الجزء الرابع : 633 . وشيخ زاده ، الحاشية على تفسير البيضاوي ، ج8: 390 وأبي حيان:البحر المحيط، الجزء الثامن: 362 ، والبقاعي: نظم الدرر ، الجزء الحادي

وإجمالًا يقول ابن عاشور: "﴿وربك فكبر﴾ انتصب (ربك) على المفعولية لفعل (كبر) قدم على عامله لإفادة الاختصاص، أي لا تكبر غيره، وهو قصر إفراد، أي دون الأصنام

و(الواو) عطفت جملة (ربك فكبر) على جملة (قم فأنذر) ، ودخلت (الفاء) على (كبر) إيذانًا بشرط محذوف يكون (كبر) جوابه، وهو شرط عام؛ إذ لا دليل على شرط مخصوص. وَهُيِّيء لتقدير الشرط بتقديم المفعول؛ لأن تقديم المفعول قد ينزل منزلة الشرط كقول النبي ﷺ (ففيهما جاهد) يعني (الأبوين). فالتقدير: مهما يكن شيء فكبر ربك " ([1]).

فإن قيل: هل ثمة ما يمكن أن يُساق هنا من عملية الرتب النحوية والوظائف الدلالية، كما سبق؟ قلتُ: نعم. فعملية التغاير بين الرتب النحوية والوظائف الدلالية ثابتة حتى مع تحرك الدوال المكونة للتركيب اللغوي تحركًا أفقيًا.

إن بنية التركيب المكونة للخطاب القرآني في تلك الآية الكريمة تبدو – نحويًا – على هذا الشكل: (ربك) منصوب على التعظيم + (فكبر) فعل + (أنت) فاعل.

إن التأمل في كل ما قدمناه من حيثيات المجيء بدال (رب)، يطلعك على الوظيفة الدلالية. ويمكن توضيح ذلك من خلال تلك الأسئلة، الخاصة بالحيثيات السابقة: مَنْ أرسل النبي ﷺ، ومَنْ رَبَّاهُ، ومَنْ حفظه، ومَنْ جعل خُلُقَه القرآن، ومَنْ عصمه من الناس، ومَنْ ومَنْ ومَنْ؟ إنه الرب العلي. هنا يبدو لك الأمر واضحًا؛ في أن الفاعل الدلالي هو المنصوب على التعظيم في التركيب محل الدراسة،

والعشرين: 42 ، وأبي السعود: إرشاد العقل السليم ، الجزء التاسع : 54 ، والألوسي: روح المعاني ، الجزء التاسع والعشرين: 116 .

[1] انظر: التحرير والتنوير ، الجزء التاسع والعشرين: 295 ، 296 . وقد يرد تقديم المفعول به على الفعل لأغراض أخرى . انظر في إجمال هذا فاضل السامرائي، معاني النحو، الجزء الثاني:85– 92 .

والفاعل النحوي في التركيب / سيدنا النبي ﷺ هو المنصوب على رفعة الشأن * في الوظيفة الدلالية. وللتوضيح كذلك نسوق هذا المثال بوصفه نموذجًا لما نطرحه. يقول (الله) تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ (النساء:79).

(ربك) منصوب على التعظيم + (فكبر) فعل + (أنت) فاعل.

(أَرْسَلْ) فعل + (نَا) فاعل + (كَ) منصوب على التكريم *

وقد يرد دال (رب) في منطقة المنصوب على التعظيم المقدم على فعله في صورة الضمير. وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿**وَإِيَّايَ** فَارْهَبُونِ﴾ (البقرة: 40). فإن قيل: لم أعدت الضمير (ي) إلى دال (رب)؟ قلتُ: صدر الآية يقول: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾، والنعم من سمات الربوبية، ناهيك عن تداول دال (رب) كما قدمنا في أكثر من موضع – في تلك الحقبة الزمنية.

* إذا كنتُ قد سقتُ ما قاله الأثاري في الاحترام مع (الله) جل في علاه في التعامل اللغوي ، بتعبيره (المنصوب على التعظيم) بدلًا من (المفعول به) ، كما مر بنا في هذا الكتاب ، وفي الكتاب الأول ، فإن تعبير (المنصوب على التكريم) الذي استخدمتُه هنا في جانب حضرة النبي ﷺ بدلًا من المصطلح النحوي (المفعول به) من وضعي أنا ، وأرجو من (الله) سبحانه وتعالى القبول .

* نكتفي ببنية الخطاب في هذه الآية الكريمة ، بوصفها نموذجًا توضيحيًا . وعلى هذا فقس . كما أنه جدير بالذكر أن دال (إله) لم يرد بلفظه في منطقة المنصوب على التعظيم المقدم على الفعل .

وبالتأمل الإعرابي، نجد أن إعراب (إيَّا) منصوب على التعظيم مقدم لفعل محذوف تقديره (ارهبوا)، لاستيفاء (ارهبونِ) بعده لمعموله ([1]). والتقديم هنا يفيد الاختصاص كذلك ([2]).

وإذا أردنا أن نضيف شيئًا إلى علة الاختصاص، علينا أن نعود إلى السياق، والتعرف على طبيعة المخاطَب. والعودة إلى السياق تحيلنا إلى أن المخاطَب هم بنو إسرائيل، وذلك في قوله تعالى في صدر الآية: ﴿يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾.ويستمر الخطاب في الآية التالية كذلك، معتمدًا على بنية التقديم في تقديم المنصوب على التعظيم (إيا) على عامله كذلك في اسم الجلالة (الله). ولنقرأ معًا: ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا **وَ إِيَّايَ فَاتَّقُونِ**﴾ (البقرة: 41).

ولما كان المخاطَب يتصف بصفات لا يغفلها عاقل؛ من نقد العهود والكفر والافتراء والجحود والنكران، وقتل الأنبياء، وإلباس الحق بالباطل...إلخ، حتى وُصِفُوا بأن قلوبهم أشد قسوة من الحجارة في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ

([1]) انظر: الزجاج ، معاني القرآن وإعرابه ، الجز ءالأول: 121 ، والنحاس ، إعراب القرآن: 37 ، والعكبري ، التبيان في إعراب القرآن ، القسم الأول: 57 ، ومحيي الدين الدرويش ، إعراب القرآن الكريم وبيانه ، المجلد الأول: 95 ، وبهجت عبد الواحد صالح ، الإعراب المفصل ، المجلد الأول: 54 . ومحمود سليمان ياقوت ، إعراب القرآن الكريم ، المجلد الأول: 78 ، ومحمد حسن عثمان ، إعراب القرآن وبيان معانيه ، المجلد الأول: 108 ، 109 . والنون في الفعل الثاني للوقاية ، ومعموله (ي) محذوف ؛ لأن أصل الفعل الثاني (فارهبوني) .

([2]) انظر: الزمخشري ، الكشاف، الجزء الأول: 134 . وانظر كذلك أبي السعود ، إرشاد العقل السليم: 95. والألوسي ، روح المعاني ، المجلد الثاني: 141 . وابن عاشور ، التحرير والتنوير ، الجزء الأول: 457 .

مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (البقرة: 74)، لما كان المخاطَب على هذا النحو، بل أكثر، جيء بالتقديم للتخويف والترهيب والزجر والوعيد، وسوء العاقبة إن هم خالفوا أوامر (الله) جل في علاه.

فإن قيل: كيف يخافون (الله) ويتقونه، وهم لا يؤمنون به؟ قلت: كفرهم ب(الله) ليس عن يقين داخلهم بعدم وجوده، أو عدم استحقاقه العبادة، ولكن عن كبر وتعنت بدليل ما حدث لهم من مظاهر تؤكد طلاقة القدرة الإلهية. ولنقرأ قول (الله) تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا * وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ (البقرة: 153، 154).

هذه المشاهد وغيرها، أكدت لهم بما لا يدع مجالًا للشك أن سيدنا موسى عليه السلام على الحق، وأن رسالته صادقة. وبإحيائهم بعد الموت ورفع جبل الطور فوق رؤوسهم، أيقنوا بطلاقة القدرة، لكن في أنفسهم. لذا فهم يعرفون (الله) حق المعرفة.وكأن بنية التقديم التي بُني عليها التركيب في هاتين الآيتين تقول لهم: (الله) الذي تعرفونه وتعرفون طلاقة قدرته، وما عساه أن يفعل بكم، بعد أن جربتم هذا رأي العين، ينبغي عليكم أن ترهبوه هو وتتقوه هو، وإلا فأنتم تعرفون. و(الله) أعلى وأعلم بمراده *.

فإن قيل: هل الأمر كما قلتَ في التغاير بين الرتب النحوية والوظائف الدلالية؟ قلتُ: نعم. علينا أن ننظر هذا المخطط من خلال الآية نفسها:

(إِيَّايَ) منصوب على التعظيم + (ارْهَبُ) فعل + (واو) فاعل

* جدير بالذكر أن دال (إله) لم يرد في منطقة المنصوب على التعظيم المقدم على فعله في صورة الضمير.

(أَنْعَمْ) فعل + (تُ) فاعل دلالي + (عَلَيْكُمْ) مفعول به دلالي

وخير ما يعبر عن هذه العملية اللغوية الإبداعية الخاصة باسم الجلالة (الله)، وبدال (رب)، وبدال (إله) قوله سبحانه وتعالى: ﴿ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ (الروم:4). والحاصل لكل هذا، بل المقصود منه، أنه أينما يرد اسم الجلالة (الله) أو دال (رب) أو دال (إله) في أي رتبة نحوية، فإنه هو الفاعل الدلالي في الأصل، سواء اتضح هذا من خلال التركيب موضع الدراسة، أو بتأويل في موضع آخر من آيات الذكر الحكيم *.

المبحث الثالث: دال (رب - إله) في موقع شبه الجملة المتعلق بالفعل

قد يكون تعلق شبه الجملة بفعل مقدم، أو مؤخر. وقد يرد دال (رب) أو (إله) بلفظه، أو بضمير. ولما كان الفرق بين اللفظ والضمير يتمثل في اختلاف السياق من حيث الإظهار والإضمار، وفق خصائص اللغة العربية، وهو ما أوسعناه تحليلًا، فستنصب دراستنا هنا على التعلق بالفعل من حيث تقدمه على الجار والمجرور، أو تأخره عنه. سواء ورد المجرور بلفظه أو بأحد الضمائر العائدة إليه.

---

* ولهذا التغاير بين الرتب النحوية التقعيدية والوظيفة الدلالية للدوال ، شرعت في دراسة تختص بهذا الدرس وحده دون غيره . وعنونت لهذه الدراسة (فلسفة النحو بين النظرية والتطبيق .قراءة في القرآن الكريم) . أعاننا (الله) على إخراجها بالوجه والنحو الذي يرضيه جل في علاه . أما الصور الأخرى لتقديم المنصوب على التعظيم ، مثل تقديمه على الفاعل مثلًا ، أو الفصل بينه وبين فاعله ، فلم توجد في التراكيب اللغوية التي ورد فيها دال (رب) ، ودال (إله) في منطقة المنصوب على التعظيم .

1-التعلق بالفعل المقدم

في هذه البنية يرد دال (رب) بلفظه في منطقة الجر متعلقًا بفعل مقدم، وذلك كما في قول (الله) تعالى: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ **إِلَى رَبِّي** لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ (الكهف: 36) ([1]).

إذا تأملنا الشق الإعرابي للجار والمجرور (إلى ربي) وجدناه يتعلق بالفعل(رُدِدْتُ)([2]). ودخولنا إلى تحليل جماليات الخطاب في منطقة القسم والفعل (وَلَئِنْ رُدِدْتُ) هو الذي يقودنا إلى التعرف على علة تقديم الفعل المتعلَّق به على المتعلِّق (الجار والمجرور).

وتبدو عناصر جماليات التركيب اللغوي (وَلَئِنْ رُدِدْتُ) في الآية السابقة في قول صاحب الجنة: ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ (الكهف: 35)، وكذلك في صدر الآية في منطقة العطف: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾. وفي دلالة الشك التي يحملها خطاب هذا الكافر يقول الزمخشري:" إخباره عن نفسه بالشك في بيدودة جنته: لطول أمله واستيلاء الحرص عليه، وتمادي غفلته، واغتراره بالمهلة، وإطراحه النظر في عواقب أمثاله " ([3]).

([1]) وانظر كذلك: سورة (البقرة: 258) ، وسورة (آل عمران: 43 ، 193) ، وسورة (الأنعام: 51) ، وسورة (الأعراف: 203) ، وسورة (الرعد: 5 ، 18) ، وسورة (الإسراء: 57) ، وسورة (الكهف: 38 ، 42 ، 87) . وغيرها . وأصحاب الجنتين هنا هما أخوان من بني إسرائيل: أحدهما كافر اسمه (قطروس) ، والآخر مؤمن اسمه (يهوذا) . وقيل: هما المذكوران في سورة (الصافات: 51) . انظر: الزمخشري ، الكشاف ، الجزء الثاني: 692 . وبنية الخطاب محل الدراسة هي مقول قول الكافر منهما .

([2]) انظر: بهجت عبد الواحد صالح ، الإعراب المفصل ، المجلد السادس: 385 ، ومحمود سليمان ياقوت: إعراب القرآن الكريم ، المجلد السادس: 2721 .

([3]) انظر: الكشاف ، الجزء الثاني: 694 .

ونستطيع أن نلمح مظهرًا لغويًا مهمًا، يتمثل في أن خطاب هذا الكافر يدور حول نفسه هو، يبدو هذا في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ (الكهف: 34). حيث ورد في منطقة الضمير: في موقع الجر (له، لصاحبه) وموقع الرفع / فاعل (قال، يحاوره)، والابتداء (هو، أنا). ثم في الآية الثانية في موقع الفاعل (قَالَ، مَا أَظُنُّ)، ثم في بنية الخطاب موضع الدراسة في موقع الفاعل كذلك (وَمَا أَظُنُّ).

هذا من ناحية المتحدِّث. ومن ناحية الدلالة فإن هذا الخطاب لا يحمل إلا معنى واحدًا وهو الشك في البعث ، للأسباب الذي ساقه الزمخشري، أو غيرها. وخطابه هذا، لم يتضمن الجهة المرجوع إليها في عملية البعث المشكوك فيها من أساسه. هذا هو العنصر **الأول** من عناصر جماليات التركيب.

ويمثل العنصر **الثاني** من عناصر تلك الجماليات في (الواو) في قوله: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾. يرى بعض النحويين أن (الواو) عاطفة [1]. في حين يراها آخرون أنها استئنافية [2]. لكن الأرجح أنها عاطفة؛ لأنها عطفت شَكًّا (وَلَئِنْ رُدِدْتُ) على شك (مَا أَظُنُّ، وَمَا أَظُنُّ)، ولم تخرج عن النطاق الدلالي للشك، حتى تكون استئنافية.

ويرد العنصر **الثالث** في (لام) القسم الداخلة على الشرط في (لَئِنْ)، وهي (لام) مؤذنة أو موطئة للقسم [3]. أي أن المتحدِّث يؤكد شكه بهذا القسم.

([1]) انظر: محيي الدين الدرويش ، إعراب القرآن الكريم وبيانه ، المجلد الرابع: 493 . ومحمود سليمان ياقوت: إعراب القرآن الكريم ، المجلد السادس: 2721 .

([2]) انظر: بهجت عبد الواحد صالح ، الإعراب المفصل ، المجلد السادس: 385 .

([3]) انظر: محيي الدرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه، المجلد الرابع: 493 ، وبهجت صالح: الإعراب المفصل ، المجلد السادس: 384 ، وسليمان ياقوت:إعراب القرآن الكريم، المجلد السادس: 2721 .

ثم يرد العنصر **الرابع** في تصدر (إِنْ) الشرطية لبنية هذا الخطاب. ومن المسلم به بلاغيًا أن (إِنْ) الشرطية تفيد الشك في المعاني المحتملة المشكوك في وقوعها[1]، وأن المتكلم لا يجزم بوقوع الشرط، مثل قول سيدنا عيسى عليه السلام في قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ (المائدة: 116). وسيدنا عيسى جازم بعدم وقوع قوله [2].

ثم يرد العنصر **الأخير** في بناء الفعل (رُدِدْتُ) للمجهول، الذي يعني حذف الفاعل؛ مما يزيد في دلالة الشك في البعث. ثم وقوع المتحدث مرة أخرى في موقع نائب الفاعل. وكما قلتُ من قبل، لم يذكر المتحدث الجهة المرجوع إليها.

واتساقًا مع كل ما سبق، كان المجيء بالمتعلَّق به (الفعل) - بما قد تضمنه من حديث المتكلم عن نفسه، ودلالة الشك في البعث، التي نهضت بهما جماليات اللغة، بداية من الآية 34، حتى هذا الموضع – أولًا من البلاغة بمكان؛ إذ هو الشاغل لذهن المتحدث، قبل الوصول إلى الجهة التي سيرد إليها، إن كان هذا الرجوع سيحدث من أساسه، وفق منطقه.

فإن قيل: لِمَ ساق دال (رب) ولم يسق اسم الجلالة (الله)، أو دال (إله)؟ قلتُ: لأن المتحدِّث كافر، و(الله) جل في علاه عندما أعطاه الجنتين، أعطاه بسمات الربوبية، وليس بسمات الألوهية؛ لكونه غير مؤمن به إلهًا. ومن ثم كان من الطبيعي أن يسوق الربوبية، وليس الألوهية.

([1]) انظر: ابن يعيش ، شرح المفصل ، الجزء الخامس: 113 .

([2]) انظر: الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، الجزء الرابع: 215 . وانظر ذلك بالتفصيل: فاضل السامرائي ، معاني النحو ، الجزء الرابع: 69 – 71 .

فإن قيل: إذا كان المتحدث كافرًا، منكرًا للبعث، فَلِمَ أضاف نفسه إلى دال (رب) في الجار والمجرور (إلى ربي)؟ قلتُ: مجاراة للحوار مع صاحبه، أي على افتراض أنني سأعود إلى ربي سأجد خيرًا منها منقلبًا *.

وأحيانًا أخرى يرد دال (رب) في موقع شبه الجملة (الجار والمجرور) في صورة الضمير متعلقًا بفعل مقدم. ولنأخذ مثالًا لذلك وليكن قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأعراف:143) (1).

والمتأمل في التركيب (أَنْظُرْ إِلَيْكَ، تُبْتُ إِلَيْكَ)، يجد أن الجار والمجرور (إليك) متعلق بالزمن (أَنْظُرْ، تُبْتُ)، وأن دال (رب) ورد في صورة ضمير المخاطب (الكاف). والآن نحن إزاء ثلاثة أسئلة: لماذا دال (رب) وليس اسم الجلالة (الله)، أو دال (إله)؟ ولماذا الضمير (ك)؟ وما العلة في سبق الزمن (أَنْظُرْ، تُبْتُ)؟

أما السؤال **الأول**، فجوابه أن دال (رب) كان من الدوال الأكثر دورانًا على لسان القوم إبان حقبة سيدنا موسى عليه السلام، كما بينا في أكثر من موضع. ولكون نعم الربوبية كانت من الكثرة بمكان على بني إسرائيل.

أما موضوع ورود دال (رب) – وهو الجواب **الثاني** - في صيغة الضمير؛ فلكونه تم ذكره في منطقة الإظهار مرتين، في قوله: (وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ)، فكان طبيعيًا أن يرد

---

* وهذا المسلك اللغوي ثابت في القرآن الكريم . مثلما فعل سيدنا إبرهيم مع قومه في مجاراته لهم في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (الأنعام: 76 - 78) ؛ ليثبت لهم في النهاية كفرهم وضلالهم ، ثم يتركهم: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام: 79) .

(1) وانظر كذلك: سورة (الأعراف: 156) .

- وفق نواميس العربية - في منطقة الإضمار. ولما كان المولى عز وجل هو المخاطَب / المنادَى في قول سيدنا موسى: (قَالَ رَبِّ أَرِنِي)، كان طبيعيًا - كذلك - أن يرتدي ضمير المخاطب (ك) لطبيعته الحضورية.

وإذا دققنا النظر–وهو جواب السؤال **الأخير** – في علة سبق الزمن الأول (أَنْظُرْ)، ألفينا أمرين: **الأول** أن حضور الذات العليا – وهو تعالى حاضر دائمًا – من الوضوح بمكان؛ إذ الميقات ميقاته (لِمِيقَاتِنَا)، وحديثه مع نبيه الكليم أيضًا من المسلمات؛ لأنه هدف الميقات.الأمر **الأخير**–وهو الخاص بالزمن–أن الجديد هو الرؤية والنظر، وليس في حضور الذات العليا؛ لكونها حاضرة دائمًا، ولا في الحديث؛ لكونه المراد.

وبمراجعة القراءة، يتحقق لك هذا من خلال شيوع الدوال المعبرة عن النظر والرؤية: (أَرِنِي - تَرَانِي - انْظُرْ - تَرَانِي - تَجَلَّى). فكان من فرط تشوق كليم (الله) عليه السلام رؤية رب العزة سبحانه وتعالى، أن انشغل بالرؤية ربما عن الحديث نفسه. فلما كان ذلك كذلك قُدِّمَ النظر (أَنْظُرْ) على المجرور (ك) القابع في موقع شبه الجملة العائد إلى رب العزة سبحانه وتعالى *.

وفي الزمن **الآخر** (تُبْتُ) تجد الأمر نفسه. فبعد أن طلب سيدنا موسى من (رب العزة) سبحانه وتعالى رؤيته في قوله: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾، وقال له (ربه) جل في علاه: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾، ووجهه إلى النظر إلى الجبل الذي سيشرف بتجلى أنوار الألوهية: ﴿وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾.

---

* وهذا ما انشغل به علامة العربية الشيخ عبد القاهر الجرجاني ، في عدم اقتناعه بأن يُقال في التقديم: قُدِّمَ للعناية ولأن ذكره أهم، من غير أن يُذكر من أين كانت تلك العناية؟ وبم كان أهم؟ انظر: دلائل الإعجاز: 108 . وكأن الشيخ يطلب من المتحدث عن بنية التقديم والتأخير أن يبين سبب تقديم ما قُدِّمَ ، وتأخير ما أُخِّرَ . وهو ما نحاول أن نفعله في كل دراسة نتعرض لها في إطار هذه النبية البلاغية المهمة ، والخطيرة في أداء المعنى .

فلما كان ما كان، ولم يتحمل الجبل النور الإلهي، وخر سيدنا موسى عليه السلام صعقًا، كان من الطبيعي أن تكون (التوبة) مِنْ طَلَبِ هذا مرة أخرى هي أول ما يتبادر إلى ذهن سيدنا موسى عليه السلام بعد إفاقته: ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ **تُبْتُ**﴾.

أما المتوب إليه، فهو معلوم من بداية الآية؛ إذ هو الفاعل الحقيقي: فهو المرسل لكليمه عليه السلام، وهو صاحب الميقات، وهو الآذن بالحديث، وهو غير الآذن بالرؤية...إلخ. فوجوده وظهور آثار أفعاله من الوضوح ومن المعلوم بالضرورة، أما الجديد فيتمثل في (التوبة)؛ نتيجة ما حدث في هذا المشهد العجيب. لذا كان التقديم في الزمن (تُبْتُ) *.

وفي تعلق دال **(إله)** - في منطقة شبه الجملة - بالفعل المقدم يرد قول (الله) تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ **فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ** مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ (غافر: 36، 37).

وبالتأمل، يدرك أن شبه الجملة (إلى إله) متعلق بالفعل(أطلع)([1]). فإن قيل: ما البلاغة في ذلك، وقد وردت بنية التركيب وفق النحو التقعيدي، أو على أقل تقدير على ما هو مشهور في النحو التقعيدي من تقدم الفعل المتعلَّق به على شبه الجملة؟

---

* من الوضوح بمكان أن الآية تشتمل على كثير من الجماليات الفنية للغة الإبداعية المعجزة ، وسيرد تحليل هذا بالتفصيل في الخطاب (الإلهي – النبوي) ، ولكننا هنا نسلط الضوء على موقع شبه الجملة وتعلقه بالفعل المقدم فحسب . ونقول هذا ؛ كي لا نتهم بالتقصير في عملية التحليل والتأويل . وجدير بالذكر أن دال (إله) لم يرد في هذه الصورة من بنية الخطاب حال كونه ضميرًا .

([1]) انظر: محيي الدين الدرويش ، إعراب القرآن الكريم وبيانه ، المجلد السادس: 575 ، وبهجت عبد الواحد صالح ، الإعراب المفصل ، المجلد العاشر: 265، وسليمان ياقوت، إعراب القرآن الكريم، المجلد الثامن: 4110 .

قلتُ –وبالله التوفيق -: إن تقديم الفعل على شبه الجملة له وجاهته من ناحيتين: **الأولى** أن تقديم الاطلاع الذي يعني النظر والرؤية يتسق مع النظرة المادية التي تربى عليها القوم، سواء أكان قوم فرعون، أم قوم سيدنا موسى من بني إسرائيل.

الأخرى – وهي مكملة للأولى – أن تأخير (إلى إله) يعني معرفته بالحقيقة، وأن سيدنا موسى ليس كاذبًا كما يدعي هو، ولما كان يرفض الحقيقة، ويتمنى ألا تكون، أخرها. كأنه يريد أن يتناساها.

ويبدو التأكد من معرفته للحقيقة من الفعل (أظن) الذي يشير إلى شكه في كذب سيدنا موسى عليه السلام. أي أن عملية تقديم الزمن المتعلَّق به على المتعلِّق هي عملية نفسية في المقام الأول والأخير، دلت – دون أن يدري فرعون – على صدق سيدنا موسى عليه السلام، وكفر فرعون وتعنته.

وأختلف مع ابن عاشور في أن (الظن) هنا مستعمل في معنى اليقين والقطع [1]؛ لأن الكفار والمشركين جميعهم على مدار التاريخ البشري يعرفون أنهم على باطل، لكنه الكبر والتعنت والعناد. ألم يقل (الله) سبحانه وتعالى في حق المخاطَب نفسه: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ * وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (النمل: 13، 14)؟ !!!.

أما مجيء دال(إله) فله سببان: **الأول** أن سياق الآيات الكريمة يدور حول العقيدة، مما يستدعي مفهوم الألوهية. فإن قيل: إذا كان ذلك كذلك، فلماذا لم يقل (الله)؟ قلت: كبرًا وتعنتًا وجحودًا وهروبًا من الحقيقة التي لا يمكن له أن يفر منها داخل نفسه بل تلاحقه في منامه، أنه مخلوق وليس إلهًا ولا ربًا.

ولقد لُحِظَ هذا الكبر والتعنت والغطرسة في اللحظات الأخيرة في مشهد الغرق: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ

([1]) انظر: التحير والتنوير ، الجزء الرابع والعشرين: 147 .

الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (يونس: 90). ولم يقل: آمنت ب(الله).

2- التعلق بالفعل المؤخر

في هذا الضرب من بنية التركيب في الخطاب القرآني، يرد دال (رب) متعلقًا بفعل مؤخر، وذلك كما في قول (الله) عز وجل: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ **إِلَى رَبِّهِمْ** يُحْشَرُونَ﴾ (الأنعام: 38) ([1]). والجانب الأعرابي يقول: إن الجار والمجرور (إِلَى رَبِّهِمْ) شبه جملة متعلق بالزمن (يُحْشَرُونَ) بعده ([2]).

وهنا يطرح سؤلان: الأول لِمَ ساق دال (رب)، ولم يسق اسم الجلالة (الله)، أو دال (إله)؟ الأخير: لماذا قدم الجار والمجرور (إِلَى رَبِّهِمْ) على الزمن (يُحْشَرُونَ)؟.

أما جواب السؤال **الأول**، فلكون الآية قد شملت كل المخلوقات من حيث الخلقة، سواء من يمشي منها على الأرض (دَابَّةٍ)، أو ما يطير بجناحين (طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ)، إضافة إلى بني البشر (أَمْثَالُكُمْ)، وكان (الله) جل في علاه (ربًا) لكل هذه المخلوقات؛ إذ هو (رَبِّ الْعَالَمِينَ)، كان المجيء بدال (رب) أبلغ.

أما علة التقديم؛ فلأن الحشر ثابت، وقائم، والموت يُرى رأي العين، لكل المخلوقات الحية، وإنما كان الاختلاف حول الجهة المحشور إليها، كان تقديم (إِلَى رَبِّهِمْ) أبلغ.

([1]) وانظر كذلك: سورة (الأنعام: 1 ، 150) ، وسورة (الأعراف: 154) ، وسورة (النحل: 54) ، وسورة (السجدة: 11) ، وسورة (يسن: 51) ، وسورة (الجاثية: 15) ، وسورة (المدثر: 7) ، وسورة (الشرح: 8) .

([2]) انظر:محيي الدين الدرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه، المجلد الثاني: 360 ، وبهجت عبد الواحد صالح، الإعراب المفصل ، المجلد الثالث: 214، ومحمود سليمان ياقوت، إعراب القرآن الكريم، المجلد الثالث: 1385 .

فإن قيل:إذا كانت المخلوقات الحية غير بني البشر تعبد (الله) وتقر بربوبيته مطلقًا، دون حاجة إلى تكليف، لقوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (الأحزاب: 72)، وهي بعد ذلك ليس لها حشر ولا حساب *، فَلِمَنِ التقديم؟

قلتُ: لبني البشر، المخاطب في دال (أَمْثَالُكُمْ)؛ فهم الذين وقع بينهم الخلاف في مسألة الموت والبعث والحساب، من حيث الفاعل. وعليك أن تقرأ قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾(الجاثية: 24)، وقوله تبارك وتعالى: ﴿قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ (المؤمنون: 82) ([1])، وقوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾(يسن: 78). وغير تلك المواضع.

ولما كان ذلك كذلك، وكانت عملية الفناء معلومة بالضرورة، وكان التشكيك في الجهة، كان تقديم (إِلَى رَبِّهِمْ) على الزمن (يُحْشَرُونَ) أَوْلَى.

فإن قيل: إذا كنا قد استبعدنا المخلوقات الأخرى غير بني البشر من عملية الحشر، وخصصناها على بني البشر، وبني البشر منهم المؤمن ومنهم الكافر، فإن ثمة أسئلة ثلاثة: **الأول** لماذا ساق دال (رب) ومن البشر من لم يؤمن به إلهًا؟ **الثاني**: ما فائدة التقديم للصنفين من بني البشر؟ **الأخير**: إذا كان بنو البشر هم المقصودون بعملية الحشر، المخاطَبون ب(كاف) الجمع في دال (أَمْثَالُكُمْ)، فَلِمَ عَدَلَ عن المخاطبة إلى الغيبة في (إِلَى رَبِّهِمْ)، ولم يقل (إلى ربكم)؟.

---

* يقول الزمخشري في ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾: " يعني الأمم كلها من الدواب والطير فيعوضها وينصف بعضها من بعض ، كما روي أنه يأخذ للجماء من القرناء " . انظر: الكشاف ، الجزء الثاني: 20 . وأرى أن هذا لا يعني طبيعة (الحشر) الذي سيشهده البشر ، وإنما سيق – إن وجد – بوصفه دليلًا على العدل المطلق بين البشر في هذا اليوم العصيب ؛ فغير الإنسان من المخلوقات الحية قد سُلِبَ العقل والتكليف .

([1]) وانظر كذلك: سورة (الصافات: 16 ، 53) ، وسورة (ق: 3) .

قلتُ: ساق دال (رب) لأن البشر كلهم مفطورون على الإيمان بتوحيد الربوبية، سواء مَنْ آمن به إلهًا، أو مَنْ لم يؤمن؛ فهو – كما قلنا - رب العالمين [1]. فهو الرازق والخالق والمنعم...إلخ. لكن الخلاف كان في توحيد الألوهية، فَكَفَرَ منهم مَنْ كفر. ولم ينفعه توحيد الربوبية في الآخرة.

أما فائدة التقديم، فهي تعني الطمأنينة والسعادة والفرح والحبور للمؤمنين؛ إذ الحشر إلى مَنْ آمنوا به (إلهًا) و(ربًا). وهؤلا ءالصنف من البشر هم الذين سيُقال لهم في ذاك اليوم: ﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ (الزخرف: 68).

ويمثل التقديم للصنف الآخر نوعين من الدلالة: دلالة الخوف والفزع؛ عَلَّهم يرجعون إلى (الله) سبحانه وتعالى، ويخافونه، ومن ثم يعبدونه، قبل الوصول إلى عملية الحشر، أو دلالة الندم والعض على الأنامل في الآخرة؛ إذ حُذِّروا من هذا في الدنيا في قرآن كان يُتْلَى على مسامعهم آناء الليل وأطراف النهار من يوم أن شرفت بطحاء مكه – بل الدنيا كلها – بنزوله إلى يوم أن ورث (الله) الأرض ومن عليها.

وهؤلاء الصنف من الناس يقال لهم توبيخًا وزيادة في الحسرة: ﴿ أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ (المؤمنون: 105).

ومن يقرأ هذا المقطع القرآن يرى كيف يعرض لنا حال الصنفين في الآخرة. يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ * فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ * أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ * قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ * رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ * قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ * إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ * فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ * إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ

---

[1] انظر: صالح بن فوزان الفوزان ، عقيدة التوحيد: 23 .

هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (المؤمنون: 101 – 110). وغير هذا المقطع كثير في كتاب (الله) عز وجل.

أما الانتقال من التخاطب إلى الغيبة؛ فلأنه لو قال (ربكم) لكان هذا يقتضي إيمانهم جميعًا بال(رب) (إلهًا)، ولمَّا لم يكن ذلك، حَرَمَ الكافرين منهم تشريفه إياهم بخطابه جل في علاه. أما المؤمنون منهم، فهم مكرمون عنده في غير موضع من القرآن.

فإن قيل: وهل شرَّفهم في خطابه (أمثالكم)؟ قلتُ: شرَّف المؤمنين منهم. أما الصنف الكافر فقد ورد خطابه بوصفه دليلًا على طلاقة القدرة في أن كل المخلوقات أمم أمثال بني البشر، أي أن هذا الخطاب ورد في سياق إيضاح طلاقة القدرة، وليس التشريف *.

وقد يرد دال (رب) في صيغة الضمير في موقع الجار والمجرور متعلقًا بالفعل المؤخر كذلك، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (المؤمنون: 79، الملك: 24)، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (هود: 34، الزخرف: 85).

والذي يفرق بين تلك المواضع وسابقتها، يتمثل في طبيعة الإظهار والإضمار. ومن الثابت أن المتحكم في هذا والموجه له هو السياق. فبالرجوع إلى سياق تلك المواضع يمكن التعرف على سبب الإضمار هنا. كما أن تقديم الجار والمجرور على الفعل المتعلَّق به، ينم عن بلاغة وإعجاز، كما قدمنا في التحليل الأخير. فعلى القارئ الكريم تتبع هذا في موضعه من آيات الذكر الحكيم *.

---

* في الآية تفاصيل كثيرة ، وبخاصة حول حشر المخلوقات غير بني الإنسان وحسابهم . يرجى الرجوع إلى كتب التفسير للاطلاع على هذا ، وجدير بالذكر أن كل ما طرحناه هنا في تأويل الآية في سياق الحديث عن بلاغة تعلق الجار والمجرور بالفعل المؤخر ، غير مثبوت في كتب التفاسير . هذا ، ولم يرد دال (إله) في تلك البنية التركيبية .

* لم يرد دال (إله) في تلك البنية التركيبية في صورة الضمير .

وبهذا الجزء من الدراسة، ينتهي تناولنا لدالي (رب، إله) في التركيب الزمني بكل رتبه النحوية المختلفة والمتعددة. ونرجو من (الله) العلي القدير أن نكون قد أفدنا القارئ الكريم في التعرف على بلاغة الدالين في بنية الخطاب القرآني في التركيب الزمني.

الخاتمة

هكذا، انتهى الكتاب الثاني (خطاب الله عن نفسه بدالي (رب، إله) من الجزء الأول (خطاب الله سبحانه وتعالى عن نفسه). وكما تعرفنا على بلاغة اسم الجلالة (الله) في بنية الخطاب القرآني في الكتاب الأول، استطعنا أن نتعرف على بلاغة دالي (رب، إله) في الكتاب الثاني.

وكان عمادنا في ذلك النحو والبلاغة والتفسير، إضافة إلى ما أشرنا إليه من مناطق مشتركة بين مناهج النقد الأدبي المعاصر والنقد العربي القديم. وحاولنا ألا نغرق القارئ في شرك المصطلحات النقدية الغامضة، واكتفينا بمجرد الإشارة؛ تيسيرًا لعلمية التحليل، وإيضاحًا للدراسة.

فمثلًا تناولنا المنهج السيميولوجي في إيضاح العلامة اللغوية لدالي (رب، إله)، كما بدا هذا المنهج جليا كذلك من خلال إضفاء مفسرينا العظام دلالات عديدة على الدال الواحد، مثل الفعل (تَأَذَّنَ): (الأعراف: 167)، ودلالات (سوء العذاب)، في الآية نفسها. وكل هذا مشرب بجماليات التلقي، باختلاف كل مفسر عن الآخر، من خلال أفق التوقعات، وملء فراغات النص.

كما بدا المنهج البنيوي واضحًا في تحليلنا لقوله تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ (الأعراف: 155).

ولم نغرق أنفسنا بالمصطلحات البنيوية، وإنما تركناها على سجيتها، لتبحر في النقد والبلاغة العربية، ثم أوضحنا في النهاية علاقة ما قمنا به بالمنهج البنيوي.

وكما فعلنا في الكتاب الأول، أظهرنا أثر التراث النقدي والبلاغي عند العرب في مناهج النقد الحداثي، وذلك من خلال ما قدمه عبقري العربية عبد القاهر الجرجاني من حديثه عن الدال المفرد، وعملية النظم، وحديثه عن بنية الحذف، والتقديم والتأخير...إلخ.

كما أننا أوضحنا العلاقة بين البنية التكوينية للخطاب في اللغة التوصيلية واللغة الفنية، عندما عمدنا إلى تفكيك بعض الخطابات، ثم قارنا بين بنية الخطاب في الوظيفة النفعية للغة والوظيفة الإبداعية الفنية.

وإذا كان منهج التلقي من الوضوح بمكان، من خلال ما قدمه مفسرونا من رؤى تجاه آيات الذكر الحكيم، فقد لحظ ضرب آخر من التلقي لا يقل أهمية عن الأول في إنتاج الدلالة القرآنية، وهذا الضرب هو المتمثل في تعدد وجهات النظر لدى علمائنا النحاة فيما هم بصدد إعرابه من دوال البنية التكوينية للخطاب؛ فكلا العِلْمَيْنِ: التفسير والنحو يتوقفان على بعضهما، ومن خلال تفاعلهما تُنْتَجُ الدلالة القرآنية، وتخرج إلى حيز الفهم، ومن ثم التنفيذ والتطبيق.

ومن الصعوبات التي واجهتني في الكتابين: **أولًا** أن الشواهد القرآنية التي تناولتها عناصر الدراسة في الكتابين كانت من الكثرة والاتساع بمكان. ومن ثم كنت أسوق شاهدًا واحدًا، محللًا إياه، وأحيل القارئ في الهامش إلى بقية الشواهد القرآنية التي تنتمي إلى العنصر محل الدراسة.

ومع ذلك، فإن فائدة ذلك تكمن في أن كل عنصر دراسي يصح ويصلح أن يستقل بدراسة منفردة؛ سواء أكان ذلك متمثلًا في بحث علمي، أم كتاب كامل.

ثانيًا: لم تقتصر الدراسة – في السفرين – على تناول اسم الجلالة (الله) سبحانه وتعالى، أو دالي (رب، إله) بألفاظهم فحسب، بل بالضمائر العائدة إليهم، مما ولد صعوبة شديدة في رصد تلك الضمائر على مدار التراكيب اللغوية التي ترد فيها، مختلفة الرتب النحوية.

على سبيل المثال، في المشتقات العاملة، كان عليَّ أن أرصد المشتقات التي تعمل عمل فعلها في اسم الجلالة (الله) سبحانه وتعالى، ودالي (رب، إله)، سواء في منطقة الفاعلية، أو في منطقة المنصوب على التعظيم. ولما كان معمول تلك المشتقات، غير ظاهر – في حالة الاستتار – احتاج ذلك إلى طويل تأمل؛ لإدراك المعمول.

ثالثًا: ضبطت نفسي قدر الإمكان في عدم الخوض في تفاصيل المناهج الحداثية في قراءة النص اللغوي؛ إيفاءً بما وعدت به المتلقي في مقدمة الكتاب الأول، واكتفيت بمجرد الإشارة إلى هذا المنهج أو ذاك في منطقة الهامش.

أخيرًا: إن مراجعة فهرس الكتابين، تدل على أن اسم الجلالة (الله)، ودالي (رب، إله) قد تمت دراستهم من خلال مائة وعشرين عنصرًا لغويًا. منها ستون في الكتاب الأول، ومثلهم في الكتاب الثاني.

فإن قال قائل: أليست العناصر متشابهة؟ قلتُ: نعم، لكن التشابه من ناحية أسماء العناصر الدراسية فحسب، أما شواهد الدراسة، ومضمون الخطاب، وجمالياته، واختلافه ما بين اسم الجلالة (الله)، ودالي (رب، إله) يفرض على الدارس أن يستعين بأدوات تحليلية قرائية تناسب البنية التكوينية للخطاب الذي يتناوله.

على هذا النحو، خرجت الدراسة في تسعمائة صفحة إلا صفحتين، حاز منها الكتاب الأول على خمسمائة وإحدى عشرة صفحة، والآخر على ثلاثمائة وسبع وثمانين صفحة، شاملة الرتب النحوية كلها التي شغلتها الدوال الثلاث: اسم الجلالة (الله)، ودالا (رب، إله).

وبعد ذلك وقبله، يعلم(الله) سبحانه أنني لم أدخر جهدًا في محاولة إيضاح الإعجاز في تكوين بنية الخطاب القرآني وأسلوبه. ونرجو من (الله) سبحانه وتعالى القبول.

ولا يمكن لي – ولا لغيري – أن يدَّعي الكمال لأي عمل بشري، فإن كنت قد أحسنت فيما قدمته في الجزء الأول بكتابيه، فـ(لله) الحمد والشكر، وإن كنت قد قصرت، فليغفر لي ربي، ولا يؤاخذني القارئ الكريم، عفا (الله) عنا جميعًا.

وبهذا الكتاب ينتهي الجزء الأول من هذه الدراسة الموسعة (بنية الخطاب في القرآن الكريم. التكوين والأسلوب)، على أن نبدأ – بإذن (الله) تعالى مستعينين بحوله، وقوته، ومدده، وعونه – في دراسة الجزء الثاني { الخطاب (الإلهي – الملائكي) }.

والله الموفق .

المحتويات

تقديم 4

التمهيد 7

أولا: (رب – إله) المفهوم: المعجمي - الدلالي 8

ثانيًا: (رب –إله) المفهوم السيميولوجي 12

الفصل الأول: (رب - إله) في التركيب الاسمي 15

المبحث الأول: (رب - إله) في موقع المبتدأ 17

1-(رب-إله) مبتدأ والخبر (اسم) 17

2- دال (رب - إله) مبتدأ والخبر (الذي) 41

3 – دال (رب – إله) مبتدأ والخبر جملة فعلية * 49

4- دال (رب- إله) مبتدأ مؤخر 53

5- دال (رب – إله) مبتدأ والخبر شبه جملة 55

المبحث الثاني: دال (رب - إله) ضمير في موقع المبتدأ 59

1-دال (رب - إله) ضمير مبتدأ (أَنَا)... 59

2– دال (رب - إله) ضمير مبتدأ (نحن)..... 65

3-دال (رب - إله) ضمير مبتدأ (أنتَ)..... 70

4- دال (رب - إله) مبتدأ ضمير (هو) 73

أ-دال (رب - إله) مبتدأ ضمير (هو) والخبر (اسم) 73

ب- دال (رب - إله) مبتدأ ضمير (هو) والخبر (الذي) 74

ج- دال (رب - إله) مبتدأ (هو) والخبر جملة فعلية 76

د- دال (رب - إله) مبتدأ (هو) محذوف 79

المبحث الثالث: دال (رب - إله) اسم للناسخ 82

-1دال (رب - إله) اسم (إِنَّ) و(أَنَّ)..... 82

2دال (رب - إله) ضمير متصل اسم (إنَّ) و(أَنَّ).....92
أ-ضمير متصل متكلم (ي)....92
ب- ضمير (نا) اسم (إنَّ) و(أَنَّ) 98
ج- دال (رب - إله) ضمير (ك) متصل اسم (إنَّ)و(أَنَّ) 101
د- دال (رب - إله) ضمير (ه) متصل اسم (إنَّ)و(أَنَّ) 106
3- دال (رب - إله) اسم (كان).....108
4- دال (رب - إله) اسم (ليس) 115
5- دال (رب - إله) اسم (عسى) 119
6- دال (رب - إله) اسم (ما) 123
7- دال (إله) اسم لا النافية للجنس 127
8- دال (رب – إله) ضمير مؤكّد.....128
المبحث الرابع: دال (رب - إله) في موقع الخبر.....138
المحور الأول: دال (رب - إله) في موقع الخبر المفرد 138
1-دال (رب – إله) خبر والمبتدأ اسم.....139
2-دال (رب - إله) خبر والمبتدأ اسم إشارة.....147
3-دال (رب- إله) خبر والمبتدأ (مَنْ - مَا) 154
4-دال (رب - إله) خبر والمبتدأ الضمير (أنا) 160
5-دال (رب - إله) خبر والمبتدأ الضمير (هو) 163
6-دال (رب – إله) خبر والمبتدأ (الضمير هو) محذوف.....168
7-دال (رب - إله) خبر الناسخ (إن).....181
8- دال (رب - إله) خبر الناسخ (ليس).....184
المحور الثاني: دال (رب - إله) خبر شبه جملة.....185
1- دال (رب - إله) خبر شبه جملة مؤخر 185

2-دال (رب - إله) خبر(شبه جملة) مقدم..... 196
3دال (رب - إله) خبر شبه جملة مقدم للناسخ (إنَّ - أَنَّ)..... 203
المبحث الخامس: دال (رب - إله) في موقع الجر 209
أولًا: المجرور بحرف الجر 210
التعلق في الموقع الاسمي 211
1دال (رب - إله) اسم في موقع المجرور بحرف الجر..... 211
2-دال (رب - إله) ضمير في موقع المجرور بحرف الجر..... 220
ثانيًا:. دال (رب - إله) في التركيب الإضافي..... 221
-1دال (رب - إله) اسم في موقع المضاف إليه 223
-2دال (رب - إله) ضمير في موقع المضاف إليه..... 231
-3تراكيب إضافية مشهورة..... 233
المبحث السادس: دال (رب - إله) في موقع التوابع 245
المبحث السابع: دال (رب – إله) في موقع النداء 290
المبحث الثامن: دال (رب – إله) في موقع الاستثناء..... 302
المبحث التاسع: دال (رب – إله) في موقع القسم 310
الفصل الثاني: دال (رب -إله) في التركيب الزمني..... 316
المبحث الأول: دال (رب -إله) في موقع الفاعل..... 318
1-دال (رب -إله) اسم في موقع الفاعل الظاهر 319
2- دال (رب - إله) ضمير في موقع الفاعل الظاهر 327
3-دال (رب - إله) في موقع الفاعل المستتر..... 335
4-دال (رب - إله) في موقع الفاعل المستتر للمشتقات..... 341
5- دال (رب - إله) في موقع الفاعل المجرور بحرف الجر الزائد..... 351
6-دال (رب - إله) في موقع الفاعل المحذوف..... 355

7-. الحركة الأفقية للفاعل 364

المبحث الثاني: دال (رب - إله) في موقع المنصوب على التعظيم 373

1-دال (رب، إله) اسم في موقع المنصوب على التعظيم 373

2- دال (رب - إله) ضمير في موقع المنصوب على التعظيم 380

3-دال (رب – إله) في موقع المنصوب على التعظيم للمشتقات..... 383

4-الحركة الأفقية لدالي (رب - إله) في موقع المنصوب على التعظيم 390

المبحث الثالث: دال (رب - إله) في موقع شبه الجملة المتعلق بالفعل..... 396

1-التعلق بالفعل المقدم..... 397

2- التعلق بالفعل المؤخر 404

الخاتمة..... 409

KINZY PUBLISHING AGENCY

Kinzypa.com

info@kinzypa.com

201122811065+

201122811064+